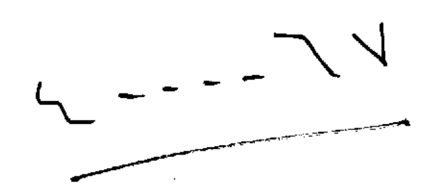
المملكة العربية السعودية
وزارة التعليم العالي
جامعة أم القرى
معهد البحوث العلمية
مركز البحوث الدراسات الإسلامية
مكة المكرمة

سلسلة بحوث الدراسات الاسلامية



الحياة العلمية في إفريقية

« المغرب الأدنى » منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري

« ٩٠ / ٤٥٠ هـ »

الجزء الأول

د / يوسف بن أحمد حواله
أستاذ التاريخ الإسلامي المشارك

١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م

(ح) جامعة أم القرى ، ١٤١٩ هـ .

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر .

حوالة ، يوسف أحمـــد

الحياة العلمية في افريقية (المغرب الأدنى) منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري : ٩٠/٤٥٠ هـ ـ مكة المكرمة .

٤٤٨ ص ٢٤ × ١٧ سم .

ردمك : ٨ ـ ٣٨٤ ـ ٠٣ ـ ٩٩٦٠

١ ـ التاريخ الإسلامي ٢ـ الحضارة الإسلامية ٣ ـ أفريقيا الشمالية ـ تاريخ أ ـ العنوان

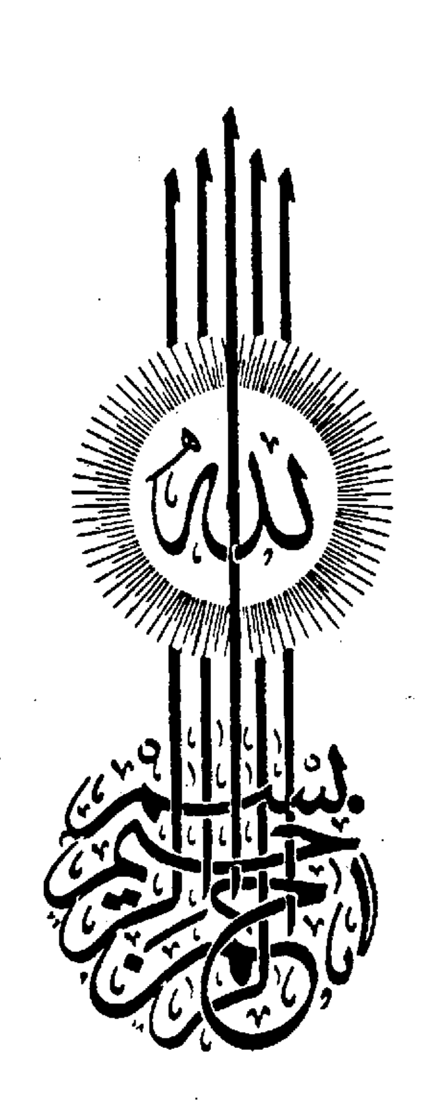
ديوي ٩٥٣,٠٧٢ ١٩ / ٠٥٠٤

رقم الايداع : ٠٥٠٤ / ١٩

ردمك : ٨ ـ ٣٨٤ ـ ٠٣ ـ ٩٩٦٠

الطبعـــة الأولـــى

حقوق الطبع محفوظة لجامعة أم القرى


بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله حمد الشاكرين والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين .

وبعد ..

فمذ وضعتني العناية الآلهية الكريمة في طريق التخصص في التاريخ الأندلسي ، وذلك باختياري : دولة بني عباد في أشبيلية - « دراسة سياسية وحضارية » موضوعا لنيل درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي ، وأنا أرنو ببصري إلى الكتابة في الشق الآخر وهو التاريخ المغربي ، الذي يشكل مع التاريخ الأندلسي ، ذلك التخصص الدقيق من التاريخ الإسلامي ، وهو تاريخ المغرب والأندلس . ومن هنا وجدتني أعمل الفكر في اختيار موضوع مناسب في تاريخ المغرب ، يكون هدفا للحصول على درجة الدكتوراة .

ولقد هداني البحث والتقصي إلى اختيار الموضوع الآتي :

« الحياة العلمية في المغرب منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري ٩٠ - ٤٥٠هـ » . وفي الحق فإن أستاذي المشرف الاستاذ الدكتور / أحمد السيد دراج كان يتلمس بحسه التاريخي الذي لاينكر صعوبة ، بل تعذر استقامة الموضوع من الناحية المنهجية والتاريخية على النحو الذي رغبت فيه . ولكنه لم يجد أمام تحمسي البالغ بُدّاً من الموافقة على ذلك .

بيد أنه وبعد استقراء معظم المصادر والمراجع المتعلقة بتاريخ المغرب-

في الفترة الزمنية موضوع الرسالة – تبين لي أن البحث في حاجة إلى تحديد يضمن له تحقيق الغاية المنشودة منه . فلقد اتضح لي أن المصادر والمراجع لاتركز إلاَّ على المغرب الأدنى وعواصمه السياسية والعلمية ، وذلك لأن المغرب الأدنى كان مركز النشاط السياسي والحضاري في عصر الولاة الأمويين فالعباسيين ، ثم في عصور الدول المستقلة : الأغالبة والفاطميين وبني زيري الصنهاجيين على التوالي ، علماً بأن المغرب الأدنى في العصر الإسلامي إنما يعني لدي معظم الجغرافيين والمسلمين : إفريقية ، وهي تشمل اليوم البلاد التونسية كلها ، وولاية طرابلس شرقا ، وغربا حتى بجاية في ولاية قسنطينة بالجزائر .

أما المغرب الأوسط ، فلم يكتب له أن يشهد نشاطا علميا إلاَّ بعد فترة من قيام دولة بني حماد الصنهاجية (تأسست سنة ٣٩٥هـ) . وحتى هذا النشاط العلمي كان محدود الأثر ، إذا ما قيس بالنشاط العلمي في المغرب الأدنى أو افريقية أو تونس على عهد أبناء عمومتهم بني زيري . وأما الدولة الرستمية التي تأسست مبكراً في سنة ١٦١هـ ، واتخذت مدينة تاهرت عاصمة لها ، فقد تمثل تأثيرها في النشاط المذهبي الإباضي فحسب ، وهو أمر بعيد عن دراستي وتخصص العلمي .

كما أن المغرب الأقصى لم يشهد استقراراً سياسياً وبالتالي نشاطاً علمياً يذكر في ظل دولة الأدارسة التي قامت به سنة ١٧٢هـ . ذلك أن الأدراسة انقسموا على أنفسهم بعد وفاة ادريس الثاني سنة ٢١٣هـ ، ودخلوا بذلك في صراعات ضد بعضهم بعضا ، علاوة على خروج الزناتيين

المتكرر عليهم ، الذين غلبت عليهم الهرطقات والبدع الدينية والفكر الخارجي على مذهب الصفرية . ولم يقدر للمغرب الأقصى أن يشهد استقراراً سياسياً وبالتالي نهضة علمية إلاّ بعد قيام دولة المرابطين في منتصف القرن الخامس الهجري ، ومن بعدهم دولة الموحدين . فجامع القرويين ، مركز النشاط العلمي هناك ، الذي تأسس عام ٢٤٥هـ ، لم يضطلع والمغرب الأقصى عموماً بدوره العلمي الريادي في بلاد المغرب إلاّ في عصر المرابطين فالموحدين . وكان ذلك بداية للمكانة العلمية التي تبوأها المغرب الأقصى حتى اليوم .

أما دولة بني اليسع أو بني المدرار الخارجية الصفرية التي كانت عاصمتها مدينة سجلماسه بالمغرب الأقصى ، فإنه يصدق عليها مايصدق على دولة بني رستم الإباضية فكلتاهما تمثّل تأثيرهما العلمي في النشاط المذهبي الخارجي وحده ، وفضلاً عن هذا وذلك فقد كان المغرب الأقصى مسرحاً للصراع بين الأمويين في الأندلس وبين القوى المحلية بالمغرب الاقصى ، فقد كانت السيادة فيه تتأرجح بين الجانبين . وعندما قامت الدولة الفاطمية في إفريقية عام ٢٩٦هـ ، استمر ذلك الصراع : دون أن يقدر للمغرب الأقصى أن تظهر شخصيته المستقلة التي تهئ المناخ الصالح للحياة العلمية وغيرها .

وإذ تمثلت هذه الحقائق أمامي ، فقد تقدمت مزوداً بموافقة أستاذي المشرف إلى مجلس الدراسات العليا التاريخية والحضارية بطلب الموافقة على تحديد موضوع الرسالة لتقتصر على المغرب الأدنى . وجاءت الموافقة

الكريمة ليصبح الموضوع بعد التحديد : « الحياة العلمية في إفريقية - المغرب الأدنى - منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري ٩٠-٤٥٠هـ » .

ولقد جاء اختياري للحياة العلمية في إفريقية - المغرب الأدنى - في الفترة الزمنية مدار الاهتمام موضوعاً لرسالة الدكتوراة ، نابعاً من الأحساس بأهمية التاريخ لهذا الجانب الحضاري للأمم . فغير خاف أن النشاط العلمي هو من أكثر جوانب النشاط الإنساني إشراقاً وتألقاً . هذا شئ ، والشئ الثاني ، هو أن التأريخ للحياة العلمية في إفريقية لم ينل حقه من البحث والدراسة الكافيتين . فمن المعلوم أن المؤرخين القدامى لم يعنوا إلاَّ بالتاريخ السياسي والعسكري للدول والمدن والأسرات الحاكمة ، وحده تقريبا . وبالطبع فإن هذا لايمنع أن ترد مادة علمية عن التاريخ الحضاري ، ومن بينها تاريخ العلوم في ثنايا كتاباتهم ، لكنها كانت ترد عرضاً دونما استقراء تحليلي تاريخي يهدف إلى إبراز ذلك الجانب بالصورة التي نبحث عنها اليوم . وهذا ينطبق أيضاً على كتب التراجم والطبقات - ولكن مع الفارق بالطبع -، فعلى الرغم من النصوص ذات الأهمية البالغة للحياة العلمية التي تحتويها كتب التراجم والطبقات تلك إلاَّ أننا عبثاً نحاول أن نجد فيها - وهو منهج مألوف آنذاك -، استقراءاً تاريخيا يعتمد المنهجية العلمية في التحليل والتعليل والاستنتاج والاستنباط .

أما الشيء الثالث الذي دفعني إلى اختيار موضوع الحياة العلمية في إفريقية خلال تلك الفترة فهو الشعور بأن الاهتمام بالتأريخ لحركة العلوم

والمعارف لم ينل حقه من البحث والدراسة من قبل الباحثين المحدثين ، سواء فيما يتعلق بالدراسات المتخصصة أو حركة التأليف والرصد العادية . فهناك كثير من جوانب النشاط العلمي مازالت بحاجة إلى البحث والدراسة . وفي الحق فإن التأريخ للعلوم والمعارف لم يكن وحده الذي لم ينل حقه من البحث والدراسة الكافيتين من قبل المحدثين وخاصة المغاربة ، وإنما مجمل الدراسة المغربية بشقيها التاريخي والحضاري كانت كذلك ، بعكس الدراسات الأندلسية التي نالت حظاً عظيماً من البحث والدراسة . وكان الاهتمام بها أسبق دون ريب من الدراسات المغربية التي لم يبدأ الاهتمام بها بصورة واسعة إلا متأخرا أي منذ ما ينيف على ربع قرن .

لكن الملاحظ أن الباحثين المحدثين من المغاربة ، والتونسيين منهم على وجه الخصوص ، قد انصرف اهتمامهم إلى بعض جوانب من الدراسات المغربية ، فأوسعوها بحثاً ودراسةً ، في حين بقيت جوانب مهمة بعيدة عن ذلك الاهتمام . ففيما يتصل بالدراسات التي تخص إفريقية ، وجدنا اهتماماً كبيراً بالدراسات التاريخية . فلقد كتب الكثيرون منهم مؤلفات جمة بمنهجية علمية رصينه ، أفدت منها دون شك ، كما يتضح في تضاعيف الرسالة ، وأسهم بعض الباحثين المشارقة في التأليف في هذا الجانب بمؤلفات قيمة ، افدت منها هي الأخرى .

وبجانب ذلك وجدنا اهتماماً ببعض مظاهر النشاط الحضاري ، كالجوانب الاقتصادية والاجتماعية والإدارية والعمرانية . فقد ألف الباحثون التونسيون عدداً من المؤلفات القيمة ، وشارك بعض الباحثين المشارقة في

ذلك ، وهي مؤلفات قيمة أفدت منها كثيراً في ثنايا الرسالة .

غير أن النشاط العلمي لم يحظ إلا بقدر ضيل من الاهتمام . وحتى ذلك القدر كان مكرساً لجانب واحد من جوانب النشاط العلمي أعني بذلك النشاط الأدبي فلقد خطى النشاط الأدبي بقدر وافر من الاهتمام من قبل التونسيين وبعض المشارقة ، وظهرت بالتالي مؤلفات علمية جيدة ، نذكر منها على سبيل المثال الكتاب الذي كتبه الشاذلي النيفر بعنوان : عنوان الأريب عمّا ظهر في المملكة التونيسية من عالم وأديب ، والكتابين اللذين كتبهما أبو القاسم كرو وعبد الله شريط : شخصيات أدبية من المشرق والمغرب ، وعصر القيروان ، وكتب محمد العروسي المطوي : سيرة القيروان – رسالتها الدينية والثقافية في المغرب الإسلامي – وكتب حسن حسني عبدالوهاب : منتخبات من الأدب التونسي ، كما احتوت موسوعته : ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية على قدر كبير من الحديث عن الحياة والحركة الأدبية في إفريقية ، وكذلك احتوى كتابه : بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق على معلومات وفيرة عن الحركة الأدبية .. الخ . ولقد كتب بعض من الباحثين المشارقة عدداً من المؤلفات الأدبية ، فكتب محمد عبدالمنعم خفاجي : قصة الأب في ليبيا ، وكتب محمد طه الحاجري : دراسات وصور من الحياة الأدبية في المغرب العربي ، وكتب ابراهيم الدسوقي جاد الرب : شعر المغرب حتى خلافة المعز ، وكتب عبده عبدالعزيز قلقيلة : النقد الأدبي في المغرب العربي .. الخ .

و كتب بعض آخر من التونسيين سلسلة من المؤلفات اتخذت من بعض

الشخصيات الأدبية موضوعاً لها . فكتب محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى كتاباً بعنوان : أبو الحسن الحصري القيرواني . وكتب عبد الجبار الشريف وعلي دب كتاباً عن ابراهيم الحصري صاحب زهر الآداب وثمر الألباب ، وكتب المنجي الكعبي كتابين : النهشلي القيرواني، والقزاز القيرواني . وكتب الهادي مصطفى التوزري كتاباً عن الأديب الإفريقي عبدالله الشقراطسي بعنوان : أعلام الافارقة (عبدالله الشقراطسي) .. ومن الباحثين المشارقة آلف عبدالرحمن ياغي كتاباً هو : حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها ، وألف عبدالرؤوف مخلوف كتاباً هو : ابن رشيق ونقد الشعر ، وبالإضافة إلى هذه المؤلفات ، هناك العديد من البحوث والمقالات الأدبية في المجلات العلمية التونسية وغيرها .

وهذه المؤلفات التي أشرنا إليها ، وكذلك البحوث والمقالات المختلفة التي رجعنا إليها واثبتناها في قائمة المصادر والمراجع على قيمتها العلمية التي لاتنكر ، والتي أباحت لنا الأخذ عنها حتى الإعتراف ، تقتصر أهميتها على الحياة الأدبية أولا ، وعلى إبراز جوانب الحياة الأدبية في القيروان وحدها ثانياً تقريباً .

ومع أن التأريخ للحياة الأدبية يحتل حيزاً مهماً وجليلاً من رسالتي ، إلا أنه ليس إلاَّ جانباً أو حقلاً من حقول الحياة العلمية ، كما هو معروف ، هذا مع الأخذ في الاعتبار أن الدراسات المتخصصة الأكاديمية تختلف اختلافاً بيِّناً عن المؤلفات العادية ، مع أخذها بالمنهج العلمي . ففيما يتصل بنا نحن هنا ، فإن تناولنا للحركة الأدبية يندرج داخل الإطار العام للحياة

العلمية بإفريقية خلال الفترة موضوع الاهتمام . ذلك الإطار الذي يستهدف التأريخ للحياة العلمية وملاحظة خطواتها في تقدمها أو تعثرها ، والظروف المحيطة المؤثرة فيها ، وما يجر ذلك إلى اكتشاف غلبة جانب من جوانب الحياة العلمية على جانب ، والاسباب الموضوعية لذلك ، بتقصٍ ، وتحليل علمي يأخذ في اعتباره ظروف الزمان والمكان والشخوص والأنظمة السياسية .. الخ . دون الغوص في تفاصيل الحركة الأدبية ذاتها .

وبدهى أن ماينطبق على الحركة الأدبية ، ينطبق على بقية العلوم الأخرى .

وإذا كنا محظوظين تجاه ذلك الفيض من المعلومات التي تحمله لنا تلك المؤلفات ، والتي أنارت لنا السبيل للحديث عن الحركة الأدبية خلال الفترة موضع الاهتمام ، فإننا نستغرب بدهشة ممزوجة بالأسى ألاّ تنال الدراسات الشرعية أو حركة العلوم الشرعية حقها من التنويه والإشارة ، ولاسيما وهى المظهر الرئيسى للنشاط العلمي في إفريقية وقتذاك ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى كيف لاتلقى الدراسات الشرعية العناية المطلوبة ، وهي التي لا تقل أبدا : ازدهاراً كماً ونوعاً عن مثيلاتها في بقية الأمصار الإسلامية الأخرى ؟ .

إننا نفتقر في الحقيقة إلى مؤلفات حديثة تتناول بالتحليل والتقصي حركة تطور العلوم الشرعية وانتشارها في إفريقية - المغرب الأدنى - آنذاك، وتتحسَّس الأسباب الموضوعية التي أدت إلى أن تحتل الدراسات

الشرعية تلك المكانة البارزة من النشاط العلمي . نعم نستدرك فنقول بأن كتب التراجم والطبقات التي ألَّفها المغاربة وخاصة الإفريقيين قد ألقت الضوء على نشاط حركة العلوم الشرعية ، ولربما وجد الباحثون في ذلك الكفاية . لكن تلك المؤلفات في الحقيقة كانت تقدم لنا المادة العلمية الغزيرة دونما بحث وتعمق في الظروف والملابسات والأسباب المؤثرة والمتأثرة .. الخ. ونستدرك ثانية فنقول بأن ثمة مؤلفات عالجت بعض جوانب الدراسات الشرعية مثل كتاب : المدرسة القرآنية في المغرب لمحمد عبدالسلام الكنوني ، ومثل كتاب : الإمام المازري لحسن حسني عبد الوهاب ، وكتاب : التفسير ورجاله لمحمد الفاضل بن عاشور ، وغير ذلك من المؤلفات التي لم يقدر لنا الإطلاع عليها . ولكن هذا أوذاك ليس كافياً إلى الحد الذي يوضح طبيعية تلك الدراسات التي كانت دون ريب أهم مظهر علمي للحياة العلمية كما أسلفنا . (١)

وصفوة القول إنه تراءى لي أن كثيراً من جوانب الحياة العلمية الإفريقية بحاجة إلى توضيح أكبر والكشف عن مكنوناتها . ومن هنا فقد تصديت لدراسة الحياة العلمية بكل أوجهها في إفريقية – المغرب الأدنى – منذ إتمام الفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري ، ولعلى أحسب بأن هذا الموضوع بشكله الذي قصدته لم يكن موضوع دراسة أكاديمية متخصصة من قبل . نعم هناك رسائل علمية – حسبما هدانا إليه جهد

---

(١) هذا القول مضى له نحواً من ١٠ سنوات ، وبالطبع فقد ظهر خلال هذه المدة من السنين كم من المؤلفات لباحثين مغاربة ومشارقة على السواء .

التقصي –، قد تناولت بعض جوانب الحياة العلمية في إفريقية في الفترة الزمنية موضع الاهتمام مثل رسالة الدكتوراة التي أعدّها الباحث المصري محمد محمد شتا زيتون بعنوان : الحياة الفكرية في القيروان منذ نشأتها حتى رحيل الفاطميين إلى مصر ٣٦٢ هـ . غير أن هذه الرسالة التي ماتزال مخطوطة لم تنشر ، لم يتح لنا الإطلاع عليها ، ومن جهة أخرى فهي كما يبدو من عنوانها تؤرخ للحياة الفكرية في القيروان فقط حتى نهاية العصر الفاطمي (١) .

كما أن الباحث السيد محمد أبو العزم داود أعد رسالته للدكتوراة عن : الأثر السياسي والحضاري للمالكية في شمال إفريقيا حتى قيام دولة المرابطين . وهي رسالة جيدة نشرت حديثا ، لكن الواضح أن الصراع السياسي بين المذهب المالكي والمذاهب الكلامية ، والدينية السياسية قد استحوذ على جل صفحات الرسالة ، علاوة على مداها الجغرافي الذي شعل المغرب كله .

وأعد الباحث التونسي الشاذلي بويحى رسالة علمية بعنوان : الحياة الأدبية في إفريقية في عهد بني زيري ٣٦٢-٥٥٥هـ /٩٧٢- ..١١م للحصول على درجة الدكتوراة في الأدب . وقد طبعت في تونس باللغة الفرنسية عام ١٩٧٢م

غير أن هذه الرسالة كما يدل عنوانها تتحدث عن الأدب والقضايا الأدبية في إفريقية آنذاك من منظور أدبي صرف ، فضلاً عن اقتصارها

(١) ظهرت هذه الرسالة مطبوعة طبعتها الأولى سنة ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨ م ، وقد نشرتها دار المنار للنشر والتوزيع بالقاهرة .

على العصر الزيري وحده .

كما أعد الباحث الليبي صالح مصطفى مفتاح رسالة بعنوان : برقة وطرابلس من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر ، وذلك للحصول على درجة الماجستير في التاريخ من كلية الآداب جامعة القاهرة عام ١٩٦٣م . غير أن هذه الرسالة وهي عبارة عن دراسة سياسية وحضارية تقتصر على ليبيا وحدها .

هذه الرسائل العلمية التي أفدت من بعضها، تناولت كما يتضح من عناوينها بعض جوانب الحياة العلمية وليس كلها ، كما أنها اقصرت في البعض منها على منطقة أو عصر من العصور التي تصديت لها .

بقي أن أشير إلى أن السبب الذي حدا بي إلى اختيار الإطار الزمني للرسالة على النحو الذي حُدِّد آنفاً كان منسجماً علمياً وتاريخياً مع ذلك الإطار . إذ لا يخفى أن الحياة العلمية آنذاك تمشَّت في تدرج طبيعي حتى وصلت ذروة تقدمها في منتصف القرن الخامس الهجري في كثير من جوانبها المتعددة . أما بعد منتصف القرن الخامس الهجري فقد توقف النشاط العلمي مؤقتاً على إثر غزوات بني هلال ، ودخلت إفريقية مرحلة التفتت والضعف ، وظهرت دويلات الطوائف فيها حتى أذن الله للبلاد أن تستعيد مجدها العلمي بعد ذلك بقيام الدولة الحفصية .

أما فيما يتصل بخطة البحث فقد بدا لي أن تتكون من تمهيد ، ثم قسمين . أما التمهيد فقد رأيت اقتضاءً للسياق المنهجي أن يكون من فقرتين

الأولى بعنوان : مدلول لفظ إفريقية (المغرب الأدنى) جغرافيا وتاريخيا لما لذلك من أهمية في تحديد الإطار الجغرافي الذي نشأت على أديمه الحياة العلمية التي أؤرخ لها . والفقرة الثانية من التمهيد بعنوان : عرض موجز للأحوال السياسية في افريقية (المغرب الأدنى) في الفترة الزمنية موضوع الرسالة ، وهو إطار مهم يبحث من مقدار تأثير الأوضاع السياسية في مسيرة الحياة العلمية سلباً وايجاباً .

ولقد دعتنا طبيعة الحياة العلمية ومسيرتها في افريقية آنذاك إلى أن نجعل الحديث عنها منقسماً إلى قسمين : قسم أول بعنوان : دراسة لأهم مظاهر النشاط العلمي في إفريقية ، والقسم الآخر بعنوان : النشاط العلمي في إفريقيه .

أما القسم الأول فقد جهدنا أن نتتبع فيه المسبِّبات التي هيأت المناخ الصالح للتقدم العلمي ، وكذلك البحث في الوسائل التي ازدهرت وتقدمت الحياة العلمية بها ومعها في إفريقيه . وهكذا آثرنا أن يكون هذا القسم من ثلاثة فصول : الفصل الأول وعنوناه بالعنوان الآتي : عوامل ازدهار الحياة العلمية في إفريقية . ولقد تحدثنا فيه عبر نقاطه الأربع عن الخاصية العلمية للفتح الإسلامي ، ثم جهود الفاتحين والولاة في نشر الإسلام والثقافة الاسلامية في إفريقية ، فالرحلات العلمية وأثرها في تقدم العلوم ، وأخيرا أثر قيام الدول المستقلة في النشاط العلمي .

واخترنا للفصل الثاني عنواناً هو : المراكز العلمية الرئيسية في إفريقية . وقد تعرضنا من خلاله للدور الذي اسهمت به بعض المدن والاقاليم

الرئيسية في الازدهار العلمي مثل : القيروان ورقادة ، والمهدية ، وتونس ، وإقليم الجريد ، ثم إقليم طرابلس ، وغير ذلك من المدن العلمية الأخرى .

ولما كانت كثير من الجهود العلمية في إفريقية في الفترة موضع الاهتمام قد نشطت عبر قنوات علمية مهمة ، فقد آثرنا تلك القنوات بالفصل الثالث واخترنا عنوانه هكذا : وسائط الثقافة في إفريقية . ولقد قصدنا بالوسائط : المساجد ، والكتاتيب ، والرباطات ، والمكتبات العامة والخاصة وهي وسائط فعالة نشطة ذات أثر مباشر في تقدم الحياة العلمية كما هو معروف .

أما القسم الثاني الذي خصصناه للحديث عن النشاط العلمي في إفريقية فيتناول بالدراسة : الدراسات الشرعية ، والأدبية والإنسانية ، والطبيعية في إفريقية وقتذاك .

وحيث قد تكشَّف لنا بجلاء أن الدراسات الشرعية هي جوهر الحياة العلمية في إفريقية في الفترة الزمنية موضع الاهتمام فقد دعانا ذلك إلى أن تستغرق منا هذه الدراسات ثلاثة فصول من هذا القسم .

أما الفصل الأول فقد خصص للحديث عن انتشار المذهب المالكي في إفريقية ومكانته بها وهو فصل مهم يوضح الدور الذي أسداه المذهب المالكي لحركة الدراسات الشرعية في إفريقية . وقد تناولنا الحديث فيه عن نشأة المذهب المالكي نفسه من الوجهة التاريخية والفقهية ، ثم حالة الدراسات الشرعية في إفريقية قبل دخول المذهب المالكي ، ثم انتشار المذهب المالكي

في المغرب الأدنى : أدواره ، وأسبابه ، ثم المكانة التي احتلها المذهب المالكي في قلوب وعقول وأفكار الإفريقيين ، وأخيراً اقتضانا المنهج الموضوعي أن نلم بأوضاع بقية المذاهب الفقهية الأخرى في إفريقية لما لذلك من ارتباط وثيق بحركة تطور الدراسات الشرعية .

والفصل الثاني من الدراسات الشرعية أفردناه برمته للحديث عن العلوم الشرعية : الفقه والحديث وعلوم القرآن ، وقد سرنا في هذا الفصل وفق اتجاهين اثنين : إتجاه يرمى إلى ابراز العلوم الشرعية في تدرج زمني يأخذ في اعتباره واقعها الكمي والنوعي في ظل العصور السياسية الأربعة التي تعاقبت على حكم إفريقية ، وهي : عصر الولاة ، عصر الاغالبة ، عصر الفاطميين ، ثم العصر الزيري .

والإتجاه الآخر يسعى إلى إبراز دور بقية مدن وأقاليم إفريقية في تلك العلوم الشرعية خلال العصور السياسية أنفة الذكر .

أما الفصل الثالث في هذه الدراسات الشرعية فقد عالجنا فيه موضوعاً علمياً شائقاً كما نحسب ، وهو إلقاء الضوء على ما اكتسبته الحياة العلمية من فوائد لذلك الصراع المذهبي الذي هبت رياحه بين المالكية والمذاهب الكلامية كالمعتزلة والمرجئة وغيرهم من جهة ، والمذاهب الدينية السياسية : الخوارج والشيعة من جهة أخرى . وهكذا فقد كان عنوان هذا الفصل الثالث : الأثر العلمي للصراع المذهبي في إفريقية .

وأعقب الدراسات الشرعية ، الدراسات الأدبية ، وقد حظيت بالفصل

الرابع . ولقد جاء حديثنا عن مفرداتها : النثر ، والشعر واللغة والنحو منسجماً وما ذهبنا إليه في الدراسات الشرعية من حيث التدرج الزمني الكمي والنوعي من ناحية ، ومن حيث إبراز دور بقية مدن وأقاليم إفريقية الأدبي من ناحية أخري .

واستأثرنا الدراسات الانسانية : الجغرافيا ، والفلسفة والتاريخ بالفصل الخامس . وقد سرنا خلاله في نفس الاتجاهين السابقين في الدراسات الشرعية والأدبية .

وأخيراً يتناول الفصل السادس الدراسات الطبيعية بشقيها : الطب والصيدلة ، والفلك والرياضيات على ذات النسق الذي سرنا عليه فيما سلف من مظاهر الحياة العلمية الإفريقية .

وبعد هذا العرض لقسمي الرسالة – والتمهيد من قبل – وفصول كل قسم يجدر بنا أن نلفت نظر القارئ الى أن طبيعة هذه الدراسات المختلفة في الفترة الزمنية موضوع الرسالة هي التي حددت لنا هذا التقسيم الذي يتمشى مع قواعد البحث العلمي . كما أن مما يتعين أن نفصح به للقارئ هو أن هناك تفاوتاً من حيث الحجم في معالجة هذه الدراسات المختلفة في الفصول التي خصصناها لها . ولقد جاد ذلك التفاوت نتيجة لمرتكزات وحقائق تاريخية وسياسية واجتماعية شرحنا أبعادها في ثنايا الرسالة .

وهكذا جاءت الدراسات الشرعية – وهي جوهر الحياة العلمية كما قلنا –، ثم الدراسات الأدبية لتطغيا على معظم صفحات الرسالة ، في حين

لم تحظ الدراسات الانسانية والدراسات الطبيعية إلاّ بكم ضئيل من الصفحات .

وأخيراً ختمنا الرسالة بخاتمة وضحنا من خلالها أهم النتائج التي استخلصناها من متابعتنا لسيرة الحياة العلمية في إفريقية في الفترة موضع الاهتمام .

دراسة نقدية لأهم المصادر والمراجع والدوريات

لعل من المألوف والدراسة تتعلق بالحياة العلمية أن يكون اعتمادنا علي كتب التراجم والطبقات بالدرجة الأولى ، ثم على الكتب التي تؤرخ للحياة الحضارية بإفريقية ، ومن بينها الحياة العلمية بالدرجة الثانية ، ثم الكتب التي تعالج القضايا السياسية وغيرها من القضايا بالدرجة الثالثة ، هذا بالإضافة إلى الدوريات التي تدور موضوعاتها حول تلك الجوانب المختلفة .

وحيث أن الدراسات الشرعية هي جوهر الحياة العلمية كما أشرنا من قبل -، فقد تعدد تكتب التراجم والطبقات لعلماء الفقه والحديث وعلوم القرآن - وهي بالمناسبة في معظمها كتب تراجم كتبها مؤرخون مغاربة - . ومن حق الأمانة أن نشير هنا إلى أن كثيراً من مصادر التراجم والطبقات المغربية التي رجعنا إليها هي لمؤرخين أفريقيين ، كما أن من المصادفات التاريخية أن يكون معظم أصحابها من الذين شاركوا في النهضة العلمية الإفريقية التي نؤرخ لها ، وكانت أقوالهم وتراجمهم التي كتبوها محتوية على معلومات وتفاصيل غزيرة جاءت من معاصرتهم لأصحاب تلك التراجم .

وكيفما كان الأمر فإن من أهم كتب المصادر والتراجم لعلماء المالكية ، كتاب رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم

وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم لأبي بكر عبدالله بن محمد المالكي (ت٤٥٣هـ) .

وتأتي أهمية الكتاب من عدة زوايا ، منها : احتواؤه على معلومات غزيرة عن حياة فقهاء وعباد إفريقية المشهورين ومصنفاتهم العلمية ومواقفهم المذهبية والسياسية وغيرها . ومماّ زاد في قيمة الكتاب أن صاحبه اعتمد على مصادر كتب طبقات إفريقية سبقته ككتاب أبي العرب التميمي : طبقات علماء إفريقية ؛ وكتاب محمد بن حارث الخشني : طبقات علماء إفريقية كذلك ، وغيرها من الكتب التي لم تصل إلينا اسماؤها . والكتاب فوق هذا يحتوى على معلومات غاية في الأهمية عن الصراع المذهبي بإفريقية بين المالكية والمذاهب الكلاميه والدينيه السياسية .

وإضافة إلى هذا فإن أهمية الكتاب تزداد قدراً في التحقيق التاريخي الدقيق الذي استفدنا منه ، والذي كتبه محققا جزئي الكتاب ، وهما حسين مؤنس والبشير البكوش . أما حسين مؤنس فقد حقق الجزء الأول من الرياض ونشره عام ١٩٥١م ، وأما البشير البكوش فقد عزم على تحقيق الجزء الثاني من رياض النفوس ونشره ، ولكنه رغب في أن يعيد تحقيق الجزء الأول ، الذي كان قد حققه حسين مؤنس ، زيادة في التحقيق والشرح كما يقول محمد العروسي المطوى في تصديره للجزء الأول . وهكذا فقد نشر الكتاب في ثلاثة أجزاء عام ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .

والمهم أننا قد استفدنا من تحقيق الكتاب سواء في الجزء الذي حققه حسين مؤنس ، وقد بذل فيه جهداً تاريخياً قيِّماً في تحليلاته ، أو في

تحقيقات البشير البكوش ، وخاصة في الجزء الثاني .

وهناك مصدر ثان من كتب التراجم صاحبنا في صفحات واسعات من الرسالة ، وهو كتاب : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك للقاضي عياض بن موسى اليحصبى السبتي (ت٥٤٤هـ) . وكتاب القاضي عياض على أنه يترجم لعلماء المالكية في الحجاز والعراق ومصر والمغرب والأندلس إلا أن تراجمه لعلماء المغرب الأدنى ازدادت أهميتها ليس لاقتصارها على كتب التراجم الإفريقية التي سبقته فحسب ، وإنما لاعتماده على نقولات مشرقية وأندلسية بشأن علماء إفريقيين خلت منها كتب التراجم السابقة . وفي الوقت نفسه كان القاضي عياض كثيراً مايتدخل في تسلسل وقائع حياة العلماد ومواقفهم فيدلي بآراء جد قيمة آشرنا إلى بعضها في تضاعيف البحث .

والمصدر الثالث الرئيسى في كتب التراجم والطبقات المغربية الذي أفدنا منه كثيراً هو : كتاب معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان لأبي زيد : عبدالرحمن بن محمد الأنصاري الأسيدى المعروف بالدباغ (ت ٦٩٦هـ) الذي أكمله وعلّق عليه عالم إفريقي متأخر هو أبو الفضل أبو القاسم ابن عيسى بن ناجي التنوخي (ت :٨٣٩هـ) .

وكتاب المعالم على اعتماده على كتب مؤرخي التراجم الإفريقية مثل أبي العرب ، ومحمد بن حارث الخشني ، والمالكي ، وعلى كتاب القاضي عياض وغيره ، فإن أهميته تكمن في الإشارة لبعض من التراجم التي أغفل

ذكرها أولئك المؤرخون سهوا أوعمداً ، وقد أشرنا إلي هذا في ثنايا الرسالة. لكن القيمة الكبيرة للكتاب بجانب ذلك ، تنحصر في التعليقات التاريخية والفقهية الجيدة التي كان يدلى بها أبو الفضل بن ناجي مكمّل ومعلّق الكتاب .

وثمة مصدر رئيسى في كتب تراجم طبقات العلماء الإفريقيين رافقنا طويلاً ، وهو كتاب شجرة النور الزكية في طبقات المالكية لمحمد بن محمد مخلوف . وتأتي أهميته من أنه استوعب كل جهود من سبقه لاسيما وهو من المتأخرين في الترجمة لعلماء المالكية ليس في إفريقية فحسب و إنما في كل الأمصار وخاصة الحجاز والعراق ومصر والمغرب والأندلس .

وعلاوة هذه المصادر الرئيسية التي أرخت لعلماء المالكية ، فإن هناك مجموعة من كتب المصادر المشرقية والأندلسية التي تحدثت عن علماء المالكية ككتاب تاريخ علماد الأندلس لابن الفرضي (ت :٤٠٣هـ) وطبقات الفقهاء للشيرازى (ت :٤٧٦هـ) ، وبغية الملتمس للضبي (ت :٥٩٩هـ) وتذكرة الحافظ للذهبي (ت :٧٤٩هـ) والديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب لابن فرحون (ت : ٧٩٩هـ) وغاية النهاية في طبقات القرآء لابن الجزرى (ت :٨٣٣هـ) وطبقات الحفاظ ، وطبقات المفسرين للسيوطي (ت ٩١١هـ) وغير ذلك .

وفيما يتصل بمصادر التراجم التي أرخت للحياة الأدبية في افريقية وقتذاك فقد استفدنا من عدد منها ، وننذكر على سبيل المثال كتاب الحلة السيراء لابن الابار (ت :٦٥٨هـ) الذي حققه حسين مؤنس في جزأين .

ولكتاب الحلة السيراء أهمية مزدوجة فيما يتعلق بمجهودات صاحبه ، فقد اعتمدنا عليها كثيراً فيما يتعلق بالشعراء الذين شغلوا بالسياسة من الأمراء والولاة والخلفاء والقواد والوزراء .. الخ . وأما الأهمية الأخرى فهي التي تمثلها التحقيقات العلمية الرصينة للمحقق حسين مؤنس .

وثمة مصدر ثان في تراجم الأدباء استفدنا منه كثيرا وهو كتاب : الوافي بالوفيات للصفدي (ت :٧٦٤هـ) . فقد زودنا بمعلومات قيمة نقلها عن كتاب ابن رشيق : المفقود (١)، أنموذج الزمان في شعراء القيروان . أما كتاب وفيات الأعيان لابن خلكان (ت : ٦٥٨هـ) فمع أن تراجمه لا تقتصر على الأدباء وحدهم ، وانما هى تراجم شاملة للعلماء والأدباء والسياسين وغيرهم ، فإنه يحتوى على معلومات مهمة استفدنا منها في حديثنا عن بعض مظاهر الحركة الأدبية في إفريقية .

وأخيراً لانغفل ذكر كتاب : معجم الأدباء لياقوت الحموى (ت :٦٢٦هـ) فهو كتاب ترجم لابرز الأدباء في المشرق والمغرب وقد أفدنا منه في كثير من التراجم .

أما عن طبقات اللغويين والنحويين بصفة خاصة فقد كان اعتمادنا على مجموعة مهمة من مصادرها – وهي مشرقية في أغلبها – على أن أهم تلك المصادر لبحثنا هو كتاب طبقات النحويين واللغويين ، لأبي بكر الزبيدي

---

(١) ظهر بعد فترة من الآنتهاء من الرسالة ، أي سنة ١٤٠٦هـ /١٩٨٦م عن الدار التونسية للنشر بتونس ، – المؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر – كتاب أنموذج الزمان بجمع وتحقيق محمد العروسي المطوى وبشير البكوش .

الأندلسي (ت ٣٧٩ هـ) فلقد وردت فيه مجموعة تراجم لعدد من اللغويين والنحاة الإفريقيين . ومّما هو جدير بالذكر أن كثيراً من تلك التراجم اعتمد عليها من جاء يترجم لطبقات اللغويين والنحاة الإفريقيين ، وإن كنا قد استفدنا مما ورد من معلومات إضافيه في كتاب البلغة في تاريخ أئمة اللغة للفيروز أبادي (ت ٨١٧ هـ) وبغية الوعاة للسيوطي (ت : ٩١١ هـ).

أما فيما يتعلق بكتب التاريخ العامة ، فإننا مدينون جدا للمؤرخ المغربي ابن عذاري المركشي (ت ٦٩٥ هـ) . وكتاب ابن عذارى عبارة عن تاريخ عام للمغرب والأندلس من الفتح العربي حتى عصر بنى مرين في المغرب الأقصى . ويقع في ٤ أجزاء . وقد حقق الأجزاء الثلاثة الأولى منه كل من ج . س كولان وليفي بروفنسال ، بينما حقق إحسان عباس الجزء الرابع منه . وفي الحق فقد كانت الاستفادة كبيرة من الجزء الأول من هذا الكتاب ، وهو الجزء المختص بالحديث عن إفريقية والمغرب منذ الفتح وحتى منتصف القرن السادس الهجري .

وترجع أهمية الكتاب إلى المادة التاريخية الغزيرة التي جمعها ولاسيما مايعلق بقيام الخلافة الفاطمية وقضايا الصراع المذهبي بين المالكية والشيعة في روايته للأحداث .

ومّما أعطى الكتاب أهمية بالغة ، أن ابن عذارى قد اعتمد في كثير من رواياته للأحداث على نقولات من مجموعة من المصادر هي في حكم المفقودة ككتاب تاريخ إفريقية والمغرب للرقيق القيرواني الذي لم يبق منه سوى قطعه تشمل التأريخ لإفريقية منذ الفتح وحتى نهاية القرن الثالث

الهجري ، ومثل كتاب أخبار الدولة الصنهاجية المفقود للرقيق القيرواني ، وغير ذلك .

على أن ممَّا يعيب كتاب ابن عذارى أنه لم يكن يوضح نهاية نقولاته ، فتختلط نقولاته هاته بكلامه هو . ولكن الكتاب مع هذا لايمكن لاى باحث الاستغناء عنه للأهمية التاريخية التي يمثلها .

ومن كتب التاريخ العام كتاب الحلل السندسية في الأخبار التونسية لابن السراج (ت :١١٤٩هـ) ، والكتاب يقع في ٤ أجزاء ، فقد الرابع منه ، وقد وقف الحبيب الهيلة على تحقيقه فأصدر الجزء الأول في ٤ أقسام ، ثم أصدر الجزء الثاني في قسمين وكذلك الجزء الثالث . وقد أفدنا من هذا الكتاب على تأخره ، وأفدنا أيضا من تحقيقات المحقق الرصينه حسبما يتضح في ثنايا البحث .

ومن كتب التاريخ العامة التي أفدنا منها في بعض النقاط التاريخية كتاب المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس لابن أبي دينار الرعيني القيرواني (كأن حيا (سنة : ١١١هـ) ، وكتاب الخلاصة النقية في أمراء إفريقية لمحمد الباجي المسعودي (من رجال القرن الحادي عشر الهجري) ، وغير ذلك .

على أننا قبل أن نترك الحديث عن كتب التاريخ العامة لايفوتنا الإشارة والإشادة أيضا بمصدرين مهمين كتبهما أحد أبناء إفريقية في الفترة التي نؤرخ لها . أعنى بذلك كتاب افتتاح الدعوة وكتاب المجالس والمسايرات للقاضي النعمان بن حيون (ت٣٦٣هـ) وهذان الكتابان نشرا وحققا بعناية بعض من الباحثين التونسيين .

وبصرف النظر عمّاً في الكتابين من اتجاهات مذهبية وفقهية لا تتفق مع اتجاهات أهل السنة ، إلاّ أن الكتابين في غاية الأهمية من الناحية التاريخية . فكتاب افتتاح الدعوة يعالج الدعوة الشيعية ومبدأ امرها مذ كانت حلما إلى أن تحقق قيام الخلافة الفاطمية ، وهو يروى الاحداث من وجهة نظر مغايرة للرواية السنية .

أما كتاب المجالس والمسايرات فهو لايقل أهمية عن كتاب افتتاح الدعوة ، وإن كانت مادته العلمية عبارة عن خليط من المعلومات التاريخية والمذهبية والشخصية أو مايدخل في إطار أدب السيرة الذاتية وهي سيرة الخليفة المعز لدين الله .

أما المراجع الحديثة العربية والمعربة ، فلعلنا لانبالغ إذا قلنا إنها تمثل العمود الفقري لكثير من الموضوعات التي تطرقنا لها وخاصة موضوعات القسم الأول ، وكان بعضها أساسيا في مفردات القسم الثاني .

ومن أهم المراجع التي أنارت لنا السبيل في القسم الأول كتاب تاريخ المغرب العربي لسعد زغلول عبدالحميد . والكتاب يقع في جزأين ، الجزء الأول يتصدى للحديث عن تاريخ المغرب العربي من الفتح الى بداية عصور الاستقلال أي حتى قيام الدويلات المستقلة في المغرب ، أما الجزء الثاني فهو مختص بالحديث عن تاريخ الاغالبة والرستميين وبنى مدرار والأدارسة حتى قيام الفاطميين .

وكتاب تاريخ المغرب العربي لسعد زغلول لست في حاجة إلى التنويه به . فمنذ أن أخرج صاحبه الجزء الأول منه عام ١٩٦٤م ، أصبح المعول عليه في استخلاص المادة التاريخية الغزيرة التي يحتاجها الباحثون عن المغرب . وهو من الناحية التاريخية السياسية أشمل كتاب من نوعه غير أنه يقف بتاريخ المغرب حتى الخلافة الفاطمية ، وإن كانت النية متجهة لدى مؤلفة للتأريخ للمغرب العربي في ظل الدولة الفاطمية .

وبالإضافة إلى كتاب سعد زغلول عبدالحميد هذا ، فإن هناك مرجعا مهما آخر يعالج النواحي التاريخية والاقتصادية والعمرانية ، وهو كتاب تاريخ المغرب في العصر الإسلامي للسيد عبدالعزيز سالم .

وفيما يتصل بالكتب التي أرخت للخوارج في المغرب نذكر على رأسها كتاب الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري لمحمود اسماعيل عبد الرازق ، وهذا الكتاب هو رسالة دكتوراة في الأصل ، وقد نشرها صاحبها عام ١٩٧٦م . ولقد استفدنا من كثير من تحليلاته عن دخول المذهب الخارجي بلاد المغرب .

ومن الكتب المهمة التي استفدنا منها في تأريخنا للاثار العلمية للصراع المذهبي بين المالكية والاباضية كتاب الإباضية يبين الفرق الإسلامية عند كتاب المقالات في القديم والحديث ، وكتاب الإباضية في الجزائر للمؤرخ والباحث الاباضي على يحيى معمر .

ولقد أفدنا في الحقيقة من الكتابين وخاصة كتاب الإباضية بين الفرق الإسلامية وذلك فيما يتعلق بوجهة نظر الإباضية في كثير من القضايا

الفقهية والعقائدية ، وكذلك في التعرف على تراجع علماء وأدباء الإباضية في إقليم الجريد وجبل نفوسة .

وتأتي موسوعة حسن حسني عبدالوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية في طليعة الكتب التي كتبها الباحثون التونسيون من حيث الأهمية لبحثنا . والحق أننا لانستطيع ان نفي حسن حسني عبدالوهاب حقه وأفضاله على تاريخ المغرب الأدنى . فلقد كانت كتبه النبراس الذي استفاد منه الباحثون . أما موسوعته : الورقات فهي درة فريدة وموسوعة شاملة تتنقل بالقارئ من موضوع لموضوع في تشويق وتنويع محبب . وقد أفدنا منه حق الافادة لكن مايعيب كتاب الورقات ، الذي يقع في ثلاثة أقسام ، هو إهمال المؤلف توثيق كثير من أخباره ومعلوماته .

ولحسن حسني عبدالوهاب سلسلة من الكتب الاخرى التي أنارت لنا الطريق في بعض القضايا ، ككتاب بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق ، وكتاب خلاصة تاريخ تونس والإمام المازري ، وغير ذلك .

ومادمنا نتحدث عن مصنفات الباحثين التونسيين لايفوتنا الإشارة إلى الأهمية التي تمثلها الكتب التالية ، شخصيات أدبية من المشرق والمغرب لأبي القاسم كرو وعبدالله شريط وكتاب سيرة القيروان لمحمد العروسي المطوى ، وكتاب القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي للحبيب الجنحاني ، وكتاب مراكز الثقافة بالمغرب من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر لعثمان الكعاك ، وغيرها من

الكتب التي أرخت للحيـــاة الحضارية لتونس في الفترة التي تخصنا وكذلك في فترات لاحقة .

وهناك الكثير من المراجع الهامة التي استفدنا منها والتي يضيق بنا المجال أن نتتبعها هنا . ولذلك فإننا نكتفي بما أوردناه منها هنا محيلين القاريء إلى قائمة المصادر والمراجع في نهاية الرسالة .

أما عن الكتب المعربة فإننا لانستطيع إغفال الأهمية الكبيرة للكتاب الموسوعي : تاريخ الأدب العربي للمستشرق الألماني كارل بروكلمان فهو كتاب لاغنى عنه للباحثين ، وقد استفدنا منه في نقطه جديدة ومفيدة لم يسعفنا غيره في الإشارة إليها سوى عبدالعزيز بن عبدالله في كتابه : الموسوعة المغربية للأعلام البشرية تلك النقطة هي الإشارة إلى الشروحات والاختصارات والتعليقات التي حظيت بها أشهر مصنفات الرجال الذين أرخنا لهم هنا في الرسالة سواء كانوا فقهاء أو أطباد أو أدباء .

وفيما يتصل بالرسائل الجامعية التي أعدت لنيل درجة الماجستير أو الدكتوراة من الجامعات العربية ، فقد استفدنا من الرسالة التي أعدها الباحث المصري السيد محمد أبو العزم داود عن الأثر السياسي والحضاري للمالكية في شمال أفريقيا حتى قيام دولة المرابطين المنشورة عام ١٤٠٥هـ / ١٩٨٥م والرسالة التي أعدها الباحث التونسي عبدالغزيز المجذوب بعنوان : الصـراع المذهبي بإفريقـية حـتى قـيام الدولة الزيرية ، المنشـورة عـام ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م ، وذلك للحصول على شهادة الكفاءة في البحث من الكلية

الزيتونية وأصول الدين بتونس عام ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م .

وأخيرا نذكر الرسالة التي أعدها الباحث الليبي صالح مصطفى مفتاح بعنوان : برقة وطرابلس من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر ، وذلك للحصول على درجة الماجستير في التاريخ من كلية الآداب – قسم التاريخ بجامعة القاهرة ، عام ١٩٧٦م .

وفيما يتعلق بالدوريات فقد أتيح لنا الاستفادة من كثير من المقالات والبحوث التي نشرتها بعض المجلات العلمية المتخصصة ، وخاصة التونسية مثل البحث الذي نشره محمد اليعلاوي في مجلة حوليات الجامعة التونسية، عام ١٩٧٠م بعنوان : شعراء أفريقيون معاصرون للدولة الفاطمية والمقال الذي نشره الشاذلي بويحيى في مجلة حوليات الجامعة التونسية أيضا العدد الأول عام ١٩٦٤م . بعنوان : حول تاريخ وفاة ابراهيم الحصري وغيرهما من البحوث التي تتضح للقارئ في قائمة الدوريات .

وفي الختام حق عليَّ قبل أن أضع القلم أن اتقدم بأجزل الشكر وأعظم الامتنان إلى استاذي المشرف الأستاذ الدكتور أحمد السيد دراج الذي ما انفك يمدني جزاه الله خيراً بسديد آرائه وبليغ توجيهاته برحابة صدر ، وطول أناة حتى خرج هذا البحث إلى حيز الوجود . وفي الحق فلست أجد من العبارات ماتفي بشكره ، فله من الله حسن الثواب .

كما لايفوتني أن أعرب عن جميل تقديري لكل من قدم لي يد العون والمساعدة في ابراز هذا البحث واخراجه إلى المستوى المطلوب .

والله أسأل أن يوفقنا سواء السبيل وأن يهيئ لنا من أمرنا رشدا ، إنه القادر سبحانه على ذلك ، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

والله ولي التوفيق ؛؛


تمهيد

تمهيد

- مدلول لفظ إفريقية (المغرب الأدنى) جغرافيا وتاريخيا .
- عرض موجز للأحوال السياسية في إفريقية المغرب الأدنى في الفترة الزمنية موضوع الرسالة .

مدلول لفظ إفريقية (المغرب الأدنى) جغرافياً وتاريخياً :-

لعل من الضروري قبل أن نتحدث عن تفاصيل الحياة العلمية في إفريقية (المغرب الأدنى) أن نلم بجغرافية هذا الإقليم الذي نشأت على أديمه تلك الحياة العلمية التي سنؤرخ لها لاحقاً إن شاد الله ذلك أن الحديث عن الحياة العلمية تلك لايستقيم له معنى إلا بتسليط الضوء على هذا الإقليم من حيث اسمه ومدلوله ومعناه . غير أن المغرب الأدنى ليس إلاَّ جزءاً من إقليم أكبر وأوسع هو المغرب الكبير ، أو المغرب العربي مطلقاً . ومن هنا فليس أمامنا كي يستقيم المعنى موضوعياً إلاَّ الإفاضة في ذكر هذا المغرب الكبير الذي يضم حقل دراستنا في الفترة الزمنية موضوع الرسالة .

معنى لفظ المغرب : لغوياً - جغرافياً - تاريخياً :-

فالمغرب لغوياً كل ماهو خلاف المشرق (١) ، والغرب والمغرب عند كثير من علماء اللغة سواء ،أي بمعنى واحد (٢) ، بل هو عند بعض المؤرخين الجغرافيين كذلك (٣) . ولقد جاء في القرآن الكريم مايدل على هذا المعنى اللغوي للفظي : المشرق والمغرب ، فقد قال تعالى : ﴿ رب المشرقين ورب

---

(١) ابن منظور : لسان العرب ، الجزء الثاني ، ص ١٢٩ .

(٢) أنظر مثلا ابن منظور ، نفس المصدر أعلاه والجزء والصفحة .

(٣) سعد زغلول عبد الحميد : تاريخ المغرب العربي ، الجزء الأول الخاص بالفتح إلى بداية عصور الاستقلال (ليبيا وتونس والجزائر والمغرب) ، حاشية رقم ٥، ص ٦٣ (تلخيصاً وتحليلاً لأقوال عدد من المؤرخين والجغرافيين القدامي) .

المغربين ﴾(١) . والمغرب كما ذكر ابن منظور (٢) : (موضع الغروب (أي غيوب الشمس) ، ثم استعمل في المصدر والزمان ، وقياسه الفتح ، ولكن استعمل بالكسر كالمشرقِ والمسجدِ) .

أما من حيث معناه الجغرافي ، والتاريخي ، فإنه – أي لفظ المغرب – جاء في نظر بعض الجغرافيين المسلمين الأوائل من أن أهل مصر ، كانوا يسمون مايلي أيمانهم – أي مايلي أياديهم اليمنى – إذا ما استقبلوا الجنوب : مغرباً ، ويسمون مايلي شمائلهم – أي مايلي أياديهم اليسرى – : مشرقاً (٣) .

غير أن أحد الباحثين المحدثين يرى أن التسمية : المغرب ، إنما هي اسم الاتجاه الأصلي الذي يحدد مغرب الشمس (٤) – وهو هنا يتفق مع المعنى اللغوي – بمعنى أن لفظ المغرب هذا كان ومازال ذا دلالة جغرافية تعنى البلدان التي تقع في اتجاه مغرب الشمس ، مثلما هو الشأن للبلدان الواقعة تجاه مشرق الشمس . وعلى هذا الأساس ، فإن لفظ المغرب يدل على كل مايقابل المشرق من أمصار . (٥)

---

(١) سورة الرحمن آية : ١٧ .

(٢) لسان العرب : ج٢، ص ١٢٩ .

(٣) ياقوت الحموي : معجم البلدان ، المجلد الأول ، ص ٥٤ .

(٤) سعد زغلول عبدالحميد : تاريخ المغرب العربي ، الجزء الأول ، ص ٦١ ، وحاشية رقم ٢٠- ص٦١- ٦٢ .

(٥) أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص ١١ .

ولقد ظهر هذا التقسيم الاصطلاحي في الدولة الإسلامية في عهد الخلافة العباسية . ذلك أن الخليفة المهدي بن المنصور ، قسم دولته بين ولديه: الهادي والرشيد ، فعهد للهادي بالمشرق كله وآذربيجان وأرمينيه ، وعهد للرشيد بالمغرب كلـه من الأنبـار إلى إفريقية (١) . بيد أن هناك من يرجع هذا التقسيم الإداري إلى الرشيد نفسه ، وليس لأبيه المهدي، فالرشيد كما ذكر قسم دولته بين ولديه : الأمين والمأمون على نفس النسق السابق . وعلى أية حال فإن الدولة العباسية رأت بغداد العاصمة كما يقول سعد زغلول (٢) عبد الحميد يمثابة خط جرينتش اليوم تجاه خطوط الطول.

يبقى أن نشير أخيراً إلى أن لفظ المغرب ، ومن ثم لفظ افريقية كان معروفاً عند المسلمين منذ العهود الأولى للإسلام ، بل أن بعض كتب التراجم التي ترجمت لعلماء المغرب أوردت عدة أحاديث عن الرسول ﷺ، ذكر فيها لفظ المغرب كاسم علم للقطر المغربي نفسه (٣) ، ونحن هنا بطبيعة الحال

---

(١) سعد زغلول عبدالحميد : نفس المرجع والجزء ، ص ٦١ .

(٢) نفس المرجع أعلاه والجزء ، والصفحة .

(٣) من تلك الأحاديث : روى عن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه ، عن النبي ﷺ أنه قال : «لايزال أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة » . وعن أنس بن مالك رضي الله عنه ، قال سمعت رسل الله ﷺ تسليما يقول : « لا تزال عصابة من أمتى بالمغرب يقاتلون على الحق حتى تقوم الساعة لايضرهم من خالفهم ، حتى يروا غماما فيقولوا « غشيتم » فيبعثون سراعا خيلهم ينظرون ، فيرجعون اليهم فيقولون : الجبال قد سيرت فيخرون سجدا فتقبض أرواحهم » وعن أبي عبدالرحمن الحبلي قال ، قال رسول الله ﷺ : « ينقطع الجهاد عن البلدان كلها فلايبقى إلاّ بموضع من الغرب يقال له إفريقية ، فبينما القوم بإزاء عدوهم ، نظروا الى الجبال قد سيرت ، فيخرون لله تبارك وتعالى سجدا ، فلا ينتزع أخلاقهم إلاّ خدمهم في الجنة » . إلى غير ذلك . =

لسنا في وارد تبيان قوة تلك الأحاديث أو ضعفها (١) ، فما يهمنا هو الإشارة إلى الحقيقة التاريخية وحدها . على أن الأمر الذي لايرقى إليه شك هو أن المسلمين عرفوا على وجه الخصوص لفظ إفريقية منذ عهد الخليفة الراشد عمر بن الخطاب (٢) عندما طلب منه عمرو بن العاص فاتح مصر السماح بفتح إفريقية ، فأجابه بالرفض ، وعرف اللفظ أيضا في عهد الخليفة الراشد عثمان بن عفان الذي سمح بغزو (٣) إفريقية ، وعرف كذلك في عهد الخليفة معاوية إبان بناء عقبه بن نافع لمدينة القيروان ، حيث قال عقبة : (إن افريقية إذا دخلها إمام أجابوه إلى الاسلام ، فإذا خرج منها رجع من كان أجاب منهم لدين الله إلى الكفر ، فأرى لكم يامعشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة تكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر) (٤) .

أما لفظ المغرب ، فإنه قد ظهر منذ عهد معاوية بن أبي سفيان عندما

= أنظر أبو بكر المالي : رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقيه وزهادهم وعبادهم ، وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم ، الجزء الأول ، تحقيق حسين مؤنس ، ص : ٣-٥ مع الحواشي - الدباغ : معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، أكملة وعلق عليه أبو الفضل بن ناجي التنوخي ، الجزء الأول يتعليق وتصحيح ابراهيم شبوح ، ص ٤ وما بعدها .

(١) أشار مكمل ومعلق كتاب معالم الإيمان المذكور أعلاه أبو الفضل بن ناجي التنوخي إلى أن تلك الاحاديث يغلب على الظن أنها موضوعة ، وقصد بها تحبيب بلاد المغرب إلى ساكنيه . انظر معالم الإيمان ، الجزء الأول ، ص٦ وما بعدها .

(٢) أبو بكر المالكي : نفس المصدر اعلاه والجزء ، ص٥ .

(٣) أبو بكر المالكي : نفس المصدر ، والجزء ، ص ٨-٩ .

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ، الجزء الأول ، تحقيق ومراجعة ج . س . كولان وليفي بروفنسال ، ص ١٩ .

ولى مسلمة بن مخلد الأنصاري ولاية مصر والمغرب كله (١) ، ثم عندما ولي يزيد بن معاوية عقبة بن نافع ثانية إفريقية والمغرب (٢) كله ، ثم أخذ لفظ المغرب يشيع في عهد الدولة الأموية في العهد المرواني ، فنرى بعض المؤرخين ينسب إلى الخليفة الوليد بن عبد المطلب تولية موسى بن نصير إفريقية والمغرب (٣) واتضح معناه بصورة أكثر تفصيلاً عندما ولى الخليفة سليمان بن عبدالملك ، محمد بن يزيد مولى قريش إفريقية والمغرب ، فلقد قال له مانصه : (قم فيما وليتك بالحق والعدل ، وقد وليتك إفريقية والمغرب كله) (٤) .

مدلول لفظ المغرب : جغرافياً وتاريخياً :-

ماقدمناه من شرح إنما كان إيضاحاً للفظ المغرب : لغوية وجغرفيا وتاريخياً . أما عن مدلوله الجغرافي والتاريخي ، فهو ماسيكون موضع الشرح الآن . والواقع أن مدلول لفظ المغرب جغرافياً كان مثار نقاش بين المؤرخين والجغرافيين قدامى ومحدثين ، بل كان موضع اختلاف فيما بينهم . ففي الوقت الذي نرى فيه بعض المؤرخين والجغرافيين يعتقد أن مدلول لفظ المغرب جغرافيا هو كل مايلي مصر غرباً حتى المحيط الأطلسى ، بما في

(١) ابن عذارى : البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ،ج١، ص ٢١ .

(٢) ابن عذارى : نفس المصدر والجزء ، ص ٤٣ .

(٣) ابن عذارى : نفسه ، ص ١٤، ٤٧ .

(٤) ابن عذارى : نفسه ، ص٤٧ .

ذلك الأندلس والجزر الموجودة في البحر الأبيض المتوسط كجزر البليار ، وصقلية وسردينيا ، وكورسيكا (١) نلاحظ أيضاً أن هذا المفهوم يزداد اتساعاً عند البعض الآخر وعندهم أيضا . فيرون أن مصر نفسها داخلة ضمن مفهوم المغرب (٢) . بل لقد زاد مدلول اللفظ اتساعا، فشمل بالإضافة لما ذكرناه : بلاد الشام (٣) وذلك عندما قسم الخليفة العباسي هارون الرشيد دولته بين ولديه : الأمين والمأمون ، فعهد للأمين بالمغرب كله ، وشمل بلاد الشام والعراق ومصر وإفريقية ، وعهد للمأمون بالمشرق كله ، وشمل بلاد فارس ومايليها شرقاً كما أشرنا سابقاً . غير أنه لايعزب عن القول بأن ذلك التقسيم لايعدو أن يكون مجرد تقسيم اداري ، اكثر منه واقع جغرافي طبيعي .

واذا ما نحينا الاختلاف حول هذه النقطة - أي حد المغرب شرقاً - جانباً ، فإن أولئك المؤرخين والجغرافيين يختلفون على حد المغرب جنوباً -

---

(١) ابن حوقل : صورة الأرض ، ص٦٤-٦٥ - المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، الطبعة الثانية ، بغداد ، ص٢١٥ - ٢١٦ - سعد زغلول عبدالحميد : المرجع السابق ، ج١، ص٦٣) - السيد عبدالعزيز سالم : تاريخ المغرب في العصر الاسلامي ، ص ٤٠- أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس ، ص : ١١.

(٢) ابن حوقل : نفس المصدر أعلاه ص ٦٥- ابن عذارى : نفس المصدر السابق والجزء ١ ص ٥-٦- المقدسي : نفس المصدر أعلاه ص ٢١٦ . وأنظر عبده عبدالعزيز قلقيلة : النقد الأدبي في المغرب العربي ، الجزء الأول ، ص ١٣- ١٥ (حيث ينقل عن ابن سعيد المغربي في كتابيه : المغرب في حلى المغرب ، وكتاب الجغرافيا ، ما يفيد هذا المعنى ، بل وكتابه الثالث : عنوان المرقصات والمطربات . حيث يتحدث عن أدباء مصر مع أدباء المغرب) .

(٣) أحمد مختار العبادي ، نفس المرجع أعلاه ، ص ١١-١٢ .

وغـربه بالطبع – فـهم يرون أن المغـرب يمتـد طبيـعيـا جنوبا حـتى تخـوم السودان (١) ، وبالتحديد تخوم الدويلات الإفريقية المستقلة اليوم التاليـة : تشاد ، وغربي جمهورية السودان من جنوبها الشرقي ، ومالي ، والنيجر من وسطه ، والسنغال من جنوبه الغربي (٢) .

وأيا كان الأمر فإن مدول لفظ المغرب إنما يعنى الآن : المغرب العربي الافريقي بتنظيماته السياسية المعروفة اليوم ، وهي الجماهيرية الليبية ، الجمهورية التونسية ، الجمهورية الجزائرية ، المملكة المغربية . ثم جمهورية موريتانيا ، التي كانت ضمن المغرب الأقصى (٣) . هذا ويطلق على المغرب العربي أحيانا : شمال أفريقيا ، لوقوعه شمال القارة الافريقية .

---

(١) ابن حوقل : المصدر السابق ، ص٦٤ –٦٥ – البكري : المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، وهو جزء من كتاب المسالك والممالك له ، ص ٤٨–٤٩ ، وص ١٥٦–١٥٧ ، وص ١٦٠ . وما بعدها – ابن السراج : الحلل السندسية في الأخبار التونسية ، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، الجزء الأول ، القسم الأول ، ص ٢٣٥ .

(٢) أنظر سعد زغلول عبدالحميد : المرجع السابق ، ج١ص٦١–عبده عبدالعزيز قلقيلة : النقد الأدبي في المغرب العربي ، ج١، ص ١٤ – محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، ص ٣ – محمود شيت خطاب : عقبة بن نافع الفهرى – قادة فتح المغرب الإسلامي ، ط٤، ص ١٦ .

(٣) أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفس المرجع السابق والجزء ص٦١– السيد عبدالعزيز سالم : المرجع السابق ، ص٤٠–٤١ – أحمد مختار العبادي : المرجع السابق ، ص١٢–١٣ محمود شيت خطاب : المرجع السابق أعلاه ، ص١٦ .

أقسام بلاد المغرب :

اصطلح الجغرافيون والمؤرخون المسلمون على تقسيم بلاد المغرب العربي إلى ثلاثة أقسام رئيسية انطلاقا من المفهوم الواسع لمدلول لفظ المغرب الذي أشرنا إليه آنفاً من جهة ، وتحديداً لمبدأ القرب والبعد عن المشرق من جهة أخرى (١) .

وهذه الأقسام هي :

١- المغرب الأدنى (إفريقية) :-

ويمتد هذا الإقليم من طرابلس شرقاً حتى مدينة بجاية أو تاهرت (في الجزائر الحالية) غرباً . وعاصمة هذا الإقليم أو القسم مدينة القيروان (٢). ولإفرّيقية مفهومان : عام وخاص سنتطرق لهما بعد . ولكن الذي يهمنا هنا هو الإشارة إلى أن إفريقية في مفهومها الخاص بل والمنطقي هي المنطقة التي تمتد من الأجزاء الشرقية من المغرب أو ماكان يعرف بإفريقية القنصلية في عهد الرومان . بمعنى أن إفريقية تعني كل البلاد التونسية اليوم مع بعض الأجزاء الغربية من ولاية طرابلس بما في ذلك المدينة نفسها ، وأجزاء من بلاد الجزائر الحالية أي التخوم الشرقية للجزائر حتى مدينة بجاية أو تاهرت (٣) . ويعرف هذا القسم أيضا عند بعض المؤرخين . والجغرافيين

---

(١) محمد على دبوز : تاريخ المغرب الكبير ، ج١ ، ص ٤ - أحمد مختار العبادى : نفسه ، ص١٢ .

(٢) السيد عبدالعزيز سالم : المرجع السابق ، ص٤١ .

(٣) أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ٦٨ مع الحواشي رقم : ٣٢-٣٥ - =

ببلاد القيروان . (١) ويرى بعض الباحثين المحدثين أن إفريقية تعد أول أقاليم المغرب الحقيقي إعتماداً على بعض أقوال تنسب لعدد من المؤرخين القدامى كابن عبدالحكم وغيره (٢) .

٢- المغرب الأوسط ، ويمتد من بجاية أوتاهرت شرقاً حتى وادي ملوية وجبال تازا غرباً (٣) : (فيما بين مدينتي تلمسان وتازا التي تعد ممراً يربط بين المغرب الأوسط والأقصى) (٤) . ويكاد المغرب الأوسط يشكل حالياً بلاد الجزائر الآن (٥) . أما عن عاصمته ، فقد تعددت بتعدد الدول التي حكمته ، ففي عصر الدولة الرستميه كانت العاصمة مدينة تاهرت ، وفي عهد الدولة الحمادية أصبحت العاصمة مدينة أشير ، وفي عهد الدولة العبدوادية أوبني عبد الواد ، غدت تلمسان هي العاصمة ، ثم أصبحت جزائر بني مزغنة (الجزائر العاصمة الآن) هي عاصمة القطر الجزائري (٦) .

= أحمد مختار العبادي : نفسه ، ص ١٢- محمود شيت خطاب : عقبة بن نافع القهرى ، ص ١٦-١٧ .

(١) أنظر مثلا البكري : المغرب في ذكربلاد إفريقية والمغرب ص ٤٧ - سعد زغلول عبدالحميد ، المرجع السابق والجزء ، ص ٧٠ .

(٢) أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص٦٧ .

(٣) أنظر السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٤١ - محمد على دبوز : المرجع السابق والجزء ، ص٤ - سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ٦٩ .

(٤) محمود شيت خطاب : المرجع السابق ، حاشية رقم (١) ، ص ١٧ .

(٥) أنظر السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص : ٤١- أحمد مختار العبادي : نفسه ، ص ١٣- سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ٦٩- محمود شيت خطاب : نفسه ، ص ١٦-١٧ .

(٦) أحمد مختار العبادي : نفسه ، ص ١٣ .

٣- المغرب الأقصى ، ويمتد من وادي ملوية وجبال تازا شرقاً ، حتى المحيط الأطلسي غرباً (١) ، أو بالتحديد حتي الساحل المغربي على المحيط الأطلسي . ويكاد يشكل المملكة المغربية (٢) بحدودها المعروفة اليوم مع موريتانيا . وقاعدته أو عاصمته تعددت أيضا بتعدد الدول التي حكمته . ففي عهد الأدارسة كانت العاصمة مدينة فاس ، ثم مراكش في عهد المرابطين فالموحدين . وتنقلت العاصمة بعد ذلك بين فاس ومراكش الى أن استقرت أخيراً في مدينة الرباط إبان الاستعمار الفرنسي للمغرب . (٣)

هذه التقسيمات التي أوردناها لم تكن محل اجماع بين المؤرخين والجغرافيين على السواء . ففي الوقت الذي نرى فيه معظم المؤرخين والجغرافيين القدامى كياقوت (٤)، وابن حوقل (٥) ، ثم بعض من الباحثين المحدثين يدمجون ليبيا بولاياتها الثلاث ضمن مفهوم إفريقية ، نجد السيد عبدالعزيزسالم يرى أن برقة وطرابلس تشكلان جزءاً أو قسماً مغربياً مستقلا قائماً (٦) بذاته . والبعض الآخر من هؤلاء المحدثين يرى أن برقة تكاد تكون امتداداً طبيعياً لمصر ، حيث لافوارق طبيعية (٧) تذكر .

---

(١) السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص٤١ - محمد على دبوز : نفسه ، ص ٤ .

(٢) أحمد مختار العبادي : نفسه ، ص ١٣ - محمود شيت خطاب : نفسه ، ص١٧.

(٣) راجع أحمد مختار العبادي : نفسه ، ص١٣-١٤ .

(٤) معجم البلدان ، ج١ ، ص ٢٨ .

(٥) صورة الأرض ، ص٧١ .

(٦) نفسه ، ص٤٠ .

(٧) سعد زغلول عبدالحميد : المرجع السابق والجزء ، ص٦٤- ٦٥ .

والآن وقد استعرضنا أقسام بلاد المغرب في العصر الإسلامي وفي العصور التي سبقته نجد من الضروري أن نوضح معاني الألفاظ التي كثر استخدامها هنا كإفريقية ، المغرب الأدنى ، المغرب الأوسط ، المغرب الأقصى .

أما لفظ إفريقية من حيث أصلة ومعناه واشتقاقاته فسنؤخر الحديث عنه متيحين الفرصة أولاً لشرح معاني ألفاظ : مغرب أدنى ، أوسط ، أقصى، ثم نتصدى بعد ذلك لشرح كلمة إفريقية .

يعتقد سعد زغلول عبدالحميد (١) أن لفظي : مغرب أوسط وأقصى ظهرا ابتداءً من القرن الخامس الهجري ، الحادي عشر الميلادي عندما دعت الحاجة المسلمين للتمييز بين أقاليم المغرب الواسع ، فظهر لفظ المغرب الأوسط وعنى به البلاد الجزائرية اليوم تقريبا، وعاصمته تلمسان كما ذكرنا، مع الاختلاف فيما يدخل ضمن هذا القسم شرقاً وغرباً . ثم ظهر لفظ المغرب الأقصى وقصد به كل مايلي بلاد المغرب الأوسط شرقاً حتى المحيط الأطلسى ، وهو ما يعرف اليوم بالمملكة المغربية مع موريتانيا . ويتراءى لسعد زغلول عبد الحميد (٢) أيضاً أن تعبير المغرب الأقصى الذى كان أسبق في الظهور من تعبير المغرب الأوسط فرضته ضرورة منطقية ، وذلك لأن بلاد الجزائر كانت تعرف مغرباً لإفريقية – وهو ما أشرنا إليه قبل ذلك من تعيين الوليد بن عبد الملك ثم سليمان أخاه ولاة على إفريقية والمغرب

---

(١) نفسه ، ص ٦٩ مع الحواشي .

(٢) نفسه ، ص٦٩ .

. ولما كانت بلاد الجزائر في نفس الوقت مشرقاً لما بقي من أراضي المغرب الممتدة حتى المحيط الأطلسي وجب أن يطلق لفظ أقصى على هذه الأرض المتبقية ، فهو (مغرب بالنسبة لما دونه من الأقاليم وهو ليس مشرقاً بالنسبة لأى أقليم) . ومن هنا كان من المنطق أن يطلق على هذا الجزء من المغرب : المغرب فقط أو المغرب الأقصى . (١)

وأخيراً ينبغي الإشارة إلى أن اصطلاح المغرب الأدنى لم يعرفه المؤرخون والجغرافيون القدامى (٢) ، بل عرفوا ما يدل عليه باسم إفريقية أو بلاد القيروان . ويعود الفضل في استخدامه كما يبدو لى للباحثين المحدثين (٣) الذين رأوا أن من ضرورات المنطق أيضاً أن يشار إلى هذه الأراضى التى تعرف باسم إفريقية بالمغرب الأدنى طالما أن هناك مغرباً أوسط وأقصى ، وهذا الأستنتاج يبدو لى أنه يحمل كثيراً من عناصر الوجاهة .

أما التعبير الفني : أدني – أوسط – أقصى ، فقد جاء انطلاقاً من بعد أو قرب هذا الأقليم أو ذاك من المشرق ، أو بالتحديد من عاصمة الدولة الإسلامية في المشرق . فقيل أدنى ، أو أقرب بلاد المغرب لدار الخلافة بالحجاز والشام والعراق ، وقيل أقصى لأنه أبعد أو أقصى أقسام المغرب

---

(١) سعد زغلول عبد الحميد ، نفسه ، ص٧٠ .

(٢) سعد زغلول عبد الحميد : نفسه ، ص٦٩ –٧٠ .

(٣) أنظر السيد عبد العزيز سالم : نفسه ، ص٣٩ – ٤١ – أحمد مختار العبادي : نفسه ، ص١٢ – ١٣ – محمد علي دبوز : نفسه ، ص ٤–٥ .

عن دار الخلافة . (١)

كلمة إفريقية : مدلولها - ومفهومها :-

لكلمة إفريقية عند المؤرخين والجغرافيين قدامى ومحدثين عربا أكانوا أم غير ذلك عدة تفسيرات متباينة كثيرا . ولا تخلو بعض تلك التفسيرات في الواقع من الطابع الأسطوري ، بل وطابع الطرافة أيضاً . ولم تقتصر تلك التفسيرات على أصل الكلمة فحسب ، وإنما تعدت إلى أوماتدل عليه جغرافيا . وهذا التباين شمل بالإضافة لذلك الاختلاف في البناء الاملائي للكلمة نفسها (٢).

وعلى كل حال فما يهمنا هنا هو تحديد مدلولها لفظ إفريقية الجغرافي والواقع أنه حتى فيما يتعلق بمفهوم هذه الكلمة فقد تعددت الآراء والأقوال ، فالبكري (٣) يذكر أن (حد إفريقية طولها من برقة شرقا إلى طنجة

---

(١) أنظر السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص٣٩-٤١ - أحمد مختارالعبادي : نفسه ، ص١٢-١٣- محمد علي دبوز : نفسه ، ص ٤-٥ .

(٢) عن التفسيرات الواسعة والمختلفة لكلمة إفريقية والرسم الإملائي لها أنظر البكري : معجم ما أستعجم ، ج٢، ص ٣٠ وكذلك المغرب في ذكر إفريقية والمغرب له نفسه ، ص ٢١ ،- ابن حوقل : نفس المصدر السابق ،ص ٩٣ - ابن أبي دينار : المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس ،- الطبعة الثالثه ، تحقيق وتعليق محمد شمام ، ص١٩- ياقوت الحموي : نفس المصدر السابق ، ج١، ص ٣٢٨ - سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ٦٧-٦٩- الطاهر أحمد الزادي : معجم البلدان الليبية ، الطبعة الأولى ، ص ٨- اسماعيل العربي : دولة بني حماد ملوك القلعة وبجاية ، ص١٥-٣٥- محمود شيت خطاب : نفس المرجع السابق ، ص ١٥-١٦، وأنظر بعناية كذلك : دائرة المعارف الإسلامية - الترجمة العربية - المجلد الثالث ،ص ٥٨١ ومابعدها ، مادة إفريقية .

(٣) المغرب في ذكر إفريقية والمغرب ، ص ٢١ .

الخضراء غربا) ويوافقه في رأيه هذا ياقوت الحموي (١) ، وهذا المفهوم كما يتضح لنا يعادل تقريبا مفهوم المغرب كله .

على أن هناك من المؤرخين والجغرافيين من يذكر أن مدلول أو مفهوم إفريقية هو ماسبق أن أشرنا إليه ، من أنه يعنى البلاد التونسية الآن مع أجزاء من ليبيا وكذلك أجزاء من الجزائر . ومن هؤلاء : ابن سعيد المغربي ، وابن أبي دينار (٢) .

ومهما يكن من أمر ، فقد غدا لإفريقة مفهومان (٣) : مفهوم عام ، وهو الذي يكاد يعادل مفهوم المغرب كله تقريبا ، ومفهوم خاص ، وهو الذي يعادل المغرب الأدنى كما ذكرنا من قبل . هذا بالإضافة إلي اطلاق اسم إفريقية على القارة كلها ، وهو من قبيل اطلاق الجزء على الكل ، واطلاق الكل على الجزء .

وعلى أية حال ، فإن المفهوم الذي سنعتمده كإطار جغرافي للحياة العلمية في الفترة الزمنية التي حددناها للبحث ، هو مفهوم إفريقية (المغرب الأدنى) الخاص الذي يمتد من طرابلس شرقاً حتى مدينة بجاية ، أو تاهرت (في الجزائر الحالية) غرباً . أي المفهوم الذي يعنى الآن كل البلاد التونسية اليوم ، مع الأجزاء الغربية من ولاية طرابلس في ليبيا ، وبعض الأجزاء الشرقية من الجزائر الآن .

---

(١) المصدر السابق والجزء ، ص ٢٢٨ .

(٢) المصدر السابق ، ص ١ .

(٣) أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ٦٨- محمود [illegible] يت خطاب : نفسه ، ص ١٥ .

عرض موجز للأحوال السياسية في إفريقية (المغرب الأدنى) في الفترة الزمنية موضوع الرسالة :-

في دراسة مظاهر الحياة لمدينة أو إقليم أو دولة ما ، تستدعى الحاجة المنطقية ايضاح صورة وشكل المناخين : الجغرافي والسياسي ، اللذين نشأت بهما تلك الحياة العلمية . ذلك لأنه لايمكن فهم طبيعة الحياة العلمية بما تحتويه من أوجه المعارف والعلوم المختلفة ، دون أن نسترشد بالواقع الجغرافي الذي يحتويها وكذلك بالواقع السياسي الذي يغذيها وينميها سلباً أو ايجاباً .

أما وقد تهيأ لنا ايضاح الجانب الأول من هذا التصور ، وهو مدلول لفظ إفريقية (المغرب الأدنى) - والمغرب ككل اقتضاءاً - ، جغرافيا وتاريخياً ، فلا يبقى أمامنا سوى أن نستعرض بايجاز - غير مخل - الأحوال السياسية في مغربنا الأدنى في الفترة الزمنية موضوع الرسالة .

ولعل من تحصيل الحاصل الإشارة إلى أن ازدهار الحياة العلمية في المغرب الأدنى - وفي المغرب عامة - قد إرتباط بالمناخ السياسي بصورة يصعب فصلها أو اجتزاؤها ، بل إن الحياة العلمية تدين في كثير من تقدمها وتطورها للعامل السياسي الذي يتعهدها ويحوطها بكل أسباب التفوق والنمو غالباً .

فكرة فتح المغرب :-

لم يكد يمر عقد واحد من السنين على وفاة الرسول ﷺ ، حتى كانت الأقطار التي تقع شمالى الجزيرة العربية وغيرها تخضع للنفوذ الإسلامي . فلقد قدر للمسلمين أن يضعوا أيديهم على مقدرات الأمور في كل من الشام والعراق وفارس ومصر في هذه الفترة الزمنية القصيرة جداً .

ولقد تطلع عمرو بن العاص فاتح فلسطين ومصر إلي متابعة الجهاد والغزو في سبيل الله فيما يلى مصر غرباً ، أي برقة وطرابلس اللتين تعتبرا، أول بلاد المغرب من جهة ، ولتأمين فتح مصر وبلاد الشام من جهة أخرى (١)، ولذلك فما كادت تستقر له وللمسلمين الأوضاع في مصر ، حتى يمم وجهه نحو المغرب قاصداً برقة ، وذلك في سنة ٢١ (٢) ، أو ٢٢هـ (٣) . ولقد تهيأ لعمرو بن العاص ولقادته العسكريين من أمثال عقبة بن نافع وغيره، أن يفتح ليبيا بولاياتها الثلاث : برقة وطرابلس وفزان في مدة قصيرة وبسهولة ويسر دونما مقاومة تذكر . (٤) .

---

(١) يرى عدد من المؤرخين المحدثين – ومعهم الحق في ذلك – أن تطلع عمرو ب العاص لفتح إفريقية، كان ضرورة استراتيجيه لتأمين فتح مصر ، ويرون أنه كما فرضت الظروف فتح مصر لتأمين فتح فلسطين وبلاد الشام ، فقد فرضت هنا فتح المغرب لتأمين فتح مصر والفتوحات كلها . تماماً مثلما فرضت الضرورة العسكرية فتح فارس لتأمين فتح العراق وفتح فارس قاد أيضاً إلى فتح أواسط آسيا والهند . أنظر محمد التونجي : عقبة بن نافع فاتح ليبيا والمغرب ، ص ٢٤-٢٥، ص ٢٩ – سعد زغلول عبدالحميد ، نفسه ، ص ١٣١ .

(٢) أنظر السيد عبد العزيز سالم : نفسه ، ص ٥٥ .

(٣) أنظر سعد زغلول عبد الحميد : نفسه ، ص ١٢٧، ١٣٠ ومابعدها .

(٤) عن فتح ليبيا بولاياتها الثلاث ، راجع سعد زغلول عبدالحميد – نفسه ، ص ١٣٠- ١٣١ ، ١٣٦ ، ١٣٧، ١٣٩، ١٤٠، ١٤٢ – السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٥٥ .

وعندما فرغ من فتح ليبيا ، فكر في فتح إفريقية التي كانت تخضع لنفوذ القائد البيزنطي جريجوريس (١) ، أو جرجير كما تسميه المصادر الإسلامية ، إلاَّ أنه فضل استئذان الخليفة عمر بن الخطاب في ذلك ، لكن الخليفة رفض ذلك وطلب إليه العودة ، فعاد عمرو أدراجه نحو الفسطاط مكرها . وسواء أكان ذلك تنفيذاً لطلب الخليفة كما ذكرت المصادر ، أم كان نتيجة لتخوف عمرو بن العاص نفسه من التوغل في أرض إفريقية الشرقية ، حيث وطن جرجير نفسه للمقاومة ، أم كان رجوعه إلى مصر لتدارك الأوضاع فيها بعد أن نكث الروم بعهدهم فإن عمراً عاد إلى الفسطاط لتفاجأ الأمة الإسلامية بمقتل الخليفة الراشد عمر بن الخطاب في أواخر سنة ٢٣هـ /٦٤٣م (٢) .

مراحل فتح بقية المغرب العربي : ٢٣-٩٠هـ :

استغرق فتح المغرب مدة طويلة (٢٣-٩٠هـ) مقارنة بغيرة من الفتوحات الأخرى . ويعزو كثير من المؤرخين والباحثين المحدثين ذلك إلي عدة عوامل ، كانت سبباً في إطالة أمد (٣) الفتح وبطبيعة الحال فنحن

---

(١) أنظر السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص٥٥ – سعد زغلول عبد الحميد : نفسه ، ص ٥٣- أحمد مختار العبادي : نفسه ، ص ٣٦ .

(٢) عن هذه الاحداث والأراء المتباينه في مسألة عودة عمرو بن العاص إلى الفسطاط ، راجع سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص١٤٣-١٤٤، ١٤٥ .

(٣) عن العوامل التي أدت إلى اطالة أمد الفتح ، أنظر سعد زغلول عبد الحميد : نفسه ، ص ١٢٩ – أحمد مختار العبادي : نفسه ، ص ٤٩-٥٠- ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ، =

لايهمنا من هـذا إلاَّ الإشـارة إلي أن المـغرب شهـد خلال تلك الفترة عدة حملات ، بعـد أن مهـدت حملـة عمـرو بن العـاص الطريق إلى ذلك ، فلقد تتابعت الحمـلات بدءاً بحملـة عبدالله بن سعـد بن أبي السـرح ، وحملة معـاوية بن حديـج ، ثم حملـة عقبـة بن نافع الأولى ، فحملة أبي المهـاجر دينـار ، ومروراً بحملـة عقبـة بن نافـع الثانيـة ، فحملة زهير بن قيس ، وانتهاءً بحملتي حسان بن النعمان ، وموسى بن نصير .

ولقـد تمخـض عن هذه الحملات عدة نتائج إيجابيـة انعكس أثرها على بلاد المغـرب وعلى الفتح الإسلامـي نفسـه ، مـثل القـضـاء على النفوذ البيزنطي تمامـاً في بلاد المغرب (١) ثم إسلام البربر بجذميهم الكبيـرين البتر والبرانس، بعـد أن نجحت جهود بعض هـؤلاء الفاتحين في استمـالتهم نحو الاسـلام . والحق أن البربر لم يستجيبوا في بداية

= عرض لأحداث المغرب في تطوراتـه في الميادين السياسيـه و الدينيـة و الاجتماعية و العمرانية والفكرية لايهمنا والفكرية منذ ماقبل الاسلام إلي العصر الماضي الجزء الأول الطبعة الأولى ، ص ٨٧-٨٩ .

١- عن القضاء على النفوذ البيزنطي في المغرب ، و جهود عبد الله بن سعد بن أبي سرح ، و حسان ابن النعـمـان في ذلك أنظر المالكي : رياض النفـوس ، ج١ ، ص ٣٠ - ١٣٨ - ابن عـذارى : المصدر السابق والجزء ، ص ٣٤ -٣٩ - ابراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ الاول ، والجزء ص ٩٦ - ٩٧ سعد زغلول عبد الحميد : نفسه ص ٢١٤ -٢٤٥ - السيد عبد العزيز سالم : نفسه ، ص١٥٤-١٦٥ - حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية في افريقة ، الجزء الأول، ص ١٥٩ - شارل اندرى جوليان : تاريخ أفريقيا الشمالية - تونس - الجزائر - المغرب الاقصى من الفتح الاسلامي إلى سنة ١٨٣٠ م . الجزء الثاني ، النشرة الثانية ، ص ٢٠ .

الأمـر للإسلام والمسلمـين ، فقـاوموا أشـد المقاومة (١) علاوة على الدور العلمي والثقافي الذي أدته منذ تأسيسها في نشر الإسلام بين البربر .

يبقى أن نشير أخيراً إلي أن ضرورة التسلسل التاريخي والموضوعي للأحوال السياسية للمغرب في تلك الفترة الزمنية موضوع الرسالة ، هي التي قادتنا إلى ذكر هذه الخلاصة عن فتح المغرب ومراحله وإلاَّ فإنه من غير المنطقي أن نبحث خلال هذه الفتوحات عن الحياة العلمية بكافة أوجهها ، لأن ذلك أمر لايستقيم له منطق في ظل الفتوحات وعدم الاستقرار . مع ذلك فلا يمكننا أن نستعبد ظهور مؤشرات حركة علمية توحي بها المحاولات المستمرة لنشر الإسلام بين البربر . وهل يمكن حدوث ذلك دون أن تصحبه عملية تعلم البربر لأصول ومبادئ الإسلام على يد الصحابة والتابعين الذين كانوا يصحبون هذه الحملات في غدوها ورواحها . مع مايصحب ذلك من انتشار اللغة العربية وعاء الدين ؟؟

---

(١) عن القيروان وظروف بنائها ، وأسباب اتخاذها قاعدة عسكرية في ذلك الموضع أنظر محمد التونجي : عقبة بن نافع فاتح ليبيا والمغرب ، ص ٢١٠ – ٢٢٢ – محمود شيت خطاب : نفسه ، ص ١٢٢– ١٢٧.

عصر الولاة : ٩٦ - ١٨٤هـ/٧١٥- ٨٠٠م :

يلوح لبعض المؤخين القدامى والمحدثين ، القول بأن عصر الولاة في المغرب ، هو الذي يبدأ من عام ٥٠هـ ، أي منذ حملة عقبة بن نافع الأولى (١) ، ويصر بعضهم على ذلك فيذكر أن عددهم بلغ ستة وعشرين أميراً بدءاً بعقبة بن نافع وحتى محمد بن مقاتل العكي ، أي منذ عام ٥٠هـ- حتى عام ١٨٤هـ (٢) .

لكننا في الحقيقة لانذهب هذا المذهب ، فعصر الولاة كما يتراءى لنا لم يبدأ إلاَّ منذ اللحظة التي تم فيها فتح المغرب جميعه ، بحيث يكون الوالي : حاكماً مدنياً أكثر منه حاكماً عسكرياً (٣) . ولهذا فحتى حملة موسى بن نصير - ناهيك عن حملة حسان بن النعمان - كما يبدو لنا لاتنطبق عليها هذه الصفة . (٤) وعلى هذا فإننا مع الرأي الذي يرى أن عصر الولاة هو الذي يلي حملة موسى بن نصير وحتى ولاية محمد بن مقاتل العكي .

---

(١) أنظر مثلا المالكي : المصدر السابق والجزء ، ص ٦-٨ ، ١٨- ٢٨ - ابن عذارى : المصدر السابق والجزء ص ١٩- ٤٦- الرقيق القيرواني : تاريخ افريقية والمغرب ، قطعة منه تبدأ من أواسط القرن الأول إلى أواخر القرن الاثني الهجري ، ص ٣٩- ٨٩ - سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ١٨٣-٢٦٥ .

(٢) الطاهر أحمد الزاوي : نفسه ، ص ٢٠٤ .

(٣) يذهب السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص١٧٥ إلى أن عصر الولاة هو الذي تلا حملة موسى بن نصير ، وعنده أنه هو الذي يبدأ بولاية محمد بن يزيد مولى قريش ، وقد مهد لذلك بقوله (ولاة المغرب بعد موسى بن نصير) - أما رابح بونار فيذكر في كتابه : المغرب العربي تاريخه وثقافته ص١٨ ، بأن عصر الولاة يطلق على الفترة التي أعقبت الفتح الإسلامي لشمال أفريقيا ، ويقول مانصه بالحرف الواحد (وقد كان الوالي فيها حاكماً مدنياًأكثر منه حاكماً حربياً)

(٤) رابح بونار : نفس المرجع أعلاه والصفحة .

وانطلاقا من هذا يمكننا القول بأن محمداً بن يزيد مولى قريش الذي ولاّه سليمان بن عبدالملك ولاية إفريقية والمغرب هو أول والٍ لبلاد المغرب ، وقد حكم المغرب بين عامي : ٩٦- ١٠٠هـ ، ٧١٥-٧١٨م ، ثم تتابع الولاة بعد ذلك في عهدي الدولة الأموية فالعباسية ، فجاء إفريقية والمغرب بعده والياً كل من : اسماعيل بن عبدالله بن أبي المهاجر ١٠٠-١٠٢هـ/٧٢٠م ، ويزيد بن أبي مسلم ١٠٢هـ/ ٧٢٠م وبشر بن صفوان الكلبي ١٠٢-١٠٩هـ/ ٧٢٠-٧٢٨م ، وعبيدة بن عبدالرحمن السلمي ١١٠-١١٥هـ/ ٧٢٨-٧٣٣م ، وعبيدالله بن الحبحاب ، ١١٦-١٢٣هـ/ ٧٣٤-٧٤١م ، وكلثوم بن عياض القشيرى ١٢٣هـ/٧٤٨م ، ثم حنظلة بن صفوان الكلبي (١)-١٢٤-١٢٧هـ/ ٧٤١م ، ثم عبدالرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع الفهرى الذي تغلب على إفريقية والمغرب ، وبدأ معه حكم الأسرة الفهرية حيث اعترفت به الدولة الأموية قبل سقوطها فالعباسية والياً ، لكنها مالبثت أن سحبت اعترافها به. وقد حكم المغرب من هذه الأسرة بالإضافة لعبدالرحمن ١٢٧-١٣٧هـ/٧٤٥-٧٥٥م كل من : إلياس شقيقه ١٣٧-١٣٨هـ/ ٧٥٥-٧٥٦م ، ثم حبيب أبنه أي ابن عبدالرحمن ١٣٨-١٤٠هـ/٧٥٦-٧٥٧م (٢) .

---

(١) عن هؤلاء الولاة ، أنظر الرقيق القيرواني : المصدر السابق ، ص٩٣ -١٢٣- ابن عذارى ، المصدر السابق والجزء ، ص ٤٧-٥٩ - ابن ابي دينار : المصدر السابق ، ص ٣٩-٢٢ - محمد الباجي المسعودي : الخلاصة النقية في أمراء إفريقية ، ص ١٢-١٥- سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ٢٥٩- ٣١٠ - السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٢٠٢-٢٣٧ .

(٢) عن هؤلاء أنظر الرقيق القيرواني : المصدر السابق ، ص ١٢٣-١٤١- ابن عذاري : المصدر السابق والجزء ، ص ٦٠ - ٧١ - محمد الباجي المسعودي : الخلاصة النقيه في أمراء افريقية ، ص ١٥-١٨- سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ٣١٠-٣٣٩- السيد عبدالعزيز سالم: نفسه ، ٢٣٧ - ٢٥٢ .

ثم عهدت الدولة العباسية بالولاية على إفريقية لمحمد بن الأشعث الخزاعي ١٤٢-١٤٨هـ/٧٦٠-٧٦٥م ، فالأغلب بن سالم التميمي ١٤٨-١٥٠هـ/ ٧٦٥-٧٦٧م ، ثم عمر بن حفص بن قبيصة المهلبي ١٥١-١٥٤هـ/ ٧٦٨-٧٧١م، وبه بدأ عصر الأسرة المهلبية في المغرب كولاة من قبل الخلافة العباسية . وبعد مقتل عمر بن حفص أسندت الخلافة الولاية ليزيد بن حاتم ١٥٥-١٧٠هـ/ ٧٧٢-٧٨٨م ، ثم عندما توفي خلفه ابنه داوود والياً مؤقتاً ١٧٠-١٧١هـ / ٧٨٨م ، ثم روح بن حاتم شقيق يزيد ١٧١-١٧٤هـ / ٧٨٨- ٧٩١م ، فنصر بن حبيب ١٧٤- ١٧٨هـ ، وأخيراً الفضل بن روح بن حاتم ١٧٧-١٧٨هـ/٧٩٣- ٧٩٤م ، وبه إنتهى عهد الولاة من أسرته . (١)

وقد رأت الدولة العباسية أن تسند الولاية لهرثمة بن أعين ١٧٩-١٨١هـ /٧٩٥ - ٧٩٧ ثم محمد بن مقاتل العكي ١٨١-١٨٤هـ/ ٧٩٧- ٨٠٠م الذي كان أخر والٍ للدولة العباسية قبل أن يتم الإتفاق بينها وبين ابراهيم بن الأغلب ، وهو الاتفاق الذي ظهرت بموجبة الدولة الأغلبية نسبة إلى مؤسسها ابراهيم بن الأغلب . (٢)

---

(١) الرقيق القيرواني : نفس المصدر السابق ، ص١٤٢-٢٠٢- ابن عذارى : نفسه ، ص١٤٢-٢٠٢- ص ٧٠-٨٢ ، ٨٤-٨٨ - محمد الباجي المسعودي : نفس المصدر أعلاه ص ١٨ - ٢٠ - سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ٣٤٢-٣٨٦ - السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٢٥٣-٢٧٤

(٢) الاتفاق أو العقد السياسي الذي تم بين الرشيد وبين ابراهيم بن الأغلب كان ينص على أن يتنازل ابراهيم بن الأغلب عن الإعانة السنوية التي كانت ولاية إفريقية تتلقاها من الخلافة ومقدارها ، مائة الف دينار ، وقد تعهد ابراهيم بن الأغلب أيضا بأن يدفع لخزينة الدولة أو الخلافة سنوياً مبلغ أربعين ألف دينار ، مقابل أن تكون إمرة إفريقية له ولبنيه من بعده . أنظر سعد زغلول عبد الحميد : نفسه، ج٢، ص ٢٥-٣١ وكذلك محمود اسماعيل عبدالرازق : الأغالبة (١٨٤-٢٩٦هـ)=

عصر الولاة هذا في المغرب شهد أحداثاً جساماً ضخمة ، وكان المظهر العام للمغرب خلالها - تقريباً - الفوضى الشاملة والاضطرابات والفتن . ولم تشهد إفريقية والمغرب فترات من الهدؤ والسلام إلاّ في بعض عهود الأسرة المهلبية ، وفترات قصيرة جداً في عهود بعض الولاةً .

ولقد تنوعت تلك الأحداث ، لكن معظمها في الحقيقة لم يكن إلاّ نتيجة للحدث المؤسف وهو إساءة معاملة البربر ، والحرص على أخذ الجزية منهم على إسلامهم ، واعتبار أرضهم أرض فيئ . ولقد حمل وزر هذا التصرف بعض الولاة ، الذين كانوا ينفذون بلاشك رغبات بعض خلفاء بنى أمية في إصلاح الوضع المالي للدولة (١) .

وعاصر هذا تسرب الآراء الخارجية إلى المغرب بمذهبيها : الصفرى والإباضي حيث لقيت تلك الأراء هوى في نفوس البربر ، الذي رأوا في كثير من آرائها سنداً لموقفهم من الولاة الذين أساءوا معاملتهم وفرقوا في المعاملة بينهم وبين العرب ، ولقد تتابعت الأحداث سراعاً . فأعتنق معظم البربر الآراد الخارجية نكاية بالعرب وببعض الولاة الذي يتحملون تبعة تلك السياسة العصبية العنيفة . فكان أن وقعت الثورة الكبرى للبربر في بلاد المغرب والاندلس ضد الدولة الأموية وولاتها . واسفرت موقعتا : الأشراف وبقدورة عن اهتزار مركز الخلافة الأموية في بلاد المغرب ، مما خشى معه

= سياستهم الخارجية ، ص ٢٩-٣٢ ، وأنظر أيضا حاشية رقم ٨٦ ، ص٢٩ (حيث يرد محمود اسماعيل عبدالرزاق على من ينفى أن العقد خلا من الإرتباطات المالية) .

(١) أنظر مثلا سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ٢٦١-٢٦٢، ٢٨٢- ٢٨٤ مع الحواشي (فيما ينقله من مصادره المتعدده التي تحدثت عن هذا الموضوع) .

من خروج المغرب من سلطة الدولة الأموية ، حتى تمكن أحد الولاة المحنكين، وهو حنظلة بن صفوان الكلبي من إعادة الأمور إلى نصابها في البلاد (١).

بيد أن إفريقية والمغرب دخلا في دوامة جديدة من الفتن والقلاقل إبان حكم عبدالرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع ، الذي أطاح بالوالي الشرعي حنظلة بن صفوان ، وتولى الولاية بدلا منه ، وظلت الفوضى السياسية تضرب أطنابها طيلة حكم هذه الأسرة الفهرية ، إذ نشب الصراع العائلي بين أفرادها في الوقت الذي عادت للبربر قوتهم وسيطرتهم على البلاد ، حيث خلص المغرب كله للصفوية والإباضية من جديد ، وتكلل ذلك بتأسيس دولة صفرية في سجلماسة عام ١٤٠هـ ، هي الدولة المدرارية (٢) .

ولقد راع الدولة العباسية قسوة تلك الأحداث في المغرب فدفعت بوالٍ جديد هو : محمد بن الأشعث الخزاعي الذي استطاع بعد جهد أن يقضي على نفوذ الاباضية ويقتل زعيمهم أبا الخطاب المعافرى ، وأتاح هذا لاحقاً إلى أن يستجمع البربر لقواهم ، حيث نجحوا في تأسيس دولة إباضية في

---

(١) تقصى سعد زغلول هذه الاحداث باستفاضة وموضوعية في كتابه السابق ، معتمدا على أقوال المؤرخين والأخباريين المسلمين . أنظر المرجع السابق والجزء ، ص٢٨٤–٣١٠ مع الحواشي ،، أنظر كذلك السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٢١٣– ٢٣٦ .

(٢) عن دولة بني المدرار أو الدولة المدرارية وظروف قيامها والأحداث التي مرت بها حتى سقوطها ، أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢ ، ص٤٠٧–٤١٧ – محمود اسماعيل عبدالرزاق : الخوارج في بلاد المغرب حتى منتصف القرن الرابع الهجري ، ص ١١٢–١٤٣، ٢١٠–٢١٨. فقد تتبّعا وتقصيا في تحليل تارخي دقيق كل تلك الأحداث نقلا عن المصادر القديمة والمرجع العربية والمعربة ، وبما توصلا إليه من تعليلات واستنتاجات تاريخيه قيمة .

تاهرت بالمغرب الأوسط عام ١٦١هـ ، هي الدولة الرستمية (١) .

لكن المغرب شهد بعد ذلك صراعاً آخر ، أبطاله هذه المرة زعماء الجند العرب المقيمين في المغرب ، الذين رأوا أنفسهم أحق بالمغرب من الجند العرب القادمين إلى إفريقية (٢) تواً . وأسفرت الأحداث عن عزل الوالي محمد بن الأشعث ومقتل الوالي الجديد الأغلب بن سالم التميمي عام ١٤٠هـ/ ٧٦٧م ولقد استمرت الأمور كذلك تصل كل يوم حد الهاوية ، إلى أن رأت الخلافة أن تعهد بالولاية لأحد أبناء الأسرة المهلبية ذائعة الصيت ، وهكذا عهدت الدولة بالولاية لعمر بن حفص بن قبية لتدارك أمر المغرب .

وإذا كان عمر بن حفص المهلبي لم يستطع مقاومة التيار الزاحف الجامح من ثورات البربر جميعاً ضد الخلافة :صفرية وإباضية حيث انتهى الأمر بمقتله ، فإن سلفة يزيد بن حاتم المهلبي استطاع أن يواجه ثورات البربر بحزم وشدة ، حتى أتيح له أخيراً أن يعيد لإفريقية والمغرب هدؤهما المفقود (٣) ؛ واستمرت الأمور هادئة حتي وفاته سنة

---

(١) عن الدولة الرستمية ، وظروف قيامها والأحداث التي مرت بها حتى سقوطها ، أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢ ، ص ٢٨٦- ٤٠٦ (بتوسع شديد) - محمود اسماعيل عبدالرزاق : نفس المرجع ، ص١٤٤- ٢٠٨، ص ٢٢٩- ٢٣٤ - على يحى معمر : الإباضية في الجزائر « الإباضية في موكب التاريخ » الطبعة الأولى ، ص ١١ - ١٢٦ ، فهؤلاء المؤرخون المحدثون في طليعة من كتب عن الدولة الرستمية .

(٢) عن هذه الأحداث أنظر ابن الأبار : الحلة السيراء ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، ص٩ومابعدها- سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، الجزء الأول ، ص٣٤٤-٣٥٠ .

(٣) الرقيق القيرواني : نفسه ، ص١٤١ -١٦٨ - ابن عذارى : نفسه ، ص٧٥ - ٨٢ - الباجي المسعودي : المصدر السابق ،ص ١٩- ٢٠ - سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص٢٦٤ -٢٧٣ .

١٧٠هـ/٧٨٨م كما مربنا .

وبوفاته عادت الفوضى السياسية إلى المغرب ، وعاد البربر يثيرون المتاعب في وجه خلفه داوود بن يزيد ، وتزامن ذلك بنجاح أحد أبناء الأسرة العلوية في الفرار إلي المغرب الأقصى حيث قدر لإدريس بن عبدالله بن الحسن بن الحسن بن على بن أبي طالب أن يؤسس دولة علوية في المغرب الأقصى عام ١٧٢هـ ، عرفت بالدولة الأدريسية نسبةً إليه (١) . وحاول خلفاء يزيد بن حاتم تهدئة الأمور في إفريقية والمغرب إلاّ أن الصراعات العنيفة عادت لتظهر من جديد في ولاية الفضل بن روح بن حاتم عام ١٧٧هـ/٧٩٣م وذلك بين الجند في المغرب (الأبناء) (٢) ، وبين الجند القادمين حديثاً ، وانجلت الأمور عن مقتل الفضل بن روح ، وبالتالي زوال الوجود المهلبي عن المغرب .

ورأت الخلافة أن تعهد بولاية إفريقية لأحد قادتها العسكريين المعروفين وهو هرثمة بن أعين . وقد نجح هرثمة في أن يعيد للبلاد بعض هدوئها ، إلاّ أنه مالبث أن طلب الإعفاء ، فعينت الدولة محمداً بن مقاتل العكي بدلا منه . غير أن ثورات الجند ، مالبثت أن لاحقته ونجحت في إعفائه عن الولاية . يبد

---

(١) عن الدولة الادريسية ، وظروف قيامها ، والأحداث التي مرت بها حتى سقوطها ، أنظر ابن ابي زرع : الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب ومدينة فاس ص ١٢-١٠٢- سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢، ص ٤١٩-٤٧٩ - ابراهيم حركات المرجع السابق ، ص ١١١-١٤١ .

(٢) أنظر ابن الأبار : الحلة السيراء ، ج١ ،ص٧٧-٨٤ مع الحواشي ، سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج١، ص٣٧٩-٣٨٦ .

أن ابراهيم بن الأغلب بن سالم التميمي الذي كان عاملاً على اقليم الزاب تدخل لمصلحة الوالي الشرعي وأعادة لولايته ثانية (١) .

وقد دفع هذا الأمر الخليفة هارون الرشيد إلي أن يعهد لابن الأغلب بولاية إفريقية نظراً لكفاءته . ولقد أدى هذا إلى ظهور دولة مستقلة في المغرب الأدنى استقلالاً ذاتياً عن الخلافة تنفيذا للإتفاق أو العقد السياسي الذي وافق الخليفة بموجبه على قيام الدولة الأغلبية كما ذكرنا سابقاً .

الدول المستقلة في إفريقية ٠ المغرب الأدنى) : -

الدولة الأغلبية : ١٨٤-٢٩٦هـ/ ٨٠٠-٩٠٨م

فاز ابراهيم بن الأغلب بموافقة الخلافة العباسية على تأسيس دولة له ولبنيه من بعده ، نظير تعهده بالوفاء للشروط التي تم التعاقد على أساسها كما ذكرنا ، وظهرت بذلك دولة مستقلة ذاتياً عن الخلافة العباسية . ولقد قدر لهذه الدولة التي حكمت إفريقية (المغرب الأدنى) أن يستمر نفوذها مائة واثنى عشر عاماً (١٨٤-٢٩٦هـ) أي مايقارب مائة وثمانية أعوام ميلادية .

والواقع أن الخلافة العباسية لم تكن لتقبل بهذا الوضع لاسيما وأنها أول سابقة في تاريخها لو لم تكن هناك دوافع عديدة ، حتمت الخضوع لذلك الاتفاق ، أو العقد الساسي ، وفي الحقيقة فإن ظروف المغرب السياسية

(١) عن هذه الأحداث أنظر الرقيق القيرواني : نفسه ، ص ٢٠٣- ٢١٢ - ابن عذارى : نفسه والجزء ص ٨٦-٩٣ الباجي المسعودي : نفسه ، ص ٢٢ - ٢٥ - سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ٣٨٣- ٣٩٥- السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٢٧٤- ٢٧٩ .

وقتها كانت هي السبب الرئيسي في قبول الخلافة بقيام هذه الدولة في إفريقية ، فالخلافة كما رأينا أعيتها الحيلة أمام الفتن والاضطرابات المتواصلة التي كان البربر والجند العرب يثيرونها دائماً ضد الولاة ، الذين أزداد تقاطرهم نحو المغرب لاصلاح أوضاعه . ولم تفد تلك المحاولات شيئا ، بل تمكن البربر من إقامة دولتين لهما في المغربين الأوسط والأقصى ، وهما الدولة المدرارية والدولة الرستمية كما ذكرنا . غير أن الخطر الحقيقي الذي استشعرته الدولة العباسية ، تمثل في نجاح العلويين في تأسيس أول دولة لهم في المغرب الأقصى ، وهى الدولة الأدريسية . (١)

ولقد راع هذا الأمر الخليفة هارون الرشيد الذي يعرف الدلالة الخطيرة التي ينطوى عليها قيام دولة علوية من تهديد مباشر للخلافة من قبل أناس يرون أنهم أحق بالأمر من العباسيين ، وقدر الخليفة أن الأدارسة إذا نجحوا في تسكين المغرب الأقصى بالذات وهو الذي كانت تعصف به الثورات ، فإن نجاحهم في تسكين أوضاع المغربين الأدنى والأوسط لصالحهم ، أمر لايحتاج لكبير عناء . وبعد هذا فلايحول بينهم وبين مصر فالمشرق حائل ، لاسيما وأن إدريس بن عبدالله بدأ فعلاً يراسل المصريين من أتباعه (٢) أضف إلى ذلك أن دولة بنى رستم ودولة بني المدرار ، وإن

(١) أنظر السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ص٨٦-٢٨٩ - محمود اسماعيل عبدالرازق : الأغالبة سياستهم الخارجية ، ص٣٠-٣١ مع الحواشي .

(٢) السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص٢٨٨- محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه المرجع أعلاه ، ص ٣١ مع الحواشي .

كانتا دولتين خارجيتين إلاّ أنهما تشتركان مع الأدارسة في العداء للعباسيين.

ولذلك رأى الخليفة أن يبقى على النفوذ العباسي في المغرب ، حتى ولو كان اسمياً ، بأن يضع أسرة تكون حاجزة بينه وبين الأدارسة ، تتحمل هي من واقع مصالحها الذاتية عبء مدافعة الأدارسة بالدرجة الأولى ، وعبء التصدي لفتن البربر والجند العرب بالدرجة الثانية ، وعلى ضوء هذا نستطيع فهم الاتفاق السياسي الذي تم بين الخليفة هارون الرشيد ، وإبراهيم بن الأغلب . أما مايثار من أقوال بأن متاعب الخلافة في المشرق ، أو وصول الخلافة إلي تصور واضح ، وهو عجزها عن مواجهة أحداث المغرب ، ومن ثم نفض يدها من المغرب جملةً بذلك الاتفاق مع الأغالبة ، أو الرضي بالعرض المالي الذي (١) عرضه ابراهيم ، فإنه لايعول عليه ولايمكن أخذه كسبب أو أسباب رئيسية في قبول الخلافة بالاتفاق مع ابراهيم ابن الأغلب ، ولكن أوضاع المغرب التي شرحناها هي السبب الرئيسي في ذلك .

وكيفما كان الأمر ، فقد قامت الدول الأغلبية في إفريقية (المغرب الأدنى) نتيجة لذلك الاتفاق السياسي الذي تم بين الخلافة العباسية وبين ابراهيم بن الأغلب مؤسس الدولة . وسنشير هنا في إيجاز لمجمل الأحداث التي شهدتها إفريقية في عهد الأغالبة كما أوردنا من قبل وهو أن نتعرض للأحوال السياسية في المغرب الأدنى في الفترة موضوع البحث في إيجاز يوضح لنا المناخ السياسي وقتها .

---

(١) أنظر محمود اسماعيل عبدالرازق ؛ نفسه ، ص٣٠-٣١ .

ولعل أو مايمكن ملاحظته في عهدهم هدوء الثورات التي كان يشعلها البربر والجند العرب ، وماظهر من مقاومة في بعض الفترات ، استطاع الأمراء الأغالبة أن يقضوا عليها أخيرا ، وخاصة ثورات الجند العرب في عهد زيادة الله الأول (١) بن ابراهيم الأغلب : (٢٠١-٢٢٣هـ/ ٨١٧-٨٣٨م) أما البربر الخوارج وبعد أن أفلحوا في تأسيس دولتين خارجيتين لهما وهما الدولة الرستمية والدولة المدرارية ، فقد سكنت ثوراتهم تقريباً إلا من بعض أحداث متفرقة (٢) ، ويبدو أن البربر قد وجدوا في قيام الدولة الأغلبية تحقيقاً لأمانيهم وإرضاءً لنزعاتهم الإقليمية ، وتتويجاً لنضالهم من أجل الاستقلال عن سلطان الخلفاء (٣) ، ومما يساعد في توضيح هذا الأمر أيضا ، الإشارة إلى أن المغرب الأدنى لم تكن تتركز فيه كثافة سكانية بربرية كتلك التي كانت موجودة في المغربين الأوسط والأقصى .

وعلى عهد الأغالبة فتحت جزيرة صقلية ليس هذا فحسب ، وإنما وأجزاء من الجنوب الإيطالي ، وكذلك بعض الجزر الإيطالية الأخرى ، وهو فتح مجّد دور الأغالبة في التاريخ ، وغدت صقلية في وقت من الأوقات الرئة

---

(١) كانت الثورة التي أشعلها منصور الطنبذي في مدينة تونس ، وهو أحد القادة العرب المعروفين في إفريقية آنذاك أخطر ثورات الجند العرب التي شهدتها الدولة الأغلبية ، ومع أن عهد أبيه شهد ثورة عمران بن مجالد ، وهو أحد رؤساء الجند العرب أيضا ، إلا أن ثورة منصور الطنبذي كانت أخطر وأعنف ، وكادت تؤدي بالدولة الأغلبية . أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج ٢، ص ٤٦-٥٩ - محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص ٣٢- ٣٥، ٣٧، ٣٨ .

(٢) عالج محمود اسماعيل عبدالرازق هذه النقطة بتقصٍ شديد من مصادر ومراجع عربية وأجنبية - أنظر المرجع السابق ص ١٠١-١١٢ (فقرة بعنوان : الأغالبة والرستميون) .

(٣) محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه : ص٢٢ .

التي تتنفس عن طريقها إفريقية والمغرب (١) .

واتسمت العلاقات في عهدهم مع الدول التي استقلت عن الدولة العباسية في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري - وبعضها قبله ، كدولة بني مدرار في المغرب والدولة الأموية في الأندلس بطابع العداء . غير أن ذلك العداء اختلف وقعه بين النفور والتصادم المسلح بينهم وبين كل من : الدولة الرستمية في تاهرت ، والدولة المدرارية في سلجماسة والدولة الإدريسية في فاس ، والدولة الأموية أخيراً في الأندلس . (٢)

وعلى عهد الأغالبة شهدت إفريقية استقراراً اقتصاديا ، وتمتعت البلاد ببحبوحة من العيش الرغيد (٣) ، وشمل التطور الحياة الإجتماعية (٤) ، حيث ذابت الخلافات العنصرية تقريباً بين العناصر التي كانت متصادمة أبداً : العرب البربر - ولم يكن الجانب العمراني بمنأى عن

---

(١) عن الفتح الأغلبي لجزيرة صقلية والجزر الأخرى في الجنوب الإيطالي ، أنظر أحمد توفيق المدني: المسلممون في صقلية وحنوب إيطاليا ، ص٤٧-١٠٨ - عزيز أحمد : تاريخ صقلية الإسلامية ، نقله إلى العربية وقدم له مع إضافة حواش وتعليقات مناسبة أمين توفيق الطيبي : ص٨-٢٢، ١٣-٣١ ، إحسان عباس : العرب في صقلية ، دراسات في التاريخ والأدب ، ص٣١ -٣٩ .

(٢) أنظر محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص٩٧-١٣٣ .

(٣) راجع السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص٣٢١- ٣٢٨ .

(٤) راجع سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢، الفصل الأول (قيام الأغالبة في القيروان - السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص٣٢٩- ٣٣٥- وأنظر كذلك حسن حسني عبدالوهاب: ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية وهو عبارة عن موسوعة أدبية وتاريخيه وثقافية وفنية لإفريقية في العصور الإسلامية في عهود الولاة والأغالبة والفاطميين والزيريين . ويصعب ايضاح الصفحات عن هذه المجالات التي أوردناها في المتن ذلك لأنها مبثوثة في كل صفحات هذه الموسوعة دون ترتيب .

هذا التطور ، فقد خلدت كتب التاريخ والأدب لهم أعمالاً عمرانية (١) مرموقة، يأتي على رأسها تأسيس بعض المدن التي أصبحت ذات شأن بعيد كالعباسية (القصر القديم) (٢) ورقادة .

وعلى عهدهم قدر للحياة العلمية أن تقوى وتشتد في جميع أوجه مناحيها المختلفة من دراسات شرعية وأدبية ، إلى علوم إنسانية وتجريبية . ولقد تم ذلك في بعض أوجهه إلى العناية التي كانوا يولونها للعلم والعلماء ، والأدب والأدباء بالإضافة إلى جهود العلماء والأدباء الفردية مما سنوضحه في مكانه المناسب . وسيطرق سمعنا لاحقاً إن شاء الله أسماء العديد من أولئك الأمراء الأغالبة ، وسنبين مجهوداتهم في الارتقاء بالحياة العلمية في إفريقية في الفترة الزمنية موضوع الرسالة .

على أن هذه الدولة دب فيها أخيراً داء الأمم الذي يصيبها بعد أن تصل الذروة ، فبدأت سطوتها تضعف نتيجة لإنتهاج آخر الأمراء من الأغالبة لسياسات سيئة عجلّت بسقوط دولتهم وتزامن ذلك مع ازدياد النفوذ الشيعي الذي تسلل إلى المغرب في فترات ضعف الدولة ، وأنتهى الأمر بسقوط هذه الدولة على يد داعي الفاطميين الشيعة ، أبو عبدالله الشيعي ، عندما فضّل زيادة الله الثالث آخر حكام هذه الدولة الإنزواء في المشرق بعد أن أسقط كل شيء في يده . (٣)

---

(١) عن منشآت الأغالبة العمرانية أنظر السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص٣٣٦-٣٧٥ .

(٢) عن العباسية ورقادة أنظر - بعد ص ١٤٨، ١٥٢ .

(٣) عن هذه السياسة السيئة أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢، ص١٢٦-١٤٨، ١٦٠-١٨٠- محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص١٩١-٢٠٨ .

هذا المصير الذي لاقته الدولة الأغلبية على يد الفاطميين تعرضت له الدويلات الأخرى المستقلة في المغرب ، كالدولة الرستمية والمدرارية ، حيث سقطت جميعها بيد الفاطميين في مدة زمنية متقاربة .

الدولة الفاطمية (العبيدية): ٢٩٦/٣٦٢هـ/٩٠٨-٩٧٣هـ :

في الفترة الأخيرة من عهد ابراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب نجح دعاة الشيعة الإسماعيلية (١) في التسلل نحو المغرب ، وخاصة المغرب الأوسط ، حيث استطاعوا أن يتصلوا بزعماء قبيلة كتامة ، وهي إحدى أشهر القبائل البربرية على الإطلاق . ولقد نجحت جهودهم في استمالة أعداد كبيرة من أبناء قبيلة كتامة وغيرها . ثم أتبع المشرفون على الدعوة الإسماعيلية هؤلاء ببعث أحد أشهر دعاة الإسماعيلية ، وهو أبو عبدالله / الحسن بن أحمد الصنعاني المعروف بالشيعى ، واستطاع أبو عبدالله أن يتصل بزعماء كتامة ، كما أستطاع أن يستأنف الدعوة للمذهب بينهم وقد نجح في مسعاه ذلك نجاحاً كبيراً (٢) .

---

(١) عن الشيعة الاسماعيلية ، الذين يدعون إلى إمامة اسماعيل بن جعفر الصادق ، أنظر برنارد لويس : أصول الاسماعيلية بحث تارخي في نشأة الخلافة الفاطمية . نقله إلى العربية خليل أحمد جلو وجاسم محمد الرجب وقدم له عبدالعزيز الدورى ، ص٤٨- ١٦٣- حسن ابراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص ١-٤٣ وقد تتبعا في تقصٍ تاريخي دقيق بداية المذهب الشيعي وفرقة المختلفة من بطون المصادر والمراجع العربية والمعربة قديما وحديثا .

(٢) عن هـذه الأحداث التي أدت في النهاية إلى قيام الدولة الفاطمية ،أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢، ص ١٦٢-١٨٣ - السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٥٠٧- ٥١٥ - حسن ابراهيم حسن : نفس المرجع اعلاه ، ص ٤٣-٦٥- محمد جمال الدين سرور : =

ورأى أبو عبدالله الشيعى أن ينتقل بالقضية من مرحلة الدعوة والإعداد ، إلى مرحلة المواجهة مع القوى الكبرى في المغربين : الأدنى والأوسط . وهم الأغالبة والرستميون وكان الدولة الأغلبية قد بلغت في الفترة الأخيرة من عمرها مرحلة سيئة من الضعف والانحلال وخاصة في عهود أمرائها الثلاثة الأخر : ابراهيم ابن أحمد وابنه عبدالله ، ثم زيادة الله بن عبدالله (١) .

وأتاح هذا للدعاة الإسماعيلية استغلال أحوال الدولة الأغلبية السيئة ، فكثفوا جهودهم في نشر الدعوة الشيعية بين البربر بقيادة داعي الإسماعيلية الخطير أبي عبدالله الشيعي وهو ماتحقق لهم بالفعل ، فانتقلوا بالقضية كما ذكرنا من مرحلة الدعوة والاعداد إلى مرحلة المواجهة العسكرية مع الدولة الأغلبية . ولايهمنا من تفاصيل الصراع والمواجهة العسكرية بين أبي عبدالله الشيعى وجيشه من البربر ، وبين الأغالبة ، إلاّ ماتمخضت عنه الأحداث في النهاية ، من سقوط الدولة الأغلبية نهائياً عام ٢٩٦هـ ، وسقوط الدويلات الأخرى ، المستقلة بالمغرب : المدرارية والرستمية، ومن ثم الإدريسية . وقد ترتب على هذا بطبيعة الحال ، خلوص المغرب جميعه للفاطميين الإسماعيلية ، اللذين نجحوا في تأسيس دولة شيعية في المغرب كله . وهو ما أعلنه عبيد الله المهدى أول خلفائهم من على منبر رقادة عام ٢٩٧ .

= الدولة الفاطمية في مصر سياستها الداخلية ومظاهر الحضارة في عهدها ، ص١٨-٢٤. هذه المراجع اهتمت بالتفاصيل الواسعة لهذه الأحداث وعالجتها بتعليلات علمية مهمة .

(١) عن هذه الأحداث ، أنظر محمود اسماعيل عبدالرزاق : نفسه ، ص١٩١-٢٠٨ .

ولقد تعاقب على حكم المغرب خلال الفترة التي عاشها الفاطميون هنا، أربعة خلفاء هم :- عبيد الله المهدي : مؤسس الدولة ٢٩٧-٣٢٢هـ/ ٩٠٨-٩٣٤م ، ثم ابنه أبو القاسم محمد بن عبيدالله ويدعى نزاراً أيضا ، ولقب بالقائم بأمر الله ٣٢٢-٣٣٤هـ/٩٣٤-٩٤٦م ، ثم ابنه أبو الطاهر إسماعيل بن محمد بن عبيدالله ، الذي لقب بالمنصور ٣٣٤-٣٤١/ ٩٤٦-٩٥٣م ، وأخيراً ابنه أبو تميم معد بن إسماعيل بن محمد بن عبيدالله الذي لقب بالمعز لدين الله٣٤١-٣٦٥هـ/٥٩٣ - ٩٦٦م ، والذي غادر المغرب نهائيا إلي مصر عام ٣٦٢هـ .

يبقى أن نشير إلى أن للمؤرخين القدامى والمحدثين من المؤرخين المسلمين وكذلك نفر من المستشرقين أقوال مختلفة في مسألة صحة نسب هؤلاء الفاطميين إلى علي بن أبي طالب رضى الله عنه والسيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها . فمن منكر شديد الإنكار إلى مؤيد يدعم رأية بالحجج والبراهين كما هو حال المنكرين (١) . ونحن لايهمنا ، بل ليس من

---

(١) مسألة نسب الفاطميين من أعصى المسائل التاريخية التي اختلف حولها كثيرا . ولقد انقسم المؤرخون القدامى وبعض من الباحثين حول هذه المسألة إلى فريقين : معارض ويشكلون الأكثرية ومؤيد ويشكلون أقلية ، وأدلى بعض المستشرقين بدلوه أيضا حول هذا الموضوع . انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان وأنباه أبناء الزمان ، تحقيق إحسان عباس ، المجلد الثالث ، ص١١٧، وأنظر كذلك الحاشية رقم ١٠-ص١١٩ التي علق بها المحقق على موضوع نسب الفاطميين - ابن حماد : أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ، تحقيق ودراسة التهامي نقرة وعبدالحليم عويس ، ص ٣٥ ، وأنظر بعناية المقدمة التي قدم بها المحققان الكتاب ، ، وأنظر كذلك الحاشية رقم (١) ، (٣) من ص٣٥ حيث علّقا على قول ابن خلدون الذي يذهب إلى صحة نسب الفاطميين ، والذى أورده ابن حماد في المتن بقولهما بأن ذلك يعد من =

شرطنا أو شرط بحثنا الوقوف عند هذا الموضوع ، ولذلك فإننا سنمر عليه عند إقتضاء الحاجة لذلك في القسم الثاني مروراً سريعاً .

ولقد شهدت إفريقية والمغرب في عهد هؤلاء الفاطميين أحداثا جساما سنجعلها هنا إقتضاءاً لما ذهبنا إليه من الإيجاز ، وأول مايمكن ملاحظته من خلال حكمهم لبلاد المغرب كله ، أنهم لم يلقوا قبولاً من معظم سكان المغرب ، نظراً للإختلاف المذهبي الواضح بينهم ، وبين جل السكان الذين يتمذهبون بالمذهب المالكي ، والذين يشككون بالإضافة إلى ذلك في صحة نسب عبيدالله المهدي وبنيه ، وسنتبين هذا الأمر بوضوح من خلال حديثنا عن أثر الصراع المذهبي بين المالكية والشيعة على الدراسات الشرعية (١) .

الأمر الثاني الذي يمكن استخلاصة من حكمهم المغرب ، هو أن المغرب جميعه لم يستكن لهم ، فبجانب الخلاف مع السنة الذين يشكلون غالبية السكان ، تعددت ثورات البربر في المغربين الأوسط والأقصى ، وأمضى معظم خلفائهم أوقاتاً عصيبة في مواجهة الثورات المتلاحقة عليهم من البربر (٢) وحتى قبيلة كتامة ، وهي الساعد الأيمن الذي اعتمد عليه أبو

= أكبر هفوات ابن خلدون التاريخيه – جلال الدين السيوطي : تاريخ الخلفاء تحقيق محمد محي الدين عبدالحميد ، ص٤-٦، ٥٢٤-٥٢٥ ابن أبي الضياف : إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، الجزء الأول ، ص ١٥٥، وأنظر الحاشية رقم (٥) من نفس الصفحة – حسن إبراهيم حسن : تاريخ الدولة الفاطمية ، ص١٧٥ -٧٩ – برنارد لويس : أصول الإسماعيلية ولافاطمية والقرمطية، ص ٤٨ – ١٦٣ .

(١) أنظر بعد ص ٥٢٨ ومابعدها .

(٢) انظر ابن حماد : أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ص ٣٥-٩٢- ابن عذارى : نفسه ، ص ١٤٩- ٢٢ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، المجلد الأول ، ص٢٣٤- ٢٣٦- المجلد الخامس ، =

عبدالله الشيعي في قيام الدولة الفاطمية شعرت بأنه لم ينلها من المكاسب والمصالح شيئا وأن جهودها ذهبت هباء (١) .

غير أن الحدث الضخم الذي هز الدولة وكيانها هزاً عنيفاً تمثل في الثورة الكبرى التي أشعلها الثائر البربري الخارجي أبو يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الذي كاد أن يطيح بالدولة الفاطمية نهائياً . وشغلت ثورته التي أندلعت في أواخر عهد الخليفة المهدي ، كل خلافة القائم بأمر الله ، وجزءاً من خلافة المنصور بن القائم حتى استطاع المنصور أخيراً أن يقضي على ثورته العظمي هذه عام ٣٣٦هـ كما سيتضح لنا لاحقا في مكانه من القسم الثاني إن شاء الله (٢) .

وفي عهد الفاطميين في المغرب تتابعت جهودهم في مواصلة الفتوحات في الجزء الجنوبي من إيطاليا، كما تتابعت إهتماماتهم بجزيرة صقلية بالإعتناء في إختيار الولاة عليها ، كالأسرة الكلبية التي قدر لها أن تتولى أمر صقلية من قبلهم مدة زمنية طويلة (٣) . وفي عهدهم كان المغرب الأقصى بين مد وجزر في تبعيته للدولة الفاطمية ، أو الدولة الأموية في

= ص ١٩-٢٠ وص ٢٣٤- ٢٣٦- المجلد الخامس ، ص ١٩-٢٠ وص ٢٢٤- ٢٢٨- حسن ابراهيم حسن : المرجع السابق ، ص ٨٣ -٩٧ - محمود إسماعيل عبدالرازق : الخوارج في بلاد المغرب ، ص ٢١٠ ٢٥٤ .

(١) أنظر السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص٥١٥-٥١٧ .

(٢) أنظر بعد ص : ٥٣٥ .

(٣) أحمد توفيق المدني : المسلمون في صقلية وجنوب إيطاليا ، ص ١٠٩-١٣٣- عزيز أحمد : تاريخ صقلية الإسلامية ، ص ٣٢ - ٤٨- إحسان عباس : العرب في صقلية ، ص ٣٩-٤٨ .

الأندلس أو زعماء قبيلة زناتة ، الذين كانوا كثيرا مايبسطون نفوذهم على المغرب الأقصى خالعين طاعة الفاطميين (١) . وأدى هذا بالدولة الفاطمية إلى أن تصطنع قبيلة بربرية أخرى منافسة لزناته ، هي قبيلة صنهاجة ، التي غدت الساعد الأيمن للخلافة الفاطمية ضد خصومها (٢) وهيأ هذا لقبيلة صنهاجة تولى أمور المغرب جميعه بالنيابة عن الفاطميين ، عندما قرروا الرحيل إلى مصر .

ولقد كان التطلع إلى مصر والشرق الهاجس الذي يشغل بال كل الخلفاء الفاطميين إبتداء بالمهدي ومروراً بالقائم والمنصور ، وانتهاءاً بالمعز لدين الله . ولا أدل على ذلك من أن كل هؤلاء الخلفاء ماعدا المنصور ، الذي شغل بالقضاء على أبي يزيد اليفرني - جرب أو عمل فعلاً على إرسال الجيوش لفتح مصر ، وهو الأمر الذي تحقق أخيراً للمعز ولقائده جوهر الصقلي (٣) .

---

(١) ابن حماد : المصدر السابق ص ٤٤ ومابعدها - المالكي : المصدر السابق والجزء ، المقدمة التي قدم بها المحقق حسين مؤنس الكتاب ، ص ١٨م - ١٩م - السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٥٢٣-٥٣٢ .

(٢) أنظر المالكي : المصدر السابق ، والجزء ، مقدمة المحقق ص ١٥م - ١٦م - عبد الحليم عويس : المرجع السابق ، ص ٣٧-٣٨ مع الحواشي .

(٣) كان حسن إبراهيم حسن أفضل من تتبع هذا الموضوع بكل ظروفه وأسبابه ، سواء كان ذلك في المصادر القديمة أو الحديثة أو في المراجع الأجنبية . أنظر تاريخ الدولة الفاطمية ، الباب الرابع كله ، ثم ص١٤٩- ١٥١ من الباب الخامس .

وأخيراً فإن المتتبع للأوضاع الإقتصادية والإجتماعية والعلمية والأدبية والعمرانية (١) وغيرها ، لايمكن له إلا أن يقرر بأن المغرب شهد بهذه الأوضاع تطوراً ورقياً لايقل إن لم يفق ماشهدته البلاد في عهد الأغالبة (٢) وسيتضح لنا من الحديث عن الحياة العلمية بكل أوجه معارفها التي سترصدها مقدار مابلغته من تقدم وازدهار في عهدهم . وهذا شيء يمكن توقعه وحصوله إذا ماتبينا حقيقة مهمة ، وهي أن خلفاء الفاطميين بالمغرب ، كانوا علماء وأدباء في نفس الوقت ، ومن هنا أعطوا الحياة العلمية حق قدرها .

---

(١) من جلائل الإنشاءات العمرانية التي تنسب إلى الفاطميين في المغرب بناؤهم لعده مدن أصبحت في وقت من الأوقات ذات أهمية كبرى ، فالخليفة المهدى مؤسس الدولة ، إبتنى مدينة جديدة له إلى الشرق من مدينة سوسة وأمامها على طرف داخل في البحر كهيئة كف مفصل بزند بالبحر ، وسميت المهدية نسبة اليه نفسه . وكان ذلك عام ٣٠٣هـ ، عندما شعر بعدم الأمان في مدينتي القيروان ورقادة ، حيث المعارضة البربرية والسنية . أما ابنه أبو القاسم القائم بأمر الله محمد ، فقد ابتنى هو الأخر مدينة في المغرب الأوسط ، وبالذات في إقليم الزاب سميت بالمسيلة ، وكان ذلك عام ٣١٥هـ ، وتسمى أيضا المحمدية نسبة إليه . وبنى المنصور مدينة جديدة إحتفاءاً بإنتصاره على ثورة أبي يزيد مخلد ابن كيداد الخارجي ، وقد سميت المنصورية نسبة إليه ، أي إلى المنصور سنة ٣٣٧هـ وهي تبعد عن القيروان نصف ميل وتسمى كذلك مدينة صبرة .أنظر البكرى : المصدر السابق ص٢٩ ومابعدها ، ٥٩ ، ومابعدها ، ص٢٥ عن صبرة أو المنصورية – ابن خلكان : المصدر السابق ، المجلد الأول عن بناء المسيلة ، ص ٢٣٥ – وص ٢٣٥ عن مدينة المنصورية ، المجلد الثالث ، ص ١١٨ المهدي الكناني القيرواني : تكميل الصلحاء والأعيان لمعالم الايمان في أولياء القيروان ، تعليق رقم ٢٥٩ – ص١٨٦ – حسن حسنى عبدالوهاب : خلاصة تاريخ تونس ، ص٩٧-٩٨ ، ص ١٠٠ ، ١٠٤ .

(٢) أنظر موسوعة حسن حسني عبدالوهاب : الحضارة العربية بإفريقية التونسية .

الدولـــة الزيـريــة أو الـصنهـــاجــيـــة : ٣٦٢-٥٤٣هـ/ ٩٧٢-١١٣٨م : -

لم تكد الدولة الفاطمية تنتصب في المغرب حتى وجدت في قبيلة صنهاجة السند والمعين القوى ، وفي الوقت الذي أخذت فيه قبيلة كتامة تراجع حساباتها ، كان زيرى بن مناد زعيم قبيلة صنهاجة ، ومن ثم ابنه بلكين أويلقين يقفان قلباً وقالباً مع الخلافة ضد خصومها .

لقد كانت المشكلة التي تقلق بال الخليفة المعز لدين الله وهو يتهيأ للرحيل النهائي إلى مصر هي كيفية المحافظة على النفوذ الفاطمي في المغرب ، وخاصة وهو الذي يعرف أكثر من غيره صعوبة ذلك ، حتى في ظل وجودهم الفعلي . ولذلك فقدب توصل إلى حقيقة مهمة ، وهي ضرورة إشغال المغرب في فتن متلاحقة يضرب قبائله بعضها ببعض حتى لاتفكر هذا القبائل في الخروج على الدولة ، ولو مؤقتا (١) .

وهكذا فقد استدعى المعز بلكين بن زيرى بن مناد ، الذي لعب دوراً بارزاً في تثبيت سلطة الدولة الفاطمية ، وعهد إليه بحكم المغرب من بعده . ومع أن بلكين مانع في ذلك ، إلاَّ أنه لم يجد مفراً من القبول . ولم يكتف الخليفة بذلك ، بل أنعم عليه بلقب سيف الدولة ، أوسيف العزيز بالله ، وكناه بأبى الفتوح ، بل أطلق عليه اسماً آخر هو

---

(١) في هذا الصدد راجع التعليق الموضوعي الذي علق به أحمد مختار العبادي في مقاله : سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس الذي نشر في صحيفة معهد الدراسات الاسلامية في مدريد ، المجلد الخامس ، ١٩٥٧/١٣٧٧هـ .

يوسف (١) . وما أن غادر المعز إلي مصر ، حتى بدأت الدولة الزيرية أو الصنهاجية فعلاً – وكان هذا الحدث في الحقيقة نقطة تحول تاريخية في المغرب كله ، إذ بقيام هذه الدولة انتهى حكم العرب الفعلي في المغرب كله (٢) . وكان قيامها إيذاناً بنشوء الدول البربرية المستقلة ، وأصبح ينظر إليها من قبل البربر في المغرب الأدنى على أنها أول دولة بربرية صرفة تعبر عن الشعور بالإستقلال والخروج عن التبعية العربية (٣) ، وعلى مافي هذا القول من صحة هذا ، فإن الواقع التاريخي يقر بأن هذه الدولة وغيرها من الدويلات البربرية المستقلة بعد ظلت عربية المنزع (٤)

وكيفما كان الأمر فقد تعاقب على حكم هذه الدولة ثمانية أمراء أولهم أبو الفتوح بلكين أو بلقين بن زيرى كما ذكرنا ٣٦٢-٣٧٣هـ ثم ابنه المنصور ابن بلكين الذي أتاه تكليف الدولة الفاطمية ٣٧٣-٣٨٦هـ ولقب بعده العزيز بالله ويكنى بأبي (٥) الفتح ، ثم ابنه باديس بن المنصور ٣٨٦ - ٤٠٦هـ ولقبته الخلافة بنصر الدولة ويكنى بأبي مناد (٦) .ثم ابنه المعز بن باديس

---

(١) ابن عذارى : نفسه، ص٢٢٨ ومابعدها – ابن خلكان نفسه ، المجلد الأول ، ص ٢٨٦ -٢٨٧-ابن أبي الضياف : إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان ، ج١، ص ١٦٢-١٦٥ – خير الدين الزركلي : قاموس تراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين والمستشرقين، الجزء الثاني ، ص ٧٤ .

(٢) عبدالحيلم عويس : المرجع السابق ، ص ٢٩ .

(٣) عبدالحليم عويس : نفس المرجع السابق ، ص٣٨ .

(٤) أنظر المالكي : المصدر السابق ، ج١ ، مقدمة المحقق ، ص ٢٥م – وأنظر كذلك عبدالحليم عويس: نفس المرجع السابق ، حاشية رقم (١) ص ٣٩ .

(٥) ابن عذارى المصدر السابق والجزء ، ص ٢٣٩- ابن أبي الضياف : المصدر السابق ج١، ص٦٧

(٦) ابن عذارى : نفسه ، ص ٢٤٧- أبن خلكان : نفسه ، المجلد الأول ، ص٢٦٥- الزركلي =

٤٠٦- ٤٥٤هـ ويلقب بشرف الدولة (١) . وفي عهد المعز انقسمت الدولة الزيرية (٢) إلى دولتين بعد أحداث وانشقاق أسري : دولة في إفريقية وعاصمتها القيروان ثم المهدية ، وتُعرف بالدولة الزيرية التي احتفظت أو إحتفظ لها المؤرخون بالتسمية الأصلية لمؤسس الدولة : زيري ، ودولة أخرى في المغرب الأوسط عاصمتها أشير ثم القلعة (٣) ، ثم بجاية ، وتعرف بالدولة الحمادية نسبة إلى حماد بن بلكين بن مناد الذي نازع المعز حفيد شقيقه المنصور بعد أن كان قائدة ويده اليمنى الباطشة التي يضرب بها خصومة .

= الأعلام ، ج٢، ص٤١ .

(١) ابن عذارى : نفسه ، ٢٦٧- ٢٦٩- ابن خلكان : نفس المصدر السابق أعلاه ، المجلد الخامس ، ص ٢٣٣- ٢٣٦- الزركلي : نفس المرجع أعلاه ، ج ٢، ص٢٦٥

(٢) عن هذا الانقسام الأسرى فالسياسي ، راجع إسماعيل العربي : نفسه ، ص ٨٩ - ١١٨- عبد الحليم عويس : نفسه ص ٤٧-١٢٠ . وقد خلَّدا الدولة الحمادية بمصنفين إعتماداً على معظم المصادر والمراجع العربية والأجنبية التي تحدثت عن هذه الدولة بعد إنشقاق زعيمها حماد بن بلكين عن الزيريين .

(٣) مدينتا أشير والقلعة (قلعة حماد) كانتا عاصمتي الدولة الحمادية ، قبل مدينة بجاية ، ومدينة أشير وتنطق بمد الهمزة ، أو بدون ذلك ، وكسر الشين ، وسكون الياء المثناة من تحتها ، ثم راء مهملة ، تقع إلى الطرف الغربي من مدينة بجاية في المغرب الأوسط ، وقد بناها والد مؤسس الدولة الزيرية : زيري بن مناد ، الذي ينتسب إليه الزيريون والحماديون على السواء ، وذلك في عام ٣٣٤هـ ، ثم أصبحت عاصمة للدولة الحمادية . أما مدينة القلعة أو قلعة بني حماد بدون (بني) فتقع في مكان حصين في جبل يدعى جبل عجيبة البر . في المغرب الأوسط ، وقد بناها حماد مؤسس الدولة الحمادية عام ٣٩٨هـ ، واتخذها عاصمة له . أنظر عبدالحليم عويس : نفسه ص٨٦، ٨٩، ص٨٥، ٩٢ (نقلا عن عدة مصادر ومراجع مختلفة) .

وخلف المعز ابنه تميم الذي تقلص نفوذه في شريط ساحلي ضيق يضم مدن المهدية وقابس وسفاقس وجزيرة جرية ، ذلك بعد الأحداث التي ترتبت على الانفصال السياسي والمذهبي للدولة الزيرية عن الخلافة الفاطمية، الذي قاده المعز والده على ماسنذكر في موضعه . وقد حكم تميم من سنة ٤٥٤ حتى سنة ٥٠١هـ ثم خلفه ابنه يحيى بن تميم (٥٠١-٥٠٩هـ) ثم ابنه علي بن يحيى (٥٠٩ - ٥١٥هـ) واخيراً الحسن بن علي بن يحيى بن تميم بن المعز بن باديس بن المنصور بن بلكين بن زيرى (٥١٥ - ٥٤٣ هـ) الذي ختم به عهد الدولة الزيرية من فرع باديس بن المنصور بن بلكين . وذلك عندما سقطت عاصمته المهدية بيد النورمانديين حكام صقلية عام ٥٤٣هـ/١٣٨م . (١)

ولقد شهدت هذه الدولة أحداثاً سياسية وعسكرية خطيرة وأول مايمكن ملاحظته من تلك الأحداث هو النزاع القبلي الخطير بين البربر البتر ممثلين في قبيلة زناته والبربر البرانس ممثلين في قبيلة صنهاجة ، فلقد أمضى ثلاثة من أمراء هذه الدولة الأول حياتهم تقريباً في النزاع المسلح مع قبيلة زناته في المغربين الأوسط والأقصى . وظلت مواجهة زناته كأنما هي إرث تقليدي يتقلده الخلف عن السلف من أمراء الدولة الزيرية (٢) ، غير أن

---

(١) عن هذه الأحداث أنظر ابن عذارى : نفسه، ص٢٩٨-٣١٥- الباجي المسعودي : نفسه ، ص ٤٩-٥١- ابن أبي الضياف : نفسه ، ج١ ، ص ١٧٤- ١٨١- السيد عبدالعزيز سالم : نفسه، ص ٥٨٥ - ص ٥٨٨ - ٥٩٦ - عبدالحليم عويس : المرجع السابق ، ص ١٥٦-١٦٣ .

(٢) ابن عذارى : نفسه ، ص٢٣١-٢٣٢، ٢٣٧-٢٣٩-٢٤٢-٢٤٩-٢٦٦- ابن أبي الضياف :=

هذه المواجهة إنتهت بقيام الدولة الحمادية في المغرب الأوسط التي تولت بعد ذلك هذا الإرث العدائي حتى قيام الدولة المرابطية في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري . (١)

وكما كانت المواجهة مع زناته بمثابة إرث تقليدي عند صنهاجة ، كانت المواجهة مع الدولة الأموية في الأندلس على زعامةأرض المغرب الأقصى كذلك ، ولم تكن هذه المواجهة في الحقيقة إلا استمراراً لموقف الدولة الفاطمية من الدولة الأموية غريمتها (٢) . وقد تسلمت الدولة الحمادية هذا الدور أيضا في بعض فترات حياتها (٣) .

ومن الأحداث المهمة كذلك انقسام الدولة الصنهاجية على نفسها إلى قسمين أو دولتين كما ذكرنا . وكان هذا الانقسام السبب الرئيسي في انحلال أمر الدلولة الزيرية التي لو قدر لها أن تمارس دورها دون هذا الانقسام لتغير وجه المغرب كله .

= نفسه : ج١، ص١٦٦- ١٦٨- السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص٥٥٥- ٥٦٣- عبدالحليم عويس المرجع السابق ، ص ٣٩-٤٣ .

(١) أنظر عبدالحليم عويس : المرجع السابق ، ص ١٧٥-١٧٧ .

(٢) ابن عذارى : نفسه ، ص ٢٣١ ، ٢٣٨، ثم ص ٢٦٩ وفيها نص مهم يدل على أن الزيريين كانوا يراقبون الأوضاع في الأندلس بدقة بالغة يقول ابن عذارى أن الخليفة الحاكم بأمر الله بعث في سنة ٤١١هـ إلى المعز بهدية وخلعه وسجل فيه تشريف له ثم يقول : (.. وورد أيضا محمد ابن عبدالعزيز بن أبي كدية يسجل آخر من الحاكم ، جوابا للمعز عما كان فيه من أخبار الأندلس وانقراض الدولة الأموية منها ، وقيام القاسم بن حمود (الأدريسي) فيها فشكره على ذلك ، وبعث إليه خمسة عشر علماً منسوجة من الذهب) .. إلخ .

(٣) أنظر عبدالحليم عويس : المرجع السابق ، ص١٨٣- ١٨٤ .

على أن الحدث الخطير والأهم من بين كل الأحداث هو الانفصال السياسي والمذهبي عن الدولة الفاطمية عام ٤٤١هـ على الأرجح ، الذي قاده المعز بن باديس كما ذكرنا .

ولم تقف الدولة الفاطمية مكتوفة الأيدي ، وهي ترى هذا التحول الخطير الذي يمس كرامتها وهيبتها ، فقررت مواجهة تلك الأحداث بسرعة وحزم ، ويبدو أن الظروف وقتها لم تسمح بعمل عسكري منظم ، لذلك فقد توصلت إلى الرد على المعز بطريقة لاتكلفها كثيراً ، فبعثت إليه بقبائل بني هلال وسليم التين كانتا تعيشان في صعيد مصر ، وأباحت لهما ملك المعز ودولته كما هو مبثوث في كتب التاريخ والأدب .

وأخيراً تهاوى ملك المعز تحت أقدام القبائل العربية التي بسطت نفوذها وسيطرتها على إفريقية كلها تقريبا . وأنكمش المعز في مدينة المهدية مع ابنه تميم حيث لم يبق لهما سواها وأحوازها ، وتوفى أخيراً حزيناً كاسف البال عام ٤٥٤هـ كما سنعرف بعد عند الحديث عن أثر الصراع المذهبي بين المالكية والشيعة على الدراسات الشرعية (١) .

وفيما يتعلق بالأحوال الاقتصادية (٢) والاجتماعية والعمرانية والعلمية فإن عهد الدولة الزيرية كان إمتداداً لعهد الدولة الفاطمية بل والأغلبية ،

---

(١) أنظر بعد ، ص ٥٤٣ .

(٢) عن تطور الأحوال الاقتصادية والاجتماعية والعمرانية في الدولة الزيرية كتب أحمد بن عامر المؤرخ التونسي كتاباً أطلق عليه العنوان الاتي : الدولةالصنهاجية صفحة من العصر الذهبي للحضار ة التونسية تتبع فيه بالتفصيل كل مناحي التطور والرقي ، في تلك المجالات التي ذكرناها في المتن .

وشهدت إفريقية في عهدهم تطوراً ورقياً كبيرين في هذه المجالات عامة وفي الحياة العلمية خاصةً حسبما سنعرفه في مكانه إن شاء الله .

الفصــــــــل الأول

عوامل ازدهار الحياة العلمية في إفريقية (المغرب الأدنى)

- الفتح الإسلامي فتح عقدي علمي .
- جهود الفاتحين والولاة في نشر الإسلام وأهمية البعثات العلمية في الازدهار .
- قيام الدول المستقلة .
- الرحلات العلمية .

شهدت إفريقية (المغرب الأدنى) تقدماً وتطوراً كبيرين شمل معظم أوجه العلوم والمعرفة منذ اللحظة التي تم فيها فتح المغرب عموماً ، بل مع المحاولات الأولى للفتح وحتى منتصف القرن الخامس الهجري ، وهي الفترة الزمنية موضوع البحث ، وذلك بطبيعة الحال في تدرج طبيعي .

والمتتبع للحياة العلمية ومسيرتها من خلال تلك الفترة سيسترعي انتباهه بلاشك ذلك التقدم والتطور العلمي ، وسيخرج باقتناع مفادة أن ذلك التطور والتقدم لابد أن يكون وليد عوامل وأسباب هيأت له ذلك .

الفتح الإسلامي فتح عقدي علمي

ولعل أول مايمكن ملاحظته من تلك العوامل أن الفتح الاسلامي للمغرب كان فتحاً عقدياً علمياً بالدرجة الأولى . فهذا الفتح كان يحمل معه كتاباً فيه قوام عقيدة ودستور حياة ، فتح عيون السكان الأصليين ، وأعنى بهم البربر ، على ذلك الدين الذي يمثله هذا الكتاب الذي حمله الفاتحون العرب فاندفعوا في دهشة وفضول يستكشفون كنهه ، حتى إذا ماوجدوه قريباً من أفئدتهم وفطرتهم الأصلية زالت دهشتهم وزال فضولهم ، فأقبلوا عليه يحاولون فهمه وتدبر معانيه وأحكامه ، وتأتى ذلك لهم على يد العلماء من الصحابة والتابعين ، الذين جاؤا مع الفتح وبعده .

على أنه ماكان لهم أن يسبروا غور هذا الدين ، إلاَّ بعد أن استفتحت أمامهم مغالق اللغة التي جاء بها القرآن الكريم ، إذ لايخفى أنه لايمكن أداء

شعائر الدين الإسلامي ، إلاّ بفهم اللغة التي نزل بها على أقل تقدير ، ولقد أدرك المواطن المغربي الأصيل أن وجه هذا الفتح يبدوله مغايراً لغيره من الفتوحات . فهو إذ يتلفت حول ماضيه البعيد فالقريب نسبياً لايرى إلاّ غزاةً بدءً بالفينيقيين ومروراً بالرومان والوندال ، وإنتهاءً بالبيزنطيين جاءوا إلى بلاده ، وكان همهم الاستيطان والاستيلاء على خيرات البلاد وليس من أجل غرسْ عقيدة أو نشر ثقافة كما يقول إبراهيم العبيدي التوزري (١) .

نعم لانستطيع أن نغفل أن ثمة بعض التأثيرات الثقافية التي تركها الرومان بين الطبقات البربرية التي ربطتهم وأياهم مصالح مشتركة (٢) . وكذلك فيما وجد من مسارح عثر عليها في بلاد المغرب تدل على نشاط ثقافي (٣) . وكذلك لانستطيع أن ننكر أن الديانة النصرانية التي حملها البيزنطيون معهم قد استطاعت أن تجتذب إليها نفراً من البربر ، وخاصة البرانس ، الذين كانوا يعيشون في المدن الساحلية ، التي تتركز فيها الجاليات الرومانية و البيزنطية (٤) .

ولكن هذا وذاك لايمكن إلاّ أن يظل أثراً ثقافياً محدوداً لايعتبر شيئاً أما الإنتشار الواسع للإسلام بخاصيته العقدية والعلمية ، الذي انتشر بين البربر السكان الأصليين للبلاد .

---

(١) تاريخ التربية بتونس ، الجزء الأول ، ص٧٦ .

(٢) عباس الجراري : الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه الجزء الأول ، ص ٢٥-٣٠ .

(٣) ابراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ ، الجزء الأول ص ٧٦ .

(٤) ابراهيم العبيدي التوزري : تاريخ التربية بتونس ، الجزء الأول ، ص ٧٦ .

ويبـقى من بين تلك الأمم الغـازية التي تقـاطرت على بلاد المغـرب : الفينيقيون والوندال . أما الوندال ، فقد كان تاريخهم دموياً في المغرب ، إضافة إلى أنهم كانوا وثنيين عندما أكتسحوا الإمبراطورية الرومانية ، ولم يعتنقوا الديانة النصرانية بعد احتلالهم بلاد المغرب وخاصة الأدنى (١) إلاّ مؤخراً .

واما الفينيقيون فلعلهم الوحيدون الذين ينظر إليهم على أنهم مع إنحصار إهتمامهم في الإتجار والشراء كان لهم حضور ثقافي في المغرب (٢) . وهو لايرقى أو يتناسب بطبيعة الحال مع طول المدة الزمنية (٣) التي قضوها في المغرب من جهة ، والأثر الثقافى العلمي الإسلامي من جهة أخرى ، ولكن مع هذا فقد كان لهم أثر ثقافي غير مباشر وتمثل في سرعة قبول البربر للغة العربية لما فيها من تشابه مع اللغة الفينيقية ، كما يؤكد كثير من الباحثين المحدثين (٤) . على أنه حتى إذا صح هذا ، فإن ذلك التأثير الثقافي يظل هامشياً أو غير مباشر كما أسلفنا .

---

(١) ابراهيم العبيدي التوزري : تاريخ التربية بتونس ، ج١ ، ص٧٦، وأنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج١ ، ص ١١٥-١٢٠ .

(٢) أنظر مثلا عباس الجراري : الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياه الجزء الأول ، ص ٢٠ - ٢٥ .

(٣) إمتد الحكم والوجود القرطاجني في المغرب ، من عام ٨١٤ق . م - ١٤٦م . أنظر ابراهيم حركات، المرجع السابق ، الجزء الأول ، ص٤١ .

(٤) أنظر مثلا عباس الجراري : نفس المرجع أعلاه والجزء ، ص ١٧ - ١٨ عبدالعزيز بنعبدالله : مظاهر الحضارة المغربية ، الجزء الأول ، ص٢٦ - ابراهيم العبيدي التوزري ، نفس المرجع اعلاه والجزء والصفحة .

أما الفتح الإسلامي ، فقد كان فتحاً عقدياً بالدرجة الأولى ، لم تشهد البشرية له مثيلا . والواقع أن الأدلة على أن الفتح الإسلامي - بصرف النظر عن الإقليم المفتوح - إنما هو فتح عقدي علمي في المقام الأول - كثيرة ومتعددة . وهل يفوتنا ونحن في هذا السياق الإشارة إلى أن أول آية نزل بها القرآن الكريم كانت ومازالت تحث على القراءة والعلم ؟ قال تعالى : ﴿ إقرأ باسم ربك الذي خلق - خلق الإنسان من علق - إقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم - علم الإنسان مالم يعلم ﴾ (١) وهل نستطيع إغفال الأحاديث النبوية العديدة التي تحث على العلم والتعلم (٢) ؟

ثم إن اشتراط الإسلام على الشعوب المفتوحة بلادها كأحد خيارات ثلاثة ، آلا يعطينا الدليل على أنه - أي الإسلام - يحمل في طياته تلك الخصوصية ، وهي خصوصية الثقافة والعلم ؟. إن إختيارهم للإسلام ستتبعه بالضرورة خطوات هي من العلم والأخذ بالثقافة بمكان كبير ، لاسيما وأن العلوم الدينية هي التي كانت تملأ ساحة العلم ، بجانب الأدب في الفترة التي تمت فيها الفتوحات .

ولهذا كله ليس غريباً أن نقول إن افريقية (المغرب الأدنى) بل والمغرب عموماً كان من أوائل الأقاليم المفتوحة التي تجاوبت مع الإسلام ، ومع خصوصياته العلمية ، إذ لم تكد تمر على إتمام الفتح سوى سنوات

---

(١) سورة العلق ، آية ١-٥ .

(٢) أنظر مثلا الأحاديث التي تحث على العلم والتعلم والتي أخرجها البخاري : في صحيحه : باب كتاب العلم ، الجزء الأول ، ص ٢٢- ٤٥ .

يسيرة حتى كان المغرب بتفاعل وبتأثر بالثقافة العربية والإسلامية .

ويؤكد أحد الباحثين المحدثين على هذا الأمر بقوله (... ويمكننا أن نقول في إطمئنان إن القرن الثاني للهجرة أظل بلاد المغرب ، وقد أصبحت قطراً إسلامياً ينفعل مع التفكير الإسلامي الذي شاع في العصر الأموي) (١) .

ويقول باحث آخر مانصه : (وكانت القيروان في منتصف القرن الثاني للهجرة مرجلاً يغلو بالدراسات والمناقشات المذهبية ، وصارت حلقاتها نوادي تفكير إسلامي . ومسارح ملل ونحل وفلسفات) (٢) .

ولقد صاحب انتشار الإسلام بالمغرب - انتشار اللغة العربية بالضرورة ، لاسيما وهي وعاء الثقافة الإسلامية ، التي عن طريقها يمكن أداء الشعائر الدينية كما ذكرنا سابقاً . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى لايمكن فهم خصائص التعاليم والتشريعات التي جاء بها القرآن ، إلاَّ عن طريق فهم اللغة العربية ، ولذلك انتشرت اللغة العربية في المغرب جنباً إلى جنب مع الإسلام .

ويرى حسن أحمد محمود (٣) في سبيل المقارنة بين إنتشار اللغة العربية في كل من مصر والمغرب ، أنها - أي اللغة العربية - كانت أوسع

---

(١) حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية في إفريقية ، الجزء الأول ، ص ١٦٢ .

(٢) عثمان الكعاك : محاضرات في مراكز الثقافة بالمغرب من القرن السادس عشر إلى القرن التاسع عشر ، ص ١٦ .

(٣) الإسلام والثقافة العربية في إفريقية ، الجزء الأول ، ص ١٦٢ ١٦٣ .

إنتشاراً في المغرب منها في مصر .ذلك أن اللغة العربية واجهت في مصر لغة ذات أصالة وعراقة هي اللغة القبطية ، فضلاً عن وجود اللغة الإغريقية هناك بصورة واضحة ، مع ملاحظة أن مسيرة إنتشار الإسلام وبالتالي اللغة العربية كانت بطيئة ولم يتم إسلام أغلبية المصريين إلاَّ في أواخر القرن الثالث الهجري . بينما إختلف الأمر في المغرب ، فبجانب الانتشار السريع للإسلام ، فإن اللغة اللاتينية واليونانية لم تنتشر بين البربر إلاَّ على نطاق محدود . أما اللغة المحلية وهي البربرية ، فقد كانت أضعف من أن تقاوم تأثير اللغة العربية الكبير ، لاسيما وأنها لم تكن لغة مكتوبة . كما أنها -أي البربرية - تفتقر إلى المفردات والقدرة البلاغية والتصويري التي تحتوي عليها اللغة العربية بما فيها من جرس موسيقى يأسر النفوس . (١)

ولم تفد محاولات بعض الدول المغربية ، كالدولة الرستمية في تاهرت بالمغرب الأوسط مثلاً في إحلال اللغة البربرية محل اللغة العربية في كل مجالات التعبير والأدب . كما فشلت محاولة نقل القرآن الكريم إلى تلك اللغة، حيث ذهبت كل تلك المحاولات أدراج الرياح . (٢)

على أن هذا الأمر وإن كان صحيحاً ، إلاَّ أنه لاينفي في نظر كثير من المحدثين أن اللغة البربرية تنتمي كما يظهر من البحث اللغوي إلى مجموعة اللغات الحامية السامية ، وذلك لوجد تشابه بين هذه اللغة ، وأخواتها الحامية السامية سواءً من الناحية البنيوية أو النحوية ، أو الجرس الموسيقي

---

(١) عثمان الكعاك : المجتمع التونسي على عهد الأغالبة ، ص٣٧ .

(٢) عثمان الكعاك : نفس المرجع أعلاه ، ص ٣٧ .

أو عن طريق تشابه الخطوط . (١)

والواقع أن هذا الأمر يقودنا للبحث عن الأسباب الأخرى التي جعلت البربر يقبلون في لهفة وتسرع على الإسلام ولغته العربية إذ لايخفى أن الإسلام قد وصل إلى غور العقلية البربرية ، وتمكن من مخاطبة عواطف البربر ، وتغلغل في سويداء قلوبهم .

ونحن هنا لن ندخل في تفاصيل القضية المطروحة اليوم ، عن الأصل الحقيقي للبربر (٢) ، فهذا الموضوع خارج عن خط بحثنا ، لاسيما وأن القضية لم يبت فيها البحث التاريخي والجنسي أوالسلالي حتى اليوم ، ولكن مانود الإشارة إليه هو أن هناك عناصر تشابه كثيرة بين العرب والبربر كالعادات والتقاليد ، وإتحاد طبيعة الفكر بين الجنسين ، ووجود تشابه في السلوكيات كذلك . (٣)

ويميل بعض الباحثين المحدثين وخاصة من المغاربة إلى تأكيد هذا الموضوع ، بل إن بعضهم يعتقد أن البربر والعرب تربطهم وحدة سلالية أو

---

(١) عباس الجراري : الأدب المغربي من خلال ظواهر وقضاياه الجزء الأول ، ص١٨ .

(٢) في هذا الصدد انظر ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان (الشأن) الأكبر . منشورات دار الفكر ببيروت ، الطبعة الأولى، المقدمة (الجزء الأول) ، ص ٩-١٠ ، ١٦-١٧، ٦٠، ٧٣- ٧٥، ٢٠٦، ٢٠٨ والجزء الثاني ، ص ٨-٩ ، ٥٨،١٢ ، ٥٩ ، ٦٦، ٨٥ ، ١٠٢ ، ٢٨١ والجزء السادس ، ١٧ ، ٤٨، ٨٨، ١٦٦ - ٣٠٠ والجزء السابع ، ص ٤-١٧- سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، الجزء الأول ، ص ٦٨-٧٨ - دائرة المعارف الإسلامية ، الجزء السادس ، ص ٥٦٧ ومابعدها (مادة البربر) .

(٣) الحسن السائح : الحضارة المغربية عبر التاريخ ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، ص٩٩ .

جنسية (١) كما أن البعض منهم يرجع أصول البربر إلى الأصل السامي إعتماداً على وجود تشابه بين اللغة البربرية الدارجة ، واللغات السامية ، ويقولون للدلالة على ذلك إن الحضارة الفينيقية التي أقامها الفينيقيون في المغرب نجحت لأن اللغة الفينيقية استقبلت من قبل البربر بالقبول ، نظراً لوحدة الأصل السامي بينهما (٢) .

ونحن كما ذكرنا لايهمنا تأكيد أو نفي الرابطة السلالية بين العرب والبربر بقدر ما يهمنا الإشارة إلى وجود تماثل وتماذج إجتماعي وفكرى بين العرب والبربر . وقد أشار أحد المؤرخين الفرنسيين وهو: ل . أ . سديو في كتابه تاريخ العرب العام فيما ينقله عنه الحسن السائح (٣) إلى أن البربر والعرب لهم ميول وعواطف ومباءئ متشابهة ، كحب الفخر والهيام بالحرية وإكرام الضيف . كما يذكر مؤرخ فرنسي آخر وهو جوتييه في كتابه : عصور المغرب الغامضة فيما ينقله عنه عبدالعزيز بن عبدالله (٤) مانصه : (إننا نلاحظ خلال مجموع تاريخ المغرب تجاذباً بين البربر الرحل والعرب لأن تشابه الحياة والعواطف الجوهرية أقوى من اختلاف اللهجات) ، وفي موضع آخر يشير إلى أن الحضارات السالفة عجزت عن بلوغ هذه الغاية .

وأياماكان الأمر ، فقد انتشر الإسلام في المغرب عموماً ، وكذلك

---

(١) أنظر مثلا عباس الجراري : المرجع السابق ، الجزء الأول ، ص ١٦- ١٧ .

(٢) راجع عبدالعزيز بن عبدالله : مظاهر الحضارة المغربية ، أو تاريخ الحضارة المغربية ، الجزء الأول ، ص٢٢ ، ٢٥-٢٦ .

(٣) الحضارة المغربية عبر التاريخ ، الجزء الأول ، ص ٩٩ .

(٤) مظاهر الحضارة المغربية ، الجزء الأول ،ص ٢٥ .

إنتشرت اللغة العربية نتيجة لخصوصياتهما العلمية ، وللتشابه الكبير بين البيئتين : العربية والبربرية . وإذا كانت عملية تعريب البربر لم تكتمل تماماً وتمخض عنها وجود الأقليات البربرية القائمة حالياً ، فإن هذه الأقليات البربرية قد تعربت ألسنتها ، وتعرب فكرها . وهذا ما أشار إليه المؤرخ الفرنسي جوتييه (١) بقوله : (إن نتائج الفتح العربي بعد مرور إثنتى عشر قرناً ، تبعث على الدهشة لأن المغرب استعرب على نطاق واسع . كما تغلغل الإسلام في أحشائه وشمل مجموع أجزائه ، وقلما أحرزت الفتوحات في تاريخ المعمورة مثل هذا النجاح .

(١) فيما ينقله عنه عبدالعزيز بن عبدالله : نفس المرجع السابق والجزء ، ص ٢٥ .

جهود الفاتحين والولاة في نشر الإسلام وأهمية البعثات العلمية في الإزدهار :-

استغرق فتح المغرب مدة زمنية طويلة قياساً بباقي الفتوحات وامتدت هذه الحقبة من عام ٢١-٩٠ وقد تعاقب خلال تلك الفترة عددمن القادة إبتداءً من عمرو بن العاص ، وعبدالله بن سعد بن أبى السرح ، ومعاوية بن حديج ، ومروراً بعقبة بن نافع ، وأبى المهاجر دينار ، وزهير بن قيس ، وإنتهاءً بحسان بن النعمان الغساني ، وموسى بن نصر ، وقد تلى هؤلاء االقادة الفاتحون ولاة الأمويين فالعباسيين حتى قيام الدولة الأغلبية عام ١٨٤هـ .

ولقد كان للكثير من هؤلاء القادة دور مرموق في نشر الإسلام والدراسات الإسلامية في المغرب عموماً . على أننا نقف عند بعضهم ، وهم الذين بذلوا جهداً مذكوراً في نشر الإسلام والدراسات الإسلامية دون غيرهم . وعلى رأس هؤلاء يأتي القائد عقبة بن نافع الذي تولى قيادة فتح المغرب سنة ٥٠هـ ، فرأى بثاقب فكرة العسكرى أن ينشئ مدينة تكون بمثابة قاعدة عسكرية للمسلمين في بلاد المغرب . ونحن لايهمنا في هذا الصدد استعراض الأسباب العسكرية والاجتماعية التي فرضت على عقبة ابن نافع تأسيس قاعدته العسكرية : القيروان ، وإنما يهمنا الإشارة إلى أن القيروان أضحت منذ اللحظة التي تم فيها إنشاؤها بجانب كونها قاعدة عسكرية للجند العرب ، وأول منارة للإسلام في إفريقية ، العاصمة الثقافية الإسلامية الأولى في المغرب كلية ، ولقد ترتب على ذلك أن أصبحت تضطلع

بدوررئيسي في نشر الإسلام والثقافة الإسلامية والعربية لافي المغرب وحده، بل وفي غرب أفريقيا ، وفي الأندلس وفي صقلية (١) .

ويكفينا هذا القدر من الحديث عن مكانة القيروان الثقافية والعلمية ، فمكان ذلك التوسع في الحديث عنها في الفصل الثاني حيث سنوضح مراكز الثقافة في إفريقية (المغرب الأدنى) ، إن شاء الله . غير أن مجمل القول الذي نستطيع تأكيده هنا هو أن الدراسات الشرعية والأدبية في المغرب ماكان ليكتب لها النجاح والانتشار لولا وجود مدينة القيروان .

وبجانب الأثر الثقافي لتأسيس مدينة القيروان ، فإن كثيراً من المؤلفين قدامى ومحدثين يتفقون على الأثر الكبير الذي بذله القادة العرب في سبيل نشر الإسلام ، والدراسات الإسلامية والعربية ، فلقد حرص أولئك القادة إبتداءً من عقبة بن نافع على نشر الإسلام بين البربر ، وأتخذوا في سبيل الوصول لذلك سياسة الترغيب وتأليف القلوب والمساواة بين العرب والبربر إلاَّ فيما ندر ، فأبو المهاجر دينار خليفة عقبة بن نافع في المغرب يعمل جاهداً على ترغيب البربر وخاصة البرانس منهم لاعتناق الإسلام ، وتنجح جهوده نجاحاً طيباً فيسلم زعيمهم كسيله ومعه عدد كبير منهم (٢) .

ثم تظل المغرب حملة حسان بن النعمان الغساني لتبدأ معها صفحة بيضاء يعود الفضل فيها بعد الله له ولسياسته الحكيمة . وترجمت سياسته

---

(١) محمد العروسي المطرى : سيرة القيروان ورسالتها الدينية والثقافية في المغرب الإسلامي ص ١٧، ٣٩ ومابعدها ، وص ٧٧ مابعدها .

(٢) السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ض ١٢٩–١٣٠ ، أحمد مختار العبادي : نفسه ، ص ٣٢–٤٣ .

تلك في صورة قرارات وأفعال مالت بالبربر إلى الإسلام . فلقد أشعرهم بالمساواة الكاملة مع العرب تلك المساواة المستمدة من روح الإسلام وتعاليمه (١) ، ولم يكتف بذلك بل أشركهم مع العرب في فتح المغربين الأوسط والأقصى (٢) ، وزاد في إطمئنانهم ، عد أرضهم مفتوحة صلحاً لا عنوة (٣) ،فأقرم على مابتحت أيديهم من أراض (٤) ، ومن الطبيعي والحالة كذلك أن تؤتي هذه السياسة أكلها ، فعادت للبربري عزته وأنفته ، وبات يطرد من حياته شعور النقص والإنتقاص التي عمقها في نفسه الغزاة من الرومان والوندال والبيزنطين ، فاندفع بتحمس لاعتناق الالإسلام واشرأب عنقه إلى ثقافته وتراثه .

وإلى جانب ذلك يعود الفضل لحسان بن النعمان في تعريب الدواوين في المغرب ، وجعل اللغة العربية هي اللغة الرسمية ، مثلما يعود الفضل له في إنشاء الأسطول الإسلامي البحري في المغرب ، وكذلك إنشاء مدينة تونس لدرء غارات النصارى (٥) .

---

(١) حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية في إفريقية ، ج١،ص١٥٩ .

(٢) حسن أحمد محمود : نفس المرجع والجزء والصفحة أعلاه .

(٣) حسن أحمد محمود : نفسه ، ص٥٩ .

(٤) في هذا الصدد يقول ابراهيم أحمد العدوي إن المورخ المصرى ابن عبدالحكيم كان أول من أشار إلى أن حسان بن النعمان اتخذ سياسته الخاصة تلك باعتبار أرض البربر فتحت صلحاً لاعنوة . تماماً مثلما حدث في مصر : ذلك لأن المسلمين اعتبروا أنفسهم أنهم كانوا في حرب مع الروم لامع البربر أهل البلاد الأصليين ، أنظر ابراهيم العدوي : ابن عبدالحكم رائد المؤرخين العرب ، ص١٤٧ .

(٥) أبو القاسم كرو و عبدالله شريط : عصر القيروان ، الطبعة الأولى ، ص١٦ .

أمـا مـوسى بن نصـيـر خلفـه ، فـقـد حظى بثناء المؤرخين قـدامى ومحدثين على سياسته وجهوده في نشر الإســلام والثقافة العربيـة . فهـذا ابن خلدون (١) مثلا يثنى على جهوده التي تمخضت عن ثبات البربر على دين الإسـلام . والواقع أن مـوسى بن نصـيـر جـهد على أن يتـابع سـيـاسـة حسان بن النعمان تجاه البربر ، فقربـهم له وولاهـم الأعمال جنباً إلى جنب مع العـرب ، وكـان يرى ضـرورة إفـهـام البـربر بـأن يعـتنقـوا الإسـلام دونما ضـغط أو إكراه ، وإنما يكون إعتناقهم له نابعاً من عقولهم وضمائرهـم . (٢) وجـهـود مـوسى بن نصـيـر في نشـر الإسـلام فـي المغـرب الأقـصـى جـهـود لايمكن إنكارهـا ، ويكفى أن نشير إلى أن فتح الأندلس كان ثمرة من ثمرات تلك السياسة (٣) .

غير أن ما تجب الإشارة إليه هو أن هذه السياسة الحكيمة من موسى بن نصير قد شابها بعض العنف والقسوة أحياناً (٤).

وسار على سياسة موالاة البربر والتقرب إليهم أكثر الولاة الأمويين ، ولم يشـذ عنها إلاَّ نفر منهم (٥). فعلى سبيل المثال نجد المصادر والمراجع

---

(١) العبر ، الجزء السادس ، ص ١٣٥، ١٤٤، ٣٠٠ .

(٢) حسن أحمد محمود : المرجع السابق ، ج١، ص ١٦٠ .

(٣) حسن أحمد محمود : نفسالمرجع السابق أعلاه والجزء والصفحة .

(٤) سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج١ ، ص ٢٤٠ – ص ١٧١– ١٧٢ .

(٥) عن سياسـة تشـدد بعـض الولاة ومنهـم عبيـدالله بن الحبحـاب مع الـبربر، راجـع الرقيق القيرواني كتاريخ افريقية والمغرب ص ٩٩–١٠١، ص ١٠٧– ١٢٢–ابن عذارى : نفسه ، ج١، ص٤٨– ٥٨ .

تثني على عبيدالله بن الحبحاب ، فعلى ما أرتكبه من سياسة الشدة تجاه البربر إلاَّ أنه عمل بالمقابل على ما ارتكبه من سياسة الشدة تجاه البربر إلاَّ أنه عمل بالمقابل على الإسهام في مسيرة الحياة الثقافية . فأسس على الأرجح (١) في مدينة تونس جامع الزيتونة الذي غدا بعد برهة من الزمن مركزاً مهماً للثقافة في المغرب ككل . وظلت جامعته أي جاه ع الزيتونة تقوم بدورها الثقافي حتى اليوم . (٢)

أما في عهد الولاة العباسيين ، فقد كان ليزيد بن حاتم المهلبي الذي ولاه الخليفة المنصور ولاية إفريقية والمغرب سنة ١٥٤هـ (٣) دور كبير في إضفاء جو ثقافي على إفريقية ، وذلك أنه بعد أن استقرت أموره في البلاد، استقدم من المشرق بعض الأدباء والشعراء ذائعي الصيت ، إلى جانب من قدم منهم بمبادرة فردية منه ، وأعطى وجودهم للأدب والثقافة دفعة قوية تأثر بها أبناء المغرب (٤) .

وثمة جانب آخر أدى إلى ازدهار الحياة العلمية في المغرب الأدنى ، وهذا الجانب هو البعثات العلمية التي أرسلها بعض الخلفاء إلى هناك . وفي الحقيقة أن هناك فيما يتعلق بهذا الجانب نوعين من البعثات ، فمنها ماهو

---

(١) عن الخلاف في هوية المؤسس الحقيقي لجامع الزيتونه ، راجع بعد ص ٣١١- ٣٢٠ .

(٢) أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : عصر القيروان ، ص ١٦ -١٧ .

(٣) صدر الأمر من الخليفة المنصور بتوليته أواخر سنة ١٥٤هـ ، وكان وصوله إفريقية في عام ١٥٥هـ، راجع الرقيق القيرواني المصدر السابق ، ص١٤٦ - ابن عذارى : نفسه ، ص ٧٨- سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج١ ، ص ٢٥٧- ٢٥٨ .

(٤) أنظر محمد طه الحاجري : دراسات وصور من تاريخ الحياة الأدبية في المغرب العربي ، الطبعة الأولى ، ص ٤٩- ٥٣ .

فردي ومنها ما هو رسمي . أما البعث الفردى ، فقد جاء نتيجة شعور بعض العلماء بحاجة المغرب إلى التزود بالعلم والعلوم الدينية التي هي جوهر الثقافة الإسلامية وقتذاك . فتتابع مجيئهم إلي المغرب . وعقدوا هناك حلقات الدرس والمطالعة حيث أقبل عليها أبناء المغرب وكذلك أبناء الجند العرب المقيمين بالمغرب إقامة دائمة .

وإذا كانت المصادر قد سكتت عن تبيان الأثر العلمي الذي تركه مرور بعض الصحابة (١) ، رضوان الله عليهم ، في المغرب وخاصة أولئك الذين شاركوا في غزوة (٢) سبيطله التي وقعت عام ٢٧هـ، والتي تسمى بغزوة العبادلة أيضاً ، فيما عدا ذكر صحابي أو اثنين (٣) فقط ، فإنها – أي المصادر – قد أمدتنا بمعلومات لابأس بها عن بعض التابعين الذين أثروا الحياة العلمية في المغرب آنذاك لاسيما وإن كثيراً من أولئك التابعين قد

---

(١) مر على إفريقية عدد كبير من الصحابة ، فمنهم من جاء غازياً مع الحملات الإسلامية لفتح المغرب، ومنهم من جاء قائداً لتلك الحملات ، أوأميراً على إفريقية والمغرب . غير أن إقامة هؤلاء الصحابة لم تدم طويلا ، فعاد بعضهم إلى بلاده ، واستشهد النفر اليسير منهم في إفريقية وأدركت القليل جداً منهم المنية هناك . راجع المالكي : المصدر السابق الجزء الأول ، ص٤١–٦٣.

(٢) عن غزوة سبيطلة التي انتهت بإنتصار المسلمين أنظر ابن عذارى : نفس المصدر السابق والجزء . ص ٨–١٣ – سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص١٤٧ – ومابعدها – السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٦٦ ومابعدها .

(٣) من الصحابة الذين تركوا أثراً علمياً في إفريقيه : أبو زمعه عبيدالله بن آدم البلوي الذي أقام بإفريقية حتى توفي . أنظر المالكي : نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، ص٥٤ – ٥٥ – ومن الصحابة كذلك المنيذر الإفريقي ، وقد دخل الأندلس كذلك . أنظر المقرى : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها ابن الخطيب منشورات دار الكتاب اللبناني تحقيق إحسان عباس الجزء الأول ، ص ٢٧٩ .

طاب لهم المقام بإفريقية حتى أدركتهم المنية هناك .

فمن أولئك التابعين نشير إلى اسم بارز كان له دوره في نشر الإسلام والدراسات الإسلامية في إفريقية والمغرب ألا وهو عكرمة بن عبدالله مولى الصحابي المعروف عبدالله بن عباس ، وعكرمة بربري الأصل - وفي هذا مايؤكد ماسبق ذكره من تعلق البربر بالإسلام منذ وقت مبكر - وقد ساقته الظروف إلى الحجاز ، ويشاء الله أن يصبح مولى لابن عباس ، فيثابر على طلب العلم والمعرفة ، فيسمع من كبار الصحابة ومن بينهم مولاه حتى تعلو قدمه ،فيفوقه أقرانه ويرى فيه مولاه ابن عباس القدرة على الفتيا فيأذن له بذلك ويعلو شأنه وصيته في المشرق حتى كان التابعي الجليل الحسن البصري يمسك عن التفسير والفتيا إذا ماقدم عكرمة إلى البصرة ، ثم يعاوده الحنين إلى مسقط رأسه المغرب ، فيعود ويتخذ من القيروان مسكناً له ويتصدر هناك للتدريس والتعليم في جامعها الأكبر ، جامع عقبة بن نافع (١) .

ومن التابعين الذي كان لهم دور معروف في الدراسات الإسلامية في المغرب التابعي المعروف خالد بن أبي عمران التجيبي وقد جاء والده إلي المغرب في الحملة التي قادها حسان بن النعمان في سنة ٧٤هـ . وفي إفريقية أنجب ابنه خالداً الذي يعد مواطناً مغربياً ، وقد ترك خالد بن أبي

---

(١) أبو العرب التميمي : كتاب طبقات علماء إفريقية ، ص١٩ - ابن خلكان : نفس المرجع السابق الجزء الثالث ، ص ٢٦٥ - الداودي طبقات المفسرين ، منشورات مكتبة وهبة ، الطبعة الأولى ، الجزء الأول ، ص٣٨١ .

عمران في إفريقية علماً غزيراً ، وانصب إهتمامه على دراسة الحديث وروايته . وتوفى سنة ١٢٥هـ أو ١٢٧ هـ (١) .

ومنهم أيضاً التابعي يحيى بن سعيد بن فهد الأنصاري الذي ولد بالمدينة المنورة ، ثم مالبث أن دخل إفريقية في نهاية القرن الأول للهجرة ومشارف القرن الثاني ، فنشر فيها علمه ومعارفه وتتلمذ على يديه الكثيرون. وقد إشتهر بدراسة الحديث وروايته أيضاً ، وظل كذلك حتى وافته المنية عام ١٤٣هـ (٢) .

وإلى جانب هؤلاء التابعين ، شهدت إفريقيه قدوم أعداد أخرى منهم ، وقد توسع المالكي (٣) في ذكرهم ، وذكر فضائلهم ، وتتبُّع سيرهم في مواطنهم الأولى ، ثم بإفريقية ، وذكر من دخل من طبقة التابعين المذكورين سابقاً ثم عاد لبلاده ثانية .

وهكذا تتضح الأهمية الكبرى لوجود هؤلاد الصحابة والتابعين في إفريقية ، فعن طريقهم إنتشرت العلوم والمعارف الدينية هناك ، ولم يمض وقت طويل حتى كانت القيروان بوصفها عاصمة المغرب الروحية تشارك في العلوم هذه ، وتصبح أحد مراكز الثقافة العربية والإسلامية في العالم الإسلامي كما سنري بعد إن شاء الله .

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب : الإمام المازري ، سلسلة نوابغ المغرب ، رقم ١، ص ١٦-١٧ .

(٢) حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع أعلاه ، ص١٤ - ١٥ .

(٣) المصدر السابق ، ج١، ص ٧٧ -٨٩، وص ٨٩-٩٥ .

أما عن البعث الرسمي – وهو الذي أجّلنا الحديث عنه – فالحقيقة أن المصادر والمراجع التي تناولت هذا الموضوع تكاد تتفق على أهمية البعثة العلمية التي أرسلها الخليفة الأموى عمر بن عبدالعزيز في مشارف نهاية القرن الأول الهجري (١) . فقد عملت هذه البعثة على نشر الإسلام والدراسات الإسلامية بين البربر حسبما زودها بذلك الخليفة ، وقد توزع أفراد هذه البعثة في مدن إفريقية بجانب القيروان ينشرون علومهم ويشيعون بين الناس حب قرآءة القرآن وفهم السنة النبوية الشريفة ، زد على ذلك حرصهم علي بناء المساجد (٢) في المدن التي نزلوها، وكانت النتيجة المباشرة لذلك أن أقبل البربر على الإسلام ، كما أقبلوا على دراسة علومه ، فظهرت تبعاً لذلك أجيال من أبناء إفريقية سواء أكانوا بربراً أم عرباً تسابقت في تحصيل العلوم الدينية وغيرها. ولم تقتصر نشاط تلك البعثة على إفريقية (المغرب الأدنى) فحسب، وإنما شمل المغرب كله والأندلس (٣).

---

(١) أنظر المالكي : المصدر السابق والجزء ص ٦٤– ٦٧ – الدباغ : معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، الجزء الأول ، ص ١٦٠، ٢١٣ – حسن حسنى عبدالوهاب : خلاصة تاريخ تونس ، مختصر يشمل ذكر حوادث القطر التونسي من أقدم العصور إلى الزمان الحاضر ، ص ٦٣ – ٦٤ حسن حسني عبدالوهاب ، الإمام المازري ، ص ١١ – ١٣ الطاهر أحمد الزاوي : تاريخ الفتح العربي في ليبيا ، ص ١٤٨ –١٥٢ – عبدالسلام الكنوني ، المدرسة القرآنية في المغرب من الفتح الإسلامي إلي ابن عطية ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، ص ٣٠ ٣٢ – الفردبل : الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتى اليوم ، ترجمه عن الفرنسية عبدالرحمن بدوي ، ص ٩٦–١٠١ .

(٢) الطاهر أحمد الزاوي : نفس المرجع أعلاه ، ص ١٤٨– ١٥٢ .

(٣) أنظر ، عبدالسلام أحمد الكنوني : المدرسة القرآنية في المغرب من الفتح الإسلامي إلى ابن عطية ص ٣١–٣٢ .

ويحسن بنا قبل أن نختتم الحديث عن هذا الجانب أن نشير إلى أسماء أفراد البعثة كما أوردها المؤرخون . والبعثة التي كانت تتكون من عشرة أشخاص كان يرأسها التابعي عبدالله بن يزيد المعافري الحبلي ، ويكنى بأبي عبدالرحمن ، وقد توفى سنه ١٠٠ هـ ، بالقيروان ، وخصة المالكي (١) بترجمة لابأس بها .

ومن أفراد البعثة أيضاً سعيد بن مسعود التجيبي وقيل إن اسمه سعد، ويكنى بأبي مسعود ، وقد أغفل المالكي ومن جاء بعده سنة وفاته (٢) . ومنهم أيضا أبو سعيد : جعثل بن عاهان أو هامان بن عمود وقيل عمير ، وكان بجانب إنتصابه للتدريس يتولى القضاء للجند بإفريقية (٣) . وقد توفى كما ذكر الطاهر الزاوي (٤) فيما ينقله من مصادره عام ١١٥هـ .

أما اسماعيل بن عبيد الأنصارى ، فان الروايات (٥) تثنى عليه كثيرا، فهو بالإضافة إلى علمه الغزير ، فقد اشتهر بالفضل والورع ، ويدعى أيضا بتاجر الله لأنه أوقف ثلث ماله للنفقه في سبيل الله ، وقد أشار المالكي (٦)

---

(١) المصدر السابق والجزء ، ص ٦٤-٦٥ .

(٢) نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٦٦- ٦٩ .

(٣) المالكي : نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٧٥- الدباغ : معالم القيروان ، ج١، ص ١٦٥ - الطاهر أحمد الزاوي تاريخ الفتح العربي في ليبيا ص ١٥٠ - عبدالسلام الكنوني : المرجع السابق ، ج١، ص ٣١ .

(٤) تاريخ الفتح العربي ، ص ١٥٠ .

(٥) أنظر المالكي : نفسه، ص ٦٥- ٧٢- الدباغ : نفس المصدر السابق ، ج١ ، ص ١٦٧ ومابعدها .

(٦) نفس المصدر السابق والجزء ، ص ٧٠ ويقول المالكي : عنه وهو الذي بنى المسجد الكبير بالقيروان الذي يعرف الآن بمسجد الزيتونية ، على هذا فالأمر واضح ، وليس ثمة لبس بين =

إلى أنه بنى مسجداً كبيراً في القيروان يعرف بمسجد الزيتونة . وقد توفي غازياً في صقلية سنة ١٠٧هـ .

ومن أفراد البعثه كذلك التابعي عبدالرحمن بن رافع التنوخي ، ويكنى بأبي الجهم أو أبي الجهل ، وقد توفي سنة ١١٣(٢) . وكذلك موهب بن حي المعافري ، وكان عالماً فاضلاً ولم يشر المالكي (٣) أيضاً ولا من جاء بعده إلى سنة وفاته . ومنهم أبو ثمامة بكر بن سوادة الجذامي وقد روى عن جماعة من الصحابة كعقبة بن عامر الجهني وسهل بن سعد الساعدي وغيرهما ، ولم ترد سنة وفاته كذلك ، ومن أفراد البعثة أيضاً طلق بن جابان أو حابان أو جنان الفارسي . (٤)

أما حيان بن أبي جبلة القرشي ولاءً ، حيث (٥) كان ولاؤة في بني عبدالدار ، فقد كان من أبرز أفراد البعثة . وقد أدى دوراً مهما في نشر الإسلام والدراسات الإسلامية في افريقية . .

ويخصه مؤرخو التراجم والطبقات بترجمة جيدة ، وهو تابعي مشهور، روى عن غير واحد من الصحابة رضى الله عنهم كعبدالله ابن عباس ، وعبدالله بن عمرو بن العاص ، وقد سكن القيروان ، ويقال له حيان أيضا .

= مسجد الزيتونة في القيروان وهذا وجامع الزيتونه في مدينة تونس .

(٢) المالكي : نفسه ، ص ٧٢- الدباغ : المصدر السابق أعلاه ، ص ١٦٩ .

(٣) نفسه ، ص ٧٣ .

(٤) المالكي : نفس المصدر السابق أعلاه والجزء ، ص ٧٦، الدباغ : نفسه ، ص ١٧٠ .

(٥) المالكي : نفسه ، ص ٧٣-٧٤ - الدباغ : نفسه ، ص ١٧١ - ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ١٢٢ -١٢٣ .

والغريب أنه في حين يشير المالكي إلى أن حيان بن أبي جبلة قد توفى سنة ١٢٥هـ ، يقول ابن الفرضى (١) إنه غزا مع موسى بن نصير حين افتتح الأندلس حتى إنتهى إلى حصن من حصونها يدعى قرقشونة فتوفى بها . والمعروف أن غزو موسى للأندلس كان في سنوات ٩٣-٩٥ هـ (٢) فكيف يستقيم هذا مع ما أورده المالكي ، ومن جاء بعده إلاَّ أن يكون حيانا قد بقى في الأندلس وبالتحديد في قرقشونه حتى أدركته المنية سنة ١٢٥ هـ .

أما عاشر أفراد البعثة فهو الأميراسماعيل بن عبيدالله بن أبي المهاجر القرشي ولاءً أيضا ، وكان ولاؤه في بني مخزوم . وقد عينه الخليفة عمر بن عبدالعزيز والياً على أهل إفريقية بجانب أنه أحد أفراد البعثة . وقد أسهم في نشر الإسلام كثيراً في إفريقية بفضل وظيفتيه المهمتين ، وتوفى سنة ١٢٥هـ (٣) .

---

(١) تاريخ علماء الأندلس ، ص١٢٣ .

(٢) أنظر مثلا ابن عذارى : نفسه ،ج١ ، ص ٤٣ .

(٣) المالكي : نفسه ، ص ٧٥-٧٦- الدباغ : المصدر السابق والجزء ، ص١٦٨-١٦٩ .

قيام الدولة المستقلة

إن النهضة العلمية الكبرى التي شهدتها إفريقية (المغرب الأدنى) في الفترة الزمنية موضوع الرسالة إنما تدين في كثير من تقدمها وتطورها إلى تلك الدول المستقلة التي ظهرت هناك آنذاك . فلقد أوجد قيامها ومن ثم استقرارها تياراً ثقافياً نشطاً دفع العلماء والأدباء إلى إبراز مواهبهم دونما خوف أو وجل أو شعور بعدم الأمن ، فانطلقوا يبدعون ويملأون البلاد علماً وثقافةً وأدباً . ولم تكن الدول نفسها بمنأى عن ذلك ،فلقد أسهمت بما أولته للعلوم والمعارف من أهمية وما قدمته للعلماء من رعاية وتشجيع ، وما وهبته لهم من أعطيات في تقدم الحياة العلمية وازدهارها .ومامن ريب في أن بواعث تلك الدول في الاهتمام بالعلوم والمعارف إلي جانب ماذكر ، إنما يعود إلى رغبتها في إضفاء جو من الهيبة لها من جهة ، وارضاءاً لشعور ذاتي من جهة ثانيه : وايجاد حالة من الشعور بالاستعلاء والتفوق على الدول المجاورة وغيرها من جهة ثالثة .

وقبل أن نبرز دور تلك الدول المستقلة في هذه النهضة العلمية ، نرى لزاماً علينا الإشارة إلى جهود من سبقهم في عصر الولاة الأمويين والعباسيين . فلقد شهد عصر الولاة حكم أسرتين كان لهما تأثير في الحياة السياسية والاجتماعية في المغرب الأدنى ، وأعنى بذلك الأسرتين : الفهرية التي تنتسب إلى القائد المشهور عقبة بن نافع والذي انتزى مؤسسها عبدالرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع على ولاية إفريقية وأقصى الوالي الأموى حنظلة بن صفوان الكلبي منها سنة ١٢٧هـ ودعا

لنفسه هناك . ثم مالبث أن انتهى وجود هذه الأسرة بمقتل ابنه حبيب سنة ١٤٠هـ (١) أما الأسرة الثانية فهى الأسرة المهلبية التي تنتمى إلى القائد العسكري الأموى : المهلب بن أبي صفرة ، وقد تولى بعض أفرادها ولاية إفريقية من قبل الخلافة العباسية في الفترة التي سبقت قيام الدولة الأغلبية.

أما دور الأسرة الفهرية في الحياة الثقافية ، فلم يكن واضحاً وسط ذلك التطاحن والتحارب مع الجند العرب في إفريقية من جهة ، ومع البربر من جهة أخرى . ولم نعثر على شيء ذي بال في هذا الخصوص فيما عدا ماذكر من جهود مؤسسها عبدالرحمن بن حبيب في نشر الإسلام والثقافة الإسلامية في غربى إفريقية وجنوبي المغرب الأقصى وقتذاك . (٢)

وأما دور الأسرة المهلبية فقد كان واضحاً وبارزاً ، وقد حظيت الحياة العلمية والأدبية على وجه الخصوص في عهدهم بالتقدم والانتشار . وقد مربنا دور يزيد بن حاتم المهلبي في ذلك . فيزيد بن حاتم الذي تولى ولاية إفريقية من سنة ١٥٤ حتي سنة ١٧٠هـ (٣) ، حاول أن يجعل بلاطه زاخراً بالعلماء والأدباء كما هو شأن الولاة الآخرين . فاستقدم عدداً كبيراً

---

(١) عن الأحداث السياسية والعسكرية التي شهدتها إفريقية في عهد الأسرة الفهرية ، راجع الرقيق القيرواني : المصدر السابق ،ص ١٢٣ - ١٤١ - ابن عذارى : نفسه ، ج١ ، ص ٦٠-٧٠ سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج١ ، ص ٣١٣ - ٣٣٩ .

(٢) أنظر حسن ابراهيم حسن : انتشار الإسلام والعروبة فيما يلي الصحراء الكبرى شرقي القارة الإفريقية وغربيها ص ٤٩- ٥٠ .

(٣) سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج١ ، ص ٣٧١ .

منهم (١) . كما قدم إليه البعض منهم برغبة فردية ، وهناك نشروا أدبهم ونشروا علمهم وتتلمذ على أيديهم جيل كان النواة الأولى للأجيال القادمة بعد ذلك من أبناء المغرب الأدنى سواء كانوا عرباً أم بربراً .

وازدهر على وجه الخصوص في عهد خلفائه من أبناء أسرته الشعر بمجالاته المتعدده من فخر ، ومديح ، وهجاء ، وعتاب ، .. الخ . ولكن هذا الدور الذي رسمته لهم كتب التاريخ والأدب لم يأت في الحقيقة بقصد مباشر، بل جاء عفوياً عندما استمر الخلاف بينهم وبين أبناء الجند العرب الذين اعدوا أنفسهم أبناء البلاد الأصليين ، فاستخدم الطرفان سلاح الشعر الذي لم يخب أواره في توضيح وجهات نظرهما . (٢)

وأما الدول المستقلة ودورها في ازدهار الحياة العلمية في إفريقية ، فقد إبتدأ منذ اللحظة التي قامت فيها هناك دولة الأغالبة سنة ١٨٤هـ على النحو الذي سبق أن أشرنا إليه ، وهي أول دولة مستقلة استقلالاً ذاتياً في تاريخ المغرب . (٣)

ولقد حرص أمراء هذه الدولة إبتداءً من عهد مؤسسها ابراهيم بن الأغلب ، وإنتهاداً بآخر أمير فيها ، على النهوض بافريقية والعمل على

---

(١) أنظر بعد ص ٦٦٦-٦٦٧ .

(٢) أنظر مثلا ابن الابار : الحلة السيراء ، ص ٧٤ ومابعدها ابراهيم الدسوقي جاد الرب : شعر المغرب حتى خلافة المعز ، ص ٧٥ ومابعدها .

(٣) سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ٢٨ -٢٩ - السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

تقدمها ، فتألقت الحياة العلمية في عهدهم أيما تألق ، وسنتبين لاحقاً من خلال أبواب الرسالة ، المدى الذي بلغته الحياة العلمية في عهدهم .

غير أن الأثر العلمي البارز الذي تجب الإشارة إليه هو تفوق الدراسات الشرعية وعلى وجه الخصوص الفقه ، لدرجة أنه أصبحت هناك مدرسة فقهية إفريقية هناك إلى جانب مدارس مكة والعراق والأندلس ، ويلي هذا أثر علمي آخر يعود الفضل إلى وجوده للأغالبة . وهو تأسيسهم لبيت الحكمة في مدينة رقادة بعد ذلك . وسنتبين ذلك الأثر في مكانة بعد إن شاء الله (١).

أما الدوله الفاطمية التي تمكن لها الأمر في عام ٢٩٧ / ٩٠٨م بالإطاحة بالدويلات المستقلة في المغرب عموماً ، وهي الأغلبية ، ودولة بنى رستم في تاهرت . وبنى المدرار في سجلماسة والأدارسة في فاس ، فقد كانت المسيرة العلمية فيها لاتقل عن مسيرتها في عهد الدولة الأغلبية – غير أن طبيعة اليحاةالعلمية في عهدهم إتخذت منحىً تمثل في اتجاهين : أولهما إتجاه يخدم الفكر والمعتقد الشيعي سواء كان ذلك عن طريق الدراسات الشرعية أو عن طريق الدراسات الأدبية . وثاني الاتجاهين هو الاتجاه السني المالكي الذي هدف إلى مقاومة المد الفكري الشيعي .

وعندما فكر الفاطميون في الرحيل إلى مصر ، وهو ماتحقق لهم فعلاً عام ٣٦٢هـ / ٩٧٢م ، ظهرت دولة مغربية جديدة هي الدولة الزيرية

---

(١) أنظر بعد ص ١٤٩ .

الصنهاجية (١) . وهذه الدولة ، وإن كانت مستقلة عن الدولة الفاطمية استقلالاً ذاتياً - فيما عدا الفترة الأخيرة من عمرها عندما قطعت صلتها بالدولة الفاطمية - إلا أنها تمتعت بحركة كبيرة وبأحوال إقتصادية ممتازة ، نجمت عن تحول خط التجارة بين البلاد الإفريقية والمشرق عن طريق بلاد النوبة إلى المغرب ، ومن بينها القيروان التي كانت عاصمة للدولة الزيرية (٢)

ولقد خطت هذه الدولة نحو التقدم والازدهار العلمي خطوات تعد من أعظم وأجل ماشهدته البلاد (٣) الإفريقية . وكانت عاصمتها القيروان تعد العاصمة الثالثة للثقافة الإسلامية والعربية بعد بغداد وقرطبة وأتاح هذا كله للدولة الزيرية أن تولى إهتماماً للعلم والأدب يفوق الوصف . فكان أن ظهر في عهدها أبعد الأدباء والقراء والكتاب الإفريقيين ذكراً مثل ابن رشيق ، وابن شرف ، وابراهيم الحصري ، وعلى بن عبدالغني الحصري كما سنعرف ذلك بعد في موضعه إن شاء الله .

ويتراء لي أن في هذا القدر من الحديث مايكفي للدلالة على أن إزدهار الحياة العلمية في إفريقية في الفترة موضوع الرسالة قد واكب ظهور الدولة المستقلة التي رعته وشدت من أزره حتى استوى عوده . أما الحياة العلمية وتفاصيلها في عهود تلك الدول ، فهو ماسيكون مادة حديث القسم الثاني من الرسالة إن شاء الله .

---

(١) عن الدولة الزيرية ، أنظر قبل ص ٧٢ .

(٢) الحبيب الجنحاني :المغرب الإسلامي- الحياة الاقتصادية والاجتماعية (٤٠٣هـ/٩-١٠م) ص ٢٤-٢٥ .

(٣) أنظر عبدالرؤوف عبدالعزيز مخلوف: ابن رشيق ونقد الشعر-دراسة نقدية تحليلية مقارنة،ص٧٤.

الرحلات العلمية

إذا كانت العوامل التي أشرنا إليها من قبل ، عظيمة الأثر في النهضة العلمية التي شهدتها إفريقية (المغرب الأدنى) خلال الفترة موضع الاهتمام فإنه لايمكننا أن نغفل الدور الكبير الذي أدته الرحلات العلمية في إثراء تلك النهضة . بيد أننا رغبنا في إفراد دور الرحلات العلمية بحديث طويل لا لأنه ليس بذي مساس بالعوامل الأولى ، وإنما لأنه نتيجة حتمية لها . فرحلات المغاربة ماكان يمكن أن تظهر إلي الوجود إلاَّ بفضل السمة التي تميزبها الفتح . وهي السمة أو الخصوصية العقدية والعلمية . هذه واحدة ، والأخرى أن الرحلات العلمية كانت وليدة الجو العلمي الذي أحدثته جهود الفاتحين والولاة ، ثم قيام الدول المستقلة هناك .

المسلمون والرحلة في طلب العلم :-

وفي الحق ، فلقد وعى المسلمون عامة مذ تفتحت مداركهم العلمية ، الأهمية الكبرى للرحلة في طلب العلم ، وما تشكله من قيمة في التحصيل والتكوين ، فأقبلوا على الارتحال والتنقل بين صقع وصقع رغبة في العلم وطلباً له حتى عدت الرحلات العلمية من أهم السمات أو الخصوصيات الثقافية الإسلامية . ولقد كان المسلمون يصدرون في ذلك من معرفتهم للفوائد التي تحققها الرحلة من التمكن من الجوانب والتيارات العلمية الزاخرة ، إلى الرغبة في نشر مكنون الرحلة العلمي المحصل ، إلى إتساع

الثقافة العامة ، وإلى تنمية الفضائل والكمالات في النفس ، وأخيراً كسب صداقات جديدة خالصة (١) .

وماكان المسلمون ليفيئون إلى ذلك إلاَّ من عدة توجهات ، بجانب الميل الفردي ، أهمها أن الدين كان يحض على طلب العلم والتنقل في سبيله . فلم يكن بعيداً عن أذهانهم صدى الآية الشريفة : ﴿ وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون ﴾ (٢) . وماكان غائباً عن إدراكهم رجع تلك الأحاديث النبوية التي تحث على العلم والتنقل في سبيله ، مثل : « من سلك طريقاً يلتمس فيه علماً سهل الله له به طريقاً إلى الجنة » (٣) وغير ذلك من الأحاديث .

وجهود الصحابه وأقوالهم وأفعالهم التي ترغب في السفر والترحال على المشقة والعنت لم تكن كذلك لتغيب عن فطنتهم فهذا جابر بن عبدالله يبلغه عن الرسول صلى الله عليه وسلم حديثاً فيشد رحله ويسير شهراً حتى يصل الشام للتأكد من ذلك الحديث (٤) .

---

(١) أنظر الخطيب البغدادي : الرحلة في طلب الحديث : حققه وعلق عليه نور الدين عتر ، الطبعة الأولى ، مقدمة المحقق ، ص٢٤- ٢٨ .

(٢) سورة التوبة ، آية ١٢٢ .

(٣) من حديث صحيح أخرجه مسلم وغيره . أنظر الخطيب البغدادي : الرحلة في طلب الحديث ، مقدمة المحقق ، الحاشية رقم (١) ص ١٧ .

(٤) أحمد أمين : ضحى الإسلام ، الجزء الثاني ، ص ٧٠ - صبحي الصالح : علوم الحديث ومصطلحه ط١٥ ، ص ٥٤ .

وفي هذا الصدد يقول الشعبي (١) عالم الكوفة المشهور ، وهو أحد التابعين : (لو أن رجل سافر من أقصى الشام إلى أقصى اليمن ، ليسمع كلمة حكمة ، ما رأيت أن سفره ضائع) (٢) .

وإزاء هذا فلم يعد غريباً ولا مدهشاً أن نرى قوافل العلماء ولأدباء والأطباء ، وغيرهم تتنقل من مكان إلى مكان في طول بلاد الدولة الإسلامية وعرضها لايثنيهم عن رغبتهم تلك نصب ولا مخمصة ولايدانيهم في ذلك أمة من الأمم . وليس عجيباً بعد هذا أن يؤلف مؤلف مصنفاً يتحدث فيه عن الرحلة في طلب الحديث ولم يكن هذا الطلب الحثيث للحديث إلاَّ وهو واحد لاغير (٣) .

---

(١) الشعبي : عامر بن شراحيل وقيل عبدالله بن عبد ذي كبار الشعبي الحميري (١٩-١٠٣هـ/٦٤٠/٧٢١) أحد مشهوري التابعين ، مولده ونشأته ووفاته بالكوفه ، وهو أحد رجالات الحديث الثقات المأمونين . راوية شديد الحفظ ، كان متصلا بالخليفة عبدالملك بن مروان ، وقد بعثه إلى ملك الروم رسولا في مهمة سياسية . واستقضى في عهد الخليفة عمر بن عبدالعزيز، وهو بالاضافة إلي ذلك كان فقيهاً شاعراً معروفاً . أنظر الزركلي : الأعلام ، ج٣ ، ص٢٥١ (نقلا عن مجموعة من المصادر والمراجع المختلفة) .

(٢) أحمد أمين : ضحى الإسلام ، الجزء الثاني ، ص ٧٠ .

(٣) نقصد بذلك الخطيب البغدادي الذي ألف كتابه (الرحلة في طلب الحديث) حيث تتبع فيه من رحل من الصحابه والتابعين في طلب الحديث الواحد عن رسول الله ﷺ في مختلف الأصقاع - للاستزادة عن هذا الموضوع ، أنظر الخطيب البغدادي : الرحلة في طلب الحديث ، مقدمة المحقق، ص ٥٨-٥٩ .

رحلة المغاربة إلى المشرق في طلب العلم :

ماكاد القرن الثاني الهجري يأذن بالإنتهاء إلا وكانت العلوم الإسلامية قد إنتشرت بين البربر في إفريقية خاصة وفي المغرب عامة ، فبدأت معالم الحركة العلمية تبرز شيئاً فشيئاً بتأثير عوامل الإزدهار العلمي . غير أن هذه الحركة كانت تتأرجح صعوداً وهبوطاً بسبب عودة التابعين وتابعيهم إلى المشرق ، وبسبب وفاة البعض الآخر منهم ، ثم وهو الأهم ندرة نزوح العلماء المشارقة إلى إفريقية . ولم يكن أمام الجيل الذي تعلم على يد التابعين وتابعيهم إلا تسلم المشعل ، ولاسيما وأن البلاد بلادهم ، فأوسعوا العلوم دراسةً وتمحيصاً على قدر كفائتهم . لكن هذا النفر والذين تلوه من العلماء المحليين كان يتطلع إلى مابذات يده من العلم والمعرفة فلايجد إلاّ نزراً يسيراً . ويشرئب عنقه إلى المشرق فيلحظ تدفقاً دافقاً من النشاطات الثقافية المختلفة ، ثم يرجع البصر ثالثة ، فيرى ويعقل ما أهمية الرحلة - ما مداها - ما جاء فيها ؟ فيوطد النفس ويؤكد العزم على الارتحال للمشرق لتلقي العلم في مراكز المعرفة .

والمشرق وما أدراك ما المشرق وقتها؟ غليان علمى- إن جاز هذا- يعم ربوعه- نمت فيه العلوم، وازدهرت وتعددت في فترة قصيرة قياسية. فلم يكد يمر على وفاة الرسول ﷺ أكثر من قرن ونصف حتى غزرت العلوم والمعارف ، وتجاذبت أطراف المشرق تيارات ثقافية مختلفة المنزع والمشرب . سالت فيه القرائح وانثالت فيه الأفكار النيرة . وبالجملة فقد عرف المشرق وقتها نهضة علمية كبرى توجت بنشوء المذاهب الفقهية والمذاهب الكلامية آنذاك .

هذه المحصلة العلمية الكبرى لم تكن كل أقطار المشرق فيها سواء ، فالحجاز : مكة والمدينة ، مبعث الرسول ﷺ ومهاجره ، من الطبيعي أن تكون لها نهضة علمية شرعية المنزع كالإهتمام بالفقة والحديث والتفسير والقراءآت ، أو بمعنى آخر الاهتمام بالعلوم النقلية . وقد أثمر هذا الجو العلمي الديني عن نشؤ مذهب الإمام مالك بن أنس الأصبحي (ت١٧٩هـ)، الذي يعتمد الأثر أساساً في بناء أحكامه . وقد عرف بالمذهب المالكي نسبة إليه ، كما عرف بمذهب أهل المدينة لأن مالكاً ولد وعاش وتوفي بها ويعرف كذلك بمذهب أهل الحجاز تعميماً (١) .

والعراق بما شهده من أحداث سياسية ضخمة ، وبماجرى على ساحته من فتن وقلاقل ، وبما يعيش على أديمه من طوائف وأجناس ونحل مختلفة الأصل والمنزع كان من الطبيعي أن يولى العلوم النقلية إهتمامه ونشاطه . لكنه أولى العلوم العقلية إهتماماً شديداً ، وهو أمر طبيعي وسط هذه البيئة التي وصفناها ، على أنه قد نشأت في العراق كذلك ، المذاهب الفقهية ، كمذهب الإمام أبى حنيفة النعمان (ت ١٥٠هـ) الذي يعتمد القياس أساساً في بناء أحكامه فيما لم يرد فيه نص من الكتاب

---

(١) عن مدرستي مكة والمدينة ، ثم عن المذهب المالكي ، أنظر أحمد أمين ، فجر الإسلام ، ص١٧٠ – ١٧٦ و ص ٢٣٤ – ٢٥٠ ضحى الإسلام ، الجزء الثاني ، ص ٧٣– ٧٥ ، ص ١٥١–١٧٦–٢٠٦–٢١٥ – وأنظر كذلك محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية ، الجزء الثاني ، ص ٦– ١٠٠ – أحمد تيمور باشا : نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الفقهية الأربعة : الحنفي ، المالكي ، الشافعي ، الحنبلي ، وانتشارها عند جمهور المسلمين تقديم على حسن عبدالقادر ، ص١٢–٢٥ .

والسنة (١) . كما نشأ فيه مذهبان آخران ، هما : مذهب سفيان الثوري في الكوفة (٢) ، والحسن البصري (٣) في البصرة ، ثم توالى ظهور بقية المذاهب الفقهية الأخرى بعد ذلك (٤) . وتميز العراق أيضا بنشوء الفرق الكلاميه فيه (٥) ، وعدا هذا وذاك فقد تميز العراق بظهور مدرستين لغويتين فيه، هما : مدرسة الكوفة ، ومدرسة البصرة اللتان مافتئتا تتنازعان زعامة اللغة والنحو مدة مديدة من الزمن (٦) .

أما مصر (٧) ، فقد كانت تأتي ثالثة من حيث الأهمية العلمية وقتذاك. فلقد استطونها عدد من الصحابة والتابعين نشروا فيها العلوم الشرعية، ثم

---

(١) عن العراق ومدارسه العلمية وأحداثه ، وتأثير ذلك في مجمل الحركة العلمية ، ثم انتشار المذهب الحنفي ، راجع موسوعة أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ٩٤ -٩٦ ، ١٢٥- ٢٤٥ - ضحى الإسلام ، الجزء الأول ، ص ١٦٢ - ٣٧٢ ، والجزء الثاني ، ص ١-١٩، ٧٧ - ١٨٥، ١٥١- ٢٠٦، إلى غير ذلك فأحمد أمين هو من أفضل من كتب عن الحركة العلمية النقلية والعقلية .

(٢-٣) إندثر هذان المذهبان ولم يعد لهما ولالغيرهما من مذاهب أهل السنة فيما عدا المذاهب الأربعة المشهورة أي أتباع الآن . أنظر أحمد تيمور باشا : نظرة تاريخيه في حدوث المذاهب الفقهية الأربعة ، ص ١٢ .

(٤) أنظر أحمد أمين : ضحى الإسلام ، الجزء الثاني ، ص ١٢٨ - ٢٣٧- محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية ، ج ٢، ص ١٥٠ ومابعدها .

(٥) للتوسع حول هذا الموضوع يراجع أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ٢٥٦- ٣٠٣- ضحى الإسلام، ج ٢ ، ص ١ - ٣٤٠ - ظهر الإسلام للمؤلف نفسه : الجزء الرابع الطبعة الخامسة ص ٧-٤٠ ، ص ١٠٩- ١٣٨ .

(٦) عن مدرستي الكوفة والبصرة اللغويتين وكذلك عن رجالهما أنظر أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج٢ ، ص٧٧- ٨٥ ، ص ٢٤٣-٣١٨ .

(٧) عن مدرسة مصر العلمية ، أنظر أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ١٨٩-١٩٢- ضحى الإسلام ، ج٢، ص ٨٥- ٩٦ .

خلفهم تلامذتهم من بعدهم ، فحملوا مشعل العلوم والمعارف ، حتي أدى الأمر إلى ظهور مذهب فقهى لعالم محلي منها هو الليث بن سعد (١) فقيه مصر المبرز ، ثم ماجرى بعد ذلك من مجئ الإمام الشافعي إليها ، وما أحدثه من نهضة علمية كبرى آنذاك .

وتأتي بلاد الشام رابعاً في تسلسل المراكز العلمية بمدينتيها دمشق وبيت المقدس ، وإن كانت دمشق قد احتلت في وقت مبكر مكانة علمية مرموقة ، أفرزت مذهباً فقهياً كان يعتمد عليه ، هو مذهب الإمام الأوزاعي . غير أن مكانة بلاد الشام العلمية وخاصة دمشق مالبث أن قلَّت بفقدان دمشق مركزها كعاصمة للدولة الإسلامية . (٢)

وتطلع المغربي حوله ، فوجد المدينة ومكة تزهوان بالإهتمام بالعلوم الشرعية بشتى مجالاتها ، ثم رآها تفتخر بمذهبها الجديد . المذهب المالكي الذي فيه كثير من الخصائص التي تشد المغربي إليها والتي سنأتي على ذكر تفاصيلها بعد إن شاء الله . ثم أن لمكة والمدينة فوق هذا مكاناً أثيراً يحتل سويداء قلبه ، فإلى مكة قصده وتوجهه في الصلاة خمس مرات ، وإليها يرتحل الناس لإداء فريضة الحج ، وتحتضن مكة والمدينة الحرمين

---

(١) الليث بن سعد بن عبدالرحمن الفهمي (٩٣-١٧٥هـ) ولد بقرقشند ، وكان موسراً ، وأكثر البخاري ومسلم من الرواية عنه ، ووثقه الشافعي وأحمد بن حنبل وغيرهما . وضع أسس مذهب فقهي مالبث أن أضمحل شأنه بعد موت صاحبه . للاستزاده عن أخبار الليث بن سعد ومذهبه أنظرعبدالرحمن الشرقاوي : أئمة الفقة التسعة ص ٩٥-١٢٠ .

(٢) عن مدرسة الشام العلمية ، أنظر أحمد أمين : فجر الإسلام ص١٨٧-١٨٩ ضحى الإسلام ج١ ، ص ١٧٢ - ١٧٤ ، ص ٩٦- ١٠٥ .

الشريفين ، وهما ما يعلم قدسية ومكانة . لكن المدينة لها مكانة عزيزة في نفسه ، ففيها قبره الشريف ﷺ ، وفيها بقية باقية من التابعين وأتباعهم ، ثم هي مستودع علم الرسول ﷺ ، وسلوكه وأفعاله .

ويتطلع إلى العراق ، فيجد تيارات فكرية متصارعة لاتستهويه كثيراً وإن كان ينظر للأمام أبي حنيفة ومذهبه وأتباعه نظرة إحترام وتقدير ، ولكنه لايميل إليه كثيراً قدر ميله للمذهب المالكي . أما فرقه الكلامية فلايقف عندها تقريباً ، ولاتستهوى تلك الفرق وبالتخصيص الخارجية منها إلاّ من تمذهب من البربر بالدعوة الخارجية ، لكنهم أي المغاربة لم يروا حرجاً أبداً في الاخذ من مدرستي العراق اللغوتين .

أما مصر ، هذا الأقليم الذي يجاورهم ، فإن له شأناً عندهم ،ففيه مجموعة من العلماء المبرزين وفيه مجموعة من تلامذة الإمام مالك بن أنس الذين نشروا مذهبه في مصر .

كل هذه الدواعي ، جعلت المغاربة والأندلسيين كذلك يعقدون العزم على الرحلة للمشرق ، فقصدوه زرافات ووحداناً ، ينهلون ويكرعون من علومه ومعارفه وآدابه . غير أن رحلاتهم تلك لم تكمن على قدر متساوٍ من حيث القصد ، ولا من حيث الزمن ، ولا من حيث المحتوى .

فرحلاتهم للحجاز ، ماكان يرقى إليها أبداً كثرة للأسباب التي شرحناها آنفاً ، ولذلك فقد قصدوه بكثرة كاثرة يتلقون علومهم الدينيه على كبار علمائه من التابعين وتابعيهم ثم من صاحب المذهب المالكي لما رسخت

قواعد مذهبه ، ثم تلامذته الكثر في المدينة ومكة ، وإلى جانب علماء المذهب المالكي إرتحل المغاربة إلى علماء العلوم الشرعية الأخرى كعلماءالحديث والتفسير والقرآءآت . ولعل خير ما يوضح لنا مقدار إحترام المغاربة لمدرسة الحجاز العلمية بكل أوجهها ، وهو أنه قل أن تجد منهم أحداً يرتحل إلى المشرق ، فلا يعرج على الحجاز أولاً ، هذا فضلاً عن استحالة عدم قصده والإرتحال إليه أصلاً . ولعل أحدهم يكتفي بالرحلة إلى الحجاز وحده دون غيره .

أما المحطة الثانية التي إرتحل إليها علماء المغرب الأدنى فقد كانت مصر ، إذ أشتهرت مصر (كمركز للحركة العلمية الدينية) (١) التي ذكرنا طرفاً منها من قبل . فارتحلوا إلى مصر وقابلوا علماءها الكبار من أمثال الليث بن سعد ، وكبار تلامذة الإمام مالك ، فسمعوا منهم ورووا عنهم كما بادلهم المصريون ذلك . ولم يقتصر إرتحال علماء المغرب الأدنى إلى مصر على علمي الفقه والحديث فحسب ، وإنما إرتحلوا إلى علماء القرآءآت الذين اشتهرت بهم مصر فسمعوا منهم تفاسيرهم وقرآءاتهم ومؤلفاتهم ، كما أخذوا من علماء اللغة والنحو المصريين أيضاً . ولقد كان اهتمام المغاربة والأندلسيين بالمدرسة المصرية ناجماً عن أن مصر كانت الجسر أو المعبر الذي يوصلهم إلى المشرق ، حيث الحجاز ، والعراق والشام ، فكان لابد لهم من المرور به ثم العودة إلى بلادهم عن طريقه كذلك .

---

(١) محمود إسماعيل عبدالرازق : الأغالبة – سياستهم الخارجية ، ص ٨٩ .

والعراق كان المحطة الثالثة من حيث القصد الذي سلكه المغاربة والأندلسيون ، فلم يكن هناك إلا نزر يسير من علماد المغرب الذين إرتحلوا لأبي حنيفة النعمان (١) ، ومن ثم تلامذته ، فأخذواعنهم ورووا . ونفس الأمر يقال عن سفيان الثورى بل إن الملاحظ أن عدد الذي اخذوا عن سفيان الثوري يفوق عدد أولئك الذين أخذوا عن أبي حنيفة (٢) بيد أن هؤلاء وأولئك لم يكونوا إلا عددداً قليلاً لايقارن بعدد الذين أخذوا عن مالك وتلامذته . ومامن ريب في أن ذلك يعود إلى ماسبق أن ذكرناه من دوا ع . وسنتبين عند حديثنا عن انتشار المذهب المالكي في المغرب تفاصيل واسعة لذلك .أما علماءالإباضية في طرابلس والجريد ، فقد ارتحلوا إلى البصرة حيث شيوخ فرقتهم ، فأخذوا عنهم وسمعوا منهم . أما رحلات علماء القرآءات والحديث واللغة والنحو إلى العراق ، فقد كانت مكثفة مافي ذلك ريب . وما يقال عن هذه العلوم، يقال أيضاً عن رحلة الشعراء إلى العراق .

أما بلاد الشام : دمشق وبيت المقدس فإننا وإن كنا لم نعثر على رحلات علمية مذكورة إليها، إلاَّ أننا لم نعدم علماء من المغاربة قد قصدوهما وسمعوا من شيوخهما ورووا عنهم كما سنعرف بعد .

وأما من حيث الزمن الذي كان علماء المغرب وطلاب العلم يقضونه في المشرق ، فلم يكن الأمر سواء كان على صعيد المحطات العلمية ، أو الاشخاص أنفسهم . ففي الحجاز يلاحظ أن كثيراً من العلماء وطلاب العلم

---

(١) أنظر بعد ص ٣٣٢- ٣٣٣ .

(٢) أنظر بعد ص ٢٢٩ ومابعدها .

يترددون عليه مراراً . وفي كل مرة قد يقضي أحدهم فترة طويلة من الزمن تصل إلى ثلاث أو أربع أو خمس سنوات يؤدون خلالها شعيرة الحج لأكثر من مرة ، ثم لايغادره إلاَّ بعد أن يستكمل علومه ومعارفه ، وتأتي مصر في المرتبة الثانية ، ثم العراق .

وفيما يتعلق المحتوى أو المحصلة فلاحاجة بنا إلى ذكر بنا علمية شرعية : فقه – حديث قرآءات ، تفسير ، حجازيه فمصريه فعراقية الترتيب ، ثم تأتي الدراسات الأدبية وخاصة اللغوية والنحوية ، وهذه يتفاوت فيها التسلسل الثقافي ، فيأتي العراق أولا ، ثم مصر ، ثم الحجاز ، لأسباب عديدة شرحها المختصون في مؤلفاتهم ممَّا لاحاجة لنا هنا إلى تتبعها . وأما بقية المعارف ، فلم تكن تحظى من اهتمام المغاربة إلاَّ بالقدر اليسير فعلم الكلام ماكان أحد من علماء المغرب يستسيغه – فضلا عن أن يتعلمه ويحمله إلى بلده والعلوم التجريبية نادراً ما كانت تشد أبناءالمغرب ومع ذلك لم ينعدم الرحيل من أجل تلقيها . وفي مجالي علم الكلام والعلوم التجريبية كان العراق يأتي أولا . والحجاز ومصر بعد ذلك .

هذه ملاحظات مهمة عن مقاصد الرحلات العلمية للمغاربة إلى المشرق، وثمة ملاحظات أخرى لاتقل أهمية عن سابقتها نوردها فيما يلي :

١- الأمر الأول : أن أول مايمكن استخلاصه من رحلات علماء المغرب الأدنى إلى المشرق هو كثرة تلك الرحلات طوال النصف الثاني من القرن الثاني وحتى نهاية القرن الثالث الهجرى . فقد كان المغرب بحاجة إلى تلك الرحلات بالطبع لاستكمال ماينقصه من العلوم

والمعارف في شتى المجالات التي كان يفتقدها آنذاك .

٢- الأمر الثاني : تناقص الرحلات العلمية وقلتها خلال القرن الرابع الهجري ، وكان هذا شيئاً طبيعياً . فقد رسخت أقدام الدراسات كلها في المغرب وخاصة الشرعية منها بعد رسوخ المذهب المالكي هناك حسبما سنعرفه في مكانه إن شاء الله .

٣- الأمر الثالث : أن الرحلات العلمية ندرت تقريباً خلال النصف الأول من القرن الخامس الهجري ، حيث يقف بنا الأمر عنده .

٤- الأمر الرابع أنه على مافيما قلنا من قلة الرحلات العلمية للمغاربة إلي المشرق خلال الفترة التي أشرنا إليها إلاّ أن الرحلة لم تنقطع أبداً ، فالمشرق كان ومازال يستهوى أفئدتهم ، فشخوص المغاربة إلى الحجاز لم ولن ينقطع ، لأن الحج لم ولن ينقطع ، ومادام أن هناك رحلة حج ، فلابد أن يكون هناك علماء يحجون فيتلقون علومهم على يد علماء الحجاز ، لاسيما وأن العالم الإسلامي كان يشكل آنذاك وحدة فكرية لها كيان فكرى واحد لايختلف . فالعقيدة صبغت كل نشاط المسلمين بصيغة واحدة ، فليس هناك اختلاف بينهم مهما نأت المسافات (١)

٥- الأمر الخامس : التعلق العاطفي بالمشرق . فالمغاربة والأندلسيون، كانوا يشعرون بأنهم يشكلون الجناح الغربي للدولة الإسلامية ،

---

(١) عن هذا الموضوع والتوسع فيه ، أنظر إبراهيم العبيدي التوزرى : تاريخ التربية بتونس ج١ ، ص ١٤٥ - ١٤٨ .

وهم يرون بالتالي أنه لابد للجناحين من الإلتقاء . ولما كان الجناح الشرقي أسبق علمياً وحضارياً من الجناح الغربي للظروف السياسية والجغرافية والاجتماعية .. الخ كما هو معروف ، فإن الجناح الغربي لايرى غضاضة في التأثر بالجناح الشرقي . بل وكان علماؤه يفتخرون بالإستماع إلى علماء المشرق وخاصة علماء الحجاز .

أما وقد بسطنا الحديث عن الرحلات العلمية من حيث أهميتها ومقاصدها . وموقف المغاربة من ذلك ، فإن من المستحسن هنا أن نعقد حديثاً واسعاً بعض الشيء عن أبرز الذين إرتحلوا في طلب العلم من علماء وأدباء وأطباء المغرب الأدنى في الفترة الزمنية التي تهمنا . وما يتبع ذلك من الحديث من مقاصدهم في رحلاتهم وشيوخهم .. الخ .

فمن أبرز العلماء من رجال القرن الثاني المتقدمين الذين رحلوا إلي المشرق ، أبو خالد : عبدالرحمن بن زياد بن أنعم المعافرى السفياني قاضي إفريقية (في وقته (ت١٦١هـ) فقد رحل إلى المشرق طلباً للحديث ، فروى هناك عن جماعة من التابعين ثم سمع من سفيان الثورى أحد أشهر العلماء العراقيين في وقته وأحد أصحاب المذاهب السنية التي اندرست . وسمع منه سفيان ، وعدد من كبار أصحاب أبي حنيفه (١) .

ومن علماء افريقية المتقدمين ، أبو محمد عبدالله بن فروخ الفارسي

---

(١) أبو العرب التميمي : كتاب طبقات علماء إفريقية ، ص ٢٧، ٢٩ - ٣٠- المالكي : نفسه ، ج١ ، ص ٩٦ - ٩٧ - محمد بن محمد مخلوف : شجرة النور الزكيه في طبقات المالكية ، ص٦١ .

(ت١٧٥، أو ١٧٦هـ) أحد حفاظ الفقه والحديث ، إرتحل إلى المشرق ، فسمع من عدد من علمائه كزكريا بن أبي زائدة التابعي ، ومالك بن أنس ، وسفيان الثوري (١) ، ويقول المالكي (٢) (وكان إعتماده على مالك ، لكنه يميل إلى طريقه أهل النظر والاستدلال ، فربما مال إلى قول أهل العراق لظهور صواب عنده وكان مالك يكرمه ويرى له فضلاً ويقول لأصحابه هذا فقيه أهل المغرب ..) ولقد كان يحضر مجالس مالك بن أنس في المدينة ويفتى بها بطلب وحضور من مالك نفسه (٣) ، ثم رحل إلي العراق ، حيث سليمان بن مهران الأعمش في الكوفه للسماع عليه (٤) . ثم عرج على أبي حنيفة النعمان ، فسمع منه وذاكره ، و ذكر أنه كتب عنه عشرة آلاف مسأله فقهية، وبالإضافة إلى ذلك سمع منه كما ذكر ثلاثمائه حديث (٥). ثم عاد إلى بلاده إفريقية ، غير أنه مالبث أن رحل ثانية إلى المشرق ، فنزل مصر ، ثم غادرها إلى مكة حاجاً ، ثم عاد ثانية إلى مصر فتوفى بها (٦) .

---

(١) أبو العرب التميمي : نفس المصدر ، ص ٣٤ – المالكي : نفسه ، الجزء الأول ، ص ١١٣ – القاضي عياض اليحصبي : ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك ، تحقيق أحمد بكير محمود : ج١ ، ص ٣٤٠ – ٣٤١ .

(٢) نفسه ، الجزء الأول ، ص ١١٣ .

(٣) المالكي : نفسه ، ص ١١٥ – عياض اليحصبي : ترتب المدارك ، ج ١ ، ص ٣٤١-٣٤٢ .

(٤) المالكي : نفسه ، ص ١١٥-١١٦ عياض : نفس المصدر أعلاه والجزء ، ص ٣٤٤-٣٤٥ .

(٥) المالكي : نفسه ، ص ١١٦ – ١١٧ ، عياض : ص ٣٤٦- ٣٤٣ .

(٦) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ٣٦ – عياض : نفسه ص ٣٤٦- ٣٤٧ .

ومنهم كذلك : علي بن زياد العبسي التونسي أبوالحسن أعجمي الأصل ، طرابلسي المنشأ ، تونسي السكنى (ت١٨٣هـ) . وهو أحد علماء إفريقية المتقدمين و كان له دور مهم في الداسات الفقهية ، وفي ادخال المذهب المالكي إلى إفريقية وهو معلم أسد بن الفرات وسحنون بن سعيد أشهر فقهاء المغرب الأدنى وأكثرهم تأثيراً في الدراسات الشرعية . وقد رحل علي بن زياد إلى المشرق ، فسمع من مالك بن أنس وسفيان الثورى ، وعبدالله بن لهيعة (١) . ويقول المالكي (٢) (وهو أول من أخل المغرب « جامع سفيان الثوري » وفسر لهم قول مالك ، ولم يكونوا يعرفونه ، وهو معلم سحنون ، دخل الحجاز والعراق) . ويقول القاضي عياض (٣) (وهو أول من أدخل الموطأ وجامع سفيان المغرب) . وهو أحد النقاد من أصحابماللك بن أنس كما يقول عنه تلميذه أسد بن الفرات (٤) . أما تلميذه الأخر سحنون بن سعيد فيقول عنه : (ما أنجبت إفريقية مثل على بن زياد) (٥) ، وكان يثنى على غزارة علمه ولايعدل به أحداً من المصريين من أصحاب الأمام مالك . ومّما قاله عنه (ولو أن التونسيين يسألون لأجابوا بأكثر من جواب المصريين) .يريد بذلك : علياً بن زياد وعبدالرحمن بن القاسم . وقال عنه مرة (لو كان لعلي بن زياد من الطلب ما للمصريين ما فاته منهم أحد ،

---

(١) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ٢٥١ - المالكي : نفسه ، ص ١٥٨- عياض نفسه ، ٣٢٦ .

(٢) نفسه ، الجزء الأول ، ص ١٥٨ .

(٣) ترتيب المدارك ، الجزء الأول ، ص ٣٣٦ .

(٤) عياض : نفسه ، ص ٣٢٦ .

(٥) عياض : نفسه ، ٣٢٧ .

وما عاشره منهم أحد) (١) .

ومنهم : البهلول بن راشد الحجوي الرعيني ولاءً ، وكان من العباد المشهورين في وقته (ت١٨٣هـ) . وبجانب هذا فقد كانت له مكانة علمية في الفقه ، رحل فسمع من مالك بن أنس ، والليث بن سعد وسفيان الثوري وغيرهم ، وسمع منه جلة من العلماء بإفريقية (٢)

ومن نفس رجال هذه الطبقة ، أبو عبدالرحمن عبدالله بن عمر بن غانم بن شرحبيل بن ثوبان الرعيني ، قاضي إفريقية في وقته (ت١٩٠هـ) وهو ممَّن رحل إلى المشرق ، وممَّن كان له دور علمي بارز ، وقدسمع في رحلته عن كل من مالك بن أنس وسفيان الثوري وأبي يوسف القاضي صاحب أبي حنيفة (٣) ، ويقول المالكي (٤) (روى عن مالك وعليه معتمده) وبالإضافة إلى الحجاز والعراق ارتحل إلي الشام (٥) ويقول عياض (٦) (وله سماع من مالك مدون ، إنقطع ، ومنه في المجموعة مسائل ، وسمع الموطأ) . ويذكر كذلك أن له رحلة إلى مصر ، سمع خلالها من عدد من تلامذة الامام

---

(١) عياض : نفسه ، ص ٣٢ .

(٢) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ٥٢ – المالكي : نفسه ، والجزء ، ص ١٣٢ – عياض : نفسه ، ص ٣٣٠ .

(٣) المالكي : نفسه ص ١٤٣ – ١٣٤ – عياض : نفسه ، ج١، ص٣١٦ – ٣١٧ – تراجم أغلبية مستخرجه من مدارك القاضي عياض نفسه، تحقيق محمد الطالبي مع مقدمة وفهارس ص ٨-٩.

(٤) نفسه ، ص ١٤٣ .

(٥) المالكي : نفسه – عياض : نفسه ، ص ٣١٦ .

(٦) نفسه : الجزء الأول ، ص ٣١٧– تراجم أغلبية ،ص ٥ .

مالك المصريين . (١)

وممّن يلحق بهم من رجال القرنين الثاني والثالث ممّن رحل إلى المشرق ، أبو خارجه عنبسه بن خارجه الغافقي (ت ٣١٠هـ) فقد سمع في رحلته من مالك بن أنس وسفيان الثورى والليث بن سعد وعبدالله بن وهب والمغيرة بن أبي عبدالرحمن المخزومي وسفيان بن عيينة (٢) وغيرهم . وقد ذكر (٣) المالكي نقلا عن أبي العرب في طبقاته أن أبا خارجة عنبسة هذا ، هو الذي جاء بجامع سفيان الثوري الصغير إلى المغرب ،في حين جاء على ابن زياد بالجامع الكبير (٤) . وقيل إنه صاحب الامام مالكاً طويلاً ، ولذلك فهو (يروى عن مالك غرائب لم تكن عند غيره) (٥) . وممّا هو جدير بالإشارة إليه هنا أن أبا خارجة هذا ، تنبأ بإضمحلال شأن المذهب الحنفي في إفريقية ، فكان كثيراً مايردد: (لاتمر الليالي والأيام حتى تنمحي كتب أبي حنيفة من إفريقية) . ويعلق المالكي (٦) نقلا عن أحد مصادره الثقات بقوله (فكان كذلك ، فمحاه الله عزوجل بسحنون رضى عنهم أجمعين) .

لكن أبرز رحلات رجال القرنين الثاني والثالث وأعظمها تأثيراً رحلة أسد بن الفرات ورحلة سحنون بن سعيد ، فإليهما ينسب تقدم الدراسات

---

(١) عياض : نفسه ، ص ٥٨٩ (في إطارترجمة سحنون بن سعيد) .

(٢) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ٧٢ – المالكي : نفسه ، ص١٦٣– عياض : نفسه ، ص ٤٨٦ .

(٣) نفسه ، ج١ ، ص ١٦٣ .

(٤) أنظر بعد ٣٢١ .

(٥) المالكي : نفسه ، ص ١٦٧ .

(٦) نفسه ، ص ١٦٥ .

الفقهية في إفريقية ورسوخ أقدامها هناك ، حتي أصبح للمغرب الأدنى مدرسة في الفقه – مالكية – لاتنافس ، بل هي أشهر مدارس المذهب المالكي الفقهية بعد مدرسة المدينة حسبما سنعرض له بعد إن شاء الله في مكانه .

وأسد بن الفقرات بن سنان ، خراساني الأصل ،قيل إنه ولد هناك ، وقيل قدم أبوه إفريقية ، وأمه حامل به (ت١٢٣هـ) ، وأسد بن الفرات في الحقيقة من أعظم وأشهر الفقهاء في إفريقية تأثيراً في الحياة العلمية وخاصة الشرعية منها على وجه الخصوص ، وكان له كذلك دور كبير في انتشار المذهبين الحنفي والمالكي بإفريقية ، وهذا ماسنتبين واقعه بعد . ولعل أبرز وأخص مايهمنا من ترجمة حياة أسد بن الفرات الواسعة ، هو رحلاته العلمية إلى المشرق . والواقع أن أسداً لم يكفه ذلك القدر من العلم الذي تلقاه عن شيوخه في إفريقيه ، فتطلع إلى المشرق ، حيث أساطين الفقه والحديث في الحجاز والعراق ومصر ، فخرج من بلاده عام ١٧٢هـ قاصداً المدينة ، فمكث هناك ثلاث سنوات سمع خلالها من مالك بن أنس موطأه (١) ثم رغب في الزيادة لاسيما وأنه كان ميالاً إلى النظر والرأي ، فأشار عليه الإمام مالك بالرحيل إلى العراق (٢) . وبالفعل فقد رحل إلى هناك ، حيث قابل عدداً من أصحاب الامام أبي حنيفة النعمان وغيرهم ، كأبي يوسف

---

(١) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ٨٢ – المالكي : نفسه ، ص ١٧٣ – عياض : نفسه ، ص ٤٦٥ وهو الوحيد الذي حدد سماعه عن مالك بن أنس بثلاث سنوات ، وهو الوحيد كذلك الذي رد في ص ٤٦٨–٤٦٩ من نفس الجزء على من ينكر ، رحلته إلي مالك وسماعه الموطأ عليه .

(٢) المالكي : ننفسه ، ص ١٧٤ – عياض : ننفسه ، والجزء ، ص ٤٦٦ .

القاضي ومحمد بن الحسن ، وأسد بن عمرو ، ويحيى بن أبي زائدة وغيرهم (١) ، ولقد كان أكثر سماعه على محمد بن الحسن (٢) ، وذكر عياض (٣) ، أن أبا يوسف سمع منه الموطأ وكذلك محمد بن الحسن ، ثم غادر العراق متوجهاً إلى مصر للسماع من تلامذة مالك بن أنس المشهورين : عبدالله بن وهب ، وأشهب بن عبدالعزيز ، وعبدالرحمن بن القاسم (٤) وقد إنقطع أسد إلى ابن القاسم يسمع منه ، وكان قد أحضر معه من العراق مسائل فقهية ضخمة تنسب إلى أبي حنيفة النعمان ، ورغب من ابن القاسم أن يجيبه عليها على مذهب مالك بن أنس . فوافق ابن القاسم على ذلك ، فدون عنه : ستين كتاباً ، هي الأسدية كما سنعرف (٥) أيضاً . وممَّا يدل على مكانة هذه المجموعة الفقهية التي تنسب لأسد ، هو أنه أصبح المعول عليها في الفقه في مصر على المذهب المالكي فيما بعد . أما في إفريقية والمغرب ، فقد أنست مدونة سحنون ذكرها أي ذكر الأسدية ، وأصبح المعول في الفقه كذلك على مدونة سحنون كما سنعرف بعد . (٦)

ومما ينسب إلى أسد بن الفرات أنه كان مدلاً برحلاته العلمية تلك على غيره من العلماء ، وخاصة القاضي : أبو محرز محمد بن عبدالله بن قيس

---

(١) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ٨٢ – عياض نفسه ، س ٤٦٥ .

(٢) المالكي : نفسه ، ص ١٧٥ – ١٧٨ – عياض نفسه ، ص ٤٦٧ – ٤٦٨ .

(٣) نفسه ، ج١ ، ص ٤٦٥ .

(٤) المالكي : نفسه ، ص ١٧٨ . ١٧٩ – عياض : نفسه ، ص ٤٦٨ – ٤٧٠ .

(٥) أنظربعد ص ٣٢٨– ٣٢٩ .

(٦) أنظر بعد ص ٣٢٩ .

الكناني القاضي ، شريكه في القضاء ، حيث ولاهما : زيادة الله بن ابراهيم ابن الأغلب قضاء إفريقية معاً (١) . فكان أسد كثيراً مايقول ويعرض به : (ضربنا في طلب العلم آباط الإبل ، وأغتربنا في البلدان ، ولقينا العلماء ، وغيرنا إنما طلب العلم خلف كانون أبيه ، ووراء منسج أمه ، ويريدون أن يلحقوا بنا) (٢) .

أما سحنون بن سعيد التنوخي الذي يعد أشهر شخصية فقهية مالكية على الإطلاق في إفريقية خلال الفترة موضع الاهتمام ومابعدها ، والذي سنترجم له ترجمه مستفيضة من خلال الحديث عن إنتشار المذهب المالكي ، وعن الدراسات الفقهية وتقدمها ، فقد كان له كذلك رحلة علمية عظيمة الأثر سنتبين أثرها لاحقاً ، وخاصة إلى مصر لأن رحلته تلك تعد نقطة تحول هامة في الدراسات الفقهية . وقد خرج سحنون في أول رحلة علمية له إلى مصر عام ١٨٨هـ ، وقيل عام ١٧٨هـ (٣) وسمع خلال رحلته إلي مصر والحجاز من عدد كبير جداً من العلماء ، أمثال ابن القاسم، وابن وهب ، وأشهب ، وطليب بن كامل ، وعبدالله بن عبدالحكم وسفيان بن عيينة ، ووكيع

---

(١) المالكي : نفسه ، ص١٥٨ - عياض : نفسه ، ص ٤٧٦ . وقد أشار وحده إلى تاريخ توليته للقضاء فقال إن ذلك حدث في سنة ثلاث أو أربع ومائتين .

(٢) المالكي : نفسه ، ص ١٨٣ .

(٣) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ١٠٢ - المالكي : نفسه ، ص ٢٥٠ - عياض : نفسه ، ص٥٨٦ (وهو الذي أشار إلى القولين الآنفين في المتن عن سنة خروجه وقد ذكر عياض في ص ٨٥٧ أن الذي أشار إلى عام ١٧٨ هـ هو ابن سحنون محمد بن سحنون ، ويظهر أنه قد أخذ بهذا التاريخ وأن كان لم ينكر التاريخ الأول وهو عام ١٨٨هـ . ويقول بأنه ربما كان لسحنون رحلتان في التاريخين المذكورين في المتن) .

ابن الجراح وغيرهم من العلماء ممّا يطول بنا (١) ذكر تقصيبيهم . ولقد أقام سحنون في رحلته العلمية هذه خمس سنوات (٢) . وممّا ينسب إليه من مقدار شغفه بالعلم أنه قال ذات مرة (إنغلقت على مسألة حتى أردت الرجوع فيها إلى المدينة حتى اتضحت لي) (٣) . وقد رحل خلال ذلك إلى الحجاز في معية ابن القاسم وابن وهب وأشهب تلاميذ مالك المصريين وكان يحرص في كل وقته على تلقي المسائل من هؤلاء وخاصة ابن القاسم (٤) . ومما حفظ عن ابن القاسم في حق سحنون ترديده دائما قوله (ماقدم علينا من إفريقية ، مثل سحنون لا ولا ابن غانم) (٥) .

أما أبرز علماء القرن الثالث الذي كانت لهم رحلات علمية هامة فقد كانوا كذلك كثيرين ، غير أن أهم واشهر تلك الرحلات ، كانت رحلة محمد ابن سحنون ، ابن سحنون نفسه (ت٢٥٦هـ) عالم إفريقية المبرز أبيه ، والذي يهمنا الآن من ترجمته هو الإشارة إلى أنه كانت له رحلات علمية إلى المشرق ، قابل خلالها عدداً من ألمع العلماء المعاصرين له آنذاك كأبي المصعب الزهري صاحب مالك بن أنس ويعقوب بن حميد بن كاسب ، وسلمة

---

(١) عن العدد الكبير من العلماء الذين لقيهم سحنون في رحلته للمشرق ، أنظر أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ١٠٢ – المالكي : نفسه ، ص ٢٥٠ – عياض : نفسه ، ص ٥٨٦– ٥٨٧ .

(٢) قال عياض : نفسه ، ص ٥٨٧ عن سحنون نفسه : (.. وخرجت إلى ابن القاسم ابن خمس وعشرين ، وقدمت إفريقية ابن ثلاثين سنة) .

(٣) عياض : نفسه ، ص ٥٨٨ .

(٤) المالكي : نفسه ، ص ٢٥٠ – ٢٥٣ – عياض : نفسه ، ص ٥٨٥– ٥٩٢ .

(٥) المالكي : نفسه ، ص ٢٥٣ – عياض : نفسه ، ص٥٨٩ .

ابن شبيب وغيرهم وكانت رحلته (١) تلك في عام ٢٣٥هـ .

ومنهم كذلك ، أبو العباس : عبدالله بن طالب بن سفيان بن سالم التميمي من أبناء عمومه الأمراء الأغالبة أمراء إفريقية وقتذاك (ت٢٧٥هـ) . له رحلة إلى مصر ، فسمع من عدد من العماء ومن أبرزهم : محمد بن عبدالحكم ، ويونس بن عبد الأعلى وغيرهما . (٢) .

ومن رجال هذا القرن كذلك عيسى بن مسكين بن منصور بن جريج الإفريقي قاضي البلاد وقتها (ت٢٩٥هـ) . له رحلة إلى الشام ، حيث سمع من أحد علمائها وهو أبو جعفر الآيلي ، وبمصر من الحارث بن مسكين ، وأبي الطاهر ، محمد بن المواز ، ويونس الصدفي ، ومحمد بن عبدالله بن عبدالحكم (٣) ، وغيرهم .

ومن علماء هذا القرن - أي . الثالث - الآخرين ، أبو سهل فرات بن محمد العيدي (ت٢٩٢هـ) ، وكان عالماً فاضلاً ،فقيهاً محدثاً ، عارفاً بأسماء الرجال وأنسابهم له رحلة ، سمع خلالها من كبار أصحاب الإمام مالك بن أنس (٤) .

ومنهم كذلك زيدان بن اسماعيل بن زيدان الواسطي الأزدي السوسي (ت ٢٩٣ أو٢٩٢هـ) له رحلة إلي المشرق حيث سمع من هاشم بن عمار

---

(١) عن رحلاته وأخبارها الواسعه ، أنظر المالكي : أنظر المالكي : نفسه ، ص ٣٤٦، ٣٥٠ -٣٥٢- عياض : انفسه الجزء الثاني ، ص ١٠٧ - ١٠٨ -١١٣ .

(٢) المالكي : نفسه ، ص ٣٧٥- عياض : نفسه. ، ج٢ ، ص ١٩٤ .

(٣) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص١٤٢ عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٢١٢ .

(٤) محمد بن محمد مخلوف : شجرة النور الزكية في طبقات المالكية ، ص ٧٢ .

الدمشقي ، وابن أبي الحوارى ، وسلمة بن شبيب وعبدالوهاب ابن غياث وغيرهم . (١)

ومن رجال القرنين الثالث والرابع ممَّن يلحق بهم ، أي بعلماء القرن الثالث الهجرى ، العالم الفقيه المحدث : لقمان بن يوسف الغساني (ت٣١٩هـ) له رحله إلى مصر ، وأخذ خلالها علىّ بن عبدالعزيز ، ويحيى بن أيوب الغالب وغيرهما . (٢)

أما علماء القرن الرابع الهجرى فقد تناقصت رحلاتهم إلى المشرق بفضل ماشاع من العلم فيْ ربوع المغرب الأدنى ، ونقصد علم الفقه لأنه أهم ماميَّز الدراسات الشرعية في الفترة موضوع الرسالة .

ولكن ومع تناقص الرحلات العلمية خلال هذا القرن ، إلاَّ أنها لم تنعدم ولم تنقطع بفعل ماذكرنا من الأسباب آنفة الذكر، ثم لأن هذا القرن الرابع ، عرف علماء أقطاب في الفقه لهم مكانتهم التي حفلت بها كتب التراجم ، والفقه . فمن أبرز علماء هذا القرن عبدالله بن أبي القاسم بن مسرور التجيبي (ت ٣٤٦هـ) فلقد كانت له رحلة إلى مصر ومكة وجدة بالحجاز ، سمع خلالها من عدد من العلماء وخاصة المالكية منهم ، مثل محمد بن ابراهيم الوايلي . وابن الأعرابي ، وابن أبي مطر (٣) وغيرهم . ومن علماء هذا القرن أبو العباس عبدالله بن أحمد بن ابراهيم

---

(١) محمد بن محمد مخلوف : نفس المصدر السابق ، ص ٧٢ .

(٢) عياض : نفسه ، ص ٣١١ – محمد بن محمد مخلوف نفسه ، ص ٨١ .

(٣) عياض : نفسه ، الجزء الثاني ، ص ٣٤١ – ابن فرحون : الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ص ١٣٥ .

الابياني (ت٣٥٢هـ) (١) .

على أن أشهر وأبرز من رحل في طلب العلم من علماء هذا القرن ، كان أبو محمد عبدالله بن أبي زيد النفزي القيرواني ، وهو من علماء هذا القرن المتأخرين (ت ٣٨٦هـ) المعدودين ، وكان غزير العلم والمعرفة ، حتى أنه عرف بمالك الصغير ، وكانت له رحله حج وسمع خلالها من عدد من العلماء منهم ابن الأعرابي ، وابراهيم بن محمد بن المنذر ، وأبي هلال علي ابن أبي هلال (٢) وغيرهم .

وممّن يلحق بهم من رجال القرن الرابع والنصف الأول من القرن الخامس الهجرى ، ممّن له رحلة علمية مهمة أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري (ت ٤٠٣هـ) ، وهو واحد من أشهر فقهاء ومحدثي المغرب الأدنى وقتذاك . وقد سمع في رحلته تلك من عدد من العلماء المشهورين بمصر وغيرها مثل : أبو الحسن بن أبي هلال ، وأبو الحسن بن الطمان ، وحمزة بن محمد الكناني ، وأبو الحسن التلباني وغيرهم عدد (٣) آخر كثير.

ومن العلماء الذين قضوا شطراً من عمرهم في منتصف القرن الخاسم الهجري ، ممن كان له رحله : أبو الحسن على بن المنمر الطرابلسي (ت٤٣٢ هـ) وهو من أشهر علماء طرابلس في وقته وقد سمع خلال رحلته

(١) عياض : نفسه ، ص ٣٤٧ ، ٣٤٩ .

(٢) عياض : نفسه ، ص ٤٩٣ – محمد بن محمد مخلوف : المصدر السابق ، ص ٩٦ .

(٣) عياض : نفسه ، ص ٦١٦ = الدباغ – نفسه ، ج ٢ ، ص ١٣٤ – ١٣٥ ، محمد بن محمد مخلوف : نفسه .

إلى مكة من عدد من العلماء منهم أبو القاسم عبدالرحمن بن محمد الجوهري (١) .

ومنهم كذلك العالم المشهور في المتأخرين في هذه الفترة التي تهمنا ، أبو بكر أحمد بن عبدالرحمن (ت٤٣٢هـ) وهو شيخ فقهاء عصره . فلقد كانت له رحلة إلى المشرق ، سمع خلالها من أبي بكر محمد بن بكر العالي وأبي القاسم عبدالرحمن بن محمد الجوهري (٢) وغيرهما .

ونذكر كذلك أبا عمران ، موسى بن عيسى بن أبي حاج الفاسي أصلاً القيرواني الدار والمسكن (ت ٤٣٠هـ) ، فلقد كانت له رحلة إلي مصر والعراق ، فسمع من عدد من علمائها مثل أبي الفتح بن أبي الفوارس ، وأبي الحسن على بن أبراهيم ، وأبي بكر الباقلاني ، وأبي ذر الهروي وغيرهم (٣) .

وفي اعتقادنا أن في هذا القدرمن تتَّبع رحلات الفقهاء العلمية مايكفى ويغنى ، أما عن رحلات علماء الحديث إلى المشرق خلال تلك الفترة ، فلم تكن كثيرة ، كما لم تكن مقتصرة على الحديث وحده ، وذلك نظراً لأن هناك من جمع بين الفقه والحديث في رحلته ، وقد سبق أن ذكرنا بعضهم كعيسى بن مسكين ، ولقمان بن يوسف الغساني ، وأبي الحسن القابسي

---

(١) محمد بن محمد مخلوف : نفسه ،ص ١١٠ ،– على مصطفى المصراتي : أعلام من طرابلس – تراجم ودراسات ص ٢٣ ومابعدها .

(٢) المالكي : نفسه ، مقدمة المحقق ، ص ٤٧م – محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص١٠٧ .

(٣) غياض : نفسه ، ص ٧٠٢ – ٧٠٣ – محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ١٠٦ .

قبل قليل ، ونشير الآن إلى غير هؤلاء ممَّن أشتهر برحلاته العلمية في طلب الحديث . ويأتي على رأس من ذكر تخصيصاً أن له رحلة في طلب الحديث ، مالك بن عيسى القفصي (ت٣٠٥هـ) وهو من أشهر المحدثين في إفريقية في الفترة موضوع البحث (١) . ولقد بلغ من إهتمامة بالحديث أنه كاد يحول وجة الدراسات الشرعية في إفريقية من الفقه إلى الحديث كما سنعرض له بعد إن شاء الله .

أما علماء القرآآت ، فقد كانت لهم كذلك رحلات مهمة طلباً للقرآءات والتفسير . ولقد كانت أكثر رحلاتهم العلمية إلى مصر لاختصاصها بعدد من البارزين في علمي القرآءات والتفسير ، وسنكتفي بالإشارة إلي أشهرهم علماً ورحلة فمن أولئك ، ربيع بن سليما ن بن عطاء الله أبو سليمان القطان الذي كان من علماء القراءات المعدودين في حقل التأليف (ت٣٣٣هـ) فلقد كانت له رحلة إلى مصر ، حيث سمع من عدد من علمائها ، وبمكة من أبن شاذان الجلاب (٢) وغيره . ومنهم محمد بن سفيان القيرواني الفقيه المقرئ الحاذق (ت٤١٥ هـ) ، وقد كان من أبرز رجال القرآءات : قرآءةً وتأليفا ، ويذكر أنه أقام في رحلته الأخيرة إلى المشرق في مكة ثم المدينة حيث توفى بها (٣) . ثم مكي بن أبي طالب حموش بن أبي محمدبن مختار (ت٤٣٧هـ) أحد أشهر وأبرزرجالات القرآءَت لا في القيروان فحسب ، وإنما وفي

---

(١) محمد بن محمد مخلوف : نفس ، ص ٨٠ .

(٢) عياض : نفسه ، ص ٣٢٤ ، محمد بن محمد مخلوف : نفسه أعلاه ، ص ٨١٣ .

(٣) عياض : نفسه ، ص ٧١٢- ابن فرحون : الدبياج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب ص ٢٧١- محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

الأندلس التي استوطنها ، ولقد كانت له رحلات علمية طاف خلالها أقطار المشرق كالعراق ومصر والحجاز (١) . ويعد من أغزر رجال القراءات تأليفاً حسبما سنشير إليه مفصلاً في موضعه إن شاء الله . ومنهم كذلك مقرئ مشهور متأخر هو علي بن فضال المجاشعي القيرواني (ت ٤٧٩هـ) ، كانت له رحلة كذلك إلى عدد من أقطار المشرق كالعراق وخراسان وغيرهما ، وقد ظل في رحلته إلي بغداد التي خرج إليها حتى أدركته الوفاة هناك (٢) .

ويحسن بنا قبل أن نغادر الحديث عن الرحلات العلمية للعلماء المغاربة ودورهم في تقدم الدراسات الشرعية ، أن نلقى الضوء على رحلات علماء الاباضية إلى المشرق . والواقع أن الدراسات الفقهية الإباضية كانت بحاجة سواء في جبل نفوسة أو في إقليم الجريد إلى رحلات علمية إلي المشرق وخاصة البصرة بالعراق للاستزادة والتبحر في الفقة الإباضي وأصوله وقواعده من أفواه شيوخ الإباضية اللامعين ولذلك فقد رحل إلى هناك عدد منهم خلال القرون موضع الاهتمام ، ثم عادوا إلي مساقط رؤوسهم يحملون علماً غزيراً هيأ لهم هناك مكانة عالية . وبجهودهم تلك ، نشطت الدراسات الفقهية نشاطاً كبيراً كما سنلمع إليه بعد ذلك .

وتمدنا المصادر بأسماء عدد كبير من أولئك العلماء الإباضية ، نكتفي

---

(١) القفطي : أنباه الرواة على أنباه النحاة ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، الجزء الثالث ، ص ٣١٣ - ٣١٤ - ابن خلكان : نفسه ، المجلد الخامس ، ص ٢٧٤ - ٢٧٥ - محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ١٠٧ - ١٠٨ .

(٢) الداودي : طبقات المفسرين الجزء الأول ، ص٤٢١ - السيوطي : طبقات المفسرين ، الجزءالأول ، ص ٢٣- ٢٤ .

بذكر أشهرهم وأبرزهم رحلةً وعلماً ، فمن أوائل من رحل إلى البصرة حيث قابل أشهر شيوخ الإباضية : محمد بن عبدالحميد بن مغطير النفوسي الجناوني ، وكانت رحلته قبل عام ١٣٥هـ (١) .

ومنهم كذلك اسماعيل بن ضرار (أودرار) الغوامسي ، فقد رحل إلى البصرة ، وتتلمذ على يد أبرز شيوخ الإباضية في وقته وهو أبو عبيده بن أبي كريمة ، وقد مكث هناك خمسة أعوام ، وممّايذكر عن مقدار علوكعبه في الفقه الإباضي أنه ألقى على مسامع شيخه حوالي ٣٠٠ مسألة عويصه في الفقه الإباضي (٢) ثم نفات بن نصر النفوسي ، وهو من أبرز علماءالإباضية حتى نسبت إليه فرقة منهم . رحل إلى العراق ، وقابل كثيراً من شيوخ الإباضية وتلقى على أيديهم العلم ، ممّا جعل له مكانة علمية مرموقة (٣) .

أما فيما يختص بالدراسات الأدبية والرحلات التي تمت بصددها ، فإننا وإن كنا لم نعثر على رحلات علمية لأعلامها إلى المشرق . إلاّ أننا لانستبعد أن يكونوا قد رحلوا إلى هناك حيث النشاط الأدبي الواسع ، ولانستبعد كذلك ألاّ تكون البلاطات الأدبية المتناثرة في عواصم الثقافة بالمشرق قد استهوتهم .

---

(١) أحمد مختار عمر : النشاط الثقافي في ليبيا من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر التركي ، ص ١٣٣ .

(١) أحمد مختار عمر : النشاط الثقافي في ليبيا ، ص ١٣٣ .

(٢) أحمد مختار عمر : نفس المرجع السابق ، ص ١٣٤ - ١٣٥ - علي يحيى معمر : الأباضية بين الفرق الإسلامية عند كتاب المقالات في القديم والحديث ، ص ٢٦٤ - ٢٦٥ .

وعلى أية حال فإننا لم نعدم إشارات عدة لبعض رحلات الأدباء واللغويين والشعراء المغاربة ، ولعل أول اسم يطالعنا هو اسم خالد بن ربيعة الإفريقي (كان حياً سنة ١٤٠هـ) الكاتب الذي كان له دور معروف في تقدم الكتابات الرسمية أو مايعرف بديوان الإنشاء ، إذ يذكر أنه ارتحل إلى المشرق وبالذات الشام حيث التقى هناك بعبد الحميد الكاتب زعيم كتاب الإنشاء وحامل لوائهم : فخالطة واستفاد من بلاغته (١) . ولا يعرف للأسف تاريخ ولادته ولاوفاته ، وإن كان حسن حسني عبدالوهاب يشير إلى أنه كان حياً عام ١٤٠هـ كما ذكرنا .

ومن علماء اللغة والنحو ، نجد رحلة لبكر بن حماد بن سهل بن أبي اسماعيل الزناتي (ت٢٩٦هـ) أحد أشهر الأدباء والشعراء اللغويين في المغرب كله ، وهو وإن كان من أبناء المغرب الأوسط ، إلاَّ أنه عاش لفترة طويلة في القيروان حتى عد واحداً من أهلها .وسنترجم له بعد إن شاء الله . والمهم أن له رحلة علمية إلى المشرق وخاصة بغداد ، حيث قابل هناك جمعاً عظيماً من علماء ولغوى وشعراء العراق المشهورين كالشاعر أبي تمام ، ودعبل الخزاعي وعلى بن الجهم ، وابن حاتم السجستاني وغيرهم (٢) .

ولدينا أيضا ذكر لرحلة شاعر آخر ، بل لغوى ونحوي في المقام الأول وهو أبو عبدالله محمد بن جعفر التميمي المعروف بالقزاز القيرواني

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية ، القسم الأول ، ص١٥١-١٥٢ .

(٢) محمد بن عمرو الطمار : تاريخ الأدب الجزائري ، ص ٣٢ .

(ت٤١٢هـ) الذي سنترجم له بعد وقد رحل إلى العراق حيث قابل هناك عدداً من علماء اللغة وغيرهم ، وعلى رأسهم أبو علي الحسين بن ابراهيم الآمدي وغيره . (١) .

وفي حقل الدراسات أو العلوم الاجتماعية فلا نتوقع أن تكون هناك رحلات علمية في مجاليها : التاريخ والجغرافيا ، بحكم الندرة الشديدة في المعلومات عنها كما سنشير إلى ذلك في مكانه إن شاء الله .

وأما العلوم التجريبية فلم تكن هناك ، رحلات كثيرة في حقولها المختلفة ، فقد إعتمدت النهضة العلمية للعلوم التجريبية على مجهودات العلماء من الأطباء والرياضيين والفلكيين الوافدين ، وكذلك العلماء المحليين الذين أخذوا عنهم كما سنتبين ذلك بالتفصيل لاحقاً .

بيد أننا لم نعدم ذكراً لبعض الرحلات العلمية التي قام بها بعض الأطباء والكيمائيين المغاربة ، مثل اسماعيل بن يوسف المعروف بالطلاء المنجم (٢)، وهو من مشاهير الكيميائيين المغاربة ، فقد كان له رحلة إلى العراق والشام ومصر طلباً للمزيد من العلم في حقل تخصصه الكيمياء ، وقد كانت له بعد ذلك جهود واسعة سنوضحها في مكانها إن شاء الله . ومن الأطباء الذين إرتحلوا إلى المشرق ، أحمد بن يونس وشقيقه عمر أبناء يونس الحراني كما أشار إلى ذلك ابن جلجل في كتابه :

---

(١) المنجي الكعبي : القزاز القيرواني ، ص٩ ، ٢٣-٢٤ ، ٣٣ .

(٢) الزبيدي الأندلسي : طبقات النحويين واللغويين ، ص ٢٤١ - حسن حسني عبدالوهاب : الورقات، القسم الأول ، ص ٢٥٢ - ٢٥٣ .

طبقات الأطباء والحكماء (١) .

وقيل أن نختتم الحديث عن الرحلات العلمية و أبرز رجالاتها في مختلف الحقول والتخصصات ، لابد لنا من التنبيه على أن كل هذه الرحلات العلمية كان لها دورها العظيم في تقدم الدراسات العلمية والثقافية ، ولكن هذا الدور في الحقيقة لم يكن وحده الذي أسهم في تقدم الحياة العملية في إفريقية خلال الفترة موضوع البحث ، وإنما كان لمجهودات العلماء الذين لم يرحلوا إلى المشرق - وهم كثيرون - دورها العلمي والثقافي جنباً إلى جنب مع عامل الرحلات العلمية هذا .

---

(١) ص ٢٠٧ .

الفصـــــــل الثاني

المراكز العلميه الرئيسية في إفريقية (المغرب الأدنى)

- القيروان
- العباسية وصبرة
- رقادة
- تونس
- المهدية
- سوسة
- إقليم الجريد – قسطيلية (توزر – قفصه – نفطة – قنطرا)
- طرابلس

عمت النهضة العلمية بكافة أوجه معارفها - والتي سنأتي على ذكر تفاصيلها بعد - جل مدن إفريقية في الفترة الزمنية موضوع الرسالة ، وأضحت الكثير من مدنها مراكز مهمة للثقافة والعلوم . ولقد تبارت تلك المدن في اهداء أنبغ علمائها وأدبائها وأطبائها إلى هذه البلاد . غير أن مدينة القيروان كانت تستأثر بالكثير منهم ، بحكم كونها مركز جذب عظيم ، استمدته من واقعها كعاصمة ، روحية وسياسية وعلمية ، بجانب كونها قاعدة عسكرية للبلاد أيضاً . على أن نفراً من أولئك العلماء والأدباء والأطباء قاوم عوامل الإغراء والجذب التي كانت تشعها العاصمة القيروان ، فتحيزوا لمدنهم وآثروا البقاء فيها . وكان هذا من حسن الحظ ويمنه ، إذ ظل هؤلاء ينشرون علمهم وأدبهم بين الناس في مدنهم ، وشكلوا بالتالي روافد ثقافية أخري تصب بجانب رافد القيروان الثقافي المميز في قناة النهضة العلمية لإفريقية خلال تلك الفترة .

وثمة آمر آخر يقتضيه هذا التقديم ، وهو أن مدن إفريقية لم تكن كلها مراكز علمية بالضرورة ، فقد كانت هناك مدن وأقاليم قدر لها أن تكون دون غيرها مراكز مهمة للثقافة والعلوم ، أمّا بسبب موقعها الروحي ، أو الجغرافي ، أو السياسي ، أو المذهبي . وكانت هناك مدن أخرى جاءت مشاركتها ضئيلة في الحياة العلمية .

القـــــــــيروان :

لقد تهيأ للقيروان أن تصبح حاضرة المغرب كله والأندلس لفترة من الفترات . وقد بناها عقبة بن نافع عام ٥٠هـ كما هو معروف لتكون قاعدة لتثبيت الفتح ، والانطلاق غرباً لمواصلة الفتوحات ، ولكي تكون مركزاً لنشر الإسلام واللغة العربية ، وهو ماقاله عقبة بن نافع وهو يضع حجر أساسها من أنه يرجو أن تكون (عزاً للإسلام إلى آخر الدهر) (١) . والواقع أن هذا القائد الكبير لم يضع حجر الأساس لمدينة القيروان فحسب ، وإنما أسهم في تقوية أسس وحدة المغرب العربي ببنائه للمدينة ، نظراً للدور المهم الذي لعبته مدينة القيروان في تاريخ حضارة المغرب العربي (٢) .

ومنذ البدء ، أحيط بناؤها بالإجلال والتبجيل ، ونسبت إلى عقبة بن نافع أمور غيبية عدت بمثابة كرامات له ، مثل خروج السباع والحشرات ، والهوام من أماكنها ، عندما أزمع الفاتح الباني على تشييد مدينته على هذه الأرض المهجورة ، وكذلك عندما وفق في تحديد مكان القبلة لجامعها أو جامعة هو (٣) . ومع مرور الزمن تضخمت الرواية عند المغاربة بصفة خاصة ، فأصبح ينظر إلى عقبة بن نافع نظرة إجلال ارتفعت به إلى مصاف

---

(١) ابن عذاري : نفسه ، ج١ ، ص١٩ .

(٢) الحبيب الجنحاني : القيرواني عبر عصور ازدهار الحضارة العربية الإسلامية في المغرب العربي، ص ٣٣ .

(٣) المالكي : نفسه ، ص ٦–٨– ابن عذارى : نفسه والجزء ، ص ١٩– ٢٠ – سعد زغلول عبدالحميد: نفسه ، ج٢، ص١٨٤ – ١٨٦ مع الحواشي – السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ١١٦– ١٢٠ مع الحواشي .

الأولياء (١) .

وكما أحيط عقبة بهذه النظرة التبجيلية ، أحيطت المدينة نفسها بالنظرة ذاتها بسبب مشاركة أعداد من الصحابة في بنائها الأمر الذي أضفى على المدينة هذه النظرة ، فالدباغ صاحب كتاب معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان (٢) يقول عن القيروان مانصه : (أما القيروان فهي البلد الأعظم ، والمصر المخصوص بالشرف الأقدم . قاعدة الإسلام والمسلمين بالمغرب ، وقطرهم الأفخر الذي أصبح لسان الدهر ، عن فضله يعرب ، وبشرفه يغرب قرارة الدين والإيمان ، والأرض المطهرة من رجس الكافرين وعبادة الأوثان . فقبلتها أول قبلة رسمت في البلاد المغربية ، وسجد لله فيها سراً وعلانية . ناهيك بأرض كانت منازل أصحاب نبينا صلى الله عليه وسلم ، ومحط رحالهم ومعقلهم للإسلام ، المقصود إليها بسيرهم وأثقالهم ، والبقعة التي تخيروها مقراً للإسلام والمسلمين ، مصراً مؤسساً على التقوى إلى يوم الدين ، دار هجرة المغرب ... الخ) .

والشاعر أبو القاسم الفزاري الذي سنترجم له بعد يؤكد هو الآخر على الطابع الديني لمدينة القيروان ، فهي المدينة التي بناها أصحاب الرسول ﷺ ، وحسبها بذلك فخرا (٣) .

---

(١) أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ء ص ١٨٤-١٨٥ مع الحواشي - السيد عبدالعزيز سالم نفسه والصفحات والحواشي .

(٢) الجزء الأول ، ص ٦-٧ .

(٣) وردت تلك الأبيات التي يؤكد فيها الشاعر أبو القاسم الفزاري على طابع مدينة القيروان الديني ، ويتغنى بفضائلها وأمجادها الروحيه وغيرها في القصيدة الرائية التي هجا فيها الفاطميين =

وهذا شاعر آخر ، وهو أبو الحسن علي بن عبد الغني الحصري القيرواني الضرير – الذي سنترجم له بعد أيضا – يشير كذلك إلى هذا الطابع الديني لمدينته ، فنظم الشعر في ذلك مفتخرا بها (١) .

والواقع أن نظرة الاجلال والتبجيل التي أحاطت بالمدينة ، حدت إلى أن ينظر إليها أهلها على أنها تمثل في مكانتها الإسلامية المدينة الرابعة بعد مكة والمدينة ، وبيت المقدس . فالدباغ يقول أيضا (٢) نقلا عن أحد شيوخ مدينته قوله : (مازلت أبحث في الآثار والأخبار ، إلى أن وجدت أن القيروان رابعة الثلاثة : المدينة ومكة وبيت المقدس والقيروان ، وقد دعا لها كبار الصحابة ممّن شهد بدراً وبايع بيعة الرضوان) . والشاعر الحصري القيرواني الضرير الذي أشرنا اليه آنفاً يشير في قصيدة له (٣) إلى نفس هذا المعنى الذي أشار اليه الدباغ وغيره .

= ومدح بها الثائر البربري الخارجي أبا يزيد بن مخلد بن كيداد الذي خرج على الخلافة الفاطمية . والقصيدة في الأصل تعتبر من قصائد الفخر . وقد افتخر فيها بالقيروان في معظم أبيات القصيدة . عن الأبيات تلك والقصيدة ، أنظر الدباغ : المصدر السابق ، ج١ ، ص ٢٢–٢٣– ابراهيم الدسوقي جاد الرب : شعراء المغرب حتى خلافة المعز ، ص ٨٩–٩٢ – محمد البعلاوي : شعراء إفريقيون معاصرون للدولة الفاطمية . مقال نشر في مجلة حوليات الجامعة التونسية ، العدد ١٠ ، السنة ١٩٧٣م ، ص ١٢٢ – ١٢٥ .

(١) من القصيدة التي رثى بها مدينة القيروان عندما سقطت في يد بنى هلال ، وبني سليم عام ٤٤٩هـ ، عن الأبيات تلك والقصيدة أنظر محمد المرزوقي الجيلاني بن الحاج يحيى : أبو الحسن الحصري القيرواني حياته عصره رسائلة دواوينه ، ص ١٢٥– ١٢٧ .

(٢) معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان ، الجزء الأول ، ص ٦–٧ .

(٣) أنظر محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى : أبو الحسن الحصرى القيرواني ، ص ١٢٦ .

وفي الحق فلو أن أولئك المؤرخين والعلماء والأدباء من أبنائها نظروا إلى الحقيقة التاريخية ، وهي أن القيروان كانت بدون ريب رابع مدنية إسلامية تؤسس للمحافظة علي الفتوحات الإسلامية ، ونشر الإسلام والدراسات الإسلامية في الأمصار المفتوحة بعد الكوفة والبصرة والفسطاط لكان ذلك أصدق وأبلغ . فقد كانت القيروان تقوم بنفس الدور السياسي والعسكري والديني والعلمي الدي قامت به الكوفة والبصرة والفسطاط . بيد أن دور القيروان في الواقع كان أشمل وأعمق ، لأنها تفردت تقريباً بالدور العلمي في بلاد المغرب في الفترة الزمنية موضع الاهتمام .

ومهما يمكن من أمر ، فإن الشئ الدي لايمكن نكرانه ، هو أن تأسيس القيروان ، كان حدثاً من أجل الأحداث التي أثرت ليس في تاريخ وحضارة المغرب الأدنى ، وإنما والغرب كله .

ولقد أضحت القيروان منذ تأسيسها العاصمة السياسية للمغرب كلة والأندلس ، وظلت كذلك إلى أن بدأت خريطة المغرب والأندلس السياسية تتغير فانفصلت الأندلس عنها (١) ، وفي وقت لاحق : المغرب الأقصى بتأسيس الدولة المدرارية فالادريسية ، وانفصل كذلك المغرب الأوسط بتأسيس بتأسيس الدولة الرستمية في تاهرت ، كما أنها أخذت تفقد قيمتها السياسية بتأسيس العواصم السياسية المتلاحقة للدول المستقلة في إفريقية : العباسية - رقادة - المهدية - صبرة (المنصورية) . غير أنها

---

(١) بتأسيس الدولة الأموية عام ١٣٨هـ ، ٧٥٥ م على يد عبدالرحمن ابن معاوية بن هشام بن عبدالملك بن مروان ، المعروف بعبد الرحمن الداخل كما هو معروف .

مالبثت أن استردت مكانتها السياسية عندما عادت في وقت من الأوقات إبان حكم الصنهاجيين ، العاصمة السياسية لإفريقية والمغرب في الفترة التي أعقبت انتقال الفاطميين إلى مصر .

ولئن فقدت القيروان بعض إشراقها السياسي كعاصمة في خضم تلك الأحداث التي أفضت إلى تأسيس عواصم جديدة مع انفصال الأندلس والمغربين : الأوسط والأقصى عنها ، إلاَّ أنها مافقدت يوما مكانتها كعاصمة ثقافية ، ومركز علمي رئيسي في بلاد المغرب كلها . ذلك أنها أصبحت منذ تأسيسها وحتى سقوطها في يد قبائل بني هلال وسليم في منتصف القرن الخامس الهجري ، العاصمة العلمية الكبرى في المغرب الأدنى والمغرب كله . فلقد تبوأت مركزها العلمي الريادي قبل أن يقع فتح الأندلس ، وقبل أن تؤسس عواصم العلم والمعرفة في بقية أنحاء المغرب ، تونس ، وتاهرت ، وتلمسان ، وفاس ، ومراكش ، وحل بها بعض الصحابة وكثير من التابعين وتابعيهم ، ونشروا فيها العلوم الدينية في مجالاتها المختلفة ، وتوافد عليها كبار الأدباء واللغويين والنحاة حسبما سنعرف بعد لاحقا . ولقد بلغت من المكانة الفقهية ، أن أصبح لها مدرسة فقهية نافست غيرها من مداس الفقه المالكي ، وذلك عندما أنجبت عدداً من كبار الفقهاء الذين أصبح ينظر إليهم بوصفهم رموزاً علمية عالية ، مثل سحنون بن سعيد وغيره . وفي الأدب بمجالاته المختلفة أهدت إلى العربية أساطين الأدباء والشعراء واللغويين والنحاة الذين عدوا رموزاً لما أنتجته العبقرية الإسلامية، مثل ابن رشيق وابن شرف وابراهيم الحصري ، وعلى بن عبدالغني الحصري القيرواني

صاحب أجمل قصيدة غزلية وهي قصيدة : ياليل الصب ، التي عورضت ولاتزال حتي اليوم ، ومثل القزاز العالم اللغوي والنحوي المشهور الذي تعدت شهرته حدود القيروان وإفريقية ، وفي الطب مازال لاسم ابن الجزار نظرة احترام وتقدير حتي الآن .

ولقد تنامى دور القيروان العلمي في العصر الأغلبي ، وظهرت فيه بصفة خاصة خصائص المدرسة الفقهية القيروانية التي قاد نهضتها وقعَّد لها القواعد الفقيه سحنون بن سعيد . ويصف محمود اسماعيل عبدالرازق (١) دور القيروان في العصر الأغلبي بقوله (والحق أن القيروان في العصر الأغلبي حظيت بمكانة مرموقة في الحياة الثقافية ، حتى غدت مركزاً للحضارة الإسلامية في المغرب ، وأضحت كعبة بقصدها طلاب العلم والعلماء من الشرق والغرب على السواء ، وصارت همزة الوصل بين حضارة المشرق الإسلامي والأندلسي) .

وفي العصر الفاطمي لم تفقد القيروان اشعاعها الثقافي ، إذ تعاظم دورها وتنامى حين تصدى علماؤها لعلماء الإسماعيلية في المهدية الذين كانوا يستمدون قوتهم من الخلفاء الفاطميين ، وتصدى بعض أدبائها أيضاً لأدباء الفاطميين ، الذين كانوا يروجون لافكار الشيعة الإسماعيلية حسبما سنعرف بعد .

أما العصر الصنهاجي فقد كان بحق أزهى عصور الثقافة ، وزهت القيروان بمكانتها العلمية والسياسية التي استعادتها ، وظلت طيلة العصر

---

(١) الأغالبة – سياستهم الخارجية ، ص ٤٤ .

الصنهاجي الأول (١) تتزعم الحركة العلمية بكافة أوجه معارفها ، وإن كان قد غلب على الحياة العلمية وقتها النشاط الأدبي أو الدراسات الأدبية ، كما سنعرف لاحقاً بعون الله .ولقد دفعت المكانة العلمية هذه التي بلغتهاالقيروان في الفترة الزمنية موضوع الرسالة إلى أن يتعصب أبناؤها لها ، ويرون أن مدينتهم فاقت في قيمتها العلمية كثيراً من المدن والأمصار الإسلامية . إذ فاقت في نظرهم مصر وبغداد . فالشاعر أبو القاسم الفزاري ، الذي عرضنا له من قبل يقول في نفس القصيدة التي هجا فيها الفاطميين ، ومدح بها الثائر أبي يزيد ، وهو في الحقيقة لم يمدح سوى مدينته القيروان يؤكد على أن القيروان فاقت بغداد ، بل ان بغداد يجب أن لاتقارن بها ، ويتساءل بقوله كيف له أن يقيس بغداد عليها ، والشهور لاتقاس عادة بالسنين (٢) ؟ وشاعر القيروان المشهور ابن رشيق يقول من قصيدة يرثى بها مدينته القيروان بعد سقوطها على يد الهلاليين ، إن القيروان زهت في مكانتها العلمية على مصر وبغداد معا . (٣)

ومهما يكن في هذا القول من مبالغة وتحيز ، فإنه لايمكن تجاهله ونكرانه في التدليل على مقدار مابلغته النهضة العلمية لهذه المدينة . وعلى

---

(١) أي حتي سقوط القيروان في منتصف القرن الخامس الهجري الذي به ينتهي العصر الصنهاجي الأول ، ليبدأ العصر الصنهاجي الثاني في مدينة المهدية بعد ذلك حتى سقوط الدولة الصنهاجية الفعلي نهائياً بيد الموحدين ، عن ذلك أنظر قبل ص ٧٤ ومابعدها .

(٢) أنظر قبل حاشية (١) ص١٤١ .

(٣) عن هذه الأبيات وتلك القصيدة ، أنظر عبدالعزيز الميمني السلفي الراجكوتي : النتف من شعر ابن رشيق وزميله ابن شرف ص ٧٣- ٨٠ .

أية حال فإن مما يؤكد على عظم مكانة القيروان العلمية أنها كانت قمينة بأن يؤلَّف في نهضتها العلمية مصنفات عديدة حتى الوقت الحاضر . فالمالكي يصنف كتابه : رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وإفريقية وزهادهم ونساكهم وسير من أخبارهم وفضائلهم وأوصافهم ، وفيه تراجم لبضع عشرات من الفقهاء والعلماء بها . والدباغ يؤلف موسوعة بعنوان : معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان . ويأبى أحد أبناء القيروان ، وهو أبو الفضل بن ناجي التنوخي إلاَّ أن يتقصى مافات الدباغ من تراجم ، فيكمل الكتاب ويزيد عليه تراجم من اختياره - ويزايد عليهما - إن صح هذا التعبير - أحد أبناء القيروان المتأخرين ، وهو محمد بن صالح القيرواني الكناني (ت١٣٠٢هـ) فيؤلف كتابا بعنوان : تكميل الصلحاء والأعيان لمعالم القيروان ، يستدرك فيه تراجم فاتت الدباغ وابن ناجي ، مع تراجم لاحقة لهما.

وفي الأدب والمسيرة الأدبية والشعرية يؤلف ابن رشيق شاعر القيروان المشهور ، - الذي سنترجم له بعد - كتاباً بعنوان : أنموذج الزمان في شعراء القيروان ، يترجم فيه لبضع عشرات من شعراء القيروان المعروفين في وقته ، وفي العصر الحديث نجد بعضاً من الباحثين المحدثين يخصها بمصنفات تتحدث عن العلم والأدب بها . فهذا حسن حسني عبدالوهاب يصنف : بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق ، وهذا أبو القاسم كرو وزميله عبدالله شريط يصنفان : عصر القيروان . وهذا محمد العروسي المطوي يصنف كتاباً بعنوان : سيرة القيروان - رسالتها

الدينية والثقافية في المغرب الإسلامي . ويكتب الحبيب الجنحاني بدوره كتاباً بعنوان : القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي إلى غير ذلك .

وقبل أن نغادر الحديث حول هذه النقطة يجدر بنا الإشارة إلى مقولة مأثورة ترددت كثيراً عند تتبع مسيرة الدراسات العلمية والشرعية منها على وجه الخصوص في الأمصار الإسلامية ، وهي أن (العلم كقمح نتج بالمدينة وصفِّيَ ببغداد ،وطحن بالقيروان ، وغربل بقرطبة ، وأكل بفاس) (١) . وعلى كل حال فإذا كان لنا من تعليق فهو أنه إذا كان حظ القيروان من العلم : الطحن فهو حظ غير مبخوس ، ويكفيها أنها كانت تطحنه لتقدمة لقمة سائغة للآخرين .

وكيفما كان الأمر ، فاننا لانجد في هذا الخصوص عبارة أبلغ من تلك التي أشار إليها أبو القاسم كرو وزميله عبدالله شريط ، ولانملك إلا أن نردد معهما قولهما : (لم يلمع في تاريخ المغرب العربي اسم مدينة ولا ازدهر عصر من عصوره بعد الفتح الإسلامي كما لمع اسم مدينة القيروان وازدهر عصرها الذهبي مدة أربعة قرون كامله ابتدأت من تأسيسها على يد عقبة بن نافع سنة خمسين للهجرة ، وانتهت بانهيارها السياسي العلمي والإجتماعي على أيدي القبائل الزاحفة من صعيد مصر عام ٤٤٤هـ) (٢) .

---

(١) أنظر نص المقوله عند عبدالهادي التازي : جامع القرويين (المسجد والجامعة بمدينة فاس) الجزء الأول ص ١٠٥ (نقلاً عن غير واحد من المؤرخين)

(٢) عصر القيروان ، ص ٥ .

العباسية (١) وصبرة (٢) :-

لعل من الواجب أن نشير في البداية إلى أن هاتين المدينتين العباسية وصبرة توصفان كضاحيتين للقيروان أكثر منهما مدينتان . ولسنا ننكر أن هاتين المدينتين كانتا في وقت من الأوقات عامرتين بالسكان والأسواق والمرافق الأخرى شأن كل مدينة ، إلاَّ أنهما كانتا تستمدان جميع أسباب وجودهما من القيروان بحكم احاطتهما بهما أو لنقل ملاصقتهما لها ، فبدتا وكأنهما امتداد لها ، بل هما بالفعل كذلك حيث أصبحتا بمثابة ضاحيتين كبيرتين لها . ذلك أن هاتين المدينتين - الضاحيتين - إن صح هذا القول لم تكن تبعد أقصاهما، وهي مدينة العباسية عن القيروان سوى ثلاثة أميال ، أما مدينة صبرة فلم تكن تبعد عن القيروان سوى نصف ميل فقط ومن هنا نستطيع القول إنهما يشكلان مع مدينة القيروان : القيروان الكبرى على

١- هناك مدينتان في المغرب تعرفان باسم العباسية . العباسية هاتة (القصر القديم) التي تتحدث عنها في المتن ، والتي بناها ابراهيم بن الأغلب المؤسس للدولة الأغلبية . والعباسية الأخرى التي تقع في المغرب الأوسط بالقرب من مدينة تاهرت التي بناها حفيده : الأمير محمد بن الأغلب بن ابرا هيم بن الأغلب الذي تولى الإمرة بين سنتي ٢٢٦- ٢٤٢ هـ / ٨٤١/٨٥٦م . أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢ ، ص ٨٥ مع الحواشي .

٢- هناك أيضا مدينتان في المغرب تعرفان باسم : صبرة ، الأولى صبرة هاتة التي نتحدث عنها في المتن ، والتي بناها الخليفة الفاطمي المنصور ، والثانية : صبرة الليبية ، وهي مدينة أزلية تكون مع مدينتي : ليتس مانيا (لبدة) وأويا أو أوية التي عربها العرب إلى اياس ، مدينة طرابلس وصبرة الليبية عرفت أيضاً بسبرت ، وهي صبراته - سبراته الحالية في ليبيا ، وصبرة الليبية هاته غير : صبروا أوواحة صبروا ، وهي احدى واحات ليبيا كما يقول البكرى . أنظر البكرى : المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، ص١٥ ، عن صبرو و ص ١٧ عن صبرة . وأنظر كذلك سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج١ حاشية رقم ٢٢ ص ٦٦ .

غرار القاهرة الكبرى كما هو معروف .

والعباسية ورقادة وصبرة مدن سياسية وإدارية في المقام الأول ، فالعباسية التي كانت تعرف بالقصر القديم والتي تبعد ثلاثة أميال عن القيروان بناها (١) ابراهيم بن الأغلب مؤسس الدولة الأغلبية نتيجة لشعوره بخطر الجند العرب الذين لمّا تهدأ ثوراتهم بعد ، وكان بناؤها في نفس العام الذي تولى فيه إمارة إفريقية عام : ١٨٤ - ٨٠٠ م ، مما يؤكد اتجاهه إلى إتخاذ الحيطة والحذر له ولبنيه من بعده في بناء هذه المدينة (٢) .

وما أن انتهى من بنائها حتى انتقل إليها بأهله ورجاله وجيشه ، وبانتقاله انتقلت الدوائر والدواوين الحكومية ، حيث أصبحت العاصمة السياسية والإدارية (٣) لإفريقية حتى عام ٢٦٣هـ/٨٧٦م ، عندما تحولت العاصمة إلى مدينة رقادة .

يبقى أن نشير إلى أنه مع التسايم بأن العباسية قد بنيت لغرض سياسي وعسكري ، إلاَّ أن هذا لاينفي أن يكون ابراهيم بن الأغلب قد رغب بالإضافة إلى ذلك في أن يخلد له أسماً وذكراً بين مؤسسي الدول ببناء

---

(١) أنظر البكرى : المصدر السابق ، ص ٢٨- ٢٩ ، ص ٣٨- الرقيق القيرواني : نفسه ، ص٢٢٢ - سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٣، ص ٣١-٣٤ - حسن حسني عبدالوهاب : خلاصة تاريخ تونس - مختصر يشمل ذكر حوادث القطر التونسي من أقدم العصور إلى الزمان الحاضر الجزء الأول ، ص ٧٨ .

(٢) أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٣ ص ٣٣ -٣٤ .

(٣) سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢، ص٣٤- الحبيب الجنحاني : القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب ، ص ٦٠- ٦١ .

مدينة تضفي على دولته الناشئة (١) جواً من الأبهة والفخامة وقد سماها العباسية تيمنا بالعباسيين الذين وطأوا له ذلك الملك .

أما مدينة صبرة ، فقد بناها (٢) ثالث الخلفاء الفاطميين في المغرب ، الخليفة المنصور عام : ٣٣٧هـ/٩٤٩م ، احتفاءاً بانتصاره الكبير على ثورة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الذي مات متأثرا بجراحه بعد . ولاتبعد صبرة التي سميت بالمنصورية إما نسبة إليه ، وإما نسبة لانتصاره على الثائر أبي يزيد أو نسبه لهما معا ، سوى نصف ميل فقط عن مدينة القيروان ، ولقد ظلت منذ ذلك الوقت العاصمة السياسية للدولة الفاطمية وشطراً من الزمن عاصمة كذلك للدولة الزيرية وفي عهد المعز بن باديس الصنهاجي عندما أعاد بناء سور القيروان عام ٤٤٤هـ جعل السور ممًا يلي مدينة صبرة كفاصل بين المدينتين (٣) وقد نقل إليها دواوين الجيش والجباية والرسائل أو المراسلات (٤) .

هاتان المدينتان : العباسية وصبرة كانت أهميتهما الثقافية تكمن في

---

(١) أنظر مثلا سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ٣١ .

(٢) أنظر البكرى : المصدر السابق ، ص ٢٥ - ابن حوقل : نفسه ، ص ٧٣١- ٧٤ ابن حماد : المصدر السابق ص ٦٠ - ٦١ (والغريب أن يجعل وحده عام بنائها سنة ٣٣٤هـ - حسن حسني عبدالوهاب : خلاصة تاريخ تونس ،ص ١٠٠، ١٠٤ - السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ،ص٥٤٤- ٥٤٥ .

(٣) السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٥٤٥ - حسن حسني عبدالوهاب ، خلاصة تاريخ تونس ، ص ١٠٠ .

(٤) حسن حسني عبدالوهاب : بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق ، ص ٢٨-٢٩ .

واقعهما كعاصمتين سياسيتين وإداريتين . ذلك أنه يمكننا بداهة أن نقول بأنهما كانتا مركزين من مراكز الثقافة والعلوم في إفريقية طوال مده دورهما السياسي والإداري . والواقع أن الأدلة لاتعوزنا في التدليل على صدق هذا القول ، إذ ليس خافيا أن الحياة العلمية وخصوصا النواحي الأدبية منها كانت تسير في ركاب الأمراء والحكام . أينما ساروا ، وحيثما حلوا فمسيرة الحياة العملية كانت تزهو وتتقدم غالباً في ظل الأمراء والحكام الذين يشجعون العلم والعلماء والأدب والأدباء ، فكانوا يحيطونهم برعايتهم وتشجيعهم وعطاياهم ، وأحياناً بايجاد روح التنافس بين الأدباء والشعراء وغيرهم ، وكانوا ينطلقون في هذا من حب الكثيرين منهم للعلم والأدب أولاً ، ولرغبتهم ثانياً في إضفاء جو من الأبهة والذكر الخالد لبلاطاتهم ، لاسيما وأن العصر الذي نتحدث عنه آنذاك سواء في المشرق أو المغرب الإسلاميين كان عصر ازدهار العلم والفكر والأدب .

وفي الحقيقة فإن ذلك الأمر يعتبر ظاهرة عامة في الدولة الإسلامية سواء أكانت خلافة أم مملكة ، أم إمارة ، أم حتى إذا كانت ولاية . ثم أن بريق العاصمة كان دائماً يثير في نفوس العلماء ولاأدباء وغيرهم الرغبة في انتجاعها ، والعيش وسط ذلك المناخ العلمي والأدبي الذي يحوطها ،ومن ثم الاستفادة منه .

والعباسية وصبرة لم تكونا بدعاً في ذلك الأمر ، فكلتاهما ظلت عاصمة سياسية لإفريقية مدة زمنية طويلة ، وأنتجعهما انتجاع وفادة لاسكني كما يخيل إلى العديد من الأدباء والشعراء والأطباء وغيرهم وهذا

في الحقيقة مادفعنا إلى اعتبارهما مركزين من مراكز الثقافة والعلوم وإلاّ فالحق فإن كثيراً من المراجع التي تطرقت إلى تتبع مراكز الثقافة في المغرب كانت تمر على ذكر دورهما مروراً سريعاً (١) – وهذا شيء طبيعي – بحكم ملاصقتهما للمدينة العلمية الكبرى أو الأم وهي القيروان كما ذكرنا ، وهذا يفسر لنا أيضا ملاحظة بدت لي وهي أن هاتين المدينتين ومعهما رقادة لم يتفق أن انتسب إليها أحد من العلماء والأدباء والأطباء وغيرهم وذلك كما يتضح من خلال استقراء كتب التراجم بمعنى أنه لم يطرق سمعي ذكر لعالم قصري الأصل نسبة إلى مدينة القصر القديم أي العباسية ، أو صبري أورقادي نسبة لصبرة أورقادة (٢) ، كما هو شأن المدن الأخرى ذات العراقة العلمية والثقافية . وعلى كل حال فان مانستطيع اختتام هذه النقطة به هو أن المدينتين قد استمدت مكانتهما العلمية كما ذكرنا من واقعهما السياسي ، فلما فقدتا أهميتهما السياسة ، فقدتا بالتالي تلك الأهمية الثقافية .

---

(١) أنظر مثلا عبد الرؤوف عبدالعزيز مخلوف : ابن رشيق ونقد الشعر ، دراسة نقدية تحليلية مقارنه ، ص ٧٤ – حسن حسني عبدالوهاب : بساط العقيق في حضارة القيروان وشاعرها ابن رشيق ، ص ٢٨ ، ٣١ – الحبيب الجنحاني : القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي ص ٦٠- ٦٢ ، ٩٦ -١١٢ – حسن إبراهيم حسن : المعز لدين الله بالإشتراك مع طه أحمد شرف ، ص ٩ ، ١٤ ,١٤٤ ، ٢٢٤ – ٢٢٥، ٢٣٢- ٢٣٣ ، ٢٣٤ ,٢٤١، ٢٥٤- ٢٥٥ فيما يتصل بالمنصورية .

(٢) نقول هذا على سبيل التعميم ، ولاينفى هذا أن يكون ثمة من كان ينتسب إلى هذه المدن – الضواحي – وعلى أية حال فحتى إذا كان هناك من انتسب إلى تلك المدن ، ولم يقدر لنا الاهتداء إليه ، فإنه يبقى أمراً نادراً .

رقـــــــــادة :-

رقادة مدينة بناها : ابراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب بن ابراهيم ابن الأغلب عام : ٢٦٣هـ/ ٨٧٦م ، وتقع على مسافة أربعة أميال أو ثمانية كيلومترات إلي الجنوب الغربي من القيروان . (١) وليس هناك خلاف في أن السبب الرئيسي لبنائها هو : رغبة الأمير ابراهيم بن أحمد هذا الذي يعرف كذلك بابراهيم الثاني أو الأصغر – للتفريق بينه وبين جده الأعلى ابراهيم – في أن يجارى عظماء الدول وكبار الحكام من منشئ الدول الذين يبادرون إلى تأسيس مدينة أو مدن تخلد مع الأيام ذكرهم (٢) ، لاسيما إذا عرفنا أن عصره أو السنين الأولى منه تمثل العصر الذهبي للأغالبة .(٣)

وللمؤرخين والجغرافيين عدة تفسيرات بشأن تسميتها برقادة منها ماذكر أن أسمها مشتق من الرقاد أو النوم (٤) ، وذلك أن الأمير ابراهيم ابن أحمد أصيب بارق منع النوم من عينيه فنصح بالخروج إلى البادية حيث

---

(١) البكرى : المصدر السابق ، ص٢٧ – ٢٩ ابن خلكان : نفسه ، ج٣ ، ص١١٩– الكناني القيرواني : تكميل الصلحاء والأعيان لمعالم الإيمان في أولياء الله – حاشية رقم ٥٦، ص ٣١١– ٣١٣– حسن حسني عبدالوهاب : خلاصة تاريخ تونس ، ص ٨٩–٩٠سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢، ص ٢١٦– ٢١٨ مع الحواشي .

(٢) الكناني القيرواني : نفس المصدر والحاشية والصفحه أعلاه – سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ١١٤.

(٣) الكناني القيرواني : نفس المصدر والحاشية والصفحة أعلاه سعد زغلول عبدالحميد : نفس ، ص ١١٤.

(٤) أنظر البكرى نفس المصدر السابق أعلاه ص ٢٧، الكناني القيرواني : نفس المصدر السابق أعلاه والصفحه – سعد زغلول عبد الحميد : نفسه ، الحاشية رقم ٣٦، ص ١١٦–١١٧ .

هذا المكان الذي بنيت عليه هذه المدينة التي داعب النوم فيها اجفانه ، فرقد فيه . ومن الأقوال أيضا ما قيل إن هذا المكان عرف برقادة نسبة إلى رقاد جثث الخوارج (١) من قبيلة ورفجومه الذين كانوا قد تغلبوا على القيروان في أعقاب مقتل حبيب بن عبدالرحمن الفهرى عام ١٤٠هـ .

وقد انتقل إليها الأمير ابراهيم بن أحمد فور إنتهاء بنيانها عام ٢٦٤هـ (٢) ، واستتبع هذا بالضرورة انتقال الدوائر والدواوين الحكومية ، ولقد قصدها الناس من كل حدب وصوب ، فعظم شأنها وعلا صيتها . وظلت عاصمة للدولة الأغلبية حتى سقوطها عام ٢٩٦هـ كما أنها ظلت كذلك عاصمة للخليفة الفاطمي الأول عبيدالله المهدي حتى انتقل منها إلى مدينته المهدية عام ٣٠٨هـ (٣) .

رقادة هذه اختلف شأنها عن مدينتي العباسية وصبرة ، رغم مايجمعهما واياهما من خصائص ، أي كونها ضواح للقيروان ، وواقعها كعواصم سياسية وإدارية كما ذكرنا . ذلك أنه خلد لها دور بوصفها مركزاً من مراكز العلوم والثقافة بإفريقية في كثير من المصادر والمراجع وهو دور لم يكن نتيجة حتمية لواقعها كعاصمة سياسية شأن ماذكرناه عن العباسية وصبرة ، ولكنه كان دوراً علمياً وثقافياً واضحاً .

١- البكري : المصدرالسابق ، ص ٢٨١ - سعد زغلول عبدالحميد - نفسه ، حاشية ٣٦٢ ، ص ١١٦ - ١١٧ .

٢- ابن خلكان : نفسه ، المجلد الثالث ، ص ١١٩ - سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ١١٧ .

٣- سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ١١٧ - ومابعدها - السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٣٧١ - ٣٧٢ حسن حسني عبدالوهاب : خلاصة تاريخ تونس ، ص ٨٩- ٩٠ .

والواقع أن رقادة أضطلعت بدور ثقافي مهم في نشر وازدهار العلوم التجريبية على وجه الخصوص ، ذلك لأن الحياة العلمية في إفريقية (المغرب الأدنى) كانت قد تطورت كثيراً في عهد الأغالبة ، وكان أبرز ماميز الحياة العلمية في عهدهم : التقدم في الدراسات الشرعية ، وتلا ذلك ، التقدم في العلوم التجريبية التي بلغت غاية من الإزدهار آنذاك (١)، وكان الفضل في انتشارها وازدهارها يعود لبعض الأمراء الأغالبة ومنهم الأمير إبراهيم بن أحمد الذي كان شديد الولع بالعلوم الرياضية (٢) والحكمة . لذلك فما أن انتهى من بناء رقادة حتى بادر بإنشاء بيت الحكمة الذي قصد من إنشائه أن يأتي على غرار بيت الحكمة العباسي في بغداد . وقد وصفها علماء المغاربة المحدثون بأنها كانت بمثابة أول أكاديمية علمية في المغرب كله . (٣)

ولقد دأب الأمراء الأغالبة على تعهد بيت الحكمة بالرعاية والتشجيع

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بأفريقية التونسية ، القسم الأول ، ص ٢٦-٣٠، ٧٣-٧٤، ١٩٣ - عثمان الكعاك : تاريخ الجزائر ، ١٥٩ .

(٢) حسن حسني عبدالوهاب : ورقات عن الحضارة العربية بافريقية التونسيه ، القسم الأول ، ص ١٩٣ .

(٣) دأب جل من أشار من الباحثين المغاربة على وجه الخصوص إلى بيت الحكمة هذا على تسميته بالجامعة وعلى رأس هؤلاء حسن حسني عبدالوهاب في كتبه ، وخاصة الورقات (أنظر القسم الأول ، ص ٢٧، ٧٣ - الخ) ومنهم عثمان الكعاك في كتابه : تاريخ الجزائر ، ص ١٥٩ ، وابراهيم التوزري في المرجع السابق ، ص ١٦٢ ، والحبيب الجنحاني : القيروان عبر عصور ازدهار الحضارة الإسلامية في المغرب العربي ، حاشية رقم ١٧٧ ، ص ١١١ . وهذه الحاشية مهمة جداً في توضيح ما ذكرنا اذا يقول فيها (في بعض الكتب الحديثة تقارن بيت الحكمة في تاريخ الثقافة الإسلامية بالجامعة ، ولكن نظام بيت الحكمة ودورها العلمي يجعلان مقارنتها بما يعرف اليوم بأكاديمية العلوم أقرب . وهو مانميل إليه في المتن) .

وهم : ابراهيم بن أحمد مؤسس رقادة ، وابنه عبدالله وحفيده زيادة الله بن عبدالله (١) وجهدوا في أن يقتفوا نهج الخلفاء العباسيين الذين أسسوا ورعوا بيت الحكمة البغدادي ، لذلك فقد عملوا على أن يزودوا هذا البيت برقادة بالمصنفات العلمية والفلسفية على وجه الخصوص وبذلوا الأعطيات الكبيرة في اقتناء تلك المصنفات من مظانها المختلفة ، وخاصة من بغداد ، وكانوا في الوقت نفسه يرغّبون ويمنُّون فطاحل العلماء للقدوم إلى بيت الحكمة برقادة (٢) . كما الحقوا ببيت الحكمة هذا قسماً للترجمة عن اللغة اللاتينية وغيرها . (٣)

والحقيقة أن دور بيت الحكمة برقادة لم يقتصر على العلوم الرياضية والطبية فحسب ، وإنما كانت رقادة وبيتها ذلك مجالاً للمناظرات الكلامية بين أهل السنة وغيرهم . ويأتي على رأس المتكلمين والفلاسفة الذين أموا رقادة الفقيه المتكلم سعيد بن الحداد والفيلسوف أبو بكر التمودي وغيرهما (٤) .

١- ينسب نفر قليل من الباحثين المحدثين إلى زيادة الله الثالث ابن عبدالله بن ابراهيم بن أحمد بن الأغلب ، وهو آخر الأمراء الأغالبة فضل تأسيس بيت الحكمة ، مع أن الشائع والمعروف أن مؤسسة هوجده ابراهيم بن أحمد بن محمد بن الأغلب ، الذي أسس مدينة رقادة ، أنظر عثمان الكعاك مراكز الثقافة في المغرب ، ص ٢٢ ، وكل من ينقل عنه .

٢- حسن حسني عبد الوهاب : الورقات القسم الأول ، ص ٢٦، ١٩٣، ١٩٦ ابراهيم التوزري : نفسه ، ص ١٦٣ – عثمان الكعاك : مراكز الثقافة في المغرب ، ص ٢٢ .

٣- حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع والقسم اعلاه ، ص ٢٧، ٢٠٠ -٢٠٣ عثمان الكعاك : مراكز الثقافة ص ٢٢١ .

٤- حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع أعلاه ، ص ٢١٣ – ٢١٧ .

ومما ساعد ازدهار العلوم العقلية هذه ، هو حب آخر الأمراء الثلاثة للدولة الأغلبية للعلم والعلوم العقلية على وجه الخصوص وقد ذكر أن هؤلاء الثلاثة الأمراء كانوا يجيدون التحدث باللغة اللاتينية (١) .

ويرى حسن حسني عبدالوهاب أن بيت الحكمة ، كان يحتل مكانه في أحد قصور الأمير ابراهيم بن أحمد مؤسسه ومؤسس رقادة كما عرفنا . وقد تتبع حسن حسني عبدالوهاب بيت الحكمة هذا ، ورسم له – تخميناً – تصوراً يوضح قاعدته وفصوله وخزائن كتبه وهيئته الإدارية ، مما يترك انطباعاً بأن هذا البيت يشبه تماماً مثيلة البغدادي (٢)

وممَّا هو جدير بالذكر أن المراجع حفظت لنا اسم واحد من مشرفيه في عهد الأمير زيادة الله بن عبدالله بن ابراهيم ، وهو أبو اليسر الشيباني الذي قدم مهاجراً من بغداد . وسنتبين لاحقاً دوره ومكانته العلمية في موضعه بإذن الله .

يبقى أن نشير أخيراً إلى نقطة مهمة رافقت بيت الحكمة هذا ذلك أن حسن حسني عبدالوهاب وغيره يستخدمون أحيانا لفظ : بيت الحكمة القيرواني (٣) ، ممَّا يستشكل معه الباحث في شأن نسبته إلى رقادة ، ولكن حسن حسني عبدالوهاب وغيره يؤكدون على أن هذا البيت أقيم

١- حسن حسني عبدالوهاب ، نفس المرجع ، والقسم السابق ص ٢٠٠ -٢٠١ .

٢- الورقات القسم الأول ، ص ١٩٤ – ١٩٩ .

٣- نفس المرجع والقسم أعلاه ، ص ٢٧ . (بيت الحكمة القيرواني) ، عثمان الكعاك : تاريخ الجزائر، ص١٥٩ .

برقادة، وظل هناك طيلة مدة حكم الأمراء الأغالبة الثلاثة المذكورين وبعض من عهد الدولة الفاطمية ، وليس هذا فحسب ، بل يناقش مسألة أحقية رقادة به دون القيروان فيعقد فقرة بعنوان : التباس يؤكد فيها ذلك . (١)

فكيف نوفق بين ترديده لعبارة : بيت الحكمة القيرواني ، وبين ماثبت من أن كان في رقادة ؟ لعل مايبدو لي معقولا ، هو أن هذا القول هو من قبيل اطلاق الكل على الجزء ، فإفريقية كانت تعرف أيضاً ببلاد القيروان (٢) ، وكانت إفريقية ومازالت تعرف بالبلاد التونسية نسبة إلى مدينة تونس ، وهكذا صح أن يقال : بيت الحكمة القيروان ، أما إذا أريد التخصيص فيقال : بيت الحكمة الرقادي ، أوبيت الحكمة برقادة . ومما يدل على أن هذا المفهوم هو الذي جرى عليه العرف ، هو أن حسن حسني عبدالوهاب نفسه أشار في بعض المواضع إلى بيت الحكمة برقادة بقوله : بيت الحكمة التونسي (٣) . ولاشك أن ذلك نسبة للقطر كله .

وأيا ماكان الأمر ، فقد ظل بيت الحكمة هذا برقادة يؤدي دوره في الحياة العلمية وبخاصة التجريبية منها كما سنعرف بعد طيلة مدة حكم الدولة الأغلبية ، وعندما سقطت الدولة الأغلبية وقامت الدولة الفاطمية ، ورث الفاطميون في جملة ما ورثوه ، بيت الحكمة هذا ، غير أنهم حاولوا تغيير طابعة التقليدي ، فأصبح في عهدهم وطيلة بقاء عاصمتهم في رقادة قبل

---

(١) نفس المرجع والقسم ، ص ١٩٢- ١٩٣ .

(٢) أنظر قبل ص ٣٣ وما بعدها .

(٣) الورقات ، القسم الأول ، ص ١٩٠، ١٩٩ .

بناء المهدية مكاناً لبث الدعاية للمذهب الإسماعيلي والترويج له (١) . ومما يذكر في هذا الصدد أنهم عندما رحلوا إلى مصر ، أخذوا معهم الكثير من المصنفات التي كان بيت الحلكمة يحتوى عليها . (٢)

تونـــــــــس :-

وكـمـا كـانت القـيـروان أثراً خـالداً من آثار المسلمين الإنشـائيـة ومحدثاتهم في بلاد المغرب ، كانت مدينة تونس ومازالت كذلك . فهذه المدينة دون ريب من منشآت المسلمين في هذه البلاد ، وقد تهيألها أن تكون ذات شأن عظيم في تاريخ إفريقية (المغرب الأدنى) ، وخاصة منذ القرن السابع الهجري وحتى الوقت الحاضر ، ويكفى أن نشير إلى أنها هي الوحيدة تقريباً من مدن إفريقية التي أعطت اسمها للبلاد والسكان .

وقد التصق اسم مدينة تونس بحسان بن النعمان (٣) الغساني الذي ينسب إليه بناؤها وتمصيرها على الأرجح (٤) بعد تخريبه لمدينه

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع والقسم السابق ، ص ٢٠٥ – ٢٠٩– ٢١٠ .

(٢) حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع والقسم السابق ، ص ٢٨ ، ١٩٦، ٢٠٦ .

(٣) أنظر البكرى : المصدر السابق ،ص ٣٧– ٣٨ ،المالكي : نفسه ، ص ٣٧– الرفيق القيرواني : نفسه ، ٦٦ – ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص ٥ – سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج١، ص ٢٣١ – ٢٣٢ .

(٤) وإذا كانت معظم المصادر والمراجع تشير إلى أن حسان بن النعمان هـو باني مدينة تونـس ، فإن بعضاً من المصادر تذكر أن زهير بن قيس البلوي قد افتتحها . (انظر ابن أبي دينار : =

قرطاجنة البيزنطية التي لاتبعد عنها سوى ١٠ أميال فقط وكان الغرض من بنائها تأمين قاعدة بحرية ، تطل منها افريقية على العالم الخارجي ويكون لها نفس الدور الإستراتيجي الذي كانت تؤديه قرطاجنة .

ومنذذلك الوقت أخذت المدينة تكبر وتتسع ، وتعهدها القادة والولاة ، ثم بعض أمراء خلفاء الدول المستقلة في إفريقية بالرعاية (١) حتي أصبحت في الفترة الزمنية موضوع الرسالة ثاني مدينة إفريقية بعد القيروان . هذا وينسب المؤرخون للخليفة العباسي المنصور قولاً مأثوراً يدل على أهمية تونس التي أخذت تزداد ، وهو سؤاله لكل من يقدم عليه من الإفريقيين : كيف حال أحد القيروانيين ؟ (٢) ، يقصد مدينة تونس .

ويميل نفر كبير من المؤرين القدامى ، وبعض من الباحثين المحدثين إلى ترجيح القول بأن تسمية تونس بهذا الاسم ، إنما هي تسمية عربية

= نفس المصدر السابق ، ص ٩، لكن هذا غير معقول ، فحمله زهير كانت في العقد السادس من الهجرة، بينما بناء تونس كان في العقد الثامن من الهجرة ، وهو ماناقشة ابن أبي دينار في نفس الصفحة ، وبعض المصادر تغرب فتذكر أن الذي بناها هو عقبة بن نافع ، وهذا القول الذي أنفرد به المراكشي صاحب كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، لم يشر إليه أحد من المؤرخين القدامي والمحدثين سواه .، أنظر محمد الهادي العامري : تاريخ المغرب في سبعة قرون بين الازدهار والذبول ، حاشية رقم (١) ص ٩ .

(١) عن جهود القادة والولاة العرب ثم بعض أمراء وخلفاد الدولة المستقلة في المغرب الأدنى في رعاية وتعمير مدينة تونس أنظر حسن حسني عبدالوهاب : الورقات القسم الأول ، ص ٢٩-٩٤ – محمد الهادي العامري ، المرجع السابق ص ٩-١١ .

(٢) أنظر حسن حسنى عبدالوهاب : نفس المرجع والقسم أعلاه ، ص ٢٩٢ .

مشتقة من المعنى اللغوي للكلمة (١) بينما يرى عدد من الباحثين العرب والأجانب إلى أن تسمية تونس المدينة بتونس ، هو نسبة لقرية كانت تعرف بتونس "THNES" أوتينس " TYNE'S" (٢) وكانت مدينة تونس في الفترة الزمنية موضوع الرسالة مركزاً من مراكز الثقافة والعلوم ، فقد استوطنها عدد من العلماء والأدباء الذين لم يبهرهم بريق العاصمة الثقافية الكبرى : القيروان ، وغيرها من العواصم السياسية الأخرى . غير أن بعدها النسبي (٣) عن مدينة القيروان جعل منها مدينة مغلقة – إن صح هذا

---

(١) يرى بعض المؤرخين القدامى أن مدينة تونس بنيت في موضع قرية عرفت : ترشيش أو طرشيش ، وسميت تونس لأن المسلمين عندما فتحو إفريقية نزلوا بقرية ترشيش في أحدى غزواتهم وكان بجانب القرية صومعة للرهبان ، فكان المسلمون يتأنسون براهب كان فيها ، ويقولون هذه الصومعة تونس – ومن هنا جاء الاسم ، وقيل بل ان المسلمين كانوا يسمعون أصوات الرهبان المنبعثة من الصومعة فيتأنسون بها وكانوا يقولون هذه البقعة تونس ، وقيل إن العرب وجدوا زيتونه منفردة في الموضع الذي بقى به المسجد ، فقالوا هذه تونس ، وسمى المسجد بمسجد أوجامع الزيتونه . أنظر البكري :المصدر السابق ، ص ٣٧-٣٨ – ابن أبي دينار : المصدر السابق ، ص ٩- ١٠ – سعد زغلول عبدالحميد نفسه ، ج١ص ٢٣٣ مع الحواشي – محمد الهادي العامري : تاريخ المغرب العربي في سبعة قرون بين الازدهار والذبول ص ٩، حيث يقول دون أن يعلل لما قال (تونس تسمية عربية واضحة) .

(٢) أنظر حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ، ص ٢٩٠، حيث يقول إن تونس THUNES قرية فينيقية الأصل ، وإن كان لم يبرهن على أنها هي نفسها التي أقيمت عليها مدينة تونس العربية ، وانظر كذلك سعد زغلول عبدالحميد نفسه ، ج١ ، ص ٢٣٣ حيث يميل إلي أنها نسبة إلى تونس أو تينس TYNE'S وأنظر الحاشية رقم ٢٩٩، من نفس الصفحة – الرقيق القيرواني : نفسه ، حاشية رقم ٢ ، ص ٦٦(فيما يؤكده المحقق للكتاب من أنها نسبة لقرية لاتينية تعرف بـ : TYNES) .

(٣) يقول ابن أبي دينار إن تونس تبعد عن القيروان بأربع مراحل (أي ١٥٧ ميل كما يذكر محقق ومعلق كتاب ابن أبي دينار

القول - لذلك فإن أثرها العلمي والثقافي لم يكن واضحاً ، مع كونها المدينة الإفريقية الثانية في الأهمية بعد القيروان .

والواقع أن تونس - على مايبدو من غرابة - لم تكن مركزاً رئيسياً من مراكز الثقافة والعلوم على الأقل في الفترة الزمنية موضوع البحث ، فهي لم تتسنَّم مركزها الريادي العلمي ، بل والسياسي والاقتصادي إلاَّ بعد سقوط القيروان في عهد الزيريين في منتصف القرن الخامس الهجري بيد العرب الهلالية، ثم سقوط مدينة المهدية في عهدهم أيضاً على يدي النورمانديين في منتصف القرن السادس الهجري . ومع ذلك فلم تتبوأ مركزها الريادي آنذاك لافي منتصف القرن الخامس الهجري ولا في منتصف القرن السادس ، وإنما في القرن السابع عندما قدر للحفصيين وهم أتباع الموحدين كما هو معروف أن يوسسوا لهم دولة في المغرب الأدنى فاتخذوا من تونس عاصمة لهم .

ومن ذلك الوقت أصبحت تونس وارثة القيروان وغيرها من العواصم السياسية والإداريه الإفريقية كالعباسية ورقادة وصبرة والمهدية (١) (وقد استفحلت حضارة تونس على عهود الحفصيين ، فهم أول من عنى بها كعاصمة ، وأشادوا المصانع والقصور ، والمدارس للعلم وطلابة وغرسوا بها الحدائق .. وأذاعوا صيتها في العالم الإسلامي) (٢) .

---

(١) عن المكانة التي بلغتها مدينة تونس ابتداء من قيام الدولة الحفصية ، أنظر ابن أبي دينار : نفسه ، ص ١٤- ١٦ محمد الهادي العامري : المرجع السابق ، ص ٩- ١٨٨ .

(٢) محمد الهادي العامري : نفس المرجع السابق ، أعلاه ص ١٠ .

ومايقال عن تونس المدينة ، يقال أيضاً عن جامعها العتيد : الزيتونه ، فلم يكن له ذكر في الفترة الزمنية موضوع البحث مع جامع عقبة ابن نافع في القيروان ، ولم يضطلع بدوره الثقافي والعلمي إلاَّ مع قيام الدولة الحفصية . ومنذ ذلك الوقت أصبح مهوى الأفئدة ، وأصبح يحمل مشعل العلوم الدينية لافي المغرب الأدنى فقط ، دائماً وفي المغرب كله والأندلس والأجزاء التي امتد إليها الاشعاع الثقافي الإسلامي من قارتي إفريقيا وأوروبا . غير أن هذا لاينفي البتة أهميته ودوره العلمي قبل ذلك ، لكن ذلك الدور لم يكن واضحاً بارزاً قبل قيام الدولة الحفصية .

وعلى أية حال فان مانود أن نؤكده هنا هو : أن مدينة تونس كانت تزخر بعدد لابأس به من العلماء والأدباء وغيرهم ممَّا هيأها لأن تكون مركزاً من مراكز الثقافة والعلوم الإفريقية في الفترة موضع إهتمامنا ، وأصبح لها بالتالي دور علمي آنذاك ، لكن ذلك الدور كان ضئيلاً ولا يتناسب مع مكانتها كمدينة إفريقية ثانية بعد القيروان . ولعل السبب أو الأسباب التي أدت إلى ذلك هو بعدها عن العاصمة القيروان ، كما قلنا ، ثم أثر طبيعتها البحرية والتجارية والأهم من هذا في تصورنا هو أنها لم تضطلع بدور سياسي آنذاك . غير أنه عندما أتيحت لها الفرصة كي تكون عاصمة للبلاد ، تنامى دورها وازدادت أهميتها ، واستعادت مكانتها كعاصمة للبلاد الإفريقية وكوريثة لقرطاجنة القديمة (١) .

---

(١) في هذا الصدد يذكر سعد زغلول عبدالحميد : أن تونس استعادت مكانتها كعاصمة للبلاد الإفريقية باعتبارها تمثل قرطاجنة الحديثة التي خلفت قرطاجنة القديمة وهو يرى أن ذلك =

ولئن ضنت كتب التاريخ والأدب بتوضيح مكانتها العلمية في الفترة التي تهمنا ، فإنها لم تضن علينا بذكر أعلام تزهو بهم تونس ، وخاصة من الذين كان لهم دور في الدراسات الشرعية ، مثل علي بن زياد التونسي ، أول من أدخل موطأ الامام مالك وجامع سفيان الثوري بلاد المغرب ، وعبد الرحيم بن أشرس ، ومحرز بن خلف ، وأبي إسحاق إبراهيم بن حسن التونسي ، وأبي يزيد شجرة بن عيسى التونسي وغيرهم ممّن سنترجم ونعرض لدورهم لاحقاً إن شاء الله .

وفي دنيا الأدب والشعر أهدت تونس إلى البلاد الإفريقية واحداً من أشهر شعراء القطر كله وقتذاك ، وهو علياً الأيادي التونسي وكثيرين غيره ممّن سنعرض لذكرهم إن شاء الله .

= كان أمراً طبيعياً لأن القيروان كانت شبه مدينة اصطناعية نظراً لطابعها العسكري . لذلك فبعد أن عظمت وكبرت كمدينة أقليمية عادت بعد ذلك لوضعها الطبيعي ، فيما استردت تونس كما قلنا مكانتها ثانية . أنظر المرجع السابق ، ج١، ص١٨٤

المهـــــــدية :-

المهدية مدينة بناها الخليفة الفاطمي الأول عبيدالله الملقب بالمهدي سنة ٣٠٣هـ ، وانتقل إليها فور إنتهاء بنائها سنة ٣٠٨هـ . ولقد سميت بالمهدية نسـبة إليه (١) ، وهي عبارة عن شبة جزيرة تقع على رأس بارز من البحر (كهيئة كف متصل بزند والبحر محيط بها) (٢) وهي إلى الشرق من مدينة سوسة ، وتبعد عن القيروان مرحلتين . (٣)

ويعزو كثير من المؤرخين القدامى والباحثين المحدثين بناءها إلى عدة أسباب ، لعل آكدها هو شعور الخليفة عبيدالله المهدي بعدم القبول في القيروان ، ورقادة ، نظراً لجو العداء الذي كان محتدماً بين الشيعة الإسماعيلية ، وبين جل السكان السنة (٤) . ذلك أن الشعور بالخوف من السنة لم يقتصر على الانتقال من القيروان ورقادة وبناء المهدية بل تعداه إلى أن يفكر الخليفة في بناء بليدة صغيرة على بعد رمية سهم فقط عن المهدية تكون مقراً فقط لمصالح الناس التجارية من دكاكين وخلافة ، فيما تكون سكناهم في المهدية ، وبذلك يضمن لنفسه اشغال أذانهم بين مصالحهم

---

(١) البكرى : المصدر السابق ، ص ٢٩- ٣١ - ابن حوقل : نفسه ص ٧٣ - ابن حماد : المصدر السابق ص ٤١-٤٣- حسن حسني عبدالوهاب : خلاصة تاريخ تونس : ص ٩٧ .

(٢) الكتاني القيرواني : المصدر السابق ، تعليق رقم ٢٥٩ - ص ١٨٦ .

(٣) أنظر ابن حوقل ، نفسه ، ص ٧٣ - البكري : نفس المصدر السابق ، ص ٢٩ .

(٤) أنظر مثلا المالكي : نفسه ، ص ٢١٦ ، مقدمة المحقق السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٥١٨- ٥١٩.- الحبيب الجنحاني : المرجع السابق ، ص ٩٢ - عبده بدوي : مع حركة الإسلام في إفريقية ، ص ٤٣ .

وأموالهم ، وبين أهاليهم عندما يضطرون إلى مفارقتهم ليلاً ونهاراً (١) ، وقد سميت هذه البلدة : زويلة (٢) . زد على ذلك ماكان يستشعره من تهديد القبائل البربرية في المغربين الأقصى والأوسط المناوئين له ولأتباعه من البربر الاخرين من قبيلتي كتامه وصنهاجة (٣) .م وينضاف إلى ذلك كله . كما يستنتج – عادة – الرغبة في السير على العادة التي اعتادها مؤسسو الدولة في بناد مدينة تخلد ذكرهم ، ومن ثم الابتعاد عن عاصمة خصومهم (٤) .

ويؤكد بناؤها في ذلك الموقع المشار إليه آنفا ، والخطوات التي اتخذها الخليفة مباشرة ، كاتخاذه مرسى طبيعياً للمدينة ، وبنائه لدار صناعة كبيرة وتحصينه لها على الطابع الحربي للمهدية، ويرى بعض الباحثين (٥) أن بناء المهدية في ذلك الموقع قصد منه العمل على بسط السيادة الفاطمية على حوض البحر الأبيض المتوسط ، والاستعداد لغزو مصر .

ومدينة المهدية تعتبر بكل المقاييس مركزاً مهماً من مراكز الثقافة والعلوم في افريقية (المغرب الأدنى) في الفترة موضع اهتمامنا فهي أولاً :

---

(١) كان السكان والرعية يعانون عنتاً من هذا التدبير وعندما قيل للخليفة (إن رعيتك في عناء من هذا ، قال لكن أنا في راحة لأني بالليل أفرق بينهم وبين أموالهم ، وبالنهار أفرق بينهم وبين أهاليهم ، فآمن غائلتهم) أنظر ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٦٠ .

(٢) وقد يقال لها زويلة المهدية واحدي المهديتين . أنظر ياقوت : نفس المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ١٦٠ . حسن حسني عبدالوهاب خلاصة تاريخ تونس ، ص ٩٨ .

(٣) أنظر البكري : المصدر السابق ، ص ٣٠ – السيد عبد العزيز سالم : نفسه ، ص ٥١٨ – الحبيب الجنحاني : المرجع السابق ، ص ٩٢ .

(٤) الحبيب الجنحاني : نفسه ، ص ٩٢ .

(٥) الحبيب الجنحاني : نفسه ،ص ٩٣ حسن ابراهيم حسن : المعز لدين الله ،ص ١٨٤ – ١٨٥ .

عاصمة سياسية وادارية محدثة ، وهذا رسم لها بالضرورة دوراً علمياً وثقافياً واضحاً ، تأسيساً على ماسلف ذكره من حتمية الدور الثقافي للعواصم السياسية المحدثة ، ولذلك فلن نبعد عن الحقيقة إذا ماقلنا إنها أصبحت مركز جذب كبير للعلماء و الأدباء والأطباء وغيرهم سواء من الذين ساروا في كنف الدولة الفاطمية طواعيه ، أو الذين اضطرتهم الظروف لسكني المهدية من المغاربة السنة .

وها نحن أولاء ، تطالعنا أنباء فئة لابأس بها من الشعراء الذين حاموا حول مؤسسها عبيدالله يمدحونه ويمدحونها ، فهذا أبو عبيدالله ابن حبوس الفاسي يمدح المهدي ، وقد اختط المدينة بطابع الأسد ، (١)

فيقول :

بطالع الأسد اختط البناء بها	لكنك الأسد الدامي الأظافر(٢)

وهذا شاعر آخر لم يرد له اسم يقول :

ليهنك أيها الملك الهمـــام	قدوم فيه للدهر ابتســـام

(١) ينسب إلى عبيدالله المهدي بصر بعلم النجوم لذلك اختط بطابع برج الأسد ، لأنه كما قيل برج ثابت . ولذلك ثبتت (أنظر ابن حماد : المصدر السابق ، ص ٤١) . غير أن هذا الأمر كما تعلم مخالف للإسلام ، وهو ما أشار إليه المحققان لكتاب ابن حماد هذا بقولهما : (كلام ابن حماد في هذا الشأن لايوافق الإسلام في قليل ولاكثير ، فليس برج الأسد سبب ثبات المهدية . وقد تعرضت المهدية لما تعرضت له سائر المدن ، وهي الآن مدينة شبه مغمورة في تونس ، أنظر المصدر السابق ، أعلاه ، حاشية رقم ٤، ص ٤١ . ومع معرفتنا الأكيدة لذلك ،إلا أننا أوردنا هذا للاستشهاد به في ذكر توافد الشعراء على المهدية أول بنائها .

(٢) ابن حماد : المصدر السابق ، ص ١٤ .

حططت الرحل في بلد كريـــم رعته لك الملائكة الكــــــرام

لقد عظمت بأرض الغـرب دار بها الصلوات تقبل والصيام (١)

وذلك شاعر يدعى ابن بديل يقول عن المهدية :

بنيت لدى أقصى المغـارب دارا قطنت بها الأحـرار والأبرار (٢)

وثمة شاعر آخر مجهول الاسم أيضا يقول في المهدية :

خططت بارجـــاء المغـارب دار دانت لها الأمصار والأقطار (٣)

والمهدية في ثاني اعتبار لأهميتها كمركز علمي وثقافي ، عاصمة لدولة اختلف توجهها السياسي والمذهبي والأدبي ، بل والحياتي عمًّا ألفه السكان من توجهات سياسية ومذهبية – وهو المهم – وأدبية قبل مجئ الفاطميين إلى المغرب . لذلك فمن الطبيعي وهى العاصمة والمقر لهذه الدولة أن تضطلع بهذا التوجه الفاطمي ، فيحتشد بها الأدباء والشعراء الذين كانو يشكلون مايمكن تسميته بأبواق دعاية متنقلة ، ويرفعون عقائرهم بأحقية هؤلاء الخلفاء الفاطميين بالأمر وهذا أحدهم يقول في حق الخليفة المهدي :

هذا الإمـــام الفاطمي ومن به أمنت مغاربها من المحــــذور

والشرق ليس لشامه وعراقــه من يهرب من جيشه المنصور

---

(١) أحمد الطيب الفقيه : المهدية عبر التاريخ ، ص ٦٦– ابراهيم الدسوقي سعد جاد الرب : شعراء المغرب حتي خلافة المعز ، ص ٦٠ .

(٢) أحمد الطيب الفقيه : نفس المرجع السابق ، ص ٦٥ .

(٣) أحمد الطيب الفقيه : نفس المرجع والصفحة .

حتى يفوز من الخلافة بالمنى ويفاز منه بعدلــــه المنشـــور (١)

أما الدور الحقيقي الذي أضطلعت به المهدية ، فهو ذلك الذي قصد منه الدعوة للمذهب الإسماعيلي ونشره بين السكان ما أمكن ذلك . ولقد قدروا أنه لايتأتى لهم ذلك إلاّ بجعل المهدية مركزاً للدعوة للمذهب الشيعي الإسماعيلي يدعو ويروج له ويوضح أسسه ، فكان أن هيأوا لذلك دعاة نشطين مزودين بحصيلة مذهبية كبيرة ، رتبوا الدعوة ترتيباً منظماً دقيقاً ، اضطلع به فيما بعد واحد من أشهر دعائهم على الإطلاق في دور الظهور وهو القاضي النعمان ، (٢) الذي سنعرض لدوره الخطير فيما بعد إن شاء الله .

وبالاضافة إلى هذا . غدت المهدية ساحة يحتدم فيها الجدل المذهبي بين دعاة الشيعة وأحيانا الخلفاء أنفسهم - كما حصل في عهد المهدي (٣) - وبين علماء المالكية الذين رأى العديد منهم في مقارعة أولئك الدعاة الشيعة بالحجة والأدلة الشرعية واللغوية والقياسية وغيرها واجباً دينياً يأثمون على تركه والتقاعس (٤) عن القيام به .

وهكذا فقد شهدت المهدية في ذلك الوقت المبكر من عمرها شيوع تلك

---

(١) أنظر ، رابح بونار : المرجع السابق ،ص ١٦٨ .

(٢) أنظر ، عثمان الكعاك : مراكز الثقافة في المغرب ، ص ٢٥ .

(٣) أنظر ، بعد ص ٥٦١ .

(٤) عن هذه المجالس العلمية والمناظرات المذهبية وغيرها أنظر تعرضنا لها بالتفصيل بعد ص ٥٧٨ .

المناظرات والمساجلات العلمية بين ممثلي الأكثرية السنية الساحقة وهم علماء المذهب المالكي ، وبين ممثلي الأقلية الشيعية من الدعاة الذي فشلوا في توضيح وجهة نظرهم ، وكانت الغلبة من نصيب علماء المالكية كما سيتضح لنا بعد .

والمهدية في ثالث الاعتبارات التي تؤكد اهميتها كعاصمة علمية مميزه، لم تفقد قيمتها العلمية والثقافية هذه بالاستغناء عنها كعاصمة سياسية . فمع أن المدة الزمنية التي ظلت فيها مثل عاصمة من عام ٣٠٨ - ٣٣٧هـ ، قصيرة إلاَّ أنها احتفظت بأهميتها العلمية بعد ذلك ، ولم يؤثر فيها فقدها لمكانتها كعاصمة . ذلك لأنها ظلت تحتفظ بمكانتها كقلعة أولى للشيعة (١) حتى ساعة نبذ المعز بن باديس للدعوة والمذهب الشيعي على مشارف العقد الرابع من القرن الخامس الهجري . وبالإضافة لذلك ، فقد سكنها الكثير من أهل السنة ، ولمع بينهم عدد من العلماء والأدباء المرموقين في الفترة موضع اهتمام البحث ، وعلى رأس هؤلاء يأتي عالم القرآءآت المشهور أبو العباس أحمد بن عمار المهدوي ، والعالم الفقيه ابن عبدالجبار المعروف بابن الصائغ وغيرهما .

والمهدية في رابع الاعتبارات ، عادت وتسنمت دوراً سياسياً مهماً ، ترتب عليه بالضرورة دور علمي وثقافي كبير وذلك عندما تمخضت الأحداث التي تلت ترك المعز بن باديس للمذهب الشيعي والسيادة الفاطمية عند سقوط عاصمته القيروان وأجزاء من دولته بيد العرب كما هو معروف ،و كما

---

(١) أنظر ابن عذارى : نفسه ، ص ٢٦٦ ، عبده بدوى ، مع حركة الإسلام في افريقية ، ص ٨٤ .

أشرنا إليه مراراً . فتقلصت دولته في المهدية التي لجأ إليها ، وفي بعض أحوازها . وهنا عادت المهدية بلاطاً سياسياً وعلمياً وأدبياً لدولة أو لنقل بقايا دولة واستمرت تقوم بدورها هذا حتى سقوطها بيد النورمانديين عام ٥٤٣هـ/ ١١٣٨ م ومايهمنا من هذا هو ماترتب على التجاء المعز بن باديس للمهدية من دور علمي للمدينة ، ذلك أنه قد قصده العلماء والأدباء ، يواسونه ويخففون عليه وقع الصدمة التي تعرض وتعرضت لها دولته حتى وافته المنية عام ٤٥٤/ ٤٥٥ هـ فرثوه أيضا (١) ، وهو مايقف بنا الحديث عنده كما رسمنا من منهج .

---

(١) أنظر ابن عذارى : نفسه ، ص ٢٩٤ – ٢٩٥ – ابن خلكان : نفسه ، المجلد الخامس ، ص ٢٣٣– ٢٣٦ الميمني الراجكوني : النتف من شعر ابن رشيق وزميلة ابن شرف القيروانيين ، ص ١٧ ، ٥٧ ومابعدها – حسن حسني عبدالوهاب : بساط العقيق ، ص ٩٠–٩١ – الزركلي : المرجع السابق ، الجزء السابع ، ص ٢٦٩– ٢٧٠ . وعن بلاط المهدية في عهود خلفاء المعز ، وخاصة ابنه تميم ، انظر ابن عذارى : نفسه ، ص ٢٩٨– ٣٠٤ – ابن خلكان : نفسه ، المجلد الأولى ، ص ٣٠٤ – ٣٠٩ .

سوســـــــة :-

سوســة مدينــة ساحلية تحيطهــا المياه من جميع جهاتها ماعدا الغـرب (١) وتقـع على ســاحل البحـر الأبيض المتوسط في جنوبي مدينة تونس (٢) ، وهي تبعد عن المهدية مسيرة ثلاثة أيام (٣) والمسافة بينهما وبين القيروان ستة وثلاثين (٤) ميلا .

ومدينة سوسة الأغلبية ، قائمة في نفس المكان الذي كانت تقوم عليه المدينة الفينيقية الأزلية : حضر موت التي حرف لفظها في عهود خلفاء الفينيقيين على أفريقية ، وهم الرومان والوندال الوبيزنطيين إلى هدرمات (٥) ويرى أحد الباحثين وهو حسن حسني عبدالوهاب أن تسميتها بحضرموت ليس فيه مايثير الدهشة ، إذا ما عرفنا أن الفينيقيين ، وهم من الكعنعانيين القادمين منذ عهود سحيقة من جنوب شبة الجزيرة العربية حيث إقليم حضرموت في اليمن (٦) .

وكيفما كان الأمر ، فقد كانت مدينة سوسة قائمة ومعروفة بهذا الاسم، زمن الفتح الإسلامي للمغرب ، وإن كان الفضل يرجع للأغالبة في

---

(١) البكرى : المصدر السابق ، ص ٣٤ ، ياقوت الحموي : المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٢٨١– ٢٨٣ .

(٢) الكناني القيرواني : المصدر السابق ، تعليق رقم ٢٣ ، ص ٧ .

(٣) ياقوت المدي : نفس المصدر السابق أعلاه ، ج٣ ، ص ٢٨٣ .

(٤) البكري : نفس المصدر السابق والصفحه أعلاه – ياقوت الحموي نفس المصدر و الجزء والصفحة أعلاه .

(٥) أنظر حسن حسنى عبدالوهاب : الورقات ، القسم الثاني ص ١٥– ١٨ .

(٦) الورقات ، القسم الثاني ، ص ٥

تعميرها. أما تسميتها بسوسة فإن معظم المصنفات الجغرافية التي تناولت جغرافيتها لم تشر للأسف إلى سبب تسميتها بذلك ، ويرجح حسن حسني عبدالوهاب (١) وهو الذي كتب فصلاً مهماً عن مدينة سوسة أن اسم سوسة بربري الأصل ، بيد أنه لم يشر إلي مايعنيه هذا اللفظ البربري .

ومدينة سوسة تدين في تمصيرها وازدهارها وتطورها للأغالبة الذين وجهوا لها عنايتهم ، وجعلوا منها مدينة على درجة كبيرة من الأهمية ، فأحدثوا بها الكثير من المنشآت الدينية والمدنية والحربية . ولقد تعهدها بالرعاية أكثر من أمير أغلبي ، واستمرت في ازدهارها وتطورها حتى أفل دورها ببناد مدينة المهدية الفاطمية (٢) .

ومدينة سوسة مركز مهم للثقافة والعلوم في إفريقية في الفترة موضع اهتمامنا . والواقع أن أهميتها العلمية والثقافية قد جاءت من موقعها البحري الإستراتيجي ، ذلك أن الأغالبة اتخذوا من البقعة البحرية التي قامت عليها مدينة سوسة الحديثة مرفأ بحرياً لمدينتهم البرية الكبرى : القيروان ، بما في ذلك مدينتي العباسية ورقادة . ولقد فرضت عليهم الأحداث السياسية والعسكرية التي كانت توجهها الدولة البيزنطية في القسطنطينية والقوى المهيمنه على ايطاليا والجزر التابعة لها وأهمها صقلية

(١) حسن حسني عبدالوهاب – نفس المرجع والقسم السابق ، ص ١٦ .

(٢) عن جهود الأغالبة في تمصير وأعمار سوسة وازدهار ، أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج ٢ ، ٢ ٧١– ٧٢ ، ٨٥، ١٠١ – السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٣٥٧–٣٦٠، ٣٦٣–٣٦٥، ٣٦٧– ٣٦٨ – حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع السابق ، القسم الثاني ، ص ٢١ – ١٢٤ .

ضد السواحل الإفريقية ، أن يؤسسوا لهم مرفأ بحريا لايبعد كثيراً من السواحل الأوربية من جهة ، ولايبعد عن عاصمتهم البرية القيروان كثيراً من جهة أخرى ، فاستقر عزمهم على سوسة بوصفها المكان الأمثل ، فأسسوا فيها داراً لصناعة السفن ، أحاطوها بسور منيع وحصنوها بسلسلة من المحارس والأربطة (١) التي تشكل ظاهرة مغربية مميزة كما سنعرف بعد . وترتب على ذلك أن اضطلعت سوسة بدور عظيم في تاريخ الفتوحات الإسلامية وهو فتح صقلية الذي تم عبرها ، ونحن لايهمنا تتبّع تلك الأحداث والمواجهة مع البيزنطيين والفرنجة بقدر مايهمنا الإشارة إلى أهمية سوسة العلمية والثقافية ، ذلك أنها أصبحت بحكم كونها ثغراً بحرياً ومعقلاً من معاقل الدفاع عن الإسلام والمسلمين تستهوى أفئدة الراغبين في الجهاد في سبيل الله المتطوعين للمرابطة فيها ، وفي أحوازها . وهكذا فقد قصدتها أعداد كبيرة من المجاهدين لسكناها ، وسكنى رباطها ومحارسها ، وكان من بينهم الكثير من العلماء والأدباء والعباد الذي كانو بالإضافة إلى انقطاعهم للعبادة والمشاغرة علماء يشار إليهم بالبنان (٢) . ولقد أحدث هؤلاء بها نهضة علمية مهمة ، بالإضافة إلى عدد لابأس به ممَّن أنجبتهم المدينة نفسها . غير أن وجه تلك النهضة في الحقيقة كان مقتصراً في الدرجة الأولى على الدراسات الشرعية ، وهذا شئ طبيعي لأن سوسة جزء

---

(١) أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ج٢ ، ص ٧١ -٧٢ - السيد عبدالعزيز :نفسه ص ٣٦٣ - ٣٦٨ - حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع السابق والقسم ، ص ٢٤-٣٣، ٤٤ - ٤٦ ، ٨٨ - ٩١ ، ٩٥ - ٩٧ .

(٢) أنظر المالكي : نفسه ، ص ٢٣٩ - ٢٤٨- ٢٢٠ - ٢٢٥ ، ٣٢٤ - ٣٢٧ .

من كل وهو إفريقية التي كانت الدراسات الشرعية أهم مايميز حياتها العلمية ، هذا من جهة ومن جهة إخرى لطبيعة المدينة الحربية والجهادية - إن صح هذا - إذ ليس غريباً أن تستحوذ على عدد من العلماء والعباد والعلماء أيضاً ممَّن يتحرقون شوقاً للمثاغرة والمرابطة في سبيل الله .
وتسعفنا كتب التراجم والطبقات وكتب التاريخ والأدب أيضاً بذكر أسماء لامعة منهم مثل : يحيى بن عمر الكناني ، وزيدان بن اسماعيل الواسطي السوسي ، وأبو عبدالله محمد بن زيتون ، وسهيل بن عبدالله القيرواني وعبدالحميد الصائغ ، ويحيى بن خالد السوسي وغيرهم الذين سنترجم لهم لاحقا بعون الله .

وفي دنيا الأدب والشعر لم تخل سوسة من علماء وأدباء وشعراء كان لهم ذكر على مستوى القطر الإفريقي كله ، ومن بين أولئك محمد بن عبدون الوراق السوسي ، والصفار السوسي ، وأحمد بن أفلح السوسي وغيرهم ، ممَّن سنترجم لهم بعد إن شاء الله .

بلاد الجريد - قسطيلية : -

بلاد الجريد – قسطيلية – إقليم من أهم أقاليم البلاد التونسية بالأمس واليوم ويقع في الجنوب التونسي ، ويضم عدداً من المدن الهامة في تاريخ حضارة تونس القديمة والمعاصرة مثل : توزر ، قفصة ، نفطة ، نفزاوة، الحامة أو الحمة ، قنطرار، وغير ذلك (١) .

وهذا الإقليم كما يرى عدد من المؤرخين الجغرافيين المسلمين القدامى، يمتد طبيعياً إلى مايلاصقة من أراضى ليبيا والجزائر (٢) . وفي هذا الصدد يرى سعد زغلول عبدالحميد أن إقليم الجريد هو جزء من الأقليم الصحراوي ، وهو أحد الأقاليم الطبيعية الثلاثة التي تمتد أفقيا لتشكل المغرب العربي الواحد ، وهى بالإضافة للإقليم الصحراوي : الإقليم الساحلي وإقليم التل أو إقليم الجبال (٣) .

وتأسيساً على ذلك يعتقد سعد زغلول عبدالحميد (٤) فيما ينقله عن مصادره المختلفة ، أن لبلاد الجريد مفهومان : عام ويشمل (كل الشريط

---

(١) البكري : المصدر السابق ، ص ٤٨ ، ٧٥ – ياقوت : نفسه ، ج ٢، ص ٥٧ – ٥٨ ، ٢٠٦ ، ج ٤ ، ص ٣٤٨ ، ٣٨٢ ، ج ٥ ، ص ٢٩٦– ابن خلدون : المصدر السابق ، ج١ ، ص ٤٧٣ ، ج ٦، ص ١٣٢ – سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢، ص٧٥ مع الحواشي – صالح باجية : الإباضية بالجيريد في العصور الإسلامية الأولى ، ص ٦–٧ .

(٢) أنظر سعد زغلول عبدالحميد (فيما ينقله عدد لابأس به من الجغرافيين المسلمين ،) ، نفسه ، ج ٢ ، ص ٧٥ مع الحاشية رقم ٧٦من نفس الصفحة .

(٣) نفسه ، ص ٧٢– ٧٦ .

(٤) نفسه ، ص ٧٥ .

العظيم الممتد جنوباً « من المغرب إلى الشرق » من السوس الأقصى ، ومدينة تارودانت إلى سجلماسه على سمت فاس إلى فجيج على سمت تلمسان إلى سفوح جبل راشد جنوب تاهرت إلى وارجلا على قبلة بجاية ، وبالقرب منها وأدى ريغ إلى أقليم الزاب ومدينة بسكرة إلى بلاد الجريد (قسطيلية) إلى نفزاوة ، ثم فزان ، وودان ، وأخيراً واحات جنوب برقة) .
أما المفهوم الخاص فهو إقليم قسطيلية الذي (١) حددّنا مدنه وموقعه آنفاً ، وهو الذي يهمنا من المفهومين لهذه البلاد بحكم اقتصار الحديث عن إفريقية (المغرب الأدني) فحسب .

بقي أن نشير في هذه العجالة الجغرافية الخاطفة ، إلى أن معظم الجغرافيين والمؤرخين المسلمين القدامى كانوا يطلقون على هذا الإقليم لفظ قسطيلية بمدنه التي سبق ذكرها ، وإن لم يخل الأمر من اختلاف ، فيما ينضم إليه ، وفيما يخرج (٢) عنه أما لفظ الجريد ، فهو تسمية رديفة للفظ قسطيلية ، وهي مأخوذة أي التسمية من الصفة التي تغلب على ذلك الإقليم

---

(١) نفسه ، ص ٧٠ .

(٢) أنظر البكري : المصدر السابق ، ص ٤٨ . حيث لم يضم قفصه ونفزاوة إلى مايراه من إقليم قسطيلية وهي مدن توزر ، نفطة الحمه) ابن حوقل : نفسه ، ص ٩٢ (وليس عنده تعريف واضح لقسطيلية وإن كان يعتبرها مدينة وليس إقليما . وعلى هذا فهي مدينة توزر فحسب) – ابن خلدون : المصدر السابق ، ج١، ص ٤٧٣، ج٦ ، ص ١٣٢ (وهو الوحيد تقريباً من بين المؤرخين والجغرافيين القدامى الذي أشار إلي المفهوم الواسع لمفهوم قسطيلية إذ يضم عنده نقطة وتوزر وقفصه وبلاد نقزاوة) صالح باجيه : الإباضية بالجريد ، ص ٦-٧ (وعنده الجريد – قسطيلية وتشمل توزر وضواحيها ، نفطة وضحواحيها (قنطرار الحامة ، سدادة تيقوس) سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ص ٧٥ (قسطيلية ومدنها نقطة ، توزر قفصة ، بسكرة) ..

وهي كثرة أشجار النخيل به التي يتصاعد جريدها بكثافة كبيرة ، ومن هنا سيت بلاد الجريد (١) أو بلاد النخيل ، أوبلاد التمور ، وأحيانا شط الجريد (٢) ويبدو أن هذه التسمية قد غلبت على هذا الإقليم أكثر من تسميه قسطيلية . (٣) .

ويستدعى إقليم الجريد منا وقفة توضح وضعيته السياسية والمذهبية – لما لذلك من ارتباط وثيق مع ماسنقرره من أهمية علمية وثقافية له – فهذا الإقليم بحكم كونه يقع في أقصى الجنوب التونسي ، وغير بعيد عن ولايتي طرابلس والجزائر كما عرفنا ، كان في أغلب فترات التاريخ على الأقل في الفترة موضع بحثنا أقرب إلى هاتين الولايتين منه إلى إفريقية وكما نعرف أن الدولة الأغلبية كانت تبسط سلطتها على كل البلاد التونسية مع أجزاء من ولاية طرابلس وأجزاء من ولاية الزاب الجزائري ، بالإضافة لإقليم الجريد طبعا . غير أنه في المقابل كانت هناك الدولة الرستمية التي قامت عام ١٦١هـ في بلاد الجزائر كما نعرف أيضا .

---

(١) أنظر البكرى : المصدر السابق ، ص ٤٨ ،فيما يتعلق بكثرة نخيل قسطيلية) سعد زغلول عبدالحيمد (نقلا عن مصادره المختلفة) : نفسه ، ج١ ، ص ٧٥ مع حاشية ٧٦، اذ يقول أن قسطيلية تعرف باسم بلاد الجريد أوبلاد التمر أو جزائر التمر لكثرة نخيلة أو بلاد النخيل .

(٢) أنظر صالح باجيه : نفس المرجع السابق ، حاشية ٣، ص ١٠ – محمد التونجي : المرجع السابق ، ص ٨٥ حيث يستخدم في خارطة إفريقية لفظ شط الجريد ، وغيرها .

(٣) أنظر في هذا مثلا ابن خلدون ، الذي يستخدم لفظ الجريد للدلالة على قسطيلية في معظم الأجزاء التي ورد فيها ذكره . أنظر المصدر السابق ، ج١ ، ص ٣٦٢ ، ٤٣٣ ، ٥٢٩ ، ٨٣٦ ج ٦ ، معظم صفحات الجزء ، ج٧ ، ٥٦ ، ٥٧، ١٨٤ ، ١٨٧ ، ٣٥٤ ، ٣٦٣ ، وصفحات كثيرة أخرى .

بيد أن الحدود بين الدولتين لم تكن واضحة المعالم ، بل كانت متشابكة متداخلة بحكم احاطة الدولة الرستمية بالذات بالدولة الأغلبية من الجنوب والشرق والغرب (١) ، ولقد نجم عن هذا الوضع الحدودي أن أصبحت تبعية إقليم الجريد (قسطيلية) السياسية تخضع حيناً للدولة الأغلبية وأحيانا أخرى للدولة الرستمية (٢) . وعلى هذا فقد غدا إقليم الجريد يشكل أهمية كبرى للدولة الرستمية تنبع من ذاته بوصفه امتداداً للفكر والمعتقد الاباضي من جهة ، ولكونه همزة وصل بين دولة المذهب الإباضي الرئيسية وهي الدولة الرستمية من جهة ، وبين معقل الإباضية في ولاية طرابلس وهو جبل نفوسه الذي كان يتبع سياسياً ومذهبياً للدولة الرستمية من جهة أخرى وذلك بعد الإتفاق الذي تم بين عبدالله بن ابراهيم الأغلب خليفة والده المؤسس ، وبين عبدالوهاب بن عبدالرحمن بن رسم خليفة والده المؤسس أيضا للدولة الرستمية على اقتسام ولاية طرابلس بين الدوليتن (٣) .

لكننا وبالرغم من أن الشواهد التاريخية تعوزنا لانعتقد بأن إقليم

(١) أنظر محمود اسماعيل عبدالرازق : الأغالبة ، حاشية رقم ٢٣ص ٣٦ وانظر كذلك الخوارج : في بلاد المغرب ص ١٨٨ مع الحواشي – محمد على دبوز : المرجع السابق ، ج٣ ، ص ٥٠٠، ٥١٥ ، ٥١٦ .

(٢) أنظر محمود اسماعيل عبدالرازق : الأغالبة ص ١٠٣ مع حاشية رقم ٢٢ من نفس الصفحة – محمد على دبوز : المرجع السابق ، ج٣، ص ٥١٥– ٥١٦ (حسبما يفهم من كلامه) .

(٣) عن الإتفاق السياسي الذي قسمت بموجبه ولاية طرابلس بين الأغالبة والرستميين ، أنظر سعد زغلول عبدالحميد (فيما ينقله عن مصادره) : نفسه ، ج٢، ص٤٠ مع الحواشي – السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٢٩١– ٢٩٢– محمود اسماعيل عبدالرازق : نفسه ، ص ١٠٤– ١٠٦ – وكذلك الخوارج في بلاد المغرب ، ص ١٨٩– ١٩٠ .

الجريد كله كان خاضعاً سياسياً وبالتالي مذهبياً للدولة الرستمية فعلى سبيل المثال مدينة قفصة وهي إحدى مدنه الكبرى لم تكن إباضية الهوى شأن نفطة مثلاً وقنطرار والحامة وغير ذلك ، فقد عاشت فيها أكثرية سنية لمع فيها منذ إتمام الفتح وحتى انتهاء الفترة الزمنية موضوع البحث عدد كبير من علماء المذهب المالكي كما سنشير بعد قليل . ولربما يعود هذا إلى قربها النسبي للقيروان وغيرها من المدن السنية المالكية (١) وبعدها بعض الشيء عن إقليم الجريد الذي تنتمي إليه جغرافياً ، وكذلك هناك مدينة توزر التي يشار إليها على أنها العاصمة السنية لبلاد الجريد (٢)، وقد لمع فيها هي الأخرى عدد كبير من علماء وأدباء القطر الإفريقي حسبما سنلمع إلى ذكره بعد قليل .

وكيفما كان الأمر ، فإن الحقيقة التي لامراء فيها ، أن إقليم الجريد – قسطيلية – كان من أهم المراكز العلمية الرئيسية في إفريقية في الفترة الزمنية موضوع البحث ، فالجريد بحكم تنائية عن العاصمة الثقافية الكبرى القيروان وغيرها من العواصم الثقافية الأخرى ، أضطر – كما يخيل إليّ – إلى الاعتماد على نفسه في إرواء حاجته من العلوم والمعارف وخاصة الدينية منها . وكان لتمركز البربر بحكم وجودهم الأصلي فيه ، وحماسهم للإسلام وتعاليمه ، الأثر الجليل في انتشار الإسلام ، والدراسات الشرعية بينهم .

---

(١) يقول البكري : إن فقصة على مسيرة ثلاثة أيام من القيروان ، بينما مدينة نفزاوة على مسيرة ستة أيام أما توزر فهى آخر مدينة في اقليم قسطيلية . أنظر المصدر السابق ،ص ٤٧، ٧٥ .

(٢) صالح باجية : المرجع السابق ص ٩ .

ولقد أتاح له هذا أن ينجب علماء محليين ، لذلك فإن معظم الأسماء اللامعة من العلماء والأدباء في هذه المنطقة والذين سنترجم لهم كانوا ينسبون إلي مدن هذا الإقليم بالدرجة الأولى .

ولعل الأمر الثاني الذي جعل من الجريد مركزاً مهماً للثقافة والعلوم في إفريقية وقتذاك ، أنه أصبح بحكم تنائية أيضا عن العواصم السياسية الكبرى للمغرب الأدنى - كما يترائ لنا - ملجأً لكل من لايشعر بالأمان هناك من العلماء والأدباء وغيرهم سواء أكانوا من السنة أم الشيعة ، أم الإباضية (١) .

والأمر الثالث في تصورنا الذي جعل منه مركزاً مهماً للعلوم والثقافة، هو ماسبق أن ذكرناه عن وضعيته السياسية فالمذهبية . ذلك أنه بقيام الدولة الرستمية بالقرب من هذا الإقليم تسلل إليه المذهب الإباضي خاصة وأن البربر يشكلون كما ذكرنا جل سكانه ، ولما كان البربر يشعرون بأن الدولة الرستمية التي قامت على أساس دينى قويم من وجهة نظرهم يخلد ويحقق مبادئ الإسلام العادلة ، فقد استهوتهم الآراء الإباضية فاعتنقوها ، ويضاف إلى هذا أولئك الذين فروا بمعتقدهم الإباضي والصفرى نحو الجنوب هرباً

---

(١) اذا كان التجاء علماء وأدباء من السنة إلي إقليم الجريد يبدو أمرا مستغربا مع أننا لا نستبعده فإن احتواء الجريد على اتباع كثر لمذهب الشيعة والاباضية أمر لايدفع ولاينكر وبالتالي لابد أن نتوقع وجود علماد وأدباء ، وهذا معروف تاريخياً - من الشيعة والإباضية . فمدينة نفطه سميت الكوفة الصغرى كما يقول البكرى نظراً لكثرة الشيعة فيها والجريد زخر بعدد كبير من علماء وأدباء الإباضية ، أنظر البكرى : المصدر السابق ص ٧٤-٧٥ صالح باجية : المرجع السابق ، ص ١٣ .

من الضربات المتلاحقة التي تعرضوا لها من قبل الولاة الأمويين فالعباسيين، فأمراء الدولة الأغلبية (١) . فلما قامت الدولة الرستمية شعر هؤلاء بوجودهم وأهميتهم ، وترتب على ذلك أن ارتبط معظم الجريد بالولاء المذهبي للرستميين منذ قيام دولتهم وحتى سقوطها عام ٢٩٦هـ . (٢)

ونخلص من هذا كله إلى القول بأن إقليم الجريد - قسطيلية عرف نهضة علمية عظيمة تعددت اتجاهاتها وتوجهاتها بتعدد انتماءات سكانه المذهبية ، واصطرعت به العلوم والآداب السنية بالشيعية بالإباضية ، وإن كانت الثقافة الإباضية هي الأكثر وضوحاً وبروزاً حسبما ألمعنا إلى أسباب ذلك . غير أن هذا لايعني البتة أن الجريد كان حكراً على الثقافة الإباضية . فهذه مدينة قفصة وهي من امهات مدنه تسكنها أغلبية سنية ، ونشأ فيها عدد كبير من العلماء والأدباء المشهورين ، ليس فيها فحسب وإنما في إفريقية كلها حتى أنه قد نشأت بها مدرسة في الحديث (٣) نافست مدرسة القيروان الفقهية السحنونية نسبة إلى سحنون بن سعيد أشهر علماء المذهب المالكي في إفريقية . ولقد كادت هذه المدرسة الحديثية التى أسسها مالك بن

---

(١) عن ثورات الخوارج وملاحقة ولاة الدولتين الأموية والعباسية لهم ، ثم بعض أمراء الدولة الأغلبية .
أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج١ ، ص ٢٦٦ ، ٣٩٦ ، ج٢ ، ص ٤٠، ٥٤، ٥٥ ، ١٤٠ ، ١٤٣ - السيد عبالعزيز سالم : نفسه ، ص ٢٠٧ - ٢٧٩ - ٤٥٢ محمود اسماعيل عبدالرزاق الخوارج في بلاد المغرب ،ص ٤٢ - ١٠٧ ، ١٨٩ - ١٩١ .

(٢) صالح باجية : المرجع السابق ، ص ١٣-١٤ .

(٣) عن هذه المدرسة الحديثية وعن النهضة العلمية في قفصة أنظر مجموعة من العلماء والأدباء : تاريخ قفصة وعلمائها ، ص ٨٩، ١٣٢ - وانظر كذلك بعد ، ص ٣٩١ .

عيسى القفصي الذي سنترجم له بعد أن تغلب على إفريقية لو أمتد به الأجل كما يقول محمد بن الحارث بن أسد الخشني (١) ، وقبل مالك بن عيسى القفصي أشتهر بها عدد من العلماء الذين كانوا من أوائل الطبقات المالكية التي استمدت علومها المذهبية من مؤسس المذهب المالكي نفسه : مالك بن أنس كالحارث بن أسد القفصي وغيره . (٢) وبجانب مدرسة قفصة الحديثية ، كانت هناك مدرسة فقهية من رجالها : مثل حمد يس بن ابراهيم القفصي وأبو اسحاق بن منصور القفصي وغيرها . (٣)

وهذه مدينة توزر التي كانت تعد عاصمة الجريد السنية وتولى وجهها جنوب القيروان تستزيد من علومها الشرعية على وجه الخصوص من علمائها الكبار ، مثل أبي محمد عبدالله بن أبي زيد القيرواني وأبي الحسن القابسي وغيرهما (٤) ، وهاهي تهدى مثلاً للقطر الإفريقي عدداً من العماء والأدباء نذكر منهم على سبيل المثال اثنين من أبرزهم وأشهرهم هما : يحيى بن على بن زكريا الشقراطيسي ، وابنه أبا محمد عبدالله بن يحيى بن زكريا الشقراطيسي الذي كان ومايزال من أشهر من أنجبتهم مدينة توزر حتى الوقت الحاضر . ويكفى أن نشير إلى أنه هو أول من نظم ملحَمة شعرية في

---

(١) كتاب طبقات علماء إفريقية ، ص ١٤٧ .

(٢) أنظر المالكي : نفسه ، والجزء ص ٢٠٥ – عياض : نفسه ، ج١ ، ص ٤٩ .

(٣) أنظر مجموعة من العماء والأدباء : تاريخ قفصة وعلمائها ص ١١٦– ١١٩ وأنظر بعد ص ٣٤١ .

(٤) من الذين تتلمذوا على هذين العالمين الجليلين : يحيى بن زكريا الشقراطيسي والد عبدالله الشقراطيسي صاحب القصيدة الشقراطيسية أنظر الهادي مصطفى التوزري أعلام الافارقة (عبدالله الشقراطيسي) ص ١٧ ، ١١– ١٣ .

مدح الرسول ﷺ ، وظلت لأمد طويل مثالاً تحتذى تعارض وتشطر وتخمّس وتشرح ، وهي القصيدة اللامية الشقراطسية (١) التى سنتناولها بالحديث في مكانها بعد إن شاء الله . وممّا يجدر ذكره هنا أن أبا يزيد مخلد بن كيداد اليفرني الذي شن ثورة ضخمة على الدولة الفاطمية في القرن الثالث الهجري ، قد تلقى علومه ودراسته الدينية والمذهبية في مدينة توزر هذه . (٢)

ومدينة نفطة التي تعد من معاقل الإباضية ، كانت تشتمل على عدد من العماء والأدباء الذين كانوا ينتسبون إليها ، وكانوا يختلفون في انتماءآتهم المذهبية عن الغالبية من سكانها ، فهذا أبو عبدالله محمد بن الحسن النفطي يتلقى علومه في القيروان ليعود لمدينته ثانية فينشر فيها علومه وإن كان قد نسب إليه شئ من التشيع (٣) وهذا أحد رجالها ويدعى البغلى يروج لأفكار شيعيه حتى قبل أن تقوم الدولة الفاطمية (٤) ومثله محمد بن رمضان الشاعر الذي كان يروج هو الأخر لأفكار شيعيه (٥) وهذاعالم مالكي من أبنائها وهو أبو الحسن بن اسماعيل يتلقى علومه في القيروان على عدد من علماء المالكية وعلى رأسهم سحنون بن

---

(١) أنظر الهادي مصطفى التوزري : نفس المرجع السابق ، ص ١٦ - ٤٢ نص القصيدة ، ص ٤٣-٦٠- وانظر كذلك : كارل بروكلمان تاريخ الأدب العربي ، الجزء الخامس ،ص ١٠٨-١١٢ .

(٢) أنظر صالح باجية : المرجع السابق ص ١١٥- ١١٦ .

(٣) صالح باجية : المرجع السابق ، ص ١١ ، وأنظر حاشية رقم (١) من نفس الصفحة .

(٤) صالح باجيه : نفس المرجع السابق ، ص١١ حاشيه رقم (٢) وأنظر ماذكره البكري عن نفطه من أنه يطلق عليها الكوفه ص ١٢٨ .

القيروان على عدد من علماء المالكية وعلى رأسهم سحنون بن سعيد وغيره (١) .

أما ازدحام مدن الجريد بعلماء الإباضية على وجه الخصوص وبالفقه والثقافة الإباضية فهو أمر معروف لاينكر . فلقد ازدحمت أغلب مدنه وخاصة مدينة قنطرار أو قنطرارة (٢) بشيوخ المذهب الإباضي الذين كانوا يؤلفون مؤلفات فقهية على أسس مذهبهم . وسنكتفي هنا بذكر عدة أسماء مشهورة من علمائهم من أبناء الجريد ، مؤجلين الحديث عن مكانتهم ومؤلفاتهم الفقهية في مكانة من الدراسات الشرعية ، فمن بين تلك الأسماء نجد أمامنا أسماء لامعة بارزة ، كأبي القاسم بن يزيد من مخلد الوسياني وأبي الربيع سليمان بن علي بن يخلف وابن سلام بن عمر ، وأبي خزر بن يعلي بن زلتاف الوسياني ، وأبي نوح سعيد بن يخلف المزاني وغيرهم . ممّن سنعرض له بعد كما ذكرنا إن شاء الله .

---

(١) صالح باجية : نفس المرجع السابق ، ص١١ ، حاشية رقم (٢) .

(٢) صالح باجية : نفسه ؛ ص ١١ .

طرابلـــــــــس :-

طرابلس إقليم ليبي يشكل مع إقليمي برقة وفزان : دولة ليبيا الحديثة الموحـدة ، ويلفظهـا مـعظـم الجـغـرافـيين والمؤرخين العـرب القـدامى : أطرابلس (١) ويبـدو أن جل العرب والمسلمين قد استسهلوا لفظها هكذا : طرابُلُس بإهمال الهمزة . أما أهلها فإنهم يضبطونها أحياناً : طرابلس أو طرابلس ، وفي بعض الأحيان يلفظون : طـرابلس أطرابلس كما أطلق عليها المؤرخون والجغرافيون (٢) العرب .

وولاية طرابلس أو الأجزاء الغربية منها (ومنها المدينة) بالتحديد تعد باتفاق عدد كبير من المؤرخين والجغرافيين القدامي والمحدثين داخله ضمن مفهوم إفريقية (المغرب الأدنى) (٣) وتضم بالإضافة لطرابلس العاصمة مدينتي : لبدة وسبراته ، كما تضم مدينة زويلة أيضا (٤) وطرابلس المدينة متصلة بجبل نفوسة الذي يحيط بمنطقة . مدينة طرابلس الساحلية كالهلال،

---

(١) أنظر ابن حوقل : نفسه ، ص ٧١ - البكري : المصدر السابق ،ص ٦، ٧، ٩، ١٠، ٨٥، ١٨٢- ابن عذاري : نفسه ، ص ٥، ٨ ومعظم الصفحات التي ورد فيها ذكر مدينة طرابلس - ياقوت : نفسه ، ج٤ ، ص ٢٥ - سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج١ ، ص ٦٦ مع الحاشية رقم ٢٢ من نفس الصفحه - الطاهر أحمد الزاوي : معجم البلدان الليبية ، ص ٢٣- ٢٥ .

(٢) معجم الطاهر أحمد الزاوي : نفس المرجع أعلاه ص ٢٤ .

(٣) أنظر قبل ص ٣٢- ٣٣ .

(٤) البكري : نفس المصدر السابق ص ١٢ ياقوت نفسه ، ج ٣، ص ١٦٠ وهناك في المغرب أكثر من مدينة تعرف بزويلة ، فهناك زويلة السودان مقابل مدينة إجدابية . في ليبيا الآن) ثم زويله المهديه التي بناها الخليفة المهدي كما ذكرنا من قبل . انظر ياقوت : نفسه ، ج٣، ص ١٦٠، ويقول ياقوت: نفسه ص ١٦٠ أن هناك محلة وباب في مصر يعرفان بزويلة .

ويفصل بينها وبين الصحروات الجنوبية في فزان وما وراءها . ولهذا تسمى الأقاليم الساحلية المنخفضة من طرابلس بالجفارة والأقاليم الداخلية المرتفعه بالجبل وبالظهر) . (١)

وجبل نفوسة عبارة عن سلسلة جبال صخرية تمتد من الغرب إلى الشرق ، وتبلغ طول مسافته حوالي ٢٠٠ كليومتر (٢) ، أو نحو ثلاثة أيام كما يقول ابن حوقل (٣) . وقد سميت نفوسه باسم قبيلة نفوسة البربرية التي كانت ومازالت تقطنه (٤) . ويحتوى الجبل على عدد من المدن والقرى يأتي على رأسها مدينتا : شروس أو شروس بإهمال الرسم ، وكانت عاصمة علمية للاباضية بالجبل ، ثم مدينة جادوا . (٥)

وولاية طرابلس أو ماهو داخل منها في مفهوم إفريقية كان بلا نزاع من أهم المركز العمية الرئيسية في إفريقية (المغرب الأدنى) في الفترة الزمنية موضوع البحث . وإذا ماذهبنا نقيم الدليل على صدق هذه الفحوى ، فإن الأدلة لاتعوزنا لحسن الحظ . فلقد تضافرت عدة عوامل ومسببات جعلت من هذه الأجزاء من ولاية طرابلس وخاصة المدينة نفسها ذات أهمية علمية وثقافية .

١- سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج١ ، ص ٦٦ - ٦٧ .

٢- الطاهر أحمد الزاوي : معجم البلدان الليبية ، ص ٩٧ .

٣- صورة الأرض ، ص ٩٢ ، وانظر كذلك البكري ، المصدر السابق ، ص ٥ .

٤- الطاهر أحمد الزوي : نفس المرجع أعلاه ، ص ٩٧ .

٥- البكري : نفس المصدر السابق أعلاه والصفحة - ابن حوقل نفسه ، ص ٩٢ - ٩٣- الطاهر أحمد الزواي : نفسه ، ص ٩٨ .

ولعل أو مايمكن الإشارة إليه من تلك العوامل ، هو الموقع الوسط لطرابلس (١) بين المشرق والمغرب الإسلاميين ، وإذا ماقلنا موقع طرابلس ، فإن القول لابد أن ينصرف بالضرورة لموقع ليبيا الذي تنتمي إليه . ولقد أتاح لها هذا الموقع دوراً ثقافياً مهماً . فهي من جهة تيمّم وجهها نحو المشرق الإسلامي فتغترف من أدنى أقاليمة لها : مصر الكثير من علومه وآدابه ، وهي من جهة أخرى تولي وجهها كذلك نحو المغرب الإسلامي فتنهل من أدنى عواصمه الثقافية لها : القيروان ، حظاً غير يسير من علومه وآدابه . وبدهي أن ذلك كان يتم من خلال الرحلات العلمية إلى هنا وهناك . وعلى هذا الأساس فإن ثقافتها منذ العصر الفينقي وحتى العصر العربي ذات انتماءآت ثلاثة : مشرقيه ومغربية ومحلية .

وأيا ماكان الأمر ، فإن الإشعاع الثقافي للقيروان في العصر الإسلامي وللمغرب عموماً ، كان هو الأكثر بروزاً ووضوحاً في ولاية طرابلس كما يقول عثمان الكعاك (٢) .

وقد هيأ الموقع الوسط لطرابلس ولليبيا عموماً في العالم الإسلامي دوراً علمياً إضافياً (٣) . فعبر أراضيها ارتحل المئات من علماء وأدباء بقية

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن أهمية موقع ليبيا الوسط الثقافي ، راجع أحمد مختار عمرو : النشاط الثقافي في ليبيا من الفتح الإسلامي حتى بداية العصر التركي ، ص ٢٨٥ - ٢٩١ - عثمان الكعاك : مراكز الثقافة في المغرب ص ١١٥ - ١١٦ صالح مفتاح : برقة وطرابلس من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر (رسالة ماجستير) مقدمة إلى كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، ١٩٧٥م ، ص ٢١٦ - ٢١٨) « لم تطبع » .

(٢) مراكز الثقافة في المغرب ، ص ١١٥ -١١٦ .

(٣) صالح مفتاح : برقة وطرابلس من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر ، =

المغرب والأندلس نحو المشرق الذي كان محط آمالهم بسبب المكانة العلمية التي كان يعيش ذروتها آنذاك ، وعبر أراضيها كذلك ارتحلت مجموعات من علماء وأدباء مشرقيين نحوها في بعض الأحيان ، ونحو بقية المغرب ، والأندلس كثيراً تحت وطأة دواعي زمنية وسياسية ومصلحية .. الخ .

وفي كلتا الحالتين كانت جموع معظم هؤلاء وأولئك من العلماء والأدباد تحط رحلها في ليبيا وفي طرابلس بصفة خاصة تتروح من وعثاء السفر . وقد يطيب المقام لبعضهم فيقيمون فيها بعض الشيء ولسنا في حاجة إلى كبير عناء لنستتنتج حدوث تفاعل ثقافي وعلمي مؤثر في كثير من الأحيان ، ومتأثر في آحايين قليلة .

وبالإضافة إلى ذلك فإن لموقع طرابلس الوسط دور علمي وثقافي ثالث، وهو وقوعها على طرق الحج (١) للمغاربة والأندلسيين وقد أتاح لها هذا الإفادة من وجود العلماء والأدباء الذين كانو يحطون بها عصا التسيار مؤقتاً في طريقهم لأداء منسكهم وخاصة أولئك الذين كانت سمعاتهم العلمية تسبق أشخاصهم .

وثمة عامل آخر جعل من طرابلس والقطر الليبي عموما بيئة علمية ومركزاً ثقافياً مهماً ، وهو استيطان الأباضية فيها وفي جبل نفوسه على وجه الخصوص كما ذكرنا . ولذلك فقد سادت الجبل نهضة علمية وثقافية إباضية الملامح والسمات دون شك . والواقع أن ذلك الدور الثقافي لجبل

= ص ٢١٨- ٢١٩ .

(١) صالح مفتاح ، نفس المرجع أعلاه ، والصفحات .

نفوسه ، كان من أهم أدوار الثقافة الإباضية المبكرة ، وقد جاءت تلك الأهمية من أنه قد تأسست فيه ، أي جبل نفوسه أول إمامية . إباضية (١) ، أولت العوم وخاصة مايتفق مع المذهب الأباضي منها رعايتها . واضطلع جبل نفوسه كذلك بإثراء الحياة العلمية الأباضية بالعديد من المصنفات المذهبية . وفي هذا الصدد وغيره كان دور جبل نفوسه الثقافي الأباضي أوضح بروزاً مع دور إقليم الجريد الثقافي الأباضي والدليل على ذلك تركز نسبة كبيرة من علماء الإباضية فيه .

وإذا كنا قد ذكرنا من قبل أن جبل نفوسه كان يتبع سياسياً ومذهبياً للدولة الرستمية منذ قيامها وحتى سقوطها ، فإن هذا لايعنى مطلقاً أن الجبل كان خاملاً ثقافياً ومذهبياً . وقد رأينا قبل قليل مبلغ اسهاماته الثقافية والمذهبية . ويمكن القول ، إن النهضة العلمية في الجبل كانت توازي على أقل تقدير مثيلتها في الدولة الرستمية في المغرب الأوسط ، وأن جبل نفوسه كان يسهم ثقافياً ومذهبياً في مسيرة الحياة العلمية الرستمية . (٢)

وأخيراً لابد لنا من استعراض بعض الأسماء اللامعة لعلماء وأدباء ولاية طرابلس تحقيقاً لما سلف أن رسمناه من منهج تاركين الحديث عن أعمالهم ومجهوداتهم العلمية لموضعه المناسب فيما بعد . ومن بين أولئك

---

(١) أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢، ص٢٩٥، ٢٩٩- ٣٠٠ ، أنظر كذلك ص ٣٢٦ ومابعدهما - صالح مفتاح : برقة وطرابلس من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر ، ص ٥٧- ٦٧ .

(٢) أنظر مثلا سعد زغلول عبدالحميد : نفسه والجزء ص ٣٢٦- ٣٢٨- ٣٥١ .

هناك شخصيات عاصرت بواكير النهضة العلمية في طرابلس الذي رحل إلى المدينة وسمع من الإمام مالك بن أنس مباشرة . ومثل محمد بن ربيعة الحضرمي الطرابلسي ، الذي قابل مالكاً والليث بن سعد وغيرهما ، وهناك أسماء أخرى لامعة مثل موسى بن عبدالرحمن القطان الطرابلسي وعلي بن المنمر وعبدالله الشعاب وغيرهما من علماء المالكية ممن سنترحم لهم لاحقاً .

أما فيما يتعلق بالمدن الأخرى في الأجزاء الغربية من ولاية طرابلس كصبراته ولبدة وزويله وغيرها ، فإن المصادر لاتمدنا للأسف بتفاصيل الحياة العلمية بها وغاية مانعرف هو انتساب بعض العلماء لبعضها مثل عبدالرحمن بن محمد الحضرمي اللبيدي ، وأبو عبدالله محمد بن الحسن الزويلي السرتي ، وغيرهما .

أما عن علماء الإباضية في جبل نفوسه ، فقد برز واشتهر خلال تلك الفترة موضع اهتمامنا عدد كبير منهم نذكر منهم على سبيل المثال ك اسماعيل بن ضرار الغرامسي ، ومحمد بن عبدالحميد بن مغطير النفوس ، وعمر بن يمكتن ، ونفاث بن نصر النفوس ، وعمروس بن فتح النفوسي ، وأخرين غيرهم ممن سنترجم لهم في موضعه بعون الله .

الفصـــــــل الثالث

وسائط الثقافة في إفريقية

- المساجد : المسجد الجامع بالقيروان – جامع الزيتونة – المساجد الأخرى في مدن إفريقية .
- الكتاتيب .
- الرباطات .
- المكتبات العامة والخاصة .

وسائط الثقافة في أفريقية (المغرب الأدنى)

مدخـــــــل : -

إذا كنا في الفقرة السابقة قد أبرزنا دور بعض المدن والأقاليم العلمي والثقافي في إفريقية (المغرب الأدنى) ، وإذا كنا قد بينا أن المكانة العلمية التي تبوأتها تلك المدن والأقاليم ، إنما كانت تعود إلى مكانتها الروحية والسياسية ، والمذهبية ، والجغرافية ، إلى غير ذلك فإن ماهو خليق بالتنبية إليه هنا هو الإشارة إلى أن تلك المكانة العلمية التي حظيت بها تلك المدن سالفة الذكر والتي هيأت تلك الأسباب السابقة لها التطور والانتشار كما تقدم ، كانت تمر عبر قنوات عديدة كفلت لها تلك المكانة . فالمساجد والكتاتيب والرباطات والمكتبات العامة والخاصة وغيرها من القنوات هي التى أبرزت الدور العلمي لهذه المدينة أو تلك . ولايخفى علينا أن تلك القنوات كانت هي الخيار الرئيسي الذي انتشرت عن طريقة العلوم والثقافة الإسلامية والعربية غالباً في العصور الإسلامية وحتى وقت قريب . ونقول غالباً لأن هناك وسائط ثقافية أخرى كقصور وبلاطات الملوك والأمراء ، والمنتديات العلمية في بيوتات الوزراء وعليه القوم ، وفي بيوتات العلماء والأدباء كذلك .

ولعل من يمن السعد أن تحظى إفريقية (المغرب الأدنى) بكل تلك القنوات العلمية ، بل إن بعضها وهي الرباطات مثلاً كانت إحدى الخصوصيات أو السمات الثقافية التي تفوق بها المغرب عن المشرق تقريباً .

ولقد تضافرت تلك القنوات ، ولنسمها منذ الآن الوسائط في تقدم الحياة العلمية في إفريقية المغرب الأدنى في الفترة موضع اهتمامنا حسبما سنوضح أبعادها بعد إن شاء الله.

١ - المساجد :

لعل من قبيل القول المكرر المعاد، الإشارة إلى أن المساجد والجوامع في العالم الإسلامي كافة كانت ومازال ذات رسالة تعبدية وعلمية خالدة ، ومنذ أن وضع الرسول ﷺ أساس مسجده بالمدينة المنورة ، إضطلعت المساجد ولاتزال بهذين الدورين الأساسيين : التعبدي والعلمي في المقام الأول ، كما أن من نافلة القول أيضاً الإشارة إلى أن المسجد كان في العصور الإسلامية الألوى وحتى وقت قريب المقر الذي تناقش فيه قضاياً ومشكلات المسلمين السياسية والأمنية والعسكرية وغيرها .

ومساجد وجوامع إفريقية (المغرب الأدنى) لم تكن بدعا في هذا ، فبجانب رسالتها التعبدية ، مافتئت تعمل طوال الفترة الزمنية موضوع الرسالة - وهو مايهمنا - على الوفاء برسالاتها ووظائفها الأخرى العلمية والثقافية والإجتماعية والسياسية .. الخ . وإذا كنا لسنا بصدد تناول أدوارها التعبدية والإجتماعية وغير ذلك ، فإن مانود أن نبسط الحديث عنه هو الدور العلمي والثقافي الذين إضطلعت بهما .

المسجـــد الجامــــع بالقــيروان :-

لايختلف إثنان في التأكيد على أهمية المسجد الجامع بالقيروان ، أو جامـــع عقبة بن نافع نسبة لمؤسسة كما يطلق عليه أيضا ، ليس في إفريقية (المغرب الأدنى) فحسب ، وإنما وفي المغرب كله وتأتي أهميته تلك من كونه أقدم مسجد في المغرب كله والأندلس ، هذا من جهة ومن أهميته العلمية والثقافية من جهة ثانية ومن ثم أهمية معالمة المعمارية الإسلامية من جهة ثالثة ، وبطبيعة الحال فإن مايهمنا هنا هو الإشارة إلى دوره العلمي والثقافي في افريقية .

وكما أحيطت القيروان بالإجلال والتبجيل العميقين من قبل المغاربة بصفة عامة ، وأهل المغرب الأدنى بصفة خاصة والقيروانيين بصفة أخص ، فقد أحيط جامع عقبة بن نافع كذلك بكل مظاهر ذلك الاجلال والتبجيل ، وما من ريب في أن مشاركة عقبة بن نافع وعدد من الصحابة والتابعين في تخطيط المسجد وتحديد قبلته هو الذي أضفى على المدينة والمسجد في نظر المغاربة طابعاً دينياً عميقاً . ولذلك فليس عجيبا أن نرى المدينه تستهوى الأفئدة والنفوس ، وأن يستهوى جامعها الأكبر بقدر أكبر وأعظم تلك الأفئدة والنفوس .

وكيفما كان الأمر ، فإن الشئ الذي لامراء فيه هو أن جامع عقبة بن نافع كان قلب القيروان النابض بالحياة ، وكان عقلها المفكر أيضا على الأقل في الفترة الزمنية موضوع الرسالة . فإلى جانب دوره الديني العلمي الثقافي ، كان دوره السياسي والاجتماعي خطيراً . وتاريخ مدينة القيروان

إرتبط – فيما يتراءى لي في أدقة وأعظمه – بمسجدها الكبير .

ومنذ اللحظات الأولى لتخطيطه شرع مسجد عقبة بن نافع يمارس دوره العلمي والثقافي بجانب وظيفته التعبدية . وكم هي صادقة تلك العبارة التي فاه بها عبدالهادي التازي في كتابه : جامع القرويين (١) سالف الذكر عندما كان يتحدث عن مدينة فاس وجامعها القرويين ، فهو يقول : (يخيل إلى أنه عندما يسأل المرء عن الوقت الذي بدأت فيه دراسة العلم بالقرويين فكأنما يسأل عن الوقت الذي بدأت الصلاة فيها ، لأن تلك من هذه لافرق بينهما إطلاقاً في نظر الإسلام) . ويقدر مافي هذه العبارة من مصداقية ، فإنها لاتخص جامع القرويين وحده ، وإنما هي عامة لكل الجوامع الكبرى ، بل ومساجد العالم الإسلامي كافة . أولم يكن المسجد هو الجامعة ، والمدرسة التي تعلم وتثقف وترشد ، وتنير؟ إن الأمثلة على هذا مبسوطة شائعة لاسبيل لتتبعها من فرط شيوعها ، وجامع عقبة بن نافع لم يكن بدعاً في هذا ، فهو الجامع الذي خطه القائد عقبة وعدد من الصحابة والتابعين الذين دخلوا إفريقية ، وبثوا فيها حلقات العلم والمعرفة .

ولئن سكتت المصادر عن التصريح بأسماء التابعين الذين ألقوا دروسهم الدينيه في جامع القيروان الأعظم (فيما عدا عكرمه مولى ابن عباس) (٢) فإن من غير المعقول ألاَّ نعتقد أن أولئك التابعين وخاصة أعضاء البعثة العلمية التي أرسلها عمربن عبد العزيز إلى إفريقية كانوا

---

(١) الجزء الأول ، ص ١٠٨ .

(٢) عن تصدى عكرمة للتدريس والإقراء في المسجد الجامع بالقيروان ، أنظر قبل ص٩٥ .

يلقون علومهم ومعارفهم فيه . ومع من أن أغلب المصادر التي أرخت لتلك الفترة قد أشارت إلى أن أعضاء تلك البعثة كانوا يلقون دروسهم في المساجد الأخرى التي أسسوها في القيروان (١) فإننا لانرى مايحول بينهم وبين التصدر للتدريس في أكبر الجوامع وأولها لافي القيروان وإفريقية فحسب ، وإنما في المغرب كله والأندلس .

ونفس الأمريمكننا باطمئنان أن نعممه على غير أعضاء البعثة العلمية المذكورة من التابعين الذين تقاطروا على إفريقية والمغرب والذين أشارت المصادر والمراجع إلى دورهم العلمي الملحوظ في التعليم والتثقيف (٢) .

ومايقال عن جموع التابعين ، سواء أكانوا من أعضاء البعثة المذكورة، أم غيرهم ، يمكن أن يقال عن الكثرة الكاثرة من علماء القيروان الذين ولدوا وترعرعوا فيها ، كما يمكن أن يقال عن أولئك الذين وفدوا إليها من بقية مدن إفريقية أو المغرب والأندلس أو المشرق منذ مطلع القرن الثاني الهجري، فمعظمهم كانوا يتخذون من الجامع الأعظم حلقة للتدريس .

ولقد أورد الدباغ في معالمه (٣) إشارة مهمة جدا تؤكد ماذهبنا إليه من إحتواء جامع عقبة بن نافع على السواد الأكبر من العلماء المحليين والوافدين ، فقد روى حديثا لأحد علماء وقضاة القيروان المبرزين ، وهو

---

(١) المالكي : نفسه ، ج١ ، ص ٦٤-٦٥ - الدباغ : نفسه ، ج١، ص ٢٧ - ٣٢ .

(٢) أنظر أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ١٢- ٢٦ - المالكي : نفسه ، ص ٧٧-٨٩ الدباغ نفسه ، ص ٢٧-٣٢ .

(٣) الجزء الأول ، ٣١٠ .

القاضي عبدالله بن غانم (ت ١٩٠ هـ) الذي عاصر الولاة العباسيين وبالتحديد المهالبة منهم ، ثم عاصر قيام الدولة الأغلبية ومؤسسها ابراهيم ابن الأغلب بتلخص بأنه (إنصرف يوماً من جامع القيروان الأعظم بعد صلاة الجمعه ، فدخل عليه بعض أصحابه ، فسأله ابن غانم : حضرت اليوم الجامع ؟ قال : نعم ، قال : كيف رأيت ؟ قال : رأيت أصلحك الله به سبعين قلنسوة تصلح للقضاء ، وثلاثمائة قلنسوه فقيه ، فترجع ابن غانم وقال : مات الناس) !!.

وحديث ابن غانم هذا مهم من ناحيتين : أولاهما تدلنا دلالة واضحة على أن جامع القيروان قد شهد قبل ذلك أعداداً كبيرة من القضاة والفقهاء والعلماء الذين لازموا أساطينه وأروقته وأنهم بلغوا من القلة في عهد ابن غانم حداً جعله يتحسر ويتألم ويقول عبارته تلك : مات الناس . وثانيهما أن في العدد الذي ذكره الرجل لابن غانم من العلماء والفقهاء في عصره الدليل على مكانه جامع القيروان ، مع أنه لايرقى إلى ماعهده وعلمه ابن غانم من قبل .

ومع تنامي مكانة القيروان السياسية والثقافية والعلمية ، تنامت أهمية جامعها الأعظم . فقد قصده العلماء من كل حدب وصوب يلقون فيه دروسهم ويحلقون فيه الحلقات مع تلامذتهم ، ولقد تصدى هؤلاء العلماء للإقراء والتدريس في الجامع الأعظم منذ القرن الثاني الهجري وحتى قيام الدولة الفاطمية عام ٢٩٦ هـ حين فضل أكثر علماء المالكية ترك التدريس في الجامع كارهين ، نظراً للإختلاف المذهبي مع الشيعة ، واقتصارهم على

بيد أن بقية المعارف غير العقائدية والمذهبية كعلوم اللغة العربية والنحو وغيرها لم ينقطع تحصيلها عن الجامع ، فقد واصل علماؤها التدريس في الجامع الأعظم . (١)

ولعل من تحصيل الحاصل الإشارة هنا تأسيساً على ما ألمعنا إليه من إيضاح لدور الجامع العلمي والثقافي إلى أن العلوم الدينية بكافة فروعها من فقه وحديث وقراءات وعقائد كانت هي التي صبغت دور الجامع العلمي والثقافي . ولعل علوم اللغة العربية في تصورنا تأتي في المقام الثاني . أما بقية العلوم والمعارف الأخرى ، فإنه لم يتسن لنا معرفة نشاطاتها في الجامع الأعظم نظراً لغياب التنبيه الصريح على ذلك في الكتب التي تناولت مسيرة تلك العلوم في المغرب الأدنى خلال الفترة موضوع الرسالة .

ومادمنا بصدد الحديث عن الجو العلمي الذي كان يشيع بين جنبات الجامع الأعظم ، فإن مما يقتضيه السياق هنا ، الإشارة إلى أن الجامع كان مقراً وموئلا للقضاة وخاصة قضاة المالكية ، ففيه وفي ساحاته كانت تقضى الأحكام وتفض المنازعات بين الخصوم (٢) .

ولقد شهد الجامع أيضاً في الفترة التي نشبت فيها المجادلات الكلاميه بين أتباع المذاهب والفرق المختلفة توافد أعدادٍ من أتباع تلك الفرق إليه ، ممّا حدا بعلماء المالكية إلى التصدى لهم بقوة (٣) ولقد حدت تلك

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ، ص ١٠٨ .

(٢) على سبيل المصثال أنظر المالكي: نفسه ، ص ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١١٨، ١٥٢ ، ٢٥٣ ، ١٩٢، ١٩٣، ٢٧٦ ، ٢٨٤، ٣٠٧ .. الخ .

(٣) أنظر المالكي : نفسه ، ص ١٨٢ – عياض : نفسه ، ج١ ص ٤٧٤ .

بيوتهم ومساجدهم ، بل وأحياناً حوانيتهم ومصدر رزقهم (١) . فالقاضي عياض يروى في مداركه (٢) عن العالم القيرواني جبلة بن حمود بن عبدالرحمن الصدفي (٢١٠-٢٩٩ هـ) موقفه من الفاطميين بمانصه : (قال الفقية ابن سعدون القروي : لما دخل عبيدالله الشيعي القيرواني ، وخطب أول جمعه ، وجبلة حاضر . فلما سمع كفرهم قام قائماً وكشف عن رأسه حتى رآه الناس ، وخرج يمشى إلى آخر الجامع ويقول : قطعوها قطعهم الله ، فما حضرها أحد من أهل العلم بعد هذا) . وهذا الموقف وإن كان متعلقاً بصلاة الجمعة إلاّ أننا نعتقد أن علماء المالكية قد تركوا حضور الجامع بالكلية كارهين .

ودليل آخر يرويه لنا القاضي عياض أيضاً في مداركه (٣) ، وهو قوله (كان أهل السنة بالقيروان أيام بنى عبيد في حالة شديدة من الاهتضام والتستر كأنهم ذمة تجري عليهم في كثرة الأيام محن شديدة ..) وهذا القول ينطبق بالدرجة الأولى على علماء القيروان فضلاً عن عامتهم . ويورد الدباغ في معالمه (٤) موقفاً ثالثاً وهو أن ربيعاً القطان وهو أحد علماء السنة المالكية الذين وقفوا من الشيعة موقفاً متشدداً كان يلتزم الإقراء في حانوته الذي يبيع فيه القطن ، حيث يقدم عليه الطلبة وغيرهم من الذين يستشكل عليهم شأن من شؤون الفقه .

---

(١) أنظر في هذا الشأن : حسن حسنى عبدالوهاب : الورقات القسم الأول ، ص ١٠٨ .

(٢) الجزء الثاني ، ص ٢٥١ – ٢٥٢ .

(٣) الجزء الثاني ، ص ٣١٨، ٣١٩ .

(٤) الجزء الثالث ، ص ٢٩ – ٣٠

التجمعات بعالم القيروان الأشهر وقاضيها المبرز سحنون بن سعيد إلى تفريق حلقاتهم عن الجامع (١)

وعندما قامت الخلافة الفاطمية في إفريقية (المغرب الأدنى)، جهدوا - أي الفاطميين - في بداية الأمر على أن يجعلوا من الجامع الأعظم منبراً يوضحون فيه موقفهم وأصول دعوتهم بل ويمارسون فيه تطبيق تلك الأصول سواء أكان ذلك فيما يتعلق بصيغة الآذان المختلفة عمّا تأخذ به المذاهب السنيه أم عن طريق منع صلاة التراويح حسبما سنفصله بعد في موضعه (٢) إن شاء الله ، ولقد دفع هذا الأمر علماء وفقهاء المالكية وهم الغالبية العظمى لعلماء السنة إلى اعتزال الصلاة في المسجد الجامع وخاصة صلاة الجمعة . وعندما نشبت الثورة ضد الفاطميين في المغرب الأدنى بزعامة أبي يزيد مخلد بن كيداد اليفرني ، انضمت إليه جموع حاشدة من أهل السنة بقيادة أبرز علماء المالكية وقتها ، وقد رغب هؤلاد أن يعلنوا موقفهم المؤيد لأبي يزيد من على منبر الجامع الأعظم وهو ماتحقق لهم بالفعل . ومن منبرجامع القيروان نفسه أعلن علماء المالكية تبرؤهم من دعوة أبي يزيد ومناصرته عندما تكشفت لهم نواياه واتجاهاته الخارجية التي كان يضمرها . (٣)

---

(١) المالكي : نفسه ، ص ٢٧٦ - ٢٧٧ - عياض ، نفسه ، ص ٦٠٠ .

(٢) أبو العرب التميمي : كتاب المحن ، ص ٢٩٤- ٢٩٥- المالكي : نفسه ، الجزء الثاني ، ص ٣١ - ٣٣- ٤٣- ابن أبي دينار : نفسه ، ص ٥٥ ومابعدها حسن حسني عبدالوهاب : خلاصة تاريخ تونس ، ص ٩٥- بعد ص ٥٢١- ٥٢٢ .

(٣) أنظر عياض نفسه ، الجزء الثاني ، ص ٣١٨ - ٣٢١ .

ولم يكتف علماء المالكية بإعلان مواقفهم من الشيعة وأبي يزيد مخلد من على منبر الجامع الأعظم فحسب ، وإنما عارضوا كل إتجاه يرمي إلي التفريق في النظرة بين فرق الشيعة ، فعندما سئل أحد علمائهم - أي علماء المالكية - المعروفين وهو أبو اسحاق ابراهيم بن حسن التونسي في عهد المعز بن باديس الصنهاجي عن رأية في الشيعة ، أجاب بجواب أثار زملاءه من العلماء ،فطلبوا منه التبرء من موقفه علانيةً من على منبر الجامع الأعظم (١) بالقيروان .

وإضافة إلى هذا وذاك فقد غص المسجد الجامع بجانب العلماء والفقهاء واللغويين وغيرهم برهط من العباد والزهاد الذين كان لهم شأو كبير في إفريقية (المغرب الأدنى) . وليس بعيداً أن يمارس هؤلاء دوراً علمياً وثقافياً حتى ولو كان ضئيلاً (٢) .

أما وقد تهيأ لنا إبراز كثير من جوانب دور الجامع الأعظم العلمي والثقافي ، فإنه يجدر بنا أن نختتم الحديث عن الجامع بذكر بعض من صرحت المصادر والمراجع بتصديهم للتعليم والتدريس فيه . فإلى جانب عكرمه مولى بن عباس الذي أشرنا من قبل إلى دوره العلمى بالجامع ، هناك عدد من الفقهاء الذين وردت أسماؤهم صراحة ، فمن هؤلاء يزيد بن الطفيل أحد علماء القيروان المتقدمين ، ويذكر المالكي (٣) أنه كانت له حلقة

---

(١) عياض : نفسه ، ص ٧٦٦-٧٦٧.

(٢) المالكي : نفسه ، ص ١٢٨ ، ١٣٠ - ١٣١، ٢١٦، ٣٩٨ .

(٣) نفسه ، ص ١١٠

عظيمه بالمسجد الأعظم . ومنهم كذلك أسد بن الفرات بن سنان أحد أبرز علماء الفقيروان آنذاك (١) . وأبو جعفر موسى بن معاوية الصمادمي الذي كان يفتي في جامع القيروان أزيد من ثلاثين عاماً (٢) ومن العلماء الذين درسوا في المسجد الجامع : أبو الوليد مروان بن أبي شحمة المسيلي الإفريقي (٣) ، ثم العالم المشهور : يحيى بن عمر بن يوسف الأندلسي وقد ذكر (أنه كان ليحيى بن عمر كرسي في الجامع السماع ، فيجلس عليه ويسمع عليه الناس لكثرتهم) (٤) . ومن الفقهاء المتأخرين أبو بكر عبدالله ابن محمد بن عبدالله المالكي صاحب كتاب : رياض النفوس ،فقد كان له مجلس بالجامع الأعظم يُجتمع إليه فيه ويُسمع كلامه) (٥) .

ومن علماء الحديث ، يرد اسم ربيع بن سليمان القطان ، كأحد علماء الحديث الذين كانت لهم حلقة بجامع القيروان ومن علماء القرآءات ، ابن برغوث المغربي الذي أمره أحد قضاة القيروان آنذاك ، وهو : عبدالله أحمد ابن طالب الذي سنترجم له من بعد ألاّ يقرئ الناس إلاّ بحرف ، نافع (٦) .

---

(١) أنظرالمالكي : نفسه ، ص ١٨٢ – عياض : نفسه ج١ ، ص ١٧٤ .

(٢) المالكي : نفسه ، ص ٢٩٠ – عياض : ، نفسه ج ٢، ص ٤٠٦.

(٣) المالكي نفسه ص ٣٠٣ – ٣٠٤ .

(٤) المالكي : نفسه ، ص ٣٩٨– عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٢٣٤ – ٢٣٦ – الدباغ : نفسه ،ج ٢ ، ص ٢٣٣ – ٢٤٥ – محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص٧٣ .

(٥) أنظر المالكي : نفسه ، المقدمة التي كتبها المحقق، ص ٤٣ ، عياض : نفسه ج٢ ، ص ٣٢٣– ٣٢٥– الداودي : طبقات المفسرين الجزء الأول ، ص ١٧٠ – ١٧١ – محمد بن محمد مخلوف : نفسه . ص ٧١ .

(٦) المالكي : نفسه ، ج١ ، ص ٣٧٨ .

وكذلك منهم : ربيع بن سليمان القطان الذي مربنا ذكره قبل قليل ، ومنهم أيضا : أبو بكر القصرى إمام جامع القيروان . (١)

أما في اللغة والأدب فيأتي من علمائهما أبو عبدالله محمد بن جعفر التميمي المعروف بابن القزاز القيرواني كواحد من أشهر علماء اللغة الذين تتلمذوا في المسجد الجامع على يد شيوخ اللغة والأدب . ثم علت به همته بعد أن اشتد عوده إلي التصدي للتدريس تحت سوارى المسجد الجامع (٢) ومنهم أيضاً الأديب الشاعر المشهور : بكر بن حماد (٣) بن كلب الزناتي التاهرتي الذي تصدر لإملاء دروسه في العلم والأدب بجامع القيروان الأعظم .

جامع الزيتونه بتونس :-

كما كانت مدينة تونس تأتي في المرتبة الثانية من الأهمية بعد القيروان في إفريقية .(المغرب الأدنى) خلال الفترة موضوع البحث ، فإن جامعها الأعظم : الزيتونة يحل كذلك ثانيا بعد جامع القيروان الأعظم . وجامع تونس الأعظم المعروف بالزيتونة يعود تأسيسه إلى الوالي الأموي

---

(١) ابن الجزري : غاية النهاية في طبقات القراء ، عنى بنشره ج . برجستراسر ، الجزء الأول ، ص ١٨٥ ، ٢١١ .

(٢) أنظر المنجي الكعبي : القزاز القيرواني حياته وآثاره ص ١٦ - ١٩ .

(٣) عادل نويهض : معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتي منتصف العشرين ، ص ٥٤-٥٥ (نقلا عن كثير من المصادر والمراجع) .

المعروف عبيدالله بن الحبحاب (١١٦-١٢٣هـ / ٧٣٤/ ٧٤١م) على الأرجح . ونقول على الأرجح لأن هناك من المؤرخين القدامى والباحثين المحدثين اليوم من ينسب بناء الجامع الأعظم إلى القائد حسان بن النعمان الغساني (١) ، ويذكرون أن الذي جدده وزاد فيه هو : عبيدالله بن الحبحاب ، بل ورد أيضاً أن زيادة الله بن الأغلب هو الذي بنى جامع الزيتونية (٢) .وتردَّد كذلك أن أحمد بن محمد بن الأغلب هو الذي بناه . (٣) .

بيد أن كثيراً من المصادر التاريخيه المتقدمة – وجل المراجع الحديثة ،

---

(١) أنظر ابن أبي دينار : نفسه ،ص ١٦ – ١٧ . ويستبعد ابن أبي دينار القول ان الجامع لم يبن إلاّ في عهد عبيدالله بن الحبحاب ، ويتساءل كيف يمكن للمسلمين أن يمكثوا نيفاً وثلاثين عاماً بغير مسجد ؟ ولذلك فهو يعتقد بأن المسجد بني في عهد حسان ، ثم زيد فيه وفي ضخامته من قبل عبدالله بن الحبحاب ، وبذلك يرى أن الأشكال قد زال حول هذا الأمر . والواقع أن ابن أبي دينار قد أشار إلى جانب ذلك إلى الأقوال التي قالت بأن باني الجامع هو عبيدالله بن الحبحاب ، ولكنه يبدو أنه أراد الجمع بين الرأيين أي أن الجامع ربما يكون من بناء حسان بن النعمان ، والزيادة والتوسعة من نصيب عبيدالله بن الحبحاب . ومن الباحثين القلائل الذين تناولوا هذا الموضوع ، سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج٢، ص١٠٢ (حديث ينسب بناء الجامع لحسان والزيادة لعبيدالله بن الحبحاب) – محمد الحسيني عبدالعزيز : الحياة العلمية في الدولة الإسلامية ص ١٣٦ .

(٢) أنظر ابن أبي دينار : نفسه ، ص ١٢ – السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٣٥١ .

(٣) أنظر الدباغ : نفسه ، الجزء الثاني حاشية رقم (٢) ص ١٤٨ (وقد علق المحققان على ذلك بقولهما : إن الأمير أحمد بن محمد بن الأغلب قد جدده بعمده وقبابه) .

(٤) أنظر الرقيق القيرواني : نفسه ، ص ١٠٧– البكري : المصدر السابق ،ص ٢٣٧– ابن عذاري : نفسه ، ص ٥١ – ابن أبي الضياف : المصدر السابق ، ج١، ص١١٢ – السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٣٥١– ٣٥٢ – سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج١ ، ص ٢٨٠ =

تشير صراحة إلى أن باني الجامع هو : عبيدالله بن الحبحاب (٤) أما حسان بن النعمان الذي يعود فضله تأسيس مدينة تونس إليه فقد بنى مسجداً صغيراً (١) بها ، ثم مالبث أن بنى المسجد الجامع بالقرب منه بعد ذلك .

على أن بعض المصادر التاريخيه وإن كانت قد أشارت إلى أن ابن الحبحاب هو الذي بنى المسجد الجامع إلاَّ أنها قد أوردت خطأ أن تأسيسه كان عام : ١١٤هـ (٢) . ولكن الواقع التاريخي ينكر ذلك ، فالجامع لم يبن إلاَّ في عام : ١١٦هـ أوبعده ذلك لأن عبيدالله بن الحبحاب لم يقدم إفريقيه والياً من قبل الخليفة هشام بن عبدالملك إلاَّ في عام : ١١٦هـ (٣) ، وذلك خلفاً للوالي السابق عبيدة بن عبدالرحمن السلمي (١١٠- ١١٥هـ- ٧٢٨-

---

= (وهذا خلاف قوله السابق في ص ١٠٢) - وأنظر الكتاب الذي أصدرته وزارة التعليم العالي والبحث العلمي الكلية الزيتونية للشريعة وأصول الدين بمناسبة ذكرى مرور ثلاثة عشر قرناً عي تأسيس الزيتونه ، الفصل الذي كتبه الشيخ محمد الشاذلي النيفر بعنوان : جامع الزيتونه في تاريخ تأسيسه ،ص ١٣ - ١٥ (حيث أثبت نفر كبير من المؤرخين القدامى والمحدثين أن باني الجامع هو عبيدالله بن الحبحاب) .

(١) أنظر الفصل الذي كتبه الشيخ محمد الشاذلي النيفر في الكتاب الذي أصدرته وزارة التلعيم العالي والبحث العلمي التونسية المشار إليه أعلاه ص ١٤- ١٥.

(٢) أنظر البكري : نفس المصدر السابق ،ص ٣٧ - ابن أبي دينار : نفسه ص ٥- ١١ - ١٦ ،١٧ (نقلا عن مجموعة من المؤرخين) محمد الحسيني عبدالعزيز - نفس المرجع السابق ، ص ١٣٦ .

(٣) أنظ مثلا ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، الجزء الرابع ، ص ٢١٩ - الرقيق القيرواني : نفسه ، ص ١٠٧- ابن عذارى : نفسه ، ص ٥١- سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج١ ، ص ٢٧٨ - كتاب وزارة التعليم العالي والبحث العلمي التونسيه - ذكرى مرور ثلاثة عشر قرناً على تأسيس الزيتونه ،ص ١٥ - ١٦ .

٧٣٣م) . ومن الطبيعي إذاً أن يكون تأسيس المسجد الجامع بعد قدومه إلى إفريقية . ويرى أحد الباحثين المحدثين ، أنه كانت لعبيدالله بن الحبحاب أهداف سياسية ودينية وعلمية في اتخاذه مدينة تونس العاصمة ، وبناء جامعها العتيق (١)

ويميل الشاذلي (٢) النيفر إلى أن تسمية المسجد الجامع بتونس بالزيتونة ، هي تسمية محدثة وقعت في القرن السابع الهجري أي في عهد الدولة الحفصية التي حكمت المغرب الأدنى إبتداء من الثلث الأول من القرن السابع الهجري وحتى القرن العاشر الهجري ومنذ ذلك التاريخ أصبح الجامع يعرف بجامع الزيتونة حتى يومنا هذا .

أما لفظ الزيتونة نفسه الذي ألصق بالجامع ، فقد ورد فيه عدة تفسيرات تغلف الأسطورة بعضها ، ومن ذلك ماقيل من أن النبي نوح عليه السلام (لما كان في السفينة على الطوفان وقفت به يوماً وسط البحر : فأوحى الله إليه أن تلك بقعة يقال لها : جامع الزيتونة ، فلما دخلها الصحابة (أي مدينة تونس) وجدوا الرهبان في

---

(١) ذكرى مرور ثلاثة عشر قرنا على تأسيس الزيتونه ، الفصل الذي كتبه محمد الشاذلي النيفر بعنوان : جامع الزيتونة في تاريخ تأسيسه ، ص ٢١ .

(٢) أنظر الفصل السابق أعلاه من الكتاب ، ص ٢٢- ٢٩ (حيث أكد على أن كل المصادر التي ذكرت جامع تونس الكبير لم تلصق به لفظ : الزيتونة ، بل كانت تطلق عليه جامع تونس أو مسجد جامع تونس ، أو جامع مدينة تونس أو المسجد الجامع ، ولكن منذ القرن السابع الهجري بدأ يطلق عليه جامع الزيتونة حتي الآن ، أي منذ العهد الحفصي حتى الآن .

(٣) أنظر محمد الشاذلي النيفر : نفس الفصل السابق ، ص ٢٢ .

صومعتها ، لأن صومعة الجامع قديماً كانت للرهبان) (٣) وينقل ابن أبي دينار (١) عن ابن الشباط التوزري صاحب كتاب : صلة السمط أن المسلمين وجدوا زيتونة منفردة في موضع المسجد ، فقالوا هذه تونس ، وسمى المسجد بجامع الزيتونة) . أما السيد عبدالعزيز سالم (٢) فيذكر أنه سمى بجامع الزيتونة نسبة إلى القديسة (زيتونة التي عاشت في زمن الوندال ، ونحن لانرى فيما ذهب إليه الشاذلي النيفر من رأي مايدفع إلى تجاهله . فهو يقول إن سبب التسمية : الزيتونة ربما يعود إلى ما اشتهرت به البلاد التونسية من كثرة أشجار الزيتون التي تشكل أهمية غذائية للسكان ، ومن هنا تفاءلوا بتسمية مسجدهم بمسجد الزيتونة (٣) . ومما يجد ذكره أن هناك مسجداً آخر يعرف بجامع الزيتونة ، ولكنه في القيروان وليس في تونس (٤) ، وقد كان له دور ثقافي وعلمي رصدته كتب التراجم والطبقات (٥) .

احتل جامع الزيتونه في نفوس المغاربة بصفة عامة وأهل المغرب الأدنى بصفة خاصة والتونسيين بصفعة أخص مكانة سامقة الذرى تضاءلت

---

(١) المرجع السابق ، ص ١٠ .

(٢) المرجع السابق ، ص ١٦٣ .

(٣) الفصل السابق من كتاب ذكرى مرور ثلاثة عشر قرناً على تأسيس الزيتونة ، ص ٢٦٥ .

(٤) أنظر مثلا المالكي : نفسه ، ج١ ، ص ٧٠ (حيث يشير إلي أن اسماعيل بن عبيد الأنصاري أحد التابعين من أعضاء البعثة العلمية التي أرسلها عمر بن عبدالعزيز إلى إفريقية قد بنى بها المسجد الكبير بالقيروان الذي يعرف الآن (أي في عصر المالكي) بمسجد الزيتونة) الكناني القيرواني نفسه ، ص ٤٦ ، ٩٨، ١٠١، ١٠٣ ، ١٢٩ ، ١٤٢ ، ١٦٣، ٢٣٣ .

(٥) أنظر الكناني القيرواني : نفسه .

مـعـهـا مكانه جـامـع القـيـروان الأعظم – حـاشـاالدينيـه – نفسـه . ذلك لأن الجامع ومنذ أن وضع أساسه وحتى الوقت الحاضر مابرح يضطلع بدوره العلمي الثقافي الريادي لاينافسه في هذا من المؤسسات العلمية القائمة سوى الجامع الأزهر بمصر والقرويين بالمغرب . ولئن تعثرت خطوات جامع القيروان العلمية بعد تعثر واقعها السياسي الناتج عن الزحف الهلالي على إفريقية كما هو معلوم . فإن جامع الزيتونة بات منفرداً بالإضطلاع بالدور الثقافي والعلمي الريادي وحده هناك . فغدا محط الأنظار وهوى الأفئدة ، وكيف لا ؟ وهو الجامع المعمور (الذي امتد شعاعه ، وخفق نوره ، وتواصل مدده ، فكان كعبة القصاد وأمل الرحالين ، وذخر الإسلام وعلومه ، بالنسبة للمغرب العربي ، وعددٍ من أقطار القارة الإفريقية) (١) ؟ وليس بدعاً بعد هذا أن (تتصل حياة الزيتونة بحياة تونس إتصالاً وثيقاً وترتبط حياتها بشتى نواحي الحياة فيها، ثقافية كانت أو اجتماعية أوسياسية) (٢) ومن أجل ذلك (كان تعلق الأمة التونسية بها تعلقاً جعلها ملء المسامع والأفواه والمقل عند التونسيين بدون تفرقة بين صنف وصنف ، فهي متجه الأنظار ومطمح الأفكار وقبله الواردين لمنهل المعارف) (٣) .

هذه المكانة العلمية الكبرى التي وصل إليها الجامع الأعظم بتونس يجب ألاّ تصرفنا عن الحقيقة والواقع التاريخي فهذه المكانة لم تأت إلاّ

---

(١) الطاهر المعموري : جامع الزيتونه ومدارس العلم في العهدين الحفص والتركي ص ٣ .

(٢) الطاهر المعموري : نفس المرجع والصفحه أعلاه .

(٣) محمد الشاذلي النيفر : نفس الفصل السابق٤ من كتاب وزارة التعليم العالي التونسية ، ص٨ .

متأخرة . فجامع الزيتونة لم يقدر له في الفترة موضوع الرسالة أن يتبوأ دوره العلمي الريادي الذي تميز به والذي أشرنا إليه آنفاً، كاملاً ، وغيره خاف أن هناك أسباباً حالت دون ذلك . لعل من أهمها وآكدها أن مدينة تونس وجامعها الأكبر لم يحظيا من أهل المغرب الأدنى بنفس الحظوة التي بلغتها القيروان وجامعها العتيق . والسبب الثاني أن مدينة تونس لم تتسنَّم دورها السياسي كعاصمة إلاَّ بعد إنهيار الوحدة المركزية للمغرب الأدنى إثر الزحف الهلالي الذي قلَّص الدولة الصنهاجية وحجَّمها ، وذلك عندما اتخذها الخرسانيون (١) وهم أسرة إنفصالية خرجت على الصنهاجيين عاصمة ، ثم جاء الحفصيون بعدهم ، فكرسوا المدينة قاعدة وعاصمة للبلاد التونسية حيث لاتزال كذلك حتى اليوم ، ولسنا هنا في حاجة إلى القول بأن الجامع قد ناله من هذا القدر الأسمى . وثمة سبب آخر ، وهو في الحقيقة قدر مشترك بين جامعي القيروان وتونس وهو أن المصادر التاريخية وكتب التراجم والطبقات لم تسعفنا بالإشارة إلى النشاط العلمي بالجامعين إلاَّ قليلاً ، على الأقل في الفترة موضوع الرسالة . غير أن النشاط العلمي بجامع الزيتونة مالبث أن نال حقه من الإشارة منذ القرن السابع الهجري وحتى الآن في معظم كتب التاريخ والتراجم والأدب ممَّا لاحاجة لنا هنا إلى تبيانه وإبرازه .

بيد أنه ومع عظم تأثير تلك الأسباب سالفة الذكر في الحركة العلمية

(١) عن هذه الأسرة ، أنظر ابن عذارى ، نفسه ، ص ٣١٤ – ٣١٥ .

للمدينة والجامع ، فإن من غير المنطقي أن نجرد المدينة وجامعها العتيق من أي نشاط علمي ملحوظ . أما المدينة فلقد سبق لنا أن تحدثنا عن مكانتها العلمية ، وأما الجامع فإننا نتفق مع الطاهر (١) المعموري في أنه يعسر أن نتصور خلوه من حلقات العلم .

ذلك لأنه استقر بمدينة تونس عدد لابأس به من التابعين الذين قدموا إفريقية للتعليم والتدريس بجانب تصديهم للجهاد في سبيل الله . ومن الطبيعي أن ينشر أولئك العلماء علومهم ومعارفهم الدينيه بين أبناء المدينة وغيرهم من القادميين والوافدين إليها ، حتى إذا مابنى جامعها ، التحقوا به يلقون دروسهم الدينيه وغيرها . ومن الطبيعي كذلك أن تحظى المدينة إثر ذلك بأجيال من أبنائها الذين قدر لهم أن يصبحوا علماء وفقهاء بالإضافة إلى الوافدين من العلماء والفقهاء إليها من بقية مدن إفريقية أو من المغرب أو المشرق الإسلاميين .

ويحسن بنا قبل أن نختتم الحديث عن جامع الزيتونة أن نشير إلى أسماء بعض العلماء الذين ألقوا فيه دروسهم من الذين نُص صراحة في كتب التراجم على دورهم ذلك وإلى أولئك الذين يُظن أنهم قد تصدوا للتدريس فيه أيضاً ، فمن التابعين الذين سكنوا مدينة تونس وأثروا الحياة العلمية فيها: أبو محمد : خالد بن أبي عمران التجيبي (٢) وقد توفى بمدينة

(١) جامع الزيتونة ، ومدارس العلم في العهدين الحفصي والتركي ص ٤٩ .

(٢) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ٢٥، ٢٤٥- ٢٤٧- المالكي : نفسه ، ص ١٠٣ - حسن حسني عبدالوهاب : الورقات القسم الأول ، ص ١٢٥- ١٢٦ .

(٣) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ٢٥، ٢٤٥،٢٤٧- المالكي : نفسه والجزء - ص ١٠٣ - =

تونس عـام :١٢٥هـ، أو ١٢٧هـ، ومنهم أبو كـريب : جـميل بن كـريب (٣) المعـافري ، وقـد تولى القـضـاء في إفـريقـيـة ، وكـان من سكان مـدينة تونس وتوفى عام ١٣٩هـ ومنهم كذلك يحيى بن سعيد بن قيس الأنصاري ، ويروى محمد بن حارث الخشنى صاحب كتاب طبقات علماء تونس المدرج ضمن كتاب طبقات (٢) علماء إفريقية لأبي العرب التميمي ، أنه كان ليحى بن سعيد باب في الجامع الأعظم مغلق لايفتح إلاَّ إذا جاء يحيى إلى المسجد، إلى غير ذلك مِمَّا لم تصرح المصادر وكتب التراجم بذكرهم . والمظنون أن بعض هؤلاء التـابعين قـد تصـدوا للتـدريس في الجـامع الأعظم بجـانب تدريسهم في بيوتهم والمساجد الأخرى . ويروى المالكي (٣) في هذا الصدد أن (عمرو بن راشد بن مسلم الكناني التابعي ، ويقال له : عماره بن راشد وهو الغـالب عليه ، نزل بمدينة تونس فسكنها واختط بها) ، ومـعروف أنه يقصد بعبارة : اختط بها مسجداً ، أنه بنى بهاعلى ماسلفت به العادة من التابعين وكبار العلماء والفقهاء ، وقتذاك .

ولقد تلت هـذه الصفوة من التابعين الأجلاء ، علماء مغاربة الأصل ، أي ولدوا ونشـأوا في إفيرقية ومدنها ، وكان نصيب مدينة تونس من أولئك نصيباً عميماً . فهذا على بن زياد الطرابلسي وهو الذي اسـتوطن تونس حتى أصبح يعرف بعلي بن زيادة التونسي والذي سنترجم له من بعد نشر

= حسن حسني عبدالوهاب ، نالورقات ، القسم الأول ، ص ١٢٥- ١٢٦ .

(١) المالكي : نفسه ، ص ١٠٧ - ١١٠ حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع السابق ، القسم أعلاه ص ٢٥-٢٦ وانظر كذلك المالكي : نفسه ، ص ٩٣ - ٩٤ .

(٢) نفسه ، ص ٨٧ .

علومه الدينية التي تلقاها من علماء المدينة المنورة وعلى رأسهم الإمام مالك ابن أنس في مدينة تونس بصفة خاصة وفي موطنه إفريقية بصفة عامة حتى أن أبرز شيوخ المالكية في الفترة موضوع الرسالة كانوا يدينون له بالفضل والثناء العميقين . وغير بعيد أن يكون قد ألقى جزءاً من معارفة وعلومه في جامعها الأكبر بجانب حلقته في المنزل والمسجد . وتمدنا كتب التراجم والطبقات باسم علم آخر ألقى دروسه في الجامع الأعظم ألا وهو : أبو البشر زيد بن بشر (١) الأزدي الذي توفي عام ٢٤٠ أو ٢٤٢هـ . ومن الذين تصدوا للتدريس كما يُظن بجامع تونس الأعظم : أبو العباس عبدالله بن أحمد الأبياني (٢) المتوفي عام ٣٥٢هـ ولقمان بن يوسف الغساني (٣) الذي كان واحداً من العلماء التونسيين المعروفين آنذاك . وقد توفى عام ٣١٩هـ . هذا إلى غيرهم ممّن لم يسعفنا الحظ بالعثور على نصوص صريحة عن إلقائهم للعلوم والدروس بالمسجد الجامع خلال تلك الفترة موضوع الرسالة .

---

(١) المالكي : نفسه ، ص ٣٠١- ٣٠٢ - عياض : نفسه ، ج ٢، ص ١٠- ١١.

(٢) عياض : نفسه ، ص ٣٤٧ - ٣٥٢ حسن حسني عبدالوهاب الورقات ، القسم الأول ، ص١٢٧ .

(٣) عياض : نفسه ، ص ٣١١- ٣١٣ .

المساجد الأخرى في مدن إفريقية :

لم يكن جامعاً عقبة بن نافع بالقيروان ، والزيتونة بتونس وحدهما ، المركزين اللذين إضطلعا بالدور أو النشاط العلمي الثقافي الريادي في إفريقية خلال تلك الفترة فحسب ، وإنما كانت معظم المساجد والجوامع تشاركهما في بث ذلك الاشعاع العلمي . وكم هي صادقة ملاحظة عثمان الكعاك وهو يتحدث في كتابه : مراكز الثقافة (١) ، التي يشير فيها إلى أن من بين الخصائص التي تميزت بها أقطار المغرب - والمغرب الأدنى على وجه الخصوص كما يتراءى لنا - هي ظهور المساجد الخاصة وكثرتها . فالمتتَّبع لكتب التراجم والطبقات المغربية تصادفه العشرات من الأمثلة التي تؤكد صدق تلك الملاحظة . فكتاب رياض النفوس مثلا ملئ بالإشارة إلى تلك المساجد الخاصة التي أسهم التابعون ممَّن قدموا إلي إفريقية في تأسيسها، ثم مالبثت أن غدت تقليداً متبعاً عند علماء إفريقية من بعد . ولقد كان الهدف من تأسيس تلك المساجد الخاصة بجانب وظيفتها التعبدية إتخاذها مدارس أو مراكز لنشر علومهم ومعارفهم الدينية على وجه الخصوص . ولعل مايلف النظر إلى جانب هذا ، أن تلك المساجد لم تنتصب في المدن الكبرى فحسب وإنما كانت متوفرة في كل مدن إفريقية . ولقد كان شائعاً هذا أيضاً في أقطار العالم الإسلامي ، إلاَّ أنه يبدو أنه في المغرب الأدنى أبرز وأوضح .

فلقد أسهمت تلك المساجد الخاصة ، بالإضافة إلى المساجد الجامعة

---

(١) ص ١٣ - ١٤ .

بكل مدينة في دفع مسيرة الحياة العلمية قدماً إلى الأمام . وفي القيروان مثلاً هناك المساجد التي أقامها عدد من التابعين وغيرهم لخدمة ذلك الهدف . فهذا اسماعيل بن عبيد الأنصارى أحد أفراد البعثة العلمية التي بعثها عمر ابن عبدالعزيز كما مربنا يؤسس (١) في القيروان مسجداً كبيراً، وهو الذي عرف فيما بعد بمسجد الزيتونة . وذاك أبو عبدالله على بن رباح بن نصير اللخمي أحد التابعين من غير العشرة ،يسكن القيروان ويختط (٢) بهـا داراً ومسجداً ويقول المالكي (وأنتفع به وتفقه على يديه أهل القيروان)(٣) ، ومنهم أبو رشيد حنش بن عبدالله السبأى الصنعاني ، سكن القيروان واختط بها مسجداً ينسب (٤) إليه . ومنهم كذلك أبو عطيف : جندب بن بشر أو حبيب بن بشر الذي سكن القيروان واختلط بها مسجدا (٥) ، ومن التابعين الذي اختطوا مساجد خاصة لهم بالقيروان بالإضافة إلي أولئك : زياد بن أنعم السفياني(٦) وعبدالله بن عبدالرحمن بن أشيفع (٧) بن وعلة الشيباني المعروف بابن وعلة المصري .

وإلى جانب هذه المساجد الخاصة التي زخرت بها القيروان ، هناك مسجدان كان لهما دور ملحوظ في تاريخ الحياة العلمية فضلاً عن تأثيرهما

---

(١) المالكي : نفسه ، ص ٧٠ .

(٢) المالكي : نفسه ، ص٧٧ .

(٣) المالكي : نفسه ، ص ٧٧ .

(٤) المالكي : نفسه ، ص ٧٨ .

(٥) المالكي : نفسه ، ص ٧٩ .

(٦) المالكي : نفسه ، ص ٨٣ .

(٧) المالكي : نفسه ، ص ٨٣ .

الصوفي وهما مسجد الخميس ، ومسجد (١) السبت اللذين كان يؤمهما عدد من العلماء والفقهاء بجانب الزهاد والمتصوفة .

ولم يقتصر الأمر على التابعين وحدهم ، فقد أقام عدد من العلماء والفقهاء ، المغاربة المعروفين مساجد خاصة نسبت في بعض الأحيان لهم ، وكانوا غالبا ما يلقون فيها دروسهم وللمرة الثانية يسعفنا كتاب رياض النفوس للمالكي بشواهد عديدة تؤكد صدق ما ذكرناه ، فهذا البهلول بن راشد أحد أبرزفقهاء وعلماء إفريقية (المغرب الأدنى) وقتذاك يختط مسجداً ينسب إليه من بعد . ومن العلماء الذين ذكر أنه كان لهم مساجد خاصة أبو خارجة عنبسة بن خارجة الغافقي ، وأبو محمد عبدالله بن أبي حسان اليحصبي ، ومحمد بن سحنون ، وعبد الجبار السرتي ، ومحمد بن أحمد بن معتب بن أبي الأزهر ، ويحي بن عمر ، ومحمد بن أحمد بن أبي سليمان الصراف ، وعمر بن يوسف الخزاعي ... الخ (٢) .

ومعظم هذه المساجد كما يتراءى لنا كانت بمثابة مراكز علمية ، تنشر العلوم والمعارف عن طريقها ، وتسهم مع جميع المراكز والوسائط في إثراء الحياة العمية في إفريقية آنذاك .

وإذا ما أجلنا النظر في بقية المساجد التي تأسست في المدن والأقاليم الأخرى من إفريقية ، فإننا سنجد لحسن الحظ الكثير من الشواهد والأدلة .

---

(١) أنظر بعد ص ٤٦٤ .

(٢) عن المساجد تلك ، أنظر المالكي : نفسه ،ص ١٢٧ ، ١٦٥، ٢٠٣ ، ٢٣٨، ٢٦٦، ٣٧٣ ، ٣٩٩ ، ٤٠٧، ٤٧١ .

فمدينة سوسة مثلا غصت بعديد من المساجد الخاصة بالإضافة للمسجد الجامع الكبير بها ، ومن بين تلك المساجد التي كان لها دور علمي معروف مسجد أبي قطاطة الذي شيده الأمير الأغلب بن الأغلب عام ٢٢٣هـ ، وقد يطلق عليه أبو فطاطة أو فتاتة ، وهو أحد فتيان الأمير المذكور الذي عهد إليه بتشييده ، ومن المساجد الخاصة بسوسة كذلك مسجد أبي الغصن : نفيس السوسي ، ومسجد يحيى بن عمر كذلك ، ومسجد محمد بن بسطام الذي انتقل إلى السكنى بسوسة فشيد بها مسجده الذي نسب إليه (١) إلى غير ذلك .

وازدحمت مدينة طرابلس - بل والإقليم كذلك بالعشرات من المساجد الخاصة ، فضلاً عن الجوامع الكبرى . فقد ذكر بأن هناك مسجدين بناهما عمرو بن العاص في مدينة طرابلس كانا من المساجد التي عدت من مقار العلم (٢) ، وإلى جانب ذلك ، أنشأ الفاطميون إبان فترة حكمهم هناك جامع طرابلس الأعظم (٣) الذي بناه أحد رجال الدولة الفاطمية وهو خليل بن اسحاق (٤) ، وينسب للخليفة المعز لدين الله بناء مسجد في طرابلس أثناء

---

(١) عن مسجد أبي فطاطة وأبي الغصن السوسي ويحيى بن عمر ومحمد بسطام في مدينة سوسة أنظر حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الثاني ، ص٦٥-٦٦، ٦٧- ٢٦٨، ٨١-٨٢ ، ١٤٢-١٤٣ .

(٢) عن هذين المسجدين، أنظر أحمد مختار عمر : المرجع السابق ، ص ١٠٥ - ١٠٦ ، صالح مفتاح: برقة وطرابلس من الفتح العربي حتى انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر ، ص ٢٢٦ .

(٣) أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ١٠٥ - ١٠٦ ، صالح مفتاح : المرجع السابق ، ص ٢٢٦ - ، الطاهر أحمد الزاوي : معجم البلدان الليبية ، ص ٩١-٩٢ .

(٤) عن خليل بن اسحاق ، أنظر : ص ٧٠٢ .

مروره عبرها في طريقه إلى مصر عام ٣٦٢هـ . وقد عرف هذا المسجد بمسجد الناقة تيمناً بالناقة المحملة ذهباً التي أهداها الخليفة لأهل طرابلس (١)

وعلاوة على ذلك هناك مساجد خاصة أشادها عدد من علماء وفقهاء طرابلس مثل مسجد عبدالله بن الشعاب ومسجد خطاب الذي ينسب إلى الشيخ أبي نزار خطاب البرقي ، ومسجة الجدة أو مسجد الجدود ، ومسجد أبي سلم مؤمن بن خرج الهواري (٢) ... الخ . وفيما يتعلق ببقية المدن ، فمع افتقارنا إلى النصوص التي تشير إلى وجود مساجد خاصة بها ، فإننا نعتقد أنها لم تكن تخل من تلك المساجد . مثلها مثل القيروان وسوسة وطرابلس وغيرها .

---

(١) أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ١٠٧-١٠٨ .

(٢) عن هذه المساجد الخاصة لهؤلاء العلماء وغيرهم ، أنظر أحمد مختار عمر : نفسه ،ص ١٠٦-١٠٧ ، ١٠٨ ، صالح مفتاح : نفسه ، ص ٢٢٦-٢٢٧ .

الكتــــــاتيب :-

لا مراء في أن الكتاتيب من أقدم وأهم الوسائط الثقافية بعد المساجد والجوامع التي اسهمت في نشر العلوم والمعارف الإسلامية على وجه الخصوص . والكتاتيب ، جمع : كتاب ، وهو لفظ مشتق من التكتيب ، وتعليم الكتابة وقد يقال له : المكتب ، وهو موضع التعليم كمقعد (١) ، والجمع : المكاتب ، والظاهر أن (كلمة كتاب ، جمع كاتب ، فأطلق المكان على من يعمل به ، من باب إطلاق المظروف على الظرف) (٢) . ويرى الفيروز أبادي أن في قول من يشير إلى أن الكتاب و المكتب بمعني واحد خطأ لغوي (٣) .

ومهما يكن من أمر ، فإن الشئ الثابت أن الكتاب من أقدم المؤسسات العلمية التي عرفتها مهنة التعليم ، فدور الكتاب العلمي مذكور في العالم الإسلامي كله منذ عصور الإسلام الأولى وحتى يومنا هذا، فلم يخل منه شارع ولا حي من الأحياء في المدن والقرى بوصفه النواة الأولى في العملية التعليمية مع المساجد والجوامع ، وعن طريقه بزغت بواكير العلم والمعرفة .

ولقد شهدت إفريقية (المغرب الأدنى) ظهورر تلك الكتاتيب مبكراً فمنذ أن وطأت أقدام المسلمين أرض المغرب ، واستوطنوه وبنوا دورهم

---

(١) الفيروز أبادي : القاموس المحيط ، الجزء الأول ، ص ١٢٦ .

(٢) ابراهيم العبيدي التوزري : نفسه ، ص ١٠٢ .

(٣) القاموس المحيط ، الجزء الأول ، ص ١٢٦ .

ومساجدهم ، دفعتهم الظروف والواقع إلى تثقيف أولادهم فأنشأوا الكتاتيب للقيام بتلك المهمة (١). وقوام الكتاب : معلم ، ومكان ، وصبيان .

ولقد كان الهدف الأسمى من إيجاد تلك الكتاتيب تنشئة أولئك الصبيان تنشئة دينية قويمة عن طريق البرنامج الدراسي الذي يقدم فيها والقائم على إقرائهم لكتاب الله وتحفيظهم إياه سواء كان كلاً أو جزءاً بالإضافة إلى ضرورة الإلمام بقواعد الكتابة والقرآءة وبعض المبادئ الدينية التي تتصل بالصلاة والصوم والحج مع شئ يسير من علوم اللغة والنحو ومبادئ الحساب . وغني عن القول أنه ليس هناك ثمة ازدواجية في هذا بين دور المساجد والجوامع ، وبين دور الكتاتيب ، فالمساجد والجوامع كان كيانها العلمي يعتمد على الحلقة والشيخ والمريدين ، بينما الكتاب كان مقتصراً على الصبيان عن طريق تقديم محصلة علمية متواضعة في حجمها توطئة للإلتحاق بالحلقة في الجامع . فالكتاب يمهد الطريق للصبي بعد بلوغه السن والتحصيل الملائمين إلى الانتظام في حلقات الشيوخ في الجوامع والمساجد التي تعد مرحلة علمية متقدمة (٢) .

وكما ذكرنا من قبل ، فقد شهدت إفريقية (المغرب الأدنى) ظهور الكتاتيب فيها مبكراً ، وهذا الدباغ يروى في معالمه (٣) عن غياث بن أبي

---

(١) انظر محمد بن سحنون : كتاب آداب المعلمين ، ص ٣٣ - عثمان الكعاك : مراكز الثقافة في المغرب ، ص ٥٢- أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ١١٥ - ١١٦ - ابراهيم العبيدي التوزري : نفسه ، ص١٠٥ -١٠٧ - عبدالسلام أحمد الكنوني : المدرسة القرآنية في المغرب إلى ابن عطية ، ص ٦٣ .

(٢) أنظر المادة الواسعة التي كتبها ابراهيم العبيدي التوزري : نفسه ، ص ٩٨ -١٠١ .

(٣) الجزء الأول ، ص ١٥١ .

شبيب أن سفيان بن وهب أحد الصحابة الذين دخلوا إفريقية في خلافة عبدالملك بن مروان كان يمر عليه وعلى زملائه من التلاميذ في الكتاب، فيسلم عليهم.

والكتاتيب كانت تنتصب إما في المساجد ، وإما في أماكن خاصة (١) . وفي المغرب عموماً كانت الكتاتيب في البادية ملحقة غالباً بالمساجد . أما في المدن فقد كانت إمَّا ملحقة بها وإماً مستقلة (٢) عنها . وقد عرفت إفريقية الكتاتيب الخاصة (٣) والكتاتيب العامة ، فالخاصة هي التي كانت تنتصب في قصور الأمراء والوزراء وعلية القوم ، والعامة هي التي كانت تنتشر في زوايا وأركان المدينة ، ويقوم على هذه الكتاتيب وتجهيزها معلم أو مؤدب له حظ يسير من العلم الديني ، وليس شرطاً أن يكون عالماً مبرزاً في العلوم الدينية وغيرها وإنَّما يشترط فيه حفظ كتاب الله وتجويده ... الخ .

ولقد كان المؤدب يلقى ترحيباً وتكريماً من قبل السكان ، ومن قبل أولياء الأمور ، فهو (الرجل المرغوب فيه الذي تتخاطفه العشائر البربرية ليكون المؤدب والإمام والمرشد والكاتب والحكيم والعريف ... الخ) (٤) .

---

(١) ابن سحنون : المصدر السابق ، ص ٣٨-٥٨ - الرصاع : فهرست الرصاع ، حاشية رقم٦، ص ١٣٢ - عبدالسلام أحمد الكنوني : المرجع السابق ص ٣٦- ٣٧ - أحمد مختار عمر : ص١١٥ .

(٢) عبد السلام الكنوني : المرجع السابق ،ص ٣٦-٣٧ .

(٣) ابن سحنون : المصدر السابق ،ص ٣٤- ٣٥ ، ٣٨ - الرصاع : المصدر السابق والحاشية والصفحة - ابراهيم العبيدي التوزري : نفسه ، ص ١٢٥ .

(٤) عثمان الكعاك : مراكز الثقافة في المغرب ، ص ٥٢ .

ويقول الكعاك إن قاعدة ، الاحترام والاكرام للمؤدب مازالت مرعية في دول المغرب العربي حتي اليوم (١) . ويحسن بنا أن نسرد الآن موقفاً مهماً للتدليل على مكانة الكتاب والمؤدب وهو موقف القاضي عبدالله بن غانم إذ يروى أن (ابنه دخل عليه وقد انصرف من المكتب ، فسأله عن سورته ، فقال له الصبي : حولني المعلم من سورة الحمد ، فقال : « اقرأها ، فقرأها ، فقال له : » تهجها ، قال (أي راوى القصة) : فتهجاها ، فقال هل : ارفع ذلك المقعد ، فرفعه فإذا تحته دنانير كثيرة ، قال : وأبو عثمان شاك في عددها (أي الراوي) ، إلاَّ أنها أكثر من العشرة ودون العشرين ، قال : فحملها إلى معلمه فدفعها له ، فأنكر المعلم ذلك وأتى بها إلى ابن غانم وأخبره أن الصبي أتاه بها ، فقال له ابن غانم كالمعتذر : « لم يحضرني غيرها يامعلم ، أتدري ماعلمته ، علمته « الحمد لله رب العاملين » بحرف واحد ممَّا علمته خير من الدنيا ومافيها ») (٢) .

ولا تسعفنا كتب التراجم والطبقات ولاكتب الأدب والتاريخ للأسف بذكر شئ ذي بال عن الكتاتيب من حيث أماكنها في المدن وأعدادها ، والمعلمين والمؤديين القائمين على إدارتها . فجل مانعرفه هو أنه كانت هناك بالقيروان وتونس وطرابلس وبلاد الجريد كتاتيب كان لها دور علمي ملحوظ (٣) ، أمَّا عن المعلمين والمؤدبين فلم تذكر لنا تلك المصادر إلاَّ عدداً

(١) نفس المرجع أعلاه والصفحة .

(٢) أنظر المالكي : نفسه ، ص ١٤٥-١٤٦ .

(٣) أنظر ابن سحنون : المصدر السابق ، ص٣٢ - ٣٨ ، ٦٨- ٦٩ - عبده عبدالعزيز قلقيلة : النقد الأدبيي في المغرب العربي ، الجزء الأول ص ٢٢ - أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ١١٥-١١٧ - صالح باجية : نفسه ، ص ١٧٩ .

يسـيـراً منهم ، وفي يقـينـنا أنهـا أهملت ذكـر عـشـرات منـهم ، فلم تحـفل إلاَّ بالتنبيه إلى أولئك الذين كانو بالإضافة إلى أنهم فقهاء وعلماء بارزين قد امتـهنوا التـعليم والتـأديب في الكتـاتيب أو المكاتب . ومن أولئك العلمـاء المؤديين ، أبو على شقران بن على الهمذاني العالم الذي ألف في الفرائض كتاباً لم (١) يولف مثله في إفيرقية (فقد كان يقرئ الناس مجاناً في كتاب منسوب إليه في القيروان) (٢) ، وكان إلى جانب ذلك من أشهر العباد والزهاد في إفريقية وقتذاك (٣) ، ومنهم الصالح والواعظ المشهور محرز بن خلف بن أبي رزين البكري ، فقد عمل معلماً للصبيان في تونس واشتهر بذلك ، حتى كان يطلق عليه : المربي محرز (٤) . ويروى أنه طلب من عالم القيروان المبِّرز في وقته محمد بن أبي زيد المعروف بمالك الأصغر والذي سنترجم له من بعد ، تحرير موجز يوضح الشئ الضروري للصبيان من أمور الدين ، فكتب له رسالة في الفقه، اشتهرت وذاعت ، وممَّا جاء في مقدمتها يخاطبة : (... أما بعد ، أعاننا الله واياكم على رعاية ودائعه ، وحفظ ما أودعنا من شرائعه ، فانك سألتني أن ، أكتب لك مجلة مختصرة من واجب أمور الديانه بما تنطق به الألسنة وتعتقده القلوب وتعلمه الجوارح

---

(١) أنظر المالكي : نفسه ، ص ٢٢٢ (ويسميه أبو على : شقران بن على الفرضي).

(٢) ابن سحنون : نفس المصدر السابق ، ص ٥٧ .

(٣) أنظر المالكي : نفسه ، ص ٢٢٢- ٢٢٩ .

(٤) أنظر ابن سحنون : نفس المصدر السابق ، ص ٦٨-٦٩ - الرصاع : المصدر السابق ،ص ١٧٣- ١٧٥ - ابن السراج : الحلل السندسية في الاخبار التونسية ، الجزء الأول ، القسم الرابع، ص ٨٧٤- ٨٧٨- الزركلي : نفسه ، ص ٢٨٤ .

وشيئ من الآداب عنها ، وجمل من أصول الفقه ،و فنونه على مذهب مالك بن أنس – رحمه الله تعالى – لما رغبت فيه من تعليم ذلك للولدان ، كما تعلمهم حروف القرآن ، ليسبق إلى قلوبهم من فهم دين الله وشرائعه ما ترجى لهم بركاته ، وتحمد لهم عافيته ، فأجبتك إلى ذلك لما وجدته لنفسي ولك من ثواب من علم دين الله ... الخ (١) .

وممَّا هو جدير بالذكر أن المؤدب محرز ابن خلف (٣٤٠-٤١٣هـ) إلى جانب اشتغالة بالتعليم في الكتاب ، كان عالماً فقيهاً واعظاً زاهداً نحريراً . تعلقت به قلوب التونسيين منذ ذلك الوقت وحتي الآن حيث يحظى بتقدير كبير إلى الدرجة التي وصف بها بالشيخ الأستاذ الإمام محرز بن خلف(٢). ومن المعلمين المعروفين أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد بن على بن مسلم الجبنياني البكري (٣) (ت٣٩٩هـ) أحد أشهر العباد والزهاد المغاربة بجانب غزارة فقهه وعلمه ، وبزهده وعبادته يضرب المثل ، وفي زهده يقول عالم القيروان المشهور : محمد بن أبي زيد : لو فاخرنا بنو اسرائيل بعبَّادها لفاخرناهم بالجبنياني (٤) . وقد كان له كتاب في قريته يعلم الصبيان (٥) ، ومن المعلمين الذين ورد لهم ذكر : أبو محمد عبدالله بن محمد المكفوف

(١) ابن سحنون : نفسه ،ص ٦٨.

(٢) أنظر ابن سحنون : نفسه ، ص ٦٨-٦٩- الرصاع : نفس المصدر السابق ص ٧٣-٧٥- ابن السراج : المصدر السابق والجزء ، ص ٧٤ – ٧٨ .

(٣) أنظر الترجمة الواسعة التي حلاه بها القاضي عياض : نفسه ، ج٢، ص٤٩٧- ٥١٧ .

(٤) عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٥٠٠ .

(٥) عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٥٠١ – ٥١٦ .

النحوي الذي كان له مكتب يؤمه الصبيان (١) . ويعتبر الأديب الوزير أبو الحسن على بن أبي الرجال من المؤدبين الخصوصيين الذين كانوا يؤبون أولاد الأمراء والوزراء فقد ذكر بأنه كان مؤدباً للأمير المعز باديس (٢) . ولايغيب عن بالنابأن أبا الحسن على بن أبي الرجال تنسب إليه أقوال بأنه السبب في تغيير وجهة نظر المعز بن باديس بشأن المذهب الشيعي حتي أدى الأمر في النهاية إلى نبذ الدعوة الشيعية وخلع الطاعة الفاطمية (٣) . وفي مدينة طرابلس اشتهر عمر بن يمكتن بأن كان له كتاب لتعليم القرآن الكريم (٤) .

لكننا نشعر بالحيرة عندما نرى تراثاً تربوياً واسعاً خلفه بعض من أشهر علماء وفقهاء وأطباء إفريقية آنذاك ، يدرو كله حول الكتاتيب ومعلميها، اذ كيف نوفق بين هذا التراث التربوي الضخم وبين الندرة في المعلومات عن الكتاتيب ومعلميها - اللهم إلاَّ ماسمحت الظروف بايضاحه كما مر بنا. لعل الإجابة عن هذا التساؤل تكمن في إن إفريقية قد عرفت أعداداً لاحصر لها من الكتاتيب أو المكاتب ، وبالتالي عرفت جموعاً كثيرة

---

(١) الزبيدي : طبقات النحويين واللغويين ، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ص ٢٣٦- ٢٣٧ - القفطي : إنباه الرواة على أنباه النجاة ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ج٢ ، ص ١٤٧ -١٤٩ - الفيروز أبادي : البلغة في تاريخ أئمة اللغة : تحقيق محمد المصرى ، ص ١١٣ - ١١٤ .

(٢) أنظر ابن عذاري : نفسه ، ج١ ، ص ٢٧٣ .

(٣) أنظر ، بعد ٥٣٥ .

(٤) أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ١١٦ - ١١٧ - عبده عبدالعزيز قلقيلة : المرجع السابق، ص٢٢ .

من المعلمين والمؤدبين ، لكن المصادر وكتب الطبقات أغفلت ذكرها . وأن تلك المكاتب أو الكتاتيب قد بلغت وقتها حداً كبيراً من الإهتمام الزائد ، الأمر الذي حدا إلى أن يولف ثلاثة من أشهر علماء وفقهاء وأطباء إفريقية مؤلفات تربوية ، تشرح وتفصل مهمة الكتاب وبرامجه وأغراضه وأهدافه ، وقد كان هذا تطوراً كبيراً بلغته الحياة التعليمية على وجه الخصوص ، إذ أن تلك المصنفات التربوية هي أول المصنفات التي ألفت في التربية في العالم الإسلامي كله . ولعلنا لانبعد عن الحقيقة إذا ماقلنا في العالم كله آنذاك . ولقد فتح أولئك الرجال الذين يمكن عدهم بكل اطمئنان رجال تربية أو تربويون الباب على مصراعية للتأليف والتصنيف في هذا المجال البكر (١)

وأول أولئك التربويين الأجلاء : محمد بن سحنون بن سعيد الذي لايقل شهرة وسمعة عن ابيه سحنون . وقد كان عالماً فقيهاً جدلياً أديباً تربوياً صنف العشرات من المصنفات الفقهية والعقائدية ثم تناهت به محصلته العلمية وثقافته الغزيرة المتنوعة إلى ولوج باب علم لم يفتح من قبل، فألف كتابه : آداب المعلمين تناول فيه مسائل تربوية شتى مستشهداً بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية وأقوال أئمة المذهب المالكي وخاصة الإمام مالك إلى غير ذلك ، ثم لايكتفي بذلك وإنما يورد كثيراً آراء ووجهات نظر تربوية

---

(١) عن مكانة هاته المصنفات التربوية وخاصة كتابي ابن سحنون والقابسي أنظر التقريظ الواسع لهما في كتاب آداب المعلمين لابن سحنون نفسه التصدير والمقدمة التي حلى بها حسن حسني عبدالوهاب الكتاب ، ص ٥ - ١٣- وأنظر ابراهيم العبيد التوزري : نفسه ، ص ١٠٤- ١٧٥ الحسن السائح : المرجع السابق ،ص ٣٥١ - ١٦٠- رابح بونار : المغرب العربي تاريخه وثقافته، ص ٢٤٤ - ٢٤٦ .

خاصة به . وقد ترك الباب بعده مفتوحاً ليلجه اثنان من أبناء قطره اللذين سارا على منهجه ورسمه بالإضافة إلي اجتهادهما الشخصي ، فهذا الطبيب المؤرخ ابن الجزار : أحمد بن ابراهيم بن خالد ، المعروف بابن الجزار والذي سنترجم له بعد (ت ٣٦٩هـ) ، يتلقف الفكرة من ابن سحنون، فيكتب مصنفاً تربوياً بعنوان : سياسة الصبيان وتدبيرهم ، وهو كتاب جاد فيه المؤلف بعدد من النظريات التربو ية الحسنة ، ثم جاء على أثرهما ابن قطرهما الثالث ، هو الشيخ أبو الحسن : على بن خلف المعافري المعروف بالقابسي (ت٤٠٣هـ) ، والذي سنترجم له كذلك ، فألف رسالة تربوية لاتقل أهمية عن سابقيها من المصنفات التربوية ، وعنوان رسالته : (الرسالة المفصلة لأحوال المعلمين ، وأحكام المعلمين والمتعلمين) . ويتضح من عنوانها الدقيق أهميتها في عالم التربية ، فلم يكتف القابسي بترديد النظريات التربوية التي توصل اليها محمد بن سحنون وابن الجزار فحسب وانما زاد عليها مما توصل إليه بفكرة التربوي النير وهو إن كان قد نقل عن ابن سحنون كثيراً ، وإن كان لابن سحنون السبق في التأليف ، فان للقابسي (مزية التوسع والإفاضة في أبوابه ، والأول (أي ابن سحنون) قد سجل ملاحظاته حول التعليم في القرن الثالث، والثاني كتب عن القرن الرابع (١).

ومن المهم أخيراً أننشير إلى أن تلك المصنفات التربوية التي ذكرناها كان لبعضها الحظ في النشر والظهور ككتاب محمد بن سحنون الذي حققه

---

(١) رابح بونار : المرجع السابق ، ص ٢٤٦ .

ونشره : حسن حسنى عبدالوهاب بنفس عنوانه : آداب المعلمين (١) .
وكذلك رسالة القابسي التي نشرها أحمد فؤاد الأهواني ضمن رسالته للدكتوراه التي أعدها عن رسالة القابسي والتي نال بها درجة الدكتوراه (٢)
أما كتاب : سياسة الصبيان وتدبيرهم لابن الجزار ، فقد طبع (٣) بتحقيق وتقديم أحد الباحثين التونسيين، وهو محمد الحبيب الهيلة (٤) .

---

(١) راجع : ابن سحنون : نفسه ، التصدير والمقدمة ، ص ٥ -١٣- ٢٧ (ويرى حسن حسنى عبدالوهاب أن اسم الكتاب الصحيح تخميناً هو : كتاب آداب المعلمين والتعلمين) .

(٢) أنظر ابن سحنون : نفسه ، التصدير ، ص ٦- ابراهيم العبيد التوزري : نفسه ،ص ٩٤ - الحسن السائح والمرجع السابق ، ص ٢٤٥ - ٢٤٦ .

(٣) أنظر فرحات الدشراوي : سياسة الصبيان وتدبيرهم ، مقال بهذا العنوان ، في مجلة حوليات الجامعة التونسية ، العدد الثالث ، السنة ١٩٦٦م نشر، تونس ، ص٢٩ - ٣٣ .

(٤) نشرته دار الغرب الإسلامي ، بيروت ، ط١، ١٤٠٤/١٩٨٤م .

٣- الرباطـــــــات :

تأتي الرباطات في المرتبة الثالثة من الأهمية في تسلسل الوسائط أو المؤسسات العلمية والثقافية في إفريقية (المغرب الأدنى) خلال الفترة موضوع الرسالة . فعبرها انتشرت علوم ومعارف دينية على وجه الخصوص أسهمت في المحصلة والانتاج العلمي الذي تميزت به الحياة العلمية هناك آنذاك ، ولعل من المناسب أن نتحدث عن الرباط من حيث معناه اللغوي والاصطلاحي ، والتسلسل التاريخ لظهوره في العالم الإسلامي ، قبل أن نشير إلى الرباطات المغربية .

فالرباط : (ما ربط به جمع ربط والفؤاد والمواظبه على الأمر ، وملازمة ثغر العدو وكالمرابطة ، وواحد الرباطات المبنية أو المرابطة أن يربط كل من الفريقين خيولهم في ثغره وكل معد لصاحبه ، فسمي المقام في الثغر رباط ومنه قوله تعالى : ﴿ وصابروا ورابطوا ﴾ ، أو معناه انتظار الصلاة بعد الصلاة لقوله ﷺ : « فذلكم الرباط » (١) ، ومعنى ذلك أن كلمة الرباط قد اشتقت من كلم : ربط المأخوذة من القرآن الكريم كما جاء في الآية السابقة أعلاه ، وكما في الآية التالية : ﴿ وأعدوا لهم ماالستطعتم من قوة ومن رباط الخيل ﴾ (٢) ، ثم تطورت الكلمة إلى أن أصبحت تعنى المقام أو المكان الذي يتجمع فيه المتطوعة لمدافعة العدو وللتعبد (ثم أصبحت عبارة عن منشأة علمية ذات صبغة دينية وحربية بل صبغة

(١) الفيروز آبادي : القاموس المحيط ، الجزء الثاني ، ص ٢٧٤ .

(٢) سورة الأنفال ، آية رقم ٦٠ .

دفاعية للذود عن حوزة الإسلام (١)

ولقد ظهر هذا اللفظ الذي يعنى مدافعة الأعداء في العالم الإسلامي منذ أن استتبت الأمور في بلاد الشام للمسلمين وتاخمت حدودهم حدود الدولة . البيزنطية في آسيا الصغرى . ولقد حدا هذا الأمر بالبيزنطيين إلى تنظيم نوع من المقاومة المسلحة للوجود الإسلامي بجوارهم عن طريق شن غارات عسكرية مفاجئة على القرى والمدن الحدودية ، ودفع هذا المسلمين بالتالي إلى الموافقة سواء عن طريق المدافعة الرسمية التي تصدت لها الدولة الإسلامية وخاصة العباسية ، أو عن طريق المدافعة الفردية لأفراد المسلمين الذي تطوعوا للمرابطة لمقاومة تلك الهجمات عن طريق مرابطة دائمة في تلك القرى والمدن الحدودية دفاعاً عن الإسلام والبيضة (٢) . وقد عرفت تلك المواقع بالثغور جمع ثغر الذي يعنى لغويا (كل جوية أو عورة متفتحة)(٣) واصطلاحياً : (مايلي دار الحرب وموضع المخافة من خروج البلدان كالثغر) (٤) .

وقاد هذا الأمر كله المسلمين إلى أن بنوا في تلك المواقع الحدودية حصوناً أوثكنات عسكرية لها طابعها العسكري المعماري الخاص الذي

---

(١) الحسن السائح : المرجع السابق ، ص١٠٦ .

(٢) عن هذا الموضوع اأنظر محمد عبدالهادي شعيرة : من تاريخ التحصينات العربية في القرنين الأول والثاني للهجرة . بحث ألقى في المؤتمر الرابع للآثار في البلاد العربية ، نظمته جامعة الدول العربية في تونس فيما بين ١٨-٢٩ مايو آيار ، ١٩٦٣م . ،ص ٤٣٩- ٤٤٣ .

(٣) الفيروز أبادي : القاموس المحيط ، الجزء الأول ،ص ٣٩٧.

(٤) محمد عبدالهادي شعيرة : نفس البحث أعلاه ،ص ٤٤١ - ٤٤٢ .

تميزت به من بعد (١) . هذا إلى جانب أن تلك القرى والمدن الحدودية كانت هي نفسها بفضل التحصينات التي خضعت لها عبارة عن رباطات تمثل خطوط دفاع متقدمة ولقد غصت تلك المدن والقرى والحصون الرباطية بالعشرات من المرابطين الذين كانت تنفق عليهم الدولة خاصة العباسية ، بجانب المتطوعة الذين يحتسبون أجرهم عند الله وحده (٢) .

ولئن كان المشرق الإسلامي قد دفعت به تلك الغارات البيزنطية إلى تأسيس الرباطات والثغور ، فإن المغرب العربي أصبح منذ أن استتبت أموره للمسلمين (بلد الرباط والمرابطين) (٣) ، فهو في مجمله (أعتبر ثغراً يعد الرباط فيه جهاداً في سبيل الله وقربةً إليه) (٤) . ذلك لأن المغرب العربي الذي كان ومازال يتميز بسواحل طويلة على البحر المتوسط ، تجاور سواحله الدولة البيزنطية والفرنجة في جنوبي إيطاليا والجزر المتناثرة مثل صقلية وسردينا وكرسيكا وغيرها . ومن الطبيعي أن تكون تلك السواحل الطويلة معرضة للغارات البحرية المفاجئة (وكانت سواحل إفريقية (تونس) أكثر تعرضاً للخطر من غيرها لقربها من مصادر الغارات كلها ، فنشأت الرباطات على ساحلها من أول الأمر عند سوسة ولمطة وتونس والمنستير ، وأبتنيت «الحصون » يقوم فيها المرابطون بحراسة المسلمين والتعبد لله، ومن تونس انتشرت الرباطات فيما بعد على

---

(١) محمد عبدالهادي شغيرة : نفس البحث السابق ، ص ٤٤١ .

(٢) محمد عبدالهادي شعيرة : نفس البحث السابق ، ص ٤٤٠ .

(٣) المالكي : نفسه ، ج١ ، مقدمة المحقق ، ص٢٥م .

(٤) المالكي : نفسه ، ج١ ، المقدمة ، ص ٣٥ م .

الساحل المغربي كله) (١) . ولقد فرض هذا إلى أن يكون الرباط ذا نظام عسكري في عمارته كما ذكرنا، ثم تدرجت به الأوضاع والظروف إلى أن أصبح بجانب طابعه العسكري ، معهداً ومركزاً دينياً لبث الدعوة الإسلامية ونشر العلوم والمعارف في صفوف المتطوعة) (٢) . وبالإضافة إلى هذا كان ملجأً يؤمه (السكان المسلمون المجاورون له في حالة هجوم العدو) (٣) ، وعلاوة على هذا وذاك كان ينقطع فيه للعبادة العباد والزهاد بارشاد شيخ زاهد منهم ويتلقون فيه تعليماً إسلامياً (٤) .

ومن المناسب هنا أن نذكر أن الجهد الفردي في إنشاء الرباطات والمحارس قد سبق الجهد الرسمي في إفريقية وقتذاك (٥) . وذلك عندما اشتدت وطأة البيزنطيين والفرنجة على السواحل التونسية في منتصف القرن الثاني الهجري تقريباً على أثر سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية . وعندما استتب الأمر للدولة الأغلبية ، شرع أمراؤها في القيام

---

(١) المالكي : نفسه ، ص ٢٥ م .

(٢) المالكي : نفسه ، ص ٢٥م ، ٢٢٧ - عثمان الكعاك : مراكز الثقافة في المغرب ،ص ١٦ - ٣٨، ١١٩- ١٢٢- عبدالسلام الكنوني : المرجع السابق ،ص ٣٦ - ابراهيم العبيدي التوزري : نفسه ، ص ٦٩ - ٧١ - الفردبل : الفرق الإسلامية في الشمال الإفريقي من الفتح العربي حتي اليوم ،ص ٩٩-١٠٠ - محمد الفاضل بن عاشور : بحث مقدم إلى المؤتمر الرابع للآثار في البلاد العربية ، نظمته جامعة الدول العربية في تونس فيما بين ١٨-٢٩ مايو آيار ، ١٩٦٣م ، ص ٢٥٢- ٢٥٣.

(٣) الفردبل : نفس المرجع أعلاه ، ص ٩٩ .

(٤) الغردبل : نفس المرجع أعلاه والصفحة .

(٥) أنظر صالح مفتاح : المرجع السابق ، ص ٢٢٩ - ٢٣٠ .

بحملات عسكرية بحرية لصد غارات النصارى ، فكان غزوهم لجزيرة صقلية في سنة ٢١٢ هـ ، وتلا ذلك غزوهم للجزر الأخرى في الحوضين الأوسط والغربي للبحر الأبيض المتوسط وجنوب إيطاليا (١) . وإبتداءً من ذلك الوقت أخذ أمراء إفريقية في بناء الرباطات والقصور (٢) والمحارس والإهتمام بها علي ماسنتعرض له بعد قليل .

على أن الرباطات البحرية لم تكن وحدها التي انتصبت في إفريقية خاصة والمغرب كله عامة وإنما كانت هناك الرباطات الصحراوية التي غرست في المناطق الصحرواية المتاخمة لبلاد السودان تحقيقاً للهدف من الرباط والمرابطة الذي يفرض حماية منافذ ومعابر البلاد الإسلامية من الأخطار التي تواجهها (٣) ، وليس خافيا أن أهم مظهر سياسي تمخض

---

(١) عن غارات النصارى على السواحل التونسية ، وعن الفتح الأغلبي لجزيرة صقلية وغيرها ، أنظر سعد زغلول عبدالمجيد : نفسه ،ج ٢ ، ص ١٩٤٣- ١٩٦ ، ص ٢١٠ - ٢١٥ .

(٢) ليس هناك اختلاف بين الرباط والقصر أو القصور ، وغاية مافي الأمر أن الرباط أكبر شأناً وعظمة وبناءً من القصر ، عن هذا أنظر البكري : المصدر السابق ، ص ٢٠، ٣٤، ٣٥، ٤٥، ٤٦، ٨٤، ١٠٤ - محمد الفاضل ابن عاشور : الأثار الحفصيه في المرسى ص ٦٥٢- ٦٥٣ - الحسن السائح : المرجع السابق ،ص ١٠٥ - حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ، ص ٢٨٢ - ٣٥٥، القسم الثاني ، ص ٢٤ -٢٨ ، ٨٢ - ٩٣ ، ١٠٥ ، القسم الثالث ، ص ٢٠٠ ، ٢١٩ ، ٢٥٥ - ٢٥٧ ، ٣٣٠ - ٣٣٥، ٤٠٤، ٤٠٥ - صالح مفتاح : المرجع السابق ، ص ١٩٦ . وأما المحارس ومفردها محرس ،فهي كذلك فيما يبدو لا تختلف عن القصر أو الرباط في طبيعة عملها . فالبكري مثلا : المصدر السابق ، ص ٣٦ لايفرق بين القصر والرباط والمحرس ، فيطلق عليها كلها : محرس وان كان في مواضع أخرى يعود لاستخدام لفظي الرباط والقصر بمعناهما الذي اشرنا إليه آنفا .

(٣) أنظر المالكي : نفسه : ج١ ، مقدمة المحقق ، ص ٢٥م - ٢٦ م - عثمان الكعاك : مراكزالثقافة في المغرب ،ص ٣٦-٣٨ ، ١١٩- ١٢٢ .

عن هذه النشاطات الرباطية الصحراوية ، هو قيام دولة المرابطين في منتصف القرن الخامس الهجري التي استمدت اسمها من المعنى اللغوي للرباط ، وهي بهذا الاعتبار أول دولة رباط في العالم الإسلامي (١) ، ثم تلتها الدولة الموحديه التي يمكن اعتبارها كذلك دولة رباط (٢) في هذا الصدد يرى حسين مؤنس (٣) - ونحن نتفق معه - أن الدور الرئيسي لأهل المغرب في التاريخ العام للإسلام هو : دور رباط وحماية لجناحه الغربي كله، ويقرر أنه (إذا كانت المالكية هي العصب الأول لتاريخ المغربي ، فإن الرباط هو العصب الثاني ،بل يكاد يكون علة وجوده).

وأياً ماكان الأمر ، فان الجلي والواضح هنا أن الرباطات قد انتشرت في المغرب الإسلامي وخاصة إفريقية منذ القرن الثاني الهجري على كل السواحل التونسية . وبالإضافة إلى تلك الرباطات نشأت محارس وقصور بالقرب منها نزلها العباد والزهاد ، الذين كانوا يقومون بواجب الدفاع الحربي من جهة ، والانصراف إلى العبادة والتعليم (٤) من جهة أخرى ، وتبعاً لهذا فقد أصبحت هناك مدن ثغرية تقوم بجانبها تلك الرباطات والقصور والمحارس ، هذا بالإضافة إلى صفة تلك المدن نفسها الثغرية . ومن بين تلك المدن : المنستير ، وسوسة ولمطة ، التي كانت تحظى جميعها بشعور عميق من الإكبار والتقدير نظراً لمكانتها الثغرية الرباطية .

---

(١) المالكي : نفس ج١ ، مقدمة المحقق ، ص ٢٦ .

(٢) المالكي : نفسه ، ص ٢٦م .

(٣) المالكي : نفسه ، ص ٢٦ .

(٤) انظر عثمان الكعاك : مراكز الثقافة ، ص ١٩ .

يطعمه فراخه ، فسقط من فم العصفور ماكان فيه ، فخرج من خلف الحصير فأر فأكل ماسقط من فم العصفور ، فخاطب نفسه بأن قال لها : إن كان فأر خلف الحصير قيَّض الله من رزقه كما قد رأيت ولم يضيعه فكيف أضيع أنا ؟ . لله على أن لا أدع مدينة الرباط إلى غيرها أبداً فأقام بمدينة سوسة واشتهر بها حتى مات رحمه الله تعالى) . وهناك موقف آخر برويه المالكي (١) ، وهو أن الأمير الأغلبي ابراهيم بن أحمد (ت ٢٨٩هـ) ، كان يداوم على زيارة أحد العباد والزهاد في سوسة ، فمر به وسأله عن حاجته ، فقال له مانصه : (هذا البلد (يعنى سوسة) قد عمر وهو ثغر ، وأهل إفريقية يهددهم العدو، فإليه مقصدهم وهو مرابطهم ، والقرويين في ليلة كل جمعة يترابطون إليه والجامع يضيق بهم ، وأحب أن تزيدهم فيه .. الخ) ومن حسن الحظ أن هناك العديد من الأمثلة التي رصدت مكانة مدينة سوسة ، فقد روى المالكي(٢) كذلك عن أحد عباد إفريقية وهو عمرون ابن مسرور الغسال (ت بعد ٣٤٦هـ) قوله : (وسوسة طرسوس (٣) المغرب) . وكان عباد وعلماء سوسة يحرصون كل الحرص على إضفاء طابع المرابطة والمثاغرة علي المدينة ، وكانوا يقاومون في سبيل ذلك كل محاولة تجعل المدينة تفقد ذلك الطابع ، حتى كانوا يفضون برغبتهم تلك إلي بعض الأمراء بإصرار

---

(١) نفسه ، ج١ ، ص ٣٩٠ .

(٢) نفسه ، ص ٣٩٢ – ٣٩٣ .

(٣) عن مكانة مدينة طرسوس الثغرية أنظر محمد عبدالهادي شعيرة : من تاريخ التحصينات العربية في القرنين الأول والثاني للهجرة ، ص ٤٣٩ – ٤٤١ .

فمدينة المنستير مثلاً كانت ذات مكانة كبيرة في نفوس أبناء المغرب الأدنى من علماء وزهاد وغيرهم فقصدوها للسكنى والمرابطة بها كما سنشير بعد قليل ، وفضلاً من أن كثيراً من المسلمين (كانوا يعتقدون أن الإقامة في الرباطات والحياة في الثغور ، نوع من الجهاد ، ومن يمت بها فهو شهيد) (١) ، فقد وضعت في المنستير عدة أحاديث نبوية (٢) تنوه بمكانتها وأهميتها ، فمن الطبيعي إذاً أن تستهوى المدينة الأفئدة تبعاً لذلك.

ولم تكن مدينة سوسة بأقل حظوة ومكانة من المنستير . وهذه مواقف يمدنا بها أبو بكر المالكي عند ترجمته لأبي الأحوص أحمد بن عبدالله المتعبد بسوسة (ت٢٨٤هـ) . قال المالكي (٣) عنه : (وكانت بداية أبي الأحوص ولزومه مدينة سوسة ، أنه أتى إليها مرابطاً ، فأقام بها مدة ، حتي نفقذت نفقته وأراد الرجوع إلى بلده بالمغرب ،فأتى إلى جامعها ليركع فيه ويتصوف ، فبينما هو راكع إذ رأى عصفوراً دخل الجامع وفي فمه شئ

---

(١) أنظر عبدالسلام الكنوني : المرجع السابق ،ص ٣٦ .

(٢) من تلك الأحاديث ، ماروى (عن ابن عمر ، قال : قال رسول الله ﷺ : من رابط في المنستير ثلاثة أيام وجبت له الجنة ، قال أنس بخ بخ يا رسول الله) ، وكذلك الحديث التالي : (عن مطرف ابن عبدالله بن الخير ، يرفعه إلى رسول الله ﷺ أنه قال : بالمنستير باب من أبواب الجنة يقال له: « الأنف » دونه قنطرة من قناطر الأولين) . إلى غير ذلك . انظر المالكي : نفسه ، ص ٤-٥- الدباغ : نفسه ،ج١ ، ص٥ . وهذان الحديثان يغلب على الظن أنهما من جملة الأحاديث الموضوعة التي وضعت لتحبيب بلاد المغرب ومدنه لساكنيه ، وهو ما أشار إليه ابن ناجي مكمل ومعلق كتاب المعالم ، الجزء الأول ،ص ٦ . وانظر كذلك الحاشية رقم ٧ص ٥٠٤ من الجزء الأول من الرياض اللمالكي .

(٣) نفسه ، ج١ ، ص ٣٩٠ .

كبير (١) ، ويعلق المالكي في نهاية روايته لهذه المواقف بقوله : (وكانت مدينة سوسة في ذلك الوقت ليس بها شئ من المنكر : لاخمر ولا لهو ولاعزف ، وإنما كان أهلها مشتغلين بالحرب والحرز على المسلمين والمسلمات وقيام اليل وصيام النهار) .

هذه المكانة التي بلغتها مدينة سوسة بالدرجة الأولى وغيرها من المدن أدت إلى تكاثر الرباطات والقصور والمحارس من حولها . وكانت في معظمها تقوم بواجبيها : الجهادي ، والعلمي على خير وجه . وتجمع المصادر والمراجع التاريخية الشرقية والمغربية على أن أول رباط أنشئ في المغرب عموماً هو رباط طرابلس ، ثم رباط المنستير (٢) الذي بناه والي إفريقية من قبل الخلافة العباسية : هرثمة بن أعين عام ١٨١هـ (٣) . وقد أدى رباط المنستير دوراً مؤثراً في تاريخ تونس السياسي والعسكري والثقافي ، وما زال قائماً حتى اليوم بعد الزيادات التي زيدت به على مر التاريخ (٤) . وفي هذا الصدد يرى أحد الباحثين المحدثين أن رباط شاكر

---

(١) أنظر المالكي : نفسه ، ص ٣٩٣ – ٣٩٤ .

(٢) أنظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ ، الجزء الخامس ،ص ٩٦ – البكرى : المصدر السابق ،ص ٣٦ – محمد عبدالهادي شعيرة : من تاريخ التحصينات العربية ،ص ٤٤١– ٤٤٢ – عثمان الكعاك : مراكز الثقافة الإسلامية في المغرب ، ص١٦ – الحسن السائح : المرجع السابق ،ص ١٠٥ – تقرير للجمهورية التونسية في المؤتمر الرابع للآثار بالبلاد العربية الذي نظمته الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية في تونس : ١٨ – ٢٩ ، مايو آيار ، ١٩٦٣م ، ص ١٢٧ .

(٣) عند ابن الأثير والبكرى بناؤه كان عام ١٨٠هـ .

(٤) أنظر محمد عبدالهادي شعيرة : نفس البحث السابق أعلاه ،ص ٤٤١ – ٤٤٢ تقرير الجمهورية التونسية المشار إليه أعلاه ، ص ٣٧ .

أوسيدي شكير ، كما يطلق عليه أحيانا جنوبي مدينة مراكش بالمغرب الأقصى ، هو أقدم رباط عرفه المغرب كله ، لأنه قد تأسس في القرن الأول الهجري على يد شاكر ، وهو أحد أتباع عقبة بن نافع (١) .

وأيا ماكان الأمر ، فإن رباط المنتسير كان أشهر وأبرز الرباطات في المغرب كله ، لأنه قام بواجبه الجهادي مذ تأسس . وكان بالإضافة إلى ذلك مهوى أفئدة العلماء والعباد الذين أموه من كل حدب وصوب ، قد حبسوا أنفسهم فيه للعبادة ولنشر العلم ؛ وكان رباط المنستير علاوة على ذلك محاطاً بمحارس معمورة بالصالحين (٢) .

ويلي رباط سوسة المعروف بقصر الرباط ، رباط المنستير في الشهرة والأهمية ، بل كان بفوقه مكانه عند المغاربة ، وقد أسسه الأمير زيادة الله بن ابراهيم بن الأغلب مؤسس الدولة الأغلبية عام ٢٠٦هـ . ويعد هذا الرباط مفخرة معمارية من مفاخر الدولة الأغلبية ، ولازال قائماً حتى اليوم (٣) ، وقد التحق به العشرات من المرابطين المتطوعة . ويذكر أن عددهم وصل في فترة من الفترات إلى مائة مرابط . (٤) ومن القصور التي بنيت بمثابة رباطات . قصر لمطة وهي مدينة صغيرة من أحواز سوسة ، وقصر طارق ، وقصر زياد ، وقصر سهل ، وقصر ابن حبشي ، وتنسب هذه القصور إما

---

(١) حسن ابراهيم حسن : انتشار الإسلام في القارة الإفريقية ، ص ٦٩- ٧٠ .

(٢) البكرى : المصدر السابق ، ص ٣٦ - الحسن السائح : المرجع السابق ، ص ١٠٥ .

(٣) عن هذا الرباط : أنظر المادة الواسعة التي كتبها حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الثاني ، ص ٣٤ - ٢٨ - السيد عبدالعزيز سالم : نفسه ، ص ٣٦٣- ٣٦٥ .

(٤) حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع السابق أعلاه ، والقسم ص ٢٧ .

إلى الذين أسسوها كابن حبشي ، وهو أحد أمراء الأغالبة ، وقد أسس القصر المعروف باسمه ، وإمَّا باسم البلدة أو المدينة كقصر لمطة ، وإما باسم من سكنه كقصر سهل وقصر طارق . (١) .. الخ .

ولعل من المناسب هنا أن نشير إلى أنه قد تعددت الرباطات البحرية والصحراوية في المغرب الإسلامي كله ، وأصبح مجموعها يربو خلال الفترة موضوع الرسالة والتي تليها على أكثر من ألف رباط تمتد من سبته في المغرب الأقصى إلى مشارف الأسكندرية (٢) بمصر ، وممَّا يذكر أن المسافة التي كانت تفصل بين كل رباط ورباط هي ستة أميال . (٣) .

بقي أن نشير في عجالة خاطفة إلى عدد من العلماء والعباد ، الذين سكنوا ورابطوا بتلك الرباطات والقصور والمحارس ، وما أحدثوه من حركة علمية مهمة ، ثم الإشارة إلي بعض من وفد إلى تلك الرباطات من علماء المدن الذين قدموا فارين بأنفسهم من مطاردة بعض الحكام لهم .

فمن العلماء الذين رابطوا في المدن الثغرية ورباطاتها كالمنستير وسوسة ، عالم المغرب الأدنى المشهور : سحنون بن سعيد التنوخي فقد كان يرابط بالمنستير في شهر رمضان من كل عام وينشر علمه وفقهه بجانب

---

(١) عن هذه القصور ، أنظر حسن حسني عبدالوهاب : نفسه ص ٨٢- ٨٤ - ٨٨- ٩٠ ، ٩١ - ٩٣، ٩٥ ، ٩٧ ، ١٠٥ - ١٠٧ ، ١٣٥، ١٤٥ . إلى غير ذلك .

(٢) أنظر عثمان الكعاك : مراكز الثقافة ، ص ١٨ - عبدالسلا م الكنوني : المرجع السابق ،ص ٢٦.

(٣) أنظر عثمان الكعاك : نفس المرجع أعلاه والصفحة - عبدالسلام الكنوني : نفس المرجع أعلاه والصفحه - صالح مفتاح : المرجع السابق ،ص ١٩٤ (وقد نقل عن المقدسي أنه كان على كل فرسخين رباط ، والفرسخ كما نقل عن ابن رسته في الأعلاق النفسية يساوي ٣ أميال) . أنظر الحاشية رقم ٣ من نفس الصفحة أعلاه .

قيامه بواجبه الجهادي (١) ومنهم كذلك ابنه محمد بن سحنون الذي كان يقدم من القيروان إلى سوسة للمرابطة في قصر الطوب (للعبادة والحرس على المسلمين) (٢) . ومن الطبيعي أن يمارس دوره التعليمي هناك وهو العالم الفقيه المتبحِّر الذي أشرنا إليه سابقا، وقد سكن سوسة سكنى دائمة، وكان كثيراً مايحث على سكناها، وقد ذكر المالكي (٣) حديثاً عن أخ يحيى ابن عمر ، وهو قوله (كان أخي يحب سوسة ، ويحض على سكناها ، ويقول اللهم لاتكسبني ذنباً استحق له الخروج من سوسة، وكان يقول : « إنما هي عندي مثل الأسكندرية وعسقلان وهذه المواضع التي ذكر فضلها في الكتب ») وكان يحيى بن عمر بالإضافة لمرابطته في سوسة، كان يرابط في شهر رمضان كل عام بالمنستير (٤) فكان يرابط ويلقي دروسه العلمية ومن العلماء الذين فضلوا سكنى سوسة كذلك لمكانتها : محمد بن بسطام بن رجا الضبي الذي كان له فضل جلب مجموعة من كتب كبار المالكية بالمشرق لم تكن قد وصلت إفريقية من قبل ، فقد استقر بسوسة نهائياً (وسمع منه الناس بجامعها ، وانتفعوا بواسع علمه ، ونسخ بخطه كتباً عديدة) . (٥)

ومن العلماء العباد ، نذكر عبدالمؤمن بن المستنير الجزري وقد قال المالكي (٦) نقلاً عن أبي العرب في طبقاته (قال أبو العرب : روى عن مالك

---

(١) المالكي : نفسه، ج١ ، ص ٢٩٤ .

(٢) المالكي : نفسه، ج١ ، ص ٣٤٨ .

(٣) نفسه ، ص ٤٠٤ .

(٤) المالكي : المصدر السابق والجزء ، ص ٤٠٢ .

(٥) حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الثاني ، ص ١٤٢ – ١٤٣ .

(٦) نفسه ، ص ٢٠٥ .

وأصحابه ، وكان عبد المؤمن رجلاً صالحاً كثير الرباط كثير الرواية لغرائب الرباط) . ومنهم أبو عمرو بشير بن عمورسي المتعبد بالمنستير – قال المالكي (١) : (قال ابن الحداد : وكانت له قريحة في العلم وكان يحسنه ، إلاّ أن العبادة غلبت عليه) . ومن العلماء العباد كذلك المبرزين : عبدالرحيم ابن عبد ربه الربعي الزاهد المعروف بعبد الرحيم المستجاب ، فقد كان عالماً قبل أن يكون زاهداً متعبداً ، سمع على مجموعة من أشهر علماد المغرب الأدنى مثل سحنون بن سعيد وأسد بن الفرات ، وقد كان يسكن قصر زياد بل هو الذي تولى بناءه (٢) وكان قصره الرباطي هذا موئل إهتمام العلماء والفقهاء ، وفيه أقام سحنون بن سعيد فترة من الوقت لدى عبدالرحيم ، سمع عبدالرحيم خلالها من سحنون كتب ابن وهب أحد تلاميذ الإمام مالك بن أنس من المصريين (٣) .

أما العباد الزهاد الذي انقطعوا عن الحياة ومظاهرها في تلك الرباطات والقصور والمحارس ، فقدكانوا كثيري العدد ، والفضل في ذلك يعود في حفظ ترجماتهم إلى أبي بكر المالكي ، الذي كان كتابه رياض النفوس يعنى يتتبع تراجم العلماء والعباد والزهاد والنساك في إفريقية منذ الفتح الإسلامي حتى عصره هو في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري . ونحن لايهمنا من تراجم أولئك العباد والزهاد إلاّ ماكان متصلاً

---

(١) نفسه ، ص ٣٢٤ – ٣٢٥ .

(٢) المالكي : نفسه ، ص ٣٢٧ – ٣٢٨ .

(٣) المالكي : نفسه ، ص ٣٣٠ .

بدورهم العلمي والثقافي ، فقد زخر بذكرهم كتاب المالكي . ولابأس هنا من الإشارة إليهم في هذا العجالة الخاطفة . فمن المتعبدين الذين سكنوا المنستير أبو عثمان الجزري (١) ، ومن عباد قصر الطوب في سوسة : حمدون بن عبدالله العسال (٢) ، ومنهم محمد بن عبدالكريم المسوحي (٣) ، ومكرم المتعبد (٤) من علماء القصر الكبير بالمنستير ومن عباد قصر لمطة باحواز مدينة سوسة أبو السرى واصل (٥) بن عبدالله اللخمي ، وكان بالإضافة لذلك ينزل قصر الطوب في سوسة .

ومن عباد سوسة المشهورين أبو الأحوص أحمد بن عبدالله المتعبد ، الذي مر بنا ذكره من قبل (٦) ، ومنهم أبو هارون الأندلسي المتعبد الذي سكن مدة من الزمن في قصر لمطة (٧) . ومن المحارس التي نزلها بعض المتعبدين : محرس سفاقس ، قد نزله أبو عقال غلبون بن الحسن بن غلبون الأغلبي ، وكذلك نزله أيوب بن هارون المتعبد معه (٨) .. الخ

---

(١) المالكي : نفسه ، ص ٢٣٨ ومابعدها .

(٢) المالكي : نفسه ، ص ٣١٧ ومابعدها .

(٣) المالكي : نفسه ، ص ٣٢٠ ومابعدها .

(٤) المالكي : نفسه ، ص ٣٢٤ ومابعدها .

(٥) المالكي : نفسه ، ص ٣٣٤ ومابعدها .

(٦) المالكي : نفسه ، ص ٣٩٣ ومابعدها .

(٧) المالكي : نفسه ،ص ٤١٦ ومابعهدا .

(٨) المالكي : نفسه ، ص ٤٢٧ ومابعدها .

المكتبات العامة والخاصة : -

لاخفاء في أن المكتبات كانت من أهم الوسائط الثقافية التي اسهمت في نشر الثقافة والعلوم في الدولة الإسلامية . وقد لقيت المكتبات على يد المسلمين من الحظوة والمكانة والإهتمام بعداً فاق ماكان للشعوب الأخرى في هذا المضمار في العصور القديمة والوسيطة ومن الطبيعي أن المكتبات قد استمدت مكانتها تلك من الوعاء الذي شمل المعرفة والعلم ، ذلك هو الكتاب الذي اشتق منه اسمها . ولامراء في أن الكتاب كان يشكل أهمية بالغة عند المسلمين ، فالإسلام دين جاء بكتاب وثقافة المسلمين ومحصلتهم العلمية ، إنما هي ثقافة كتاب ، وفي البدء كان القرآن الكريم ، ثم توالت الكتب تترى بعد ذلك .

ولقد اعتنى المسلمون بناءً على ذلك بالكتب والمكتبات ، وكتب التاريخ والأدب والتراجم والسير مافتئت تترصد الأدلة والشواهد الواسعة التي تعكس هذا الاعتناء وذلك الاهتمام مما لاسبيل إلى ذكره هنا ، فهو مبسوط مذكور .

وإفريقية (المغرب الأدنى) لم تكن لتقل إهتماماً بالكتب والمكتبات عن غيرها من الأمصار والأقاليم – ولعل ممّا لاخلاف فيه هو أن المغرب الأدنى قد دخل ميدان التأليف والتصنيف مبكراً فقد تصدى علماؤه وأدباؤه وأطباؤه ومقرؤوه للتأليف في كل مجالات العلم وفي تخصصاتهم على وجه الخصوص، فتكونت خلال الفترة الزمنية موضوع الرسالة مجموعات ضخمة من مصنفاتهم ، لاسيما وأن البعض من المؤلفين قد فتح له باب في التأليف

عريض وبلغت مصنفات البعض منهم العشرات من الأجزاء . بل إن بعضهم عد من كبار المصنفين على مستوى الدولة الإسلامية كأبي العرب التميمي الذي قيل إنه ألف كتباً تقدر بالمئات (١) . وتتملك الدهشة الباحث وهو يتتبع سير وتراجم علماء وأطباء وقرآء وأدباء إفريقية خلال الفترة موضوع الإهتمام ، إذ قل مانجد واحداً منهم إلاَّ وله مصنف أو مصنفين . أما الغالبية منهم فمصنفاتهم تصل إلى بضعه مؤلفات في شتى الموضوعات .

وكان المظنون إزاء هذا أن تكون هناك مكتبات استوعبت ذلك الكم الوافر من المؤلفات الشرعية والأدبية والطبية وغيرها ، بيد أننا نفاجأ بعدم العثور على مباحث توضح احتواء إفرقية على تلك المكتبات ، سواء الخاصة أو العامة خلال تلك الفترة اللهم إلاَّ بضع إشارات لاتروى ظمأً ولاتشفى غلة. فالواقع أننا لايمكن أن نتصور خلو إفريقية من المكتبات التي هي نتيجة مباشرة لكثرة التأليف وغزارة العطاء الذي أشرنا إليه ذلك لأن الكتب والمكتبات هي المظهر المادي للنهضة العلمية الثقافية ليس في إفريقية فحسب، وإنما في كل العالم الإسلامي . وعدم وجود الإشارات التي توضح دور ومكانة المكتبات في إفريقية . على خلاف الأندلس أمر يدعو للغرابة والدهشة . غير أننا نستطيع أن نفترض أن إفريقية عرفت المكتبات العامة والخاصة لاكما أشارت إليه تلك الإشارات الخاطفة ، ولكن باعداد كبيرة . ذلك لأن هناك عوامل عديدة تؤيد صحة هذا الفرض ، فأولها هو ما أشرنا إليه من غزارة التأليف الذي تميزت به البلاد ، وثانيها أن المغرب كان يقتفي

---

(١) أنظر بعد ص ٣٤٦ .

أثر المشرق في كل منحى ، والإهتمام بالمكتبات وإنشاؤها كان من أبرز اهتمامات المشرقين ، وثالثها هو رغبة الأمراء والخلفاء الذين تعاقبوا على حكم المغرب في مجارات أقرانهم في المشرق في كل تطلعاتهم . هذا فضلاً عن الميل الغريزي للعلوم والمعارف الذي تميز به بعضهم .

وعلى أية حال فلا مناص في ظل غياب التنصيص على وجود المكتبات وأماكنها من تتبع تلك الإشارات الخاطفة التي أمدتنا بها بعض كتب التاريخ والتراجم ، فمن المكتبات التي أدت دوراً علمياً لابأس به ، تلك التي أنشأها الأغالبة في المسجد الجامع بالقيروان ولقد حفلت تلك المكتبه بأمهات المصنفات النفيسة ، وقد زادت محتوياتها بسبب ولوع الأمراء والعلية من القوم بتحبيس ووقف الكتب الجليلة عليها . وهذه المكتبة التي عرفت ببيت الكتب ، كانت تحتل آنذاك الجزء المجاور للمحراب في المسجد الجامع . وتذكر بعض المصادر والمراجع أن إحدى نساء بني زيري ، تبرعت بمجموعة من المؤلفات الجليلة للمكتبة من مصاحف وخلافه . وقد أوقفتها على تلك المكتبة (١) . ويقول حسن حسني عبدالوهاب (٢) إن العناية بهذه المكتبة قد استمرت حتى القرن الخامس الهجري ، ثم أصابها بعد ذلك من التلف والضياع ماقلل قيمتها ومكانتها . ومع ذلك فإن بعضاً من تلك المؤلفات القيمة كما يشير عمر رضا كحالة (٣) مازال شاهداً على ذلك حتى الآن ،

---

(١) أنظر حسن حسني عبدالوهاب : بساط العقيق ، ص ٦٢- ٦٣ - عمر رضا كحالة : أعلام النساء، الجزء الرابع ، ص ٣٨- ٣٩ .

(٢) بساط العقيق ، ص ٦٢ - ٦٣ .

(٣) أعلام النساء ، الجزء الرابع ، ص ٣٨- ٣٩ .

وخاصة تلك المصاحف المخططة بالذهب المذاب والمكتوبة بالخط الكوفي . وفي حق هذه المكتبة ينقل أحد مختار عمر (١)، عن العبدري صاحب الرحلة المعروفة باسمه قوله : (دخلت بيت الكتب بالقيروان ، فأخرجت لنا مصاحف كثيرة بخط مشرقي ، ومنها ماكتب عليه بالذهب ، وفيها كتب محبسة قديمة من عهد سحنون وقبله ورأت مصحفاً يقال إنه مصحف عثمان ، وأنه بخط عبدالله بن عمر رضى الله عنهما) .

أما جامع الزيتونة ، فقد حظى هو الآخر بمكتبة كبيرة حوت أنفس المصنفات والمخطوطات من المصاحف وكتب الحديث والتفسير وغير ذلك (٢) ومن أشهر المكتبات العلمية التي كان لها دور ثقافي مؤثر ، مكتبة بيت الحكمة برقادة ، الذي أسسه كما سبق أن ذكرنا الأمير ابراهيم بن أحمد المعروف بابراهيم الثاني ،فقد ضمت مجموعات كبيرة من المجلدات في شتى أنوا ع العلوم والمعرفة وخاصة العلوم الدينية والتجريبية . (٣) ، ويعتقد حسن حسني عبدالوهاب (٤) أن مكتبة بيت الحكمة احتوت كذلك على كثير من المؤلفات التي ترجمت عن اللغات الأعجمية كاليونانية والفارسية والسريانية ، كما يعتقد أيضاً أنها كانت عبارة عن (مكتبة منضدة في خزائن من خشب ، كل خزانه منها تحتوى على عدد من الكتب المختارة

---

(١) النشاط الثقافي في ليبيا ، ص ١١٠ .

(٢) محمد الحسيني عبدالعزيز : الحياة العلمية في الدولة الإسلامية ، ص ٣٦ .

(٣) أنظرحسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الأول ،ص ١٩٤- ٢٠٩ ابراهيم العبيدي التوزري : نفسه ، ص ١٦١ - ١٦٥ .

(٤) الورقات ، القسم الأول ، ص ١٩٥ .

المنسوخة على الرق أو الكاغذ) (١)

ومن المكتبات ذات الأهمية البالغة في مدينة صبرة (المنصورية) ، مكتبة الخليفة المعز لدين الله الفاطمي . ولقد كان الخلفاء الفاطميون شغوفين بالعلم والمعرفه ، وكانوا بجانب ذلك علماء وأدباء ، فقد أسهموا في الحركة التأليفيه كما سنرى بعد . ولذلك فقد حرص المعز على أن ينشئ في قصره خزانة ضخمة للكتب تدل ضخامتها على مقدار ثقافته وغزارة علمه . فلقد (بلغ من شغفه بهذه المكتبة أنه كان يعرف مواضع مافيها من الكتب وماتحويه من المعلومات . وقد قيل إن المعز أمر خازن كتبه أن يحضر له كتاباً ، فلم يحضره على الفور ، فقام المعز وبحث عن هذا الكتاب ، ثم قرأه كما قرأ غيره من الكتب واستهواه الإطلاع ، حتى صرف معظم هذه الليلة في القرآءة وهو واقف على قدمية ، ولاغرو فقد كان يقول والله ما تلذذت بشئ تلذذي بالعلم والحكمة) (٢) وممّايدل على شدة اهتمام المعز بالثقافة والعلوم أنه فتح أبواب قصره للعلماء والمشايخ وغيرهم (وأباح لهم جميعاً الإطلاع على الكتب المختلفة ودراستها وانتساخها والتعلم منها والتفقه فيها) (٣) .

واحتوت مدينة طرابلس كغيرها من المدن على المكتبات العامة لاسيما وأن هناك طائفة من السكان في جبل نفوسه تتمذهب بالمذهب الإباضي .

---

(١) حسن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع السابق أعلاه والقسم والصفحة .

(٢) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المرجع السابق ، ص ٢٢٢ .

(٣) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفس المرجع السابق ،ص ٢٢٢ - ٢٢٣ .

وكان الفكر الإباضي قد بلغ درجة عالية من الظهور والكثافة آنذاك ، حتى وصل الاجتهاد بالإباضية هناك إلى تأسيس فرق إباضية داخل المذهب نفسه ، لها فكرها ولها تنظيرها ممّا سوف نعرفه بعد في مكانه . ومن الطبيعي والحالة كذلك أن تكثر المؤلفات الرياضية على وجه الخصوص . ولقد أشارت بعض المراجع التي تهتم بالتاريخ والثقافة الإباضية إلي أن قرى ومدن جبل نفوسه كانت تزخر بالعشرات من الخزائن المملوئة بالمصنفات ، وإن كان قد أتت النار على معظمها خلال الفتن التي لحقت بجبل نفوسه بعد ذلك . (١) وبجانب هذا فقد حفظ لنا التاريخ ، ذكر مكتبة نص على أنها (خزانة نفوسة) (٢) ، وقد كان مقرها في مدينة شروس عاصمة الجبل ، وقد غصت بالألاف من الكتب في عهد ثالث الأمراء الرستميين : أفلح بن عيد (٣) الوهاب . ولقد وصل الإهتمام بالكتب والمكتبات أرقى مستواه بسبب النهضة العلمية التي بلغتها إفريقية في عهد الزيريين كما سنعرف بعد . وقد مر بنا أن بعض نساء الزيريين قد تبرعت بمؤلفات عظيمة لمكتبة المسجد الجامع بالقيروان . ويهمنا أن نشير هنا إلى

---

(١) أحمد مختار عمرو : نفسه ، ص ١١٠ .

(٢) أحمد مختار عمرو : نفسه .

(٣) أفلح بن عبدالوهاب بن عبدالرحمن بن رستم (١٩٨- ٢٤٧هـ / ٨١٤ - ٨٦١م) ثالث الأئمة الرستميين في تاهرت ، وأطول الأمراء حكماً . وقد اشتهر بكل صفات رجل الدولة الناجح ، وبالإضافة إلى ذلك كان عالماً في الفقه الإباضي لايشق له غبار وله مؤلفات قيمة وعلاوة علي ذلك كان له ديوان شعر قد ضاع . أنظر سعد زغلول عبدالحميد : نفسه ، ج ٢، ص ٣٣٧- ٣٥٥ - عادل نويهض : معجم أعلام الجزائر ، ص ٥٢ ، نقلا عن مجموعة من مؤرخي الإباضية وغيرهم) وعنده أن توليته كانت سنة ١٩٠ هـ ووفاته كانت سنة ٢٤٠هـ / ٨٠٥ - ٤- ٨٥٤ م) .

أن تلك الأميرة لم تكن وحدها التي قامت بهذا العلم الجليل ، بل ذكر أن عمة الأمير المعز بن باديس المعروفه بأم ملال (١) (ت ٤١٤هـ) ، وكذلك الأميرة أم العلو شقيقته (٢) ، وزوجته الأميرة زليخا أهدين - لمكتبة القيروان أنفس المصنفات . (٣)

وللمعـــزين باديس نفسه ينسب فضـل تأسيس وإنشـاء مكتبة عامرة إجتهـد في (توفيرها وإثرائها بأنفس المصنفات، فكـانت تضـم عشرات الآلاف من الكتـب النفيسة)(٤) وهناك نص أورده ابراهيم العبيدي التوزري (٥)، حول تحبيس أي وقف بعض الكتب جاء فيه (ت : ٢٥٦هـ) وأبو العرب التميمي (٦)(ت٣٣٣هـ) ومحمد بن حارث الخشنى(٧)

---

(١) أم ملال أميرة صنهاجية ، عرفت باسم السيدة بنت المنصورين بلكين بن زيري ، وهي أخت باديس بن المنصور والد المعز وقد كان لها دور سياسي كبيرا إبان وفاة أخيها باديس عام ٤٠٦هـ فقد نصبت وصية على ابنه الناصر المعز ، الذي لم يتعد التاسعة من عمره ، وتولت تدبير المملكة في حسن تدبير مشهور ، حتى بلغ المعز سن الرشيد ، وتأهل لاستلام الدولة ، وكانت إضافة إلى مهارتها السياسية من ربات الأدب والعم والرأي . أنظر الزركلي : المرجع السابق ، ج٣ ، ص ١٤٨-١٤٩ - عمر رضا كحاله : أعلام النساء ، ج ٢، ص ٢٧٦ - ٢٧٨ .

(٢) لم يرد للأميرة أم العلو والأميرة زليخا ترجمة عند من إهتم بالتعريف بنساء الزيريين ويبدو أنه لم يكن لهما دوربارز ولذلك فلم يترجم لهما ، وإن كان قد ورد ذكر لهما عرضاً عن ابن عذارى وغيره، أنظر ابن عذاري : نفسه ، ص ٢٧٠ ، ٢٧٣ - ٢٧٤ .

(٣) أنظر ابراهيم العبيدي التوزري : نفسه ، ص ١٥٢ .

(٤) ابراهيم العبيدي التوزري : نفسه ، ص ١٥٢ .

(٥) نفسه ، ص ١٥٣ .

(٦) أنظر حسن حسني عبدالوهاب : بساط العقيقي ، ص ٦١-٦٢ .

(٧) أنظر عياض نفسه ، ج٢ ، ص ٥٣١- ٥٣٢ - الذهبي : تذكره الحفاظ : ط٤، ص ١٠٠١-١٠٠٢- ابن القرضي : تاريخ علماء الأندلس ،ص ١١٠ - ١١١ .

(ت ٣٦٦هـ) والطبيب المشهور ابن الجزار (١) (ت٣٦٩هـ) والقاضي عيسى مسكين (٢) ، الذي كان له بمدينة رقادة مكتبة عامرة بالمصنفات المتنوعة .

ومنهم كذلك محمد بن بسطام (٣) ، وحمدون بن مجاهد ، (٤) وأحمد القصري (٥) ، الذي أضطر ذات مرة إلى بيع ثيابه لشراء ورق نسخ كتاب وجده عند أحد شيوخه ، وغيرهم ممَّن لم نوفق في التعرف على خزائنهم الخاصة .

وقبل أن نترك الحديث عن المكتبات ، ينبغي التنبيه إلي المكتبات التي كانت توجد في الرباطات المتناثرة في أنحاء إفريقية . فالرباط كان بجانب دورية الديني والجهادي ، اللذين أشرنا إليهما من قبل كان ثقافياً وبه مدرسة للرجال ومدرسة للنساء ، ومعمل لصنع الورق ودار وراقة لنسخ الكتب وبثها احتساباً لوجه الله تعالى ، ولاسيما المصاحف ومجامع الحديث وكتب الفقه) (٦) .

---

(١) أنظر سن حسني عبدالوهاب : نفس المرجع السابق ، ص ١٧-١٨ - ابراهيم العبيدي التوزري : نفسه ، ص ١٥٣-١٥٤ .

(٢) راجع ابراهيم العبيدي التوزري : نفسه ، ص ١٥٣ .

(٣) راجع حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الثاني ، ص ١٤٢- ١٤٣- ابراهيم العبيدي التوزري : نفسه ، ص ١٥٣ .

(٤) ابراهيم العبيدي التوزري : نفسه ، ص ١٥٣ .

(٥) راجع حسن حسني عبدالوهاب : البساط ، ص ٦١- ٦٢ .

(٦) عثمان الكعاك : مراكز الثقافة ، ص ١٧ .

القسم الثاني

النشاط العلمي في إفريقية

المغرب الأدني

الفصـــــل الأول

الدراســـات الشرعيـة

(١)

إنتشار المذهب المالكي ومكانته في إفريقية

- فكرة تاريخيه لنشوء المذهبية الفقهية

- حالة الدراسات الشرعية في إفريقية قبل دخول المذهب المالكي .

فكرة تاريخيه لنشؤ المذهبية الفقهية :

لم يكد يمر القرن الثاني الهجري ، حتي كان المذهب المالكي يغمر بسناه المغرب الأدنى . والواقع أن لم يغمر المغرب الأدنى وحده فحسب ، وإنما المغرب كله والأندلس ، وإذا كان ليس من مهمة بحثنا تتبع انتشار المذهب في بقية المغرب والأندلس - إلاَّ مافيه صلة للبحث - فإن إنتشاره وظهوره ظهوراً مطلقاً على غيره من المذاهب الفقهية الأخرى وكذا السياسية في المغرب الأدنى ، يحتاج منا بحثا مستقصياً عن أسباب ذلك ، لأن المذهب المالكي في المغرب الأدنى والمغرب عموماً والأندلس - هو الذي صبغ الدراسات الشرعية بصبغته وكانت تعتمده محوراً في توسعها وتوجهها كما هو معلوم .

بيد أن الحديث عن انتشار المذهب المالكي في المغرب الأدنى لايستقيم له معنى ، ولايطرد له سياقاً إلاَّ إذا استوجبنا عقد استقراء تاريخي موجز لنشوء المذهبية الفقهية في الدولة الإسلامية . ونحن هنا بطبيعة الحال لايهمنا من أسباب نشأة المذاهب الفقهية والخطوات التاريخيه التي مرت بها إلاَّ مايوضح ماهية المذهب المالكي ، الذي ارتضاه المغاربه وحده تقريباً مذهباً فقهياً لهم .

أفاض المؤرخون ومتتبعو النشاطات العلمية الإسلامية في الحديث عن أسباب حدوث المذاهب الفقهية ، بل وغيرها من المذاهب السياسيه والمذهبية والكلامية ، وتضافرت جهود المؤرخين القدامى والباحثين المحدثين في تتبَّع تلك المذاهب الفقهيه جوهراً ومحتوى ماناً ومكاناً ، صعوداً وهبوطاً ،

أصحاباً ومريدين طبعا ، ممّا هو شائع مبسوط في المؤلفات العامة والخاصة . ولعل غاية مانستطيع قوله هو إن الحاجة إلى الاجتهاد فيما لم يرد فيه نص من كتاب أو سنة . كان الأرهاص الذي أدى إلى تكوين المذاهب الفقهية تلك . فغنى عن القول أنه قد واجهت المسلمين بعد وفاة الرسول ﷺ ، الكثير من القضايا الشائكة سواء كانت مالية أو اجتماعية أو اقتصادية ، ممّا لم يرد فيه نص قطعى لاسيما بعد حركة الفتوحات العظيمة في عهود الخلفاء الراشدين وماتبع ذلك من دخول أجناس مختلفة تحمل ثقافات متنوعة في حظيرة الدولة الإسلامية فنشأت أثر ذلك قضايا مختلفة المنازع الإقتصادية والمالية والإجتماعية ، كما قلنا لم ينص في القرآن والسنة على كيفية مواجهتها – وهذا بعلم الله سبحانه وتقديره بلاشك – فدفع هذا كبار الصحابة إلى الاجتهاد في حل تلك المعضلات بما يهديهم إليه رأيهم وقياسهم طلباً لتحقيق المصلحة العامة والمقصد العام للشريعة . ولقد تأتي من ذلك ظهور مصدر تشريعي مهم ، هو الرأي الذي نظم بعد ، وعرف بالقياس (١) .

على أن كبار الصحابة رضوان الله عليهم لم يكونوا كما يذكر محمد أبو زهرة (٢) في الإجتهاد بالرأي سواء ، فمنهم من اجتهد بالرأي عن

---

(١) محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ٢٥- ٣٣ – أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ٢٢٥- ٢٥٠ (بتوسع) ضحى الإسلام ، ج٢ ، ص ١٥١ – ١٧٦ (بتوسع كذلك) – محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية ، ج٢ ، الفصل الخاص بدواعي نشأة المذاهب الفقهية ، ص .

(٢) تاريخ المذاهب الإسلامية ، ج٢ ، ص١٦ – ١٧ .

طريق المصلحة العامة التي هي التي أقرب للمقاصد العامة للشريعة (١) ومنهم من اجتهد بالرأي على منهاج القياس بمعناه الذي عرف به .(٢) وكلا الفريقان اضطرتهما الوقائع إلى اللجوء لهذين النوعين من الإجتهاد . (٣)

وبإنتقال بعض من أولئك الصحابة من المدينة إلى بعض الأمصار المفتوحه انتقلت اجتهاداتهم القياسية التي حفظت عنهم إلى الأمصار التي استوطنوها ، ولقد ترتب على ذلك أن أصبح كل قطر نزله الصحابه رضي الله عنهم يتلقى اجتهادات من نزل فيه منهم غير أن الحجاز وخاصة المدينة، والعراق وخاصة الكوفة ، اشتملا على معظم تلك الآراء الاجتهادية لوجود غالبية الصحابة في الحجاز ثم في العراق بنسبة أقل . (٤)

وفي عصر كبار التابعين الذي هو موصول بعصر الصحابة ، شهدت الدولة الإسلامية انقسامات خطيرة بين المسلمين بسبب الفتن السياسية التي نشبت آنذاك كما هو معروف والتي أفرزت مذاهب سياسية أهمها المذهب الخارجي والشيعي . ولقد سعت هذه المذاهب السياسية إلى تأييد

---

(١) هذا هو التعريف الجامع للقياس في رأي محمد أبو زهرة ، فهو يرى (أن الإجتهاد بالرأي تأمل وتفكر في تعرف ماهو الأقرب إلى كتاب الله تعالى وسنه نبيه ﷺ ، سواء أكان يتعرف ذلك الأقرب من نص معين ، وذلك هو القياس أم الأقرب للمقاصد العامة للشريعة وذلك هو المصلحة)، محمد أبو زهرة : تاريخ المذاهب الإسلامية ، ج٢ ، ص ١٦ .

(٢) تعريف القياس (هو الحاق أمر غير منصوص على حكمة بأمر آخر منصوص على حكمه لاشتراكهما في علة الحكم ، أو القياس ثبوت الحكم في غير المنصوص على حكمه لاشتراكه في عله الحكم المنصوص على حكمه) . محمد أبو زهرة : نفس المرجع السابق ، ج٢ ، ١٦ .

(٣) محمد أبو زهرة : نفس المرجع والجزء أعلاه ، ص ١٧ – ١٨ .

(٤) أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ٢٣٤– ٢٤١ محمد أبو زهرة : نفسه ص ص ٣٢ – ٤١ .

وجهة نظرها السياسية ثم العقائدية إلى اختلاق أحاديث منسوبة للرسول ﷺ (١) ، ممّا أوجد شعوراً بالفزع لدى كبار العلماء وغيرهم . (٢) هذا بالإضافة إلى المستجدات من الأقضية التي تزايدت كماً ونوعاً بسبب تتابع موجه الفتوحات، ودخول أجناس أخرى ذات ثقافات ومشارب متنوعه (٣) . ومن هنا ظهر آنذاك أي في أواخر القرن الأول ، ومطلع القرن الثاني الهجري تياران فقهيان رئيسيان تيار يؤثر الرواية ويتمسك بها ، ويرى فيها الاعتصام من الفتن التي ظهرت وتيار آخر يسعى للبت ببيان الأحكام الشرعية لما ظهر من كثرة الكذب على الرسول ﷺ ، ولمواجهة ما استجد من قضايا. هذان التياران عرفا في الفقه : بفقه الأثر، وعرف أهله بأهل الحديث ، وفقه الرأي ، وعرف أهله بأهل الرأي والقياس ، (٤) وقد اختصت المدينة بفقه الأثر ، الذي تمخضت عنه مدرسة فقهية مدنية

---

(١) أنظر محمد أبو زهرة نفسه ، ص ٣١ -٣٢ - الحجوى الفاسي الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي ، ج٢ ، ص ٢٠٧ - أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ٢١١- ٢١٣ ، من ألمهم الإشارة هنا إلى أن الخوارج ، مع مخالفتهم لمذاهب أهل السنه ، إلاّ أنهم لم يضعوا أو يختلقوا أحاديث على لسان الرسول ﷺ بخلاف الشيعه أو بعض فوقهم المتغالية التي لجأت إلى ذلك تأييداً لوجهة نظرها ، كما جاء في المتن .

(٢) وينسب في هذا الصدد إلى الخليفة عمر بن عبدالعزيز سعيه إلى تدوين السنة الصحيحة ، غير أن وفاته حالت دون تحقيق ذلك . أنظر أحمدأمين نفسه ، ص ٢٢١ - ٢٢٢ - محمد أبو زهره : نفسه ، ص ٣٢ .

(٣) تناول أحمد أمين بتحليل دقيق وعميق معظم تلك القضايا المستجده في موسوعته فجر الإسلام ، ص ٢٣٤- ٢٤١ ، وفي ضحى الإسلام ، الجزء الثاني ، ص ١٥٢ - ١٥٣ .

(٤) أحمد أمين فجر الإسلام ، ص ١٥٧ - ١٦٢ - محمد أبو زهره : نفسه ، ص ٣٢- ٤١ - الحجوى الفاسي : الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي ، ح٣١٠ - ٣١٥ .

واختصت الكوفة بفقه الرأي أو القياس الذي تمخضت عنه هو الآخر مدرسة فقهية كوفية . ولقد أفاض المؤرخون في ذكر الأسباب التاريخية والموضوعية بجانب ماذكر من قبل التي أدت إلى ظهور هذين المدرستين في الحجاز ، والعراق كما هو معروف معلوم (١) .

وفي عصر تابعي التابعين بعدت الشقة بين هاتين المدرستين الفقهيتين: مدرسة الحديث ومدرسة الرأي . وفي هذا العصر ظهر الإمام أبو حنيفة النعمان بوصفه ممثلاً لمدرسة الرأي ، والإمام مالك بن أنس بوصفه مثلاً لمدرسة الأثر، وبهما إبتدأ تكون المذاهب الفقهية ، فأبو حنيفة يعد شيخ القياس في وقته (٢) ، ومالك بن أنس يعتبر أمير المؤمنين في الحديث (٣) ، وفي عصرهما أيضاً ظهر الإمام الأوزاعي في بلاد الشام كصاحب مذهب له اجتهاداته ،غير أنه مالبث أن إندثر (٣) وكذلك ظهر الليث بن سعد في مصر الذي كان له هو الآخر مذهب فقهي مالبث أن أندثر كذلك (٤) . ومعاصر

---

(١) أنظر مثلا أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ٢٤١ -٢٤٥ - ضحى الإسلام ، ج٢ ، ص ١٥١ - ١٦٦ - محمد أبو زهرة نفسه ، ص ٣١١ - ٣١٦ - أحمد تيمور : نظرة تاريخية في حدوث المذاهب الفقهية الأربعة الحنفي ، المالكي ، الشافعي ، الحنبلي وانتشارها عند جمهور المسلمين ص ٢٩ -٣١ - عبد الرحمن الشرقاوي : أئمة الفقه التسعة ، ص ٥٥ - ٩١ .

(٢) محمد أبو زهرة : نفسه ص ٥٦ .

(٣) هذا هو نعت محمد بن الحسن الشيباني لمالك . ومحمد بن الحسن الشيباني (ت١٨٩هـ) هو ثاني تلامذة الإمام أبي حنيفة النعمان بعد القاضي أبي يوسف ، أنظر مالك بن أنس : موطأ مالك ، رواية محمد بن الحسن الشيباني ، تحقيق وتعليق محمد عبدالوهاب عبداللطيف ، ص ٩ .

(٤) محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ٢٧- أحمد تيمور : نفس المرجع أعلاه والصفحة - أحمد أمين : ضحى الإسلام ج ٢ ، ص ١٧٣- عبالرحمن الشرقاوي : أئمة الفقه التسعة ، ص ٩٥ - ١٢٠ .

آخــر لهمــا بل هو ند وهو سـفيـان الثـوري في الكوفـة الذي إندثر مـذهبـه أيضــاً (١) . ثم تـعـددت المذاهب التي تذهب طرائق قـددا فـي الاجـتـهـاد ، فبجانب هذه المذاهب التي عرفت في القرن الثاني ، تتابع تكوين المذاهب فيه وفي القرنين اللذين تلياه : أي الثالث والرابع فظهرت مذاهب جديدة نسبت إلى مجتهدين بارزين : فظهر مذهب سفيان بن عيينة ، ومذهب الشافعي ، ثم مـذهب اسحـاق بن راهوية ، ومـذهـب أبي ثور ومـذهـب أحـمـد بن حنبل ومـذهب داوود الظاهرى ، ومـذهب ابن جـرير الطبري (٢) .. الخ . غيـر أن الغلبة أصبحت بعد لآي للمذاهب الفقهية الأربعة المعروفة حتي اليوم : وهي الحنفي والمالكي والشافعي والحنبلي كما هو معلوم (٣) ، والتي لم يخل منها قطر إسـلامي ، وإن كـانت الغلبـة في كل قطر كـانت لمذهب من هذه المذاهب الأربعة دون غيره لعدة أسباب بسطها المؤرخون في كتبهم (٤) .

الأمـور الجزئيـة التي لم يثبت بدليل قطعى الحكم فيـهـا ، بمعنى أن الاختلاف كان فقط . في فهم بعض النصوص الشرعية وفي تطبيق كلياتها على الفروع (٥) .

---

(١) محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ٢٧ – أحمد تيمور : المرجع السابق ، ص ١٢ – أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج٢ ، ص ١٧٣ .

(٢) راجع محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ٢٧ – أحمد تيمور : نفسه ، ص ١٢– ١٣ – أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج٢ ، ص ١٧٣ .

(٣) محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ٢٧ – ٣٣ – أحمد تيمور : نفسه ، ص ١٢، ١٣، ١٥ .

(٤) أنظر أحمد تيمور : مقدمة الكتاب التي كتبها على حسن عبدالقادر ص ١–٦ ثم ماورد في تضاعيف كتاب من انتشار المذاهب الأربعة في الأمصار الإسلامية امتداداً وانحساراً .

(٥) محمد أبو زهرة : نفسه ، ص ٥٦ – ، ٥٧ – ٥٨ ، ٧٩ .

أما وقد سقنا هذه الفذلكة التاريخية لنشوء المذهبية الفقهية فإن من ضرورات المنطق ومقتضيات الأشياء أن نسلط الضوء على المذهبين اللذين تمخضت عنهما مدرستا الرأي والحديث ، وهما بداهة المذهبان : الحنفي والمالكي . فالمذهب الحنفي ينسب للإمام أبي حنيفة النعمان بن ثابت بن زوطي الفارسي الأصل (٨٠ –١٥٠هـ) والأمام أبو حنيفة النعمان أشهر من أن يعرف ، ولن نضيف جديداً إلى ماحلاّه به المؤرخون قدامى ومحدثين من ترجمة واسعة مستفيضة ، وكذا الشأن فيما يخص الإمام مالك بن أنس بن مالك الأصبحي (١) (٩٣ – ١٧٩ هـ) . فغاية مايهمنا من ترجمتيها الواسعة هو منحاهما الاجتهادي الفقهي ، لِما لذلك من ارتباط مع ماتصدينا له من الحديث عن انتشار المذهب المالكي في بلاد المغرب الأدنى ، ولاسيما وأن المذهب الحنفي قد انتشر في إفريقية (المغرب الأدنى) وكان له تلامذة واتباع حسبما سنعرف بعد .

أما مذهب الامام أبو حنيفة ، الذي شاع وانتشر في أقطار عديدة من الأمصار الإسلامية ، كالعراق أولاً ومصر وبلاد فارس وبخاري وفرغانة وأكثر بلاد الهند والسند وبعض بلاد اليمن (٢) وغيرها ، فإن قوام منحاه الاجتهادي الفقهي هو : الاعتماد على القرآن الكريم ، وهو مسلك سلكه كل

---

(١) يبدو أن مولده سنة ٩٣ هـ هي السنة الأكثر ترجيحاً من سنة ٩٤ أوسنة ٩٧ أو سنة ٩٧هـ كما ورد أيضا . أنظر عياض : المصدر السابق ، ج١ ، ص ١١٠– ١١١– مالك بن : أنس موطأ الإمام مالك ، مقدمة المحقق ، ص ١٠ – أحمد تيمور : نفسه ، ص ٢٧ – أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج٢ ، ص ٢٠٦ .

(٢) أنظر أحمد تيمور : نفسه ، ص ١٦–٢٦ .

الأئمة (وإن اختلفوا في شئ فيه ، فاختلاف في فهم مدلوله وإشاراته وطرق الاستنباط منه) (١) . أما الحديث ، فقد كان له فيه اتجاه خاص (وهو التشدُّد في قبوله والتحرى عنه وعن رجاله حتى يصح ، وكان لايقبل الخبر عن رسول الله ﷺ ، إلاَّ إذا رواه جماعة من جماعة ، أو كما يعبرون هم إذا كان خبر عامة عن عامه ، أو كان خبراً اتفق فقهاء الأمصار على العمل به ، أو روى واحد من الصحابة الحديث عن رسول الله ﷺ في جمع منهم ، فلم يخالفه أحد ، لأن هذا يدل على إقرارهم له ، ولو كانوا يخالفونه لردوا عليه ، فكان هذا بمثابة الحديث يرويه جماعة) (٢) . ولعل تشدده في الأخذ بالحديث قد أضطره إلى التوسع في القياس والاستحسان فيما لم يرد فيه نص من كتاب ولاحديث صحيح . (٣) ومن مناحيه الاجتهاديه كذلك : إعمال العقل (فيما إذا ماروى في المسألة قولان أو أكثر للصحابة فيختار منها أعدلها أو أقربها إلى الأصول العامة ، وعدم الاعتداد بأقوال التابعين إلاَّ أن يوافق اجتهاده) (٤) وهذه الأمور جعلت من القياس أساساً مهماً من أسس التشريع في فقهه (٥) . ومن أسس مذهبه الفقهي كذلك : الفقه التقديري الذي يقوم (على افتراض مسائل غير واقعية أو خيالة ، ووضع أحكام لها) ، وهو يرى ضرورة ذلك لأنه يجب على العلماء في رأيه ان

---

(١) أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج٢ ، ص ١٨٥ .

(٢) أحمد أمين : ضحى الإسلام ج٢ ، ص ١٨٥ –١٨٧ .

(٣) أحمد أمين : نفس المرجع أعلاه والجزء ، ص ١٨٧ .

(٤) أحمد أمين : نفسه ، ص ١٨٧ .

(٥) أحمد أمين : نفسه ، ج٢ ، ص ١٨٧ ، ١٩٠ .

يستعدوا للبلاء ويتحسبون له قبل وقوعه (١) . وأخيراً فإن أسس مذهبه الفقهي أيضاً : الحيل الشرعية التي غدت بعد ذلك تشكل باباً واسعاً من أبواب الفقه الحنفي (٢) . ويرى أحمد أمين (٣) (أن الحيل التي أفتى بها أبو حنيفه ليست من نوع التحايل على إبطال الحق أو أكل الأموال بالباطل ونحو ذلك ، وإنما هو أستخراج فقهي للخروج من مأزق ، ومع عدم التعدي على أحد في ماله وفي نفسه) .

أما مذهب الإمام مالك بن أنس ، الذي شاع كذلك وانتشر في عديد من الأمصار الإسلامية كالحجاز والمغرب والأندلس وغير ذلك (٤) ، فإن قوام منحاه الإجتهادي الفقهي : الاعتماد على القرآن الكريم أولاً ثم الاعتماد على الحديث . ويقول أحمد أمين في هذا الصدد (كان مالك لايشترط في الحديث ما أشترطه أبو حنيفه من الشهرة وغيرها ، بل يعمل بخبر الواحد إذا صح أو حسن) . وهذا المبدأ يجعل الأحاديث التي ينبنى عليها مذهبه أكثر عدداً فلا يتطلب في الحديث شهرة ، وإنما يتطلب صحة السند ونحوها ، ولايفهم من هذا تساهله في قبول الحديث من غير تحرٍ أو تدفيق ، بل هو شديد التحري ، ولكن لايشترط شهرة الحديث وعمومه)(٥).

---

(١) أحمد أمين : نفسه ، ١٨٧ - ١٨٨ .

(٢) أحمد أمين : نفسه ، ص ١٩٠ - ١٩٢ .

(٣) نفسه ، ص ١٩٢ .

(٤) أنظر أحمد تيمور : نفسه ، ص ٢٧ - ٢٩ .

(٥) أحمد أمين ، نفسه ، ج٢، ص ٢١٠ .

ومن أسس مذهبه الرئيسية قوله بعمل أهل المدينة ، ورأيه في هذا ينبع من تأكيده على أن (أهل المدينة إذا اتفقوا على عمل مسألة واتفق مع العمل علماؤها ، فهذا العمل حجة يقدم على القياس بل ويقدم على الحديث الصحيح ، أما إذا لم يكن عملاً اجماعياً ، بل عمله أكثرهم ، فهذا أيضاً حجة على خبر الواحد لأن العمل بمنزله الرواية . فعمل الأكثر بمنزلة رواية الأكثر ، فإذا جاء خبر واحد يخالفهم كان الراجح أنه منسوخ) (١) .

ومن أسس مذهب الإمام مالك الفقهي كذلك : (العمل بقول الصحابي إن صح نسبته إليه ، وكان من أعلام الصحابة الخلفاء الراشدين مثل معاذ بن جبل ، وابن عمر ، وكان لم يرد في المسألة عينها حديث عن النبي صحيح) (٢) . بيد أن الإمام مالكاً لم يطرح الرأي البتة وخاصة فيما لم يرد فيه نص من كتاب أوسنة . فمال إلى القول بالمصالح المرسلة أو الاستصلاح) . (٣)

وقبل أن نغادر الحديث عن مذهب الإمام مالك بن أنس نشير إلى كتابه الأشهر الذي كان له دور عظيم وعميق في المغرب والأندلس بصفة خاصة وغيرها بصفة عامة ، ألا وهو كتاب الموطأ ، وكتاب الموطأ كذلك أشهر من أن يعرف ، وحسبنا أن نلخص ماجاء فيه . فهذا الكتاب الذي ألفه الإمام مالك ، جمعه في نحو ٤٠ عاماً ، وهو كتاب حديثي فقهي معاً وقد

---

(١) أحمد أمين : نفسه ، ج٢ ، ص ٢١١ .

(٢) أحمد أمين : ضحى الإسلام، ج٢ ، ص ٢١٢ .

(٣) أحمد أمين : نفسه ، ص ٢١٢ .

جمع فيه حوالي ١٠ آلاف حديث وقيل ٩ آلاف (ثم لم يزل ينتقى منه ، حتى رجع إلى سبعمائه) . ولهذا فهو يعد من أشهر كتب الحديث (١) .

والموطأ كذلك كتاب فقهي ، فقد رتبه ترتيب الفقه ، فكان يذكر الأحاديث المتعلقة بالموضوع الواحد ككتاب الصلاة أو الصوم . . الخ ، ثم بجمع المسائل المتشابهة حول مايتعلق بالصلاة ، وقد يزيد على الحديث ما استنتجه فقهياً منه ، كما كان يقوم أحيانا بشرح بعض الكلمات اللغوية وتفسيرها .. الخ (٢) .

وكتاب الموطأ حظى بشروحات عديدة تصدى لها بعض تلامذته وغيرهم ، فشرحه الكثيرون في مختلف أنحاء الدولة الإسلامية ولخصوه ، وأشتهرت من بين تلك الشروحات والتلخيصات عدة نسخ أشار إليها مؤرخو الفقه . (٣) كما أشتهرت أيضاً نسخ من الموطأ سمعها منه بعض تلامذته المصريين والأندلسيين والعراقيين ، ثم من غير تلامذته ومن غير المعاصرين له كذلك . (٤) هذا ومعنى الموطأ في اللغة : الممَّهد ، المنقح ، ويذكر أنه لم يسبق مالكاً أي انسان إلى هذه التسمية لأي مصنَّف (٥)

---

(١) أنظر مالك بن أنس : موطأ الإمام مالك ، مقدمة المحقق ، ص ١٢، ١٣- ١٥ أحمد أمين : نفسه ، ج٢ ، ص ٢١٣ .

(٢) أحمد أمين : ضحى الإسلام، ج٢٢ ، ص ٢١٤ .

(٣) أنظر مالك بن أنس : نفس المصدر السابق أعلاه والمقدمة ، ص ١٦ - ١٩ .

(٤) أنظر مالك بن أنس ، نفسه ، ص ١٩ -٢٢ .

(٥) مالك بن أنس : نفسه ، ص ١٣ .

حالة الدراسات الشرعية في إفريقية قبل دخول المذهب المالكي :-

قبل أن نناقش أسباب دخول المذهب المالكي بلاد المغرب الأدنى ،علينا بادئ ذي بدئ أن نلقي نظرة خاطفة إلى حالة الدراسات الشرعية فيها آنذاك . الواقع أن الدراسات الشرعية ، وهي المظهر الرئيسي للحياة العلمية آنذاك في إفريقية - لم تبدأ بالظهور إلاَّ في مطلع القرن الثاني الهجري ، وهذا شئ طبيعي إذا ما عرفنا أن الفتح الإسلامي للمغرب لم يتم إلاَّ في عام ٩٠هـ ، وفي هذا الصدد نعتقد أنه ليس ثمة تناقض بين قولنا بأن الدراسات الشرعية والحياة العلمية اقتضاءً لم تبدأ إلاَّ في مطلع القرن الثاني الهجري وبين انتشار الإسلام السريع في المغرب كله أثناء وبعد الفتح. فصحيح أن الإسلام انتشر آنذاك انتشاراً واسعاً بين البربر عندما تبين لهم حقيقة الدين الذي جاء به الفاتحون العرب ، ولذلك أقلعوا عن مقاومته فاعتنقوه بسرعة ملفتة للنظر ، ولكنها طبيعية بسبب مافي الإسلام من مثالية ماعهدوها من قبل ، وبسبب ضيقهم من استبداد الشعوب التي تعاقبت على بلادهم ، وبسبب جهود الفاتحين التي أشرنا إليها من قبل ثم أخيراً بسبب ما تميز به البربر من أنهم من أقوى الشعوب حماسة وحرارة في تدينهم (١) .

كل هذا صحيح ، ولكن الدراسات الشرعية التي هي المظهر الرئيسي للحياة العلمية في إفريقية كما ذكرنا آنفاً ، كانت أقل انتشاراً في هذه

(١) أبو القاسم كرو وعبد الله شريط : شخصيات أدبية من المشرق والمغرب ، ص ١١٨ .

الفترة الأولى من إنتشار الإسلام نفسه ، وهذا شيء طبيعي آنذاك ، فالعرب الفاتحون لإفريقية كان اهتمامهم منصباً على نشر الإسلام بين البربر عن طريق إرشادهم إلى الكليات والمبادئ العامة له مع نشر شئ من قواعد اللغة العربية ، وهي لغة التعبد كما هو معروف فحسب ، وحتى البعثات العلمية الرسمية والفردية التي قدمت إلى افريقية في مطلع القرن الثاني الهجري ، والتي ذكرنا من قبل أنها كانت إحدى الأسباب التي دفعت إلى تنشيط الدراسات الشرعية ، كان أثرها العلمي متواضعاً – على أهميته – ، بل إننا نمضي فنقول إنه حتى الرحلات العلمية المبكرة للمغاربة التي تمت في النصف الأول من القرن الثاني الهجري لم تكن ذات أثر كبير في تنشيط الدراسات الشرعية . (١)

ولكن ما أن إنتصف القرن الثاني حتي تبدل الحال ، فنشطت الدراسات الشرعية وخاصة الفقهية نشاطاً عظيماً ؛ وبدا كما لو أن تلك الدراسات التي كانت تتحسّس طريقها في النصف الأول من القرن نفسه قد قفزت قفزات ضخمة في النصف الثاني منه ، ولسنا في حاجة إلى القول بأن الدافع الرئيسي وراء ذلك الإزدهار هو ظهور المذهبية الفقهية في المشرق التي إتخذت طريقها عبر المذهب المالكي إلى المغرب ، فأحدثت ذلك

---

(١) نورد على هذا مثلاً فرحلة عبدالرحمن بن زياد بن أنعم أو رحلتاه إلى المشرق ، وكانت إحداها في العصر الأموي والثانية في العصر العباسي لم تكن ذات أثر علمي واضح . فلم يورد لنا أبو العرب التميمي الذي ينقل عنه المالكي في كتابه الرياض ، والدباغ في كتابه : المعالم أنه كان له تلامذه عديدون تلقوا عنه على عدم تحديد تاريخ رحلته الأولى للمشرق ، أما الثانية فقبد كانت عام ١٤٠ هـ ، وتوفى ، ابن انعم عام : ١٦١ هـ .

الإزدهار ، ومن ثم ذلك التحول المذهبي الذي سنأتي على ذكر تفاصيله بعد قليل ، وعلى ذلك فبإمكاننا أن نؤكد أن الدراسات الشرعية في إفريقية لم تتبلور ولم تبدأ تتبوأ مكانتها التي غدت عليها إلا بظهور المذهب المالكي في المغرب على يدى أولئك العلماء المبرزين الذين سنشير إلى دورهم في نشر المذهب المالكي ، ثم إلى دورهم العلمي بعد ذلك إن شاء الله .

انتشار المذهب المالكي في المغرب الأدنى ، أدواره وأسبابه :

أولاً : الأدوار: أشرنا إلى أنه ما أن انتصف القرن الثاني للهجرة حتى نشطت الدراسات الشرعية في المغرب الأدنى بفضل دخول المذهب المالكي ، وفي الحقيقة فإن الفضل في دخول المذهب المالكي يعودإلى تلك الطبقة من أبناء إفريقية الذين رحوا إلى المدينة وقابلوا شيخ المذهب نفسه ، وسمعوا عنه وتأثروا به كما ذكرنا من قبل (١) . ثم عادوا إلى بلادهم ينشرون مذهب مالك هناك ولم يمت الإمام مالك (ت ١٧٩هـ) حتي كان قد عرف انتشار مذهبه في المغرب والأندلس (٢) .

ومنذ أن أسهم هؤلاء في ادخال المذهب المالكي إلى بلادهم تتابعت جهود العلماء من تلامذتهم وتلامذة تلامذتهم .. الخ في تثبيت أقدام المذهب حتى كتبت لها الغلبة والتمكين المطلق النهائي في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري وحتي الآن ، وإذا ما ألقينا نظرة على أدوار انتشار المذهب المالكي منذ البداية وحتى انتهاء الفترة الزمنية موضوع الرسالة ، فإننا سنكبر الجهود التي بذلها أولئك العلماء الذين مكنوا للمذهب البقاء والديمومة وسط كل الأعاصير التي جابهها المذهب من ابتعاد الأمراء الأغالبة عنه الذين كانوا يتمذهبون بالمذهب الحنفي ، (٣) إلى العداء الشديد

(١) أنظر قبل ١١٨ .

(٢) انظر المالكي المصدر السابق والجزء ومقدمة المحقق ، ص ١٢م وإن كان حسين مؤنس يجعل وفاة مالك عام ١٧٠هـ / ٧٨٦م ، بينما المشهور هو عام ١٧٩ هـ .

(٣) أنظر المالكي : نفسه : المقدمة ص ١٣- ١٥ م - عبد العزيز المجذوب : الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة الزيرية ، ص ١١٣ - ١١٥ ، ١٢٩ - ١٣٢ - السيد محمد أبو =

الخطير له الذي جاء مع مجيء الفاطميين (١) ، إلى الاضطهادات التي شنها البعض من أمراء الدولة الزيرية ضد علماء المالكية (٢) ، إلى غير ذلك، حتى كتب للمذهب الثبات والديمومة بعد لأي كما أسلفنا .

وعلى أيه حال ،فقد مر انتشار المذهب المالكي والتمكين له كما يتراءى لنا في أدوار سبعة تمثله سبع طبقات من علماء إفريقية في الفترة الزمنية موضوع الرسالة . وهذا التقسيم يبدو لنا منطقيا متفقاً مع الواقع الذي عاشه المذهب المالكي وسط كل ما أشرنا إليه من صعوبات .

ولعل أول أدوار انتشار المذهب المالكي تبدو معقودة للطبقة الأولى التي أسهمت في دخول المذهب ومبادئه ، ومن ثم انتشاره ، ويأتي عبدالله بن فروخ الفارسي (ت١٧٥هـ) على رأس هذه الطبقة فلقد كان له دور في نشر المذهب تأتي من صحبته الطويلة للإمام مالك بن أنس ، بل واشتهاره بها ثم والأهم من هذا فقد أسهم في الترويج للمذهب في بلاده عن طريق مكاتبته للإمام مالك التي تدور حول عدد من الأسئلة الفقهية للعمل بها في إفريقية ، وهذا أمر أدى إلي تمهيد الأمر في البلاد لدخول المذهب ومن ثم انتشاره (٣) .

= العزم داود : الأثر السياسي والحضاري للمالكية في شمال إفريقيا حتي حتى قيام دولة المرابطين ص ١٢٢- ١٣٢ ، ١٣٩ ، ١٤٥ - ١٤٦ .

(١) أنظر بعد ، ص ٥٢٥ ومابعدها

(٢) المالكي : نفسه ، المقدمة ، ص ٢٠م - ٢١م ، ٤٠م - ٤٥م - ٤٦م - ٤٧م ، ٤٩م - ٥٢م .

(٣) المالكي : نفسه ، ص ١١٣- ١١٥ - عياض : نفسه ، ص ٣٤٠ - ٣٤٤ - ٣٤٥ .

ومن أفراد هذا الدور التأسيسي الأول علي بن زياد التونسي (ت١٨٣هـ) وكان لادخاله موطأ الامام مالك كما أشرنا من قبل (١) أثر في نشر المذهب المالكي دون شك لاسيما وأنه أول من فسر لأهل بلده قول مالك، ولم يكونوا يعرفونه من قبل كما يشير إلى ذلك بعض من مؤرخي التراجم والطبقات (٢) ، وإضافة إلى هذا فقد جهد في ترسيخ أصول المذهب المالكي ومبادئه في نفوس تلاميذه وخاصة أسد بن الفرات وسحنون ابن سعيد وغيرهما . (٣)

ومنهم : البهلول بن راشد الرعيني (ت ١٨٣هـ) ، وهو أحد من أسهم بمواقفه المتشددة من أهل البدع والأهواء في تثبيت المذهب المالكي (٤) ، وكان لايكتفي بذلك بل يطلب من طلبته البعد عنهم ، ويصل به الأمر إلى مقاطعة طلبته إذا ما أحس أنهم خالفوا أمره . (٥) ومنهم كذلك عبدالله بن غانم القاضي (ت١٦١هـ) وكان ممَّن أسهم في نشر المذهب المالكي وتثبيته

---

(١) أنظر قبل ، ص ١٢٠ .

(٢) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ٢٥ - ٢٦ - المالكي : نفسه ، ص ١٥٨ - عياض : نفسه ، ص ٣٢٦ .

(٣) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ٢٥ - المالكي : نفسه ص ٥٨ - عياض : نفسه ، ص ٢٣٦ ، وقد أجمعوا على أن أهل العلم كانوا إذا اختلفوا في مسألة كتبوا بها إلى علي بن زياد ليخبرهم بالصواب فيها ، وأشاروا كذلك على أنه معلم أسد بن الفرات الذي كان يقول فيه : علي بن زياد من نقاد أصحاب مالك ، وأشاروا أيضاً إلى أنه معلم سحنون الفقه .. الخ .

(٤) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ٥٢ - المالكي : نفسه ، ص ١٣٣ - ١٣٤ - عياض : نفسه ، ج١ ، ص ٢٣١ - ٢٣٢ - ٢٢٣ ، ص ١٣٣ - ١٣٤ ، ص ٢٣١ ، ٢٣٢ - ٢٣٣ .

(٥) أنظر المالكي : نفسه ، ص ١٣٤ .

في بلاد المغرب بالتصدي لتدريس قواعده وأصوله ، وكان بالإضافة إلى هذا أحد المتعصبين للإمام مالك ومنهجه . (١)

ثم جاءت الطبقة الثانية وتمثل الدور الثاني من أدوار انتشار المذهب المالكي . والواقع أن دورها كان عظيماً ، فلقد ثبتت هذه الطبقة أقدام المذهب ، واكتسحت به البلاد . ، ويأتي على رأس هذه الطبقة من حيث الوفاة لامن حيث الأهمية في انتشار المذهب : أسد ابن الفرات بن سنان (ت٢١٣هـ) ، ودوره في نشر المذهب المالكي وتثبيته في المغرب الأدنى أشهر من أن يذكر ، ويكفي أن نشير إلى أن جهوده التأليفية الفقهية على أساس المذهب المالكي ، كانت خير سبيل إلى انتشار المذهب المالكي ، والتمكين له هناك (٢) .

وبالإضافة إلى ذلك ، فقد كان مدافعاً عن المذهب المالكي ضد أهل الأهواء والبدع وغيرهم . (٣)

أما الشخص الأكثر أهمية والأعظم دوراً في نشر المذهب المالكي من بين علماء هذه الطبقة فهو بلا أدنى ريب الإمام سحنون بن سعيد التنوخي (ت ٢٤٠هـ) وفي الحقيقة فإن فضله في انتشار المذهب المالكي الذي خلده له المؤرخون قدامى ومحدثون لايمكن لنا أن نحيط به هذا الحيز ، ولعل غاية مانستطيع قوله هنا هو الإشارة إلى بعض الأقوال لنفر من مؤرخي التراجم

---

(١) المالكي : نفسه ، ص ١٤٣- ١٤٥ .

(٢) أنظر بعد ص ٣٢٢ ومابعدها .

(٣) أنظر بعد ص ٤٥٠ ومابعدها .

والطبقات إلى توضح دور سحنون في نشر وتثبيت المذهب في المغرب الأدنى. نقل عياض (١) عن محمد بن حارث الخشني في كتابه طبقات علماء إفريقية قوله : (كانت إفريقية قبل رحلة سحنون قد غمرها مذهب مالك بن أنس ، لأنه قد رحل إليها أكثر من ثلاثين رجلا ، كلهم لقي مالك بن أنس وسمع منه ، وإن كان الفقه والفتيا إنما كان في قليل منهم ، كما كان ذلك في علماء البلاد ، ثم قدم سحنون بذلك المذهب واجتمع له مع ذلك فضل الدين والعقل والورع والعفاف والإنقباض ، فبارك الله فيه للمسلمين ، فمالت إليه الوجوه وأحبته القلوب ، وصار زمانه كأنه مبتدئاً قد أمحى ماقبله ، فكان أصحابه سرج أهل القيروان .. الخ) . ونقل عياض (٢) كذلك وابن السراج عن أحد تلامذة سحنون ، وهو سعيد بن الحداد (٣) . قوله (كان أبو سعيد (كنية سحنون) عاقلاً (٤) بمرة ، ورعاً بمرة عالماً بمذاهب المدنيين بمرة) ويمضي عياض (٥) كذلك فينقل عن الشيرازي صاحب

---

(١) نفسه ، ج١ ، ص ٥٩١ .

(٢) نفسه ، ج١ ، ص ٥٩١ – ابن السراج : الحلل السندسية في الأخبار التونسية ،الجزء الأول ، القسم الأول ، ص ٧٧ .

(٣) في الأصل سعيد بن الحارث ، وقد علق محقق الحلل السندسية بقوله : إنه وجده في الأصل كذلك ، ولكنه صحح الاسم فقال لعله : سعيد بن الحداد (أنظر حاشيه رقم ١، ص ٧٧ من الجزء الأول ، القسم الأول من الحلل) . والحقيقة فإن محمداً الحبيب بن الهيلة محقق الحلل على حق في ذلك . ويؤيد ماذهب إليه من أن الرواي هو سعيد بن الحداد ، ما أورده أبو العرب التميمي في كتابه الطبقات ، ص ١٠٤ .

(٤) صحح محمد الحبيب بن الهيلة في تحقيقة للجزء الأول، القسم الأول من كتاب الحلل في الحاشية رقم١٢ من ص٧٧ العبارة كما وردت في المتن، وأصل عبارة عياض :كان أبو سعيد عقلا . . الخ

(٥) المدارك : ج ١ ، ص ٥٩١ – ٥٩٢ .

كتاب : طبقات الفقهاء قوله (إليه انتهت الرئاسة في العلم بالمغرب ، وعلى قوله المعول (١) به ، وصنف المدونه وعليها يعتمد أهل القيروان ، وحصل له من الأصحاب مالم يحصل لأحد من أصحاب مالك ، وعنه انتشر علم مالك في المغرب) . أما الدباغ في معالمه (٢) فيقول متحدثاً عن رحلة سحنون إلى المشرق وعودته (... ثم قدم إلى القيروان سنة إحدى وتسعين ومائة ، فأظهر علم أهل المدينة بالمغرب ، وكان أول من أظهره) . وإذا كنا نوافق الدباغ في أنه أظهر علم أهل المدينة بالمغرب ، فإن مالايمكن موافقته عليه هو قوله إنه أول من أظهره هناك ، ذلك لأن السياق التاريخي لأولية انتشار المذهب المالكي حسبما أجمع معظم من تناول ذلك يسند الأولية والأسبقية لعلي بن زياد التونسي والبهلول بن راشد وغيرهما . وهذا ما أشار إليه كذلك ابن ناجي (٣) مكمل كتاب المعالم ومعلقة حرفياً بقوله : (قلت : وماذكر من أنه أول من أظهر علم أهل المدينة لايقال ، وفيه نظر لسبقية علي بن زياد بذلك والبهلول بن راشد وغيرهم (٤) . ومّما يذكر لسحنون من دور في نشر المذهب المالكي ، أنه كان حريصاً . على الأخذ (بمذهب أهل المدينة في كل شئ ، حتى في العيش (٥) .. الخ) أي حتى في معيشته وسلوكه . وفي

١- التصحيح من ابن السراج ، (انظر ص ٧٨) وإلاّ فالعبارة عنه عياض : (وعليه قوله ، الموصل به).

٢- الجزء الثاني ، ص ٧٩ - ٨٠ .

٣- نفسه ، الجزء الثاني ، ص ٨٠ .

٤- (كذا بدل وغيرهما .

٥- عياض : نفسه ، ص ٥٩٣ .

الواقع فإن هذا القول صحيح أيده كلام سحنون وأفعاله ، وفي هذا الخصوص يروى عياض (١) عن محمد بن سحنون ابنه قوله : (٢) (قال لي أبي : إذا أردت تقدم أطرابلس وكان فيها رجال مدنيون ومصر بها الرواة ، والمدينة عش مالك (٣) ومكة، فاجتهد جهدك ، فإن قدمت عليّ بلفظة خرجت من دماغ مالك ليس عند شيخك أصلها ، فأعلم أن شيخك كان مفرطا) . ولعل في هذا القدر مافيه كفاية لتوضيح دور سحنون في نشر المذهب ، أما دوره في تثبيت أقدام المذهب بمؤلفاته ، فهو ماسوف نعرفه في مكانه إن شاء الله ، وعلاوة على ذلك فإن لسحنون دوراً آخر في نشر المذهب يتمثل في مواقفه من المذاهب الكلامية ، ومن الخوارج وغيرهم حسبما سنعرفه في موضعه إن شاء الله .

ثم جاءت الطبقة الثالثة وتمثل الدور الثالث من أدوار انتشار وتثبيت المذهب ، وهذا الدور تمثله طائفة من كبار تلامذة سحنون ، كان لها دور مذكور في مواصلة ترسيخ قواعد المذهب وتثبيته في إفريقية سواءً كان ذلك بوساطة مؤلفاتها الفقهية أو بوساطة مواصلة الوقوف المتشدد بل

---

(١) نفسه ، ج١ ، ص ٥٩٠ .

(٢) أورد المالكي : نفسه ، هذه العبارة بنفس النص ، ولكنه ذكر أن القائل للعبارة هو : سليمان بن سلام أحد طلبته .أنظر ، نفسه ، ص ٢٥٥ – وأنظر كذلك حاشية رقم (٢) من نفس الصفحه حيث أشار محقق الكتاب إلى ماذكره عياض من أن قائل العبارة هو : محمد بن سحنون وكذلك فعل كما يقول محقق الرياض : الدباغ في (معالمة ج٢ ، ص ٥٢) .

(٣) في الأصل : والمدينة غير مالك) والتصحيح من ابن السراج المصدر السابق، ج١ ، ق١ ، ص ٧٨ .

والإصطدام بعلماء المذهب الحنفي الذين كانوا يستمدون نفوذهم من الأمراء الأغالبة الأحناف على غرار ساداتهم العباسيين ، وهذا الجانب في الحقيقة بدأ منذ عهد سحنون بن سعيد ، ولكنه تعاظم في عهد تلامذته من أمثال محمد بن سحنون بن سعيد ، ومحمد بن عبدوس ، ويحيى بن عمر وعبدالله ابن طالب ، وعيسى بن مسكين وخلافهم .

فمحمد بن سحنون (ت ٢٥٦هـ) بجانب دوره التأليفي الموسع في الدراسات الفقهية التي سنتطرق إليها في مكانها ، عرف أنه (كان عالماً بالذب عن مذهب أهل المدينة) (١)، وفي موضع آخر أشار مؤرخو التراجم الذين ترجموا له بأنه (كان يحسن الحجة والذب عن السنة والمذهب) (٢) ، ومما قيل فيه أيضاً أنه كان (إمام عصره في مذهب أهل المدينة بالمغرب ، جامعاً لخلال قل ما اجتمعت في غيره من الفقه البارع ، والعلم بالأثر والجدل ، والحديث والذب عن مذهب أهل الحجاز .. الخ) (٣) . وفيما يتعلق بمواقفه من أهل البدع والأهواء ، وغيرهم من أصحاب المذاهب الكلامية ، فقد كانت له جولات مهمة ولاسيما وأن اشتهر بالجدل والمناظرة حسبما سنعرفه في موضعه إن شاء الله .

ومن أفراد هذه الطبقة ممَّن مكن للمذهب وأعان على تثبيته وانتشاره محمد بن ابراهيم بن عبدوس بن بشير (ت ٢٦١هـ) ، وهو من أجل تلامذة

---

(١) عياض : نفسه ، ص ١٠٤ .

(٢) أنظر مثلا : عياض ، نفسه .

(٣) عياض : نفسه ، ص ١٠٥ نقلا عن ابن الجزار) .

سحنون ، وكان إضافة إلى دوره في مقاومة البدع وأهل الأهواء ، ثم دوره في مد المذهب المالكي بمؤلفاته الفقهية التي سنعرفها بعد ، من المذكورين في الذب عن المذهب والمحافظة عليه (١) ، ومما ينسب إليه أنه كان (عالماً بما اختلف فيه أهل المدينة وما اجتمعوا عليه) . (٢) .

ومن أفراد هذا الدور الثالث المذكورين عبدالله بن طالب ابن سفيان التميمي القاضي (ت٢٧٥هـ) : ويؤثر عنه أن كان كغيره من طلبة سحنون حريصاً على الذب عن مذهب مالك) (٣) ، هذا بالإضافة إلى إسهامه في التمكين للمذهب عن طريق مؤلفاته الفقهية وهذا ماسنذكره في موضعه بعد - ومن أفراد الطبقة هذه من المشهورين يحيى بن عمر بن يوسف بن عامر الكناني (ت٢٨٩هـ) وهو من كبار أصحاب سحنون ، ومواقفه في نشر المذهب وتثبيته أتضحت في كثرة مؤلفاته (٤) التي كان يوضح فيها أصول المذهب ، بل ويدافع عنه كتصديه لتأليف كتاب أسماه الرد على الشافعي (٥) ولقد واصل في الوقت نفسه تصديه لأتباع المذاهب الكلاميه باللسان والقلم حسبما سنعرف بعد في موضعه .

وأخيراً نذكر من أبرز أفراد هذا الدور الثالث ، القاضي عيسى بن

---

(١) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ١٣٣ .

(٢) عياض : نفسه ، ص ١٢٠ .

(٣) المالكي : نفسه ، ص ٣٧٦ .

(٤) ذكر أنها بلغت أربعين جزءا ، أنظر عياض : نفسه ، ص ٢٣٤ .

(٥) عياض نفسه ، ص ٢٣٤ .

مسكين بن منصور بن جريح بن محمد الإفريقي (ت٢٩٥هـ) (١) . ويعد أيضاً من كبار طلبة سحنون بن سعيد ، وممَّن مكن للمذهب بلسانه (٢) وقلمه .

ثم جاءت الطبقة الرابعة ، وتمثل الدور الرابع وهي من صغار تلامذة سحنون وهذه الطبقة هي التي شهدت سقوط الدولة الأغلبية وقيام الدولة الفاطمية ، وهي نفسها التي شهدت عنفوان المد الشيعي والمقاومة العنيفه له ممَّا سنعرفه في موضعه .

ولم يستجب أفراد هذه الطبقة لكل وسائل الترغيب والترهيب التي لجأ إليها الفاطميون لإثنائهم عن مذهبهم المالكي ، وقد دفع بعضهم حياته ثمناً لامتناعه عن تبديل مذهبه ، ويأتي على رأس أفراد هذه الطبقة جبلة بن حمود بن عبدالرحمن الصدقي (ت٢٩٩هـ) ، وهو من صغار تلامذة سحنون، وممَّن وقف وقفة شديدة في سبيل نصرة المذهب المالكي والتمكين له ، تجلى ذلك في مواقفه من علماء الأحناف المدعومين من الأمراء الأغالبة

---

(١) ذكر عياض في ترجمته له ، ص ٢٢٨ ، أن وفاته كانت عام (٢٧٥هـ) . غيرأن السيد محمد أبو العزم داود في كتابه السابق قد حقق هذه النقطه ، فاستبعد أن تكون وفاة عيسى بن مسكين عام ٢٧٥هـ ، الذي كان قد طلب اعفاءه من القضاء من الأمير الأغلبي ابراهيم بن أحمد عام (٢٨٩هـ) بعد أن أعلن هذا الأمير توبته ، كما نقل السيد أبو العزم عن ابن عذارى : نفسه ، الجزءالأول ، ص ١٣١ ، كما استبعد رواية أحمد بكير محقق المدارك في شكه في تحديد سنة وفاة عيسى بن مسكين ، والخلاصة أن السيد محمد أبو العزم يذهب إلى أن وفاة عيسى بن مسكين كانت عام ٢٩٥هـ لا ٢٧٥هـ . أنظر السيد محمد أبو العزم داود : الأثر السياسي والحضاري للمالكية في شمال أفريقيا حتى قيام دولة المرابطين ، هامش ص ١٥٣ .

(٢) عياض : نفسه ، ص ٢٢٣ ، ٢٢١ .

في وقتـه (١) ، ثم تجلى بوضوح موقفه من نصرة المذهب وترسيخه في نفوس المغاربة بمقاومته الشديدة للفاطميين (٢) ؛ وهو ماسنعرفه بعد في موضعه ، ومنهم أبو اسحاق ابراهيم بن محمد بن حسين الضبي المعروف بابن البرذون (ت٢٩٩هـ) ، وهو وإن لم يتلق علومه على يد سحنون فقد أخذ عن كبار أصحابه ، وقد دافع عن المذهب في أيام الأغالبة (٣) ثم لما قدم الشيعة إلى إفريقية راودوه في ترك مذهبه ، فأبى ممَّا جعلهم يأمرون بقتله (٤) هو وزميل له حسبما سنعرف بعد ، ومنهم محمد بن محمد خيرون المعافري الأندلسي (ت ٣٠١هـ) وقد دفع حياته ثمناً لنصرة المذهب والتمكين له (٥) . ومنهم أبو عثمان سعيد بن محمد بن الحداد (ت ٣٠٢هـ) وقد كان أشد فقهاء وقته مناصرة للمذهب والعمل على تثبيته ومقارعة خصومه سواء من الأحناف في عهد الأغالبة (٦) ، أو من الشيعة ودعاتهم الذين عقدوا معه سلسلة من المجالس لمناظرته في مذهبه ومحاولة التأثير عليه لترك مذهبه (٧) وهي مناظرات مهمة في توضيح بعض اتجاهات المذهبين المالكي والإسماعيلي في بعض الأمور العقائدية وغيرهما حسبما سنعرف بعد إن شاء الله .

---

(١) عياض : نفسه ، ص ٢٤٧ - ٢٥٢ .

(٢) عياض : نفسه ، ص ٢٤١ - ٢٥٢ .

(٣) الدباغ : نفسه ، ص ٢٦١ - ٢٦٢ .

(٤) الدباغ : نفسه ، ص ٢٦٢- ٢٦٣ .

(٥) الدباغ : نفسه ، ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

(٦) الخشني : المصدر السابق ، ص ٢٥٧ - الدباغ : نفسه ، ص ٢٩٥ .

(٧) الخشني : المصدر السابق ،ص ٢٥٨ ومابعدها - الدباغ : نفسه ، ص ٢٩٦ ومابعدها .

ثم حل الدور الخامس وتمثله كما يتراءئ لنا طبقة خامسة من فقهاء إفريقية عاشت أغلب فترات حياتها في ظل الدولة الفاطمية ولقد إضطلعت هذه الطبقة بالدفاع عن المذهب المالكي والتمكين له ، والعمل على إنتشاره بشتى السبل من مقاومه ، ورفض للمذهب الشيعي إلي غزارة في التأليف الفقهي المالكي وغيره إلى التضحية بالنفس من قبل بعض أفرادها ، ومن أبرز أفراد هذا الدور ، أبو بكر بن محمد بن محمد وشاح اللباد (ت٣٣٣هـ) وكان بالإضافة إلى تأييده ونصرته للمذهب بمولفاته الفقهيه المتنوعه (١) ، ذاباًعن المذهب بمعارضته المستمرة للفاطميين (٢) ، ومنهم أبو الفضل العباس بن عيسى المسمى (ت٣٣٣هـ) وكان (مالكياً محضاً) كما يقول عياض (٣) ، وعلاوة على ذلك فقد كان ورعاً حافظاً للفقه والحجة لمذهب مالك) (٤). كما قاوم ربيع القطان (ت : ٣٣٣هـ) الفاطميين وكان معروفاً وكان معروفاً بالالتزام بمذهب (٥) مالك ومناصرته ولقد آلى على نفسه (أن لايشبع من طعام ولانوم ، حتى يقطع الله دولة بني عبيد) (٦) ؛ وهو كذلك أحد من دفع حياته ثمناً للدفاع عن المذهب كما سنعرف في موضعه

---

(١) عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٣٠٥ – ٣٠٦ محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ٨٤ – الكتاني القيرواني : تكميل الصلحاد والأعيان لمعالم الإيمان في أولياء القيروان ، تعليق رقم ٢٠٥ ، ص ١٤٦ .

(٢) عياض : نفسه ، ص ٣٠٦ ، ٣٠٧ – ٣٠٨ .

(٣) نفسه : ج٢ ، ص٣١٣ .

(٤) نفسه : ج٢ : ، ص ٣١٣ .

(٥) عياض : نفسه ، ص ٣٢٤ .

(٦) عياض : نفسه ، ص ٣٢٤ .

بعد . ومن أفراد هذا الدور أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم بن تمام بن تميم التميمي (ت٣٣٣هـ) وقد سمع من كبار أصحاب سحنون ، وأوقف شطراً من حياته في نصرة مذهبه بتأليفه الغزيرة (١) ، وهو ممّن قتل كذلك دفاعاً عن المذهب والسنة مع زميلية : الممسي ، وربيع القطان في الموقعة التي حدثت بين أهل القيروان بزعامة أبي يزيد مخلد بن كبيداد وبين الشيعة عام ٣٣٣هـ حسبما سنعرف بعد إن شاء الله .

ومنهم أبو الحسن محمد بن حسن الخولاني الكانشي (ت٣٤٧هـ) وهو من عباد إفريقية العلماء ، وكان له مواقف مشهورة في نصرة المذهب . وقد ذكر عياض (٢) أنه كان صارماً في مذهبه مجانباً لأهل الأهواء ، ومن يخالف مذهب أهل المدينة) ؛ وعدد القاضي عياض مواقفه المتشدّدة ضد الشيعة وأعوانهم نصرةً للمذهب المالكي وتمكيناً له (٣) . ومن هذه الطبقة أيضاً أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد السبأى (ت ٣٦٣هـ) ، وهو من العباد العلماء كذلك وممّا ينسب إليه أنه كان (مجافياً لأهل البدع ،

---

(١) يقول عياض : (نفسه ، ص ٣٣٤ - ٣٣٥) إن مؤلفاته بلغت ٣٥٠٠ كتاباً ، والمقصود بالكتاب في عرف المؤرخين وكتاب الطبقات والتراجم القدامى هو الجزء من أبواب الكتاب كالحديث مثلاً في الفقه عن كتاب الصلاة والصوم ، الزكاة الحج .. الخ . ومع ذلك فإننا نعتقد أن في الأمر مبالغة واضحة حتى ولو كان المقصود هو هذه الأجزاء من الكتب . عن هذا المعنى الدقيق للكتاب ، أنظر المالكي : نفسه ، ج ١ ، حاشية رقم (١) ص ٣٤٥. وقد أشار المحقق حسين مؤنس إلى تعريف ابن ناجي مكمل ومعلق معالم الأيمان للكتاب الذي يعنى الجزء لا السفر .. وأنظر كذلك محمد بن سحنون : كتاب آداب المعلمين ، تحقيق حسن حسني عبدالوهاب ، المقدمة ص ٢٥ .

(٢) نفسه ، ج٢ ، ص ٣٦٧ .

(٣) نفسه ، ج٢ ، ص ٣٦٩ ، ٣٧٠ .

شديد الغلظة عليهم قليل المداراة لهم) (١) . وكان شديد البغض للفاطميين لدرجة أنه عقد العزم على الخروج عليهم . (٢) كما يروى عنه - أنه عندما كان يقوم برقى المرضى - وكان مشتغلاً بذلك يدعو الله ويقول في آخر دعائه (ببغض عبيد وذويه) .. أشف كل من رقيته) (٣) وسنتبين لاحقاً الكثير من مواقفه هو طبقته من الشيعة .

ثم حل الدور السادس من أدوار التمكين للمذهب ، وتمثله الطبقة السادسة ، وهي التي شهدت ، رحيل الفاطميين إلى مصر (عام٣٦٢هـ) وانتصاب الزيريين في حكم المغرب الأدنى ، الذين تابعوا وخاصة الامراء ، الأول منهم الدفاع عن المذهب الشيعي ، والواقع أن أبرز أفراد هذه الطبقة- وقد عاش أكثرهم فترة طويلة من حياته بعد رحيل الفاطميين - قد انحصرت جهوده في التمكين للمذهب والنصرة له في ملء البلاد تأليفاً وتصنيفاً مع المحافظة على الدفاع عن المذهب ومناصرته .

ولعل من أبرز أفراد هذه الطبقة أبو محمد عبدالله بن اسحاق المعروف بابن التبان (ت ٣٧٧هـ) وقدبلغ من المكانة العلمية أن (ضربت له أكباد الأبل من الأمصار لعلمه بالذب عن مذهب أهل الحجاز ومصر ومذهب مالك) (٤) ولقد وصفه أحد معاصريه ، وهو أبو الحسن القابسي ، بأنه كان

---

(٤) عياض : المدارك ، ج٢ ، ص ٣٧١ .

(٥) عياض : نفسه ، ص ٣٧٢ .

(٣) عياض : نفسه ، ص ٣٨٢ .

(٤) عياض : نفسه ، الجزء الثاني ، ص ٥١٧ - ابن فرحون : المصدر السابق ، ص ١٣٧ ، وإن كان من غير المفهوم ان يكون ذاباً عن مذهب أهل الحجاز وفي نفس الوقت ذاباً عن مذهب مالك =

يغار على المذهب ويذب عن الشريعة (١) ، ولذلك فليس مستغرباً أن يكون (من أشد الناس عداوة لبني عبيد) (٢) وممّا يؤثر عنه إنه كان قد ناظر بعض علماء الشيعة بعد رحيل الخليفة المعز لدين الله إلى مصر مناظرة أفحمته ، وقد طلب منه مناظره التخلي عن مذهب مالك ، والدخول في مذهبه، فرفض بالطبع (٣) .

ومنهم ، أبو عبدالله محمد بن أبي زيد (عبدالرحمن) النفزي القيرواني (ت٣٨٦هـ) وهو من أبرز وأشهر أفراد هذه الطبقة علماً وفقهاً وتأليفاً . ولقد إتفقت كلمة معاصرية على تفضيله وتقديمه ، ونحن بالطبع لايهمنا إلا التنويه بدوره في نشر المذهب والتمكين له . أشار عياض إلى أن ابن أبي زيد (كان إمام المالكية في عصره ، وقدوتهم ، وجامع مذهب الإمام مالك ، وشارح أقواله) (٤) . وذكر عياض (٥) كذلك في موضع آخر أن ابن أبي زيد ، كان (فصيح القلم ذا بيان ومعرفه بما يقول ، ذاباً عن مذهب مالك ، قائماً بالحجة عليه ، بصيراً بالرد على أهل الأهواء) . وفي موضع آخر أشار عياض إلى أنه (هو الذي لخص المذهب وضم كسره ، وذب عنه

= فمذهب أهل الحجاز بصفة عامة تقريباً هو مذهب مالك . أما أنه كان ذاباً عن مذهب مصر ، فلربما يقصد به المذهب المالكي بمصر . ومع ذلك فالعبارة غير مستقيمة النهج .

(١) عياض : نفسه ، ص ٥١٧ – ٥١٨ ابن فرحون : نفسه ، ص ١٣٧ .

(٢) عياض : نفسه ، ص ٥١٨ .

(٣) عياض : نفسه ، ص ٥٢١ – ٥٢٢ .

(٤) نفسه ، ج٢ ، ص ٤٩٢ – وأنظر كذلك الدباغ : نفسه ، الجزء الثالث ، ص ١٠٩ – ١١٠ .

(٥) نفسه ، ج٢ ، ص ٢٤٩ – الدباغ : نفسه ، ص ١١٠ .

وملأت البلاد تواليفه) . (١)

ونقل عياض عن الشيرازي في كتابه طبقات الفقهاء ، أن ابن أبي زيد كان يعرف بمالك الصغير .

ومن بين كتبه المعروفه التي ألفها والتي سنتطرق إليها في مكانها ، كتاب الذب عن مذهب مالك (٢) ، وكتاب الإقتداء بأهل السنة (٣) ، كما ألف العديد من الكتب للرد على أهل الأهواء والبدع وغيرهم (٤) .

ومن أفراد هذه الطبقة وهذا الدور السادس من أدوار الظهور والتمكين للمذهب المالكي ، أبو الحسن على بن محمد بن خلف المعافري القابسي (ت ٤٠٣هـ) وهو كما يلاحظ من فقهاء المالكية المتأخرين ، وأبو الحسن القابسي هذا له مكانة علمية مرموقة ، فهو محدث وفقيه وأصولي وعالم تربية ، وقد ذكر أنه (ضربت له آباط الإبل من أقصى المغرب) (٥) ، وهو ممّن ناصر المذهب بقلمه ؛ فكثرت تآليفه الفقهيه الحديثيه وغيرها (٦) ، كما أنه ممّن ناصر المذهب بلسانه ومواقفه ضد بعض تصرفات أمراء الدولة

(١) نفسه ، ج٢ ، ص ٤٩٢ - ٤٩٣ - وراجع الدباغ : نفسه ، ص ١١٠ - ١١١

(٢) عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٤٩٢ - ٤٩٣ .

(٣) عياض : نفسه ، ص ٤٩٤ - ابن فرحون : نفسه ، ص١٣٨ الكناني القيرواني : نفسه ، تعليق رقم ٢٩ ، ص ٧١. إلا أنه أي محقق الكتاب محمد العناني : ذكر أن اسم الكتاب عنده هو الإقتداء بمذهب مالك ، وليس الإقتداء بمذهب أهل السنة - كما ورد عند عياض وابن فرحون في المتن .

(٤) عياض : نفسه ، ص ٤٩٤ - ٤٩٥ - ابن فرحون : نفسه ص ١٢٨ .

(٥) عياض : نفسه ، ص ٦١٨ .

(٦) عياض : نفسه ، ٦١- ٦١٩ ، وأنظر بعد ص٣٦٥، ٣٩٠ ومابعدها .

الزيرية المعاصرين له . (١)

وأخيراً جاء الدور السابع وتمثله الطبقة السابعة من علماء المالكية ، وهو الدور الذي شهد النزع الأخير للمذهب الشيعي في المغرب الأدنى ، والذي تم على مراحل في عهد الأمير المعز بن باديس (٤٠٧ -٤٥٣) كما شهد هذا الدور بعض المضايقات التي واجهت علماء المالكية من الأمير المعز ابن باديس هذا ، ولقد استمر هذا الدور حتى كتب للمذهب المالكي التمكين المطلق بعد نبذ الدعوة الشيعية حسبما سنعرف بعد ، وذلك منذ منتصف القرن الخامس الهجري ، وحتى الآن وقد تمثلت نصرة المذهب والتمكين له لدى أفراد هذه الطبقة في مقاومة بعض تصرفات الأمير المعز ضدهم ، وتمثلت كذلك في مواصلة نصرة المذهب بالتأليف والتصنيف . فمن أفراد هذا الدور أبو علي بن خلدون (ت٤٠٧هـ) ، وكان من الفقهاء الذين ذبوا عن المذهب المالكي وناصروه . وروى أنه (كان شديداً على أهل البدع والروافض مغرياً بهم ، يستند منه أهل السنة إلى ملجأ ووزر) . (٢) وعندما بطش أهل السنة بالشيعة عام ٤٠٧هـ ، على أول حكم المعز أفزع هذا المعز (فدبر قتل زعيم السنة وشيخ هذه الدعوة) ، أي الشيخ أبو علي ابن خلدون، وذلك في عام ٤١٧ هـ ، فارتجت البلاد لمقتله (٣) .

ومن أفراد هذا الدور كذلك ، أبو عمران ، موسى بن عيسى بن أبي

---

(١) عياض : نفسه ، ص ٦١٩ - ٦٢٠ .

(٢) عياض : نفسه ، ص ٦٢٤ .

(٣) عياض : نفسه ، ص ٦٢٦ .

حاج الفاسي الأصل ، القيرواني الوفاة (ت ٤٣٠هـ) ، وكان عالماً مشهوراً، ومما يذكر عنه أنه جمع مع حفظ المذهب المالكي (حفظ حديث النبي ﷺ ومعرفه معانيه) (١) . وقال فيه أبو بكر الباقلاني شيخ المالكية في العراق في القرن الخامس الهجري، إن الإمام مالكاً لو رأى أبا عمران الفاسي لسرَّبه (٢)، وهو أحد من تعرض كذلك للمضايقات من قبل المعز بن باديس (٣) .

ومنهم أبو بكر أحمد بن عبدالرحمن بن عبدالله الخولاني (ت٤٣٢هـ) وهو من شيوخ القيروان المعدودين في وقته . وممَّا قيل في مكانته العلمية ، أنه (مازال الذكر ورئاسة الدين له في وقته مع صاحبه أبي عمران الفاسي في المغرب ، حتى لم يكن لأحد معهما اسم يعرف) (٤) . وقد جالد في حياته أعداء المذهب وخصومه ، ووقف في وجه المعز بن باديس هو الآخر كثيرا . (٥) وممَّايدل على مقدار اتباعه لإمام مذهبه مالك بن أنس أنه روى لبعض أصحاب رؤيا رآها في المنام (مفادها كأن أحداً يقول له اكتب أسمك في ذلك اللوح ، الذي فيه أسماء العلماء ، فانظر إلى اسم مالك ، فاكتب اسمك تحته) (٦)

---

(١) عياض : نفسه ، ص ٧٠٣ – ٧٠٤ .

(٢) عياض : المصدر السابق والجزء ،ص ٧٠٤ .

(٣) المالكي : نفسه ، مقدمة المحقق ، ص ٢٤٧ .

(٤) المالكي : نفسه ، المقدمة ، ص ٢٤٨ .

(٥) المالكي : نفسه ، المقدمة ، ص٥٠ . – ٥١ م .

(٦) على مصطفى المصراتي : أعلام من طرابلس – تراجم ودراسات ، ص ٣٣– ٣٩ .

ونذكر أيضاً أبا الحسن علي بن المنمر الطرابلسي (ت٤٣٢هـ) . فإلى جانب أنه من العلماء المشهورين في بلاده آنذاك . كانت له مواقف دافع فيها عن المذهب المالكي ضد خصومه من الشيعة وأعوانهم .

وكذلك أبو القاسم عبدالرحمن بن محمد الحضرمي ، المعروف باللبيدي (ت٤٤٠هـ) وهو من مشاهير علماء وفقهاء إفريقية المتأخرين ، وقد كان لمؤلفاته الفقهيه الغزيرة ذات الأهمية الفائقة في المذهب أثر كبير في تثبيت المذهب المالكي والتمكين له في هذا الوقت المتأخر (١) .

ثانياً : الأسباب :

والآن وبعد أن استعرضنا أدوار انتشار المذهب المالكي في إفريقية منذ دخوله إليها وحتى استقراره النهائي المطلق بها ، فإنه يجدر بنا توضيح أسباب ذلك التمكين المطلق للمذهب هناك . فمن المؤكد أن هذا الظهور ، وذلك التمكين المطلق للمذهب لم يكن وليد جهود ومواقف أولئك العلماء الذين ذكرناهم فحسب - على مافي ذلك من أهمية بالغة - ، بل كانت هناك أسباب أعمق مست كيان كافة طبقات المجتمع ، وجعلته - ترسماً لخطى علمائه - يميل إلى المذهب المالكي ويتمذهب به ولايرتضى عنه بديلا . والواقع أن كثيراً من المؤرخين القدامى والمحدثين تناولوا تلك الأسباب التاريخيه والموضوعيه بالتعليل والتحليل ، فصادف التوفيق بعضاً منهم ،

---

(١) عياض : نفسه ، ص ٧٠٧ - ٧٠٨ - الدباغ : نفسه ، ج٣ ، ص ١٧٦ - محمد - بن محمد بن مخلوف : نفسه ، ص ١٠٩ - (وعنده أن وفاته كانت عام ٤٤٦ هـ على خلاف عياض والدباغ) .

وجانب الصواب البعض الآخر ، وقبل أن نناقش تلك الآراء ونخضعها لسدة البحث ، نود الإشارة إلى أن المذهب المالكي انتشر في الأندلس في وقت متقارب مع انتشاره في المغرب الأدنى - والمغرب عموماً - ولمَّا كان الكثير من ظروف انتشار المذهب المالكي في الأندلس لاتختلف عن مثيلتها في المغرب ، فإن الذي تصدوا لتعليل ظاهرة انتشار المذهب في الأندلس والمغرب ينظرون إلى ذلك من منظور واحدٍ تقريبا. (١)

ومهما يكن من أمر ، فإن تعليلات أولئك المؤرخين القدامى والمحدثين تتلخص في أن هناك أسباباً إقليمية ، وعنصرية ، وسياسية ، ودينيه سياسية ، دينية فحسب كانت هي السبب الرئيسي في إنتشار المذهب المالكي في المغرب والأندلس .

فأما العامل الإقليمي فقد أشار إليه ابن خلدون ، وهو يجمع بين الأندلس والمغرب معاً في حديثة - فهو يقول (وأما مالك رحمه الله تعالى فاختص بمذهبه أهل المغرب والأندلس ، وإن كان يوجد في غيرهم إلاَّ أنهم لم يقلدوا غيره إلاَّ في القليل لما أن رحلتهم كانت غالباً إلى الحجاز ، وهو منتهى سفرهم . والمدينة يومئذ دار العلم ومنها خرج إلى العراق ، ولم يكن العراق في طريقهم فاقتصروا عن الأخذ عن علماء المدينة ، وشيخهم يومئذ وإمامهم مالك وشيوخه من قبله وتلميذه من بعده . فرجع إليه أهل المغرب

---

(١) أنظر أحمد تيمور : نفسه ، ص ٣٥ -٣٦ - عمر فروخ : تاريخ الفكر العربي إلى أيام ابن خلدون ص٥٨٦ - انخل جنثالث بالنثيا : تاريخ الفكر الأندلسي ، نقله إلى العربية حسين مؤنس ، ص ٤١٥ -٤١٩ .

والأندلس وقلدوه دون غيره ممَّن لم تصل إليهم طريقته) (١) .

وليس ثمة شك في أن لهذا الرأي الكثير من الوجاهة والصواب ، فالرحلات العلمية إلى المشرق وخاصة الحجاز وبصفة أخص المدينة ، كانت عاملاً رئيسياً في ازدهار الحياة العلمية وخاصة الشرعية منها كما ذكرنا سابقاً . أما عن أثر تلك الرحلات الرئيسي في دخول المذهب المالكي إلى المغرب والأندلس ، فهو مالايتطرق الشك إليه مطلقاً حسبما رأينا عند حيثنا عن دخول المذهب إلى المغرب . ونخلص من هذا إلى أننا نتفق مع ماذهب إليه ابن خلدون من تأثير رحلات المغاربة والأندلسيين في موضوع ادخال المذهب المالكي إلى القطرين من الحجاز .

ولاتستقيم الإشارة إلى رأي ابن خلدون دون ذكر الشق الثاني من تعليله لأسباب انتشار المذهب المالكي في بلاد المغرب والأندلس . فهو يقول : (وأيضاً فالبداوة كانت غالبة على أهل المغرب والأندلس ولم يكونوا يعانون الحضارة التي لأهل العراق فكانوا إلى أهل الحجاز أميل لمناسبة البداوة ، ولهذا لم يزل المذهب المالكي غضاً عندهم ، ولم يأخذه تنقيح الحضارة وتهذيبها كما وقع في غيره من المذاهب) (٢) .

وفي الحق فإن ابن خلدون جانبه الصواب في هذا الشق الثاني من رأيه ، فلقد رمى الأقطار الثلاثة الحجاز والأندلس والمغرب بالبداوة . وهو اتهام لايستند إلى وقائع ثابتة ، فالحجاز لم يكن آنذاك بالصورة التي

---

(١) المقدمة ، الجزء الأول ، ص ٥٦٨ .

(٢) المقدمة ، الجزء الأول ، ص ٥٦٨ .

وصفها ابن خلدون من غلبة البداوة ، بل كان على النقيض يتمتع بتمدن ورقى في كافة ضروب الحياة العلمية والإجتماعية (١) .. الخ . ولئن كانت العراق قد فاقت الحجاز في العلوم العقلية للظروف التي هيأت لها ذلك كما ذكرنا من قبل ، وكما هو مبسوط في كتب التاريخ والأدب ، فإن الحجاز كانت لها الصدارة في العلوم النقلية ، على إسهامات العراق المذكوره فيها .

وثمة تفسير إقليمي أوبيئي آخر آشار إليه أحد الباحثين وهو على حسن عبدالقادر في مقدمته لكتاب أحمد تيمور : نظرة تاريخيه في حدوث المذاهب الأربعة (٢) ، الذي مربنا ذكره . فهو يرى أن للأقاليم التي ظهرت ، أووفدت إليها المذاهب الفقهية تأثيراً على المذاهب (من ناحية المسائل المتجدده ، أو التفريعات أو الترجيح ، أو التعقيد) . وبمعنى آخر ، فهو يعتقد أن مناهج المذاهب الفقهيه قد تأثرت بالطابع المحلي للأقاليم التي انتشرت واستقرت بها فالمذهب المالكي مثلاً أصبحت له طرائق قددا، تختلف باختلاف الأقاليم : (فهناك طريقة للعراقيين ، وطريقة للمغاربة ، وأخرى للقرطبيين بالأندلس ، وطيقة رابعة لإقليم مصر ، ممزوجه من الأقاليم الأخرى ، ولكل طريقة منها مصنفات في المذهب ، وكل ذلك مختلف ، فطريقة أهل العراق من المالكية أشبه بالحنفية من ناحية مايغلب عليها من اجماع الرأي واثبات الاستدلال ، وطريقة أهل المغرب يغلب عليها مراعاة

---

(١) عن مظاهر الحضارة الحجازية بكافة أوجهها أنظر مثلا أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ١٧٠ – ١٧٩ – ضحى الإسلام ، ج٢ ، ص ٧٣ – ٧٤ .

(٢) ص ٢– ٥ وأنظر كذلك ص ١٠ ، حيث أثنى عبدالسلام شهاب باسم لجنة نشر المؤلفات التيمورية في استهلال الكتاب على رأي على حسن عبدالقادر وأمتدحه .

العمليات وتكيف الأحوال في النوازل) (١)

والواقع أنه إذا لم يكن في مقدورنا منافشته من الوجهة الفقهية لعدم التخصص بداهة ، فإن مانوافق على حسن عبدالقادر عليه ، من خلال استقرائنا لانتشار المذهب المالكي في إفريقية هو أن للمحلية المغربية دور في تثبيت المذهب المالكي في المغرب الأدنى والمغرب عموماً ، بمعنى أن المذهب المالكي قد استطاع فعلاً من خلال تتبع حركته أن يوائم العادات والملابسات النفسية والإجتماعية والسياسية المغربية .

وإضافة إلى العامل الإقليمي ، فإن هناك من الباحثين المحدثين من يرى أن انتشار المذهب المالكي في المغرب كان نتيجه لرد فعل دينى ذي صبغة سياسية . (٢) فالأحداث التي شهدتها بلاد المغرب من انتفاض البربر على الولاة العرب وتمذهبهم بالمذهب الخارجي رداً على سياسة بعض أولئك الولاة الخاطئة كما مربنا ثم معارضة البربر لبعض الأسر العربية ، التي عاشت في المغرب وطمحت في تأسيس كيان خاص بها ، مثل الأسرة الفهرية ، وما تبع من تطلع الأسرة المهلبية إلى نفس الأمل ، ثم جهود خصوم البيت الأموى ، الذي أضطروا إلى الفرار إلى الأماكن النائية ضد الدولة ثم ماتلى من فرار العلويين إلى المغرب هرباً من بطش أبناء عمومتهم العباسيين . (٣) كل هذه الأحداث خلقت بلبلة وفوضى سياسية أثرت علي

(١) علي حسن عبدالقادر : مقدمة كتاب نظرة تاريخيه في حدوث الذاهب الأربعة ، ص ٣ -٤ .

(٢) أنظر حسين مؤنس : مقدمة الجزء الأول من رياض النفوس ص ٧-٩ .

(٣) حسين مؤنس : مقدمة الجزء الأول من الرياض ص ٩ .

الواقع الديني . وقد دفع هذا كله الجمهرة الكبرى من أبناء المغرب إلى التطلع نحو الإسلام النقي الصافي الذي يعتمد الكتاب الكريم وصادق الحديث – وهو التيار الذي تمثله مدرسة المدينة الفقهية كما رأينا من قبل .

لذا فقد ارتحلوا في سبيل ذلك إلى المدينة حيث الإمام مالك بن أنس الذي توج تلك المدرسة . وكان مذهبه ترجمة صادقة لمبادئ هذه المدرسة الفقهية السنية الأصولية .

والواقع أنه ليس مايمنعنا من موافقة حسين مؤنس فيما قاله . فواقع الأوضاع منذ العقد الثاني من القرن الثاني الهجري وحتى قيام الدولة الأغلبية عام ١٨٤ هـ كان ينبيء بذلك ، ولم يكن أمام المغاربة إلاَّ الرد على تلك الأوضاع بالتمذهب بالمذهب الذي اختارته مدينة الرسول الأكرم ﷺ ، وهم عندما يتمذهبون بمذهب المدينه ، فلأنهم يعرفون أنه سياج أمن لهم يبعدهم من غلواء الرأي والعقل وثورتهما التي هبت رياحها آنذاك .

ومامن ريب في أن التفسير الديني أو التفسير الديني ذا الصبغة السياسية لانتشار المذهب المالكي هو كما يترائ لي عصب الموضوع الأساسي ولبه ، فلقد رأينا مقدار تعلق المغاربة بالحجاز موئل العلم النقلي كما تركه الرسول وصحابته ، ثم رأينا ماعاناه المغاربة من انتشار المذاهب السياسية والدينية في أرضهم فقادهم ذلك أي قاد الفئة التي لم تتلبس بالدعوة الخارجية – ، إلى نبذ تلك المذاهب السياسية الدينيه سواء كانت متطرفة أومعتدلة ، والتمسك بالمذهب المالكي والعض عليه بالنواجذ .

وكان يغذى هذا الشعور بجانب ماذكر تلك المجهودات الحثيثة التي

كانت جموع التابعين في إفريقية والذين وفدوا عليها تعمل على بثها بين أهل المغرب ، وكانت تحرص على أن تهيأ أجيالاً من الطلبة المغاربة (توقظ في قلوبهم الميل إلى الفقه والرغبة في الدراسة والتوسع ، ونشأت حول كل تابع من التابعين من هؤلاء جماعة متفتحه القلب والذهن تمشى في طريقة وتحاول إذا استطاعت أن تستزيد من العلم من المشرق ، وائتلفت جهود هؤلاء جميعا في اتجاه واحد . ينحو نحو الاستمساك بالعقيدة البسيطة والاستناد في كل رأي إلى آية قرآنية أو حديث نبوي مسند ، أو تفسير أو تخريج مأثور عن واحد من التابعين وتلاميذهم الموثوق فيهم) (١) .

ويرى حسين مؤنس – ولعلنا لانخالفه – أن هذا الأمر – أي ماكان من تردي الأوضاع السياسية في إفريقية ، ثم ماطبع به الرعيل الأول من الذين أدخلوا المذهب من نشأة أصولية سنية خالصة – قد خلق حالة نفسية (٢) لدى الكثير منهم ومن الذين اتبعوهم بإحسان ، مالت بهم إلى الإنزواء والبعد عن أي محاولات اجتهادية في التشريع وغيره . ويصف حسين مؤنس (٣) تلك الحالة النفسية بتحليل تاريخي عميق قائلاً (فتربى في نفوسهم – أي الفقهاء المغاربة المبكرين – نفور من كل تخريج أو تأويل ولو كان معقولا ، وأصبح جهد الواحد منهم قاصراً على مجرد السير على النهج الصحيح الظاهر الصحة ، وأصبحوا ينظرون إلى كل انحراف نحو التأويل والتخريج والتفسير كأنه خروج على الإسلام ، وبلغ من تشددهم في التزام

(١) حسين مؤنس ، مقدمة الرياض ، ص ١٠ م .

(٢) أنظر مقدمة الرياض ،ص ١٠ م .

(٣) مقدمة الرياض ، ١٠ – ١١ م .

هذا الصراط الدقيق أن ابتعدوا عمَّن اشتهر بالتخريج والاحتكام إلى العقل من المشارقة نفوراً من أصحاب الرأي في العراق ، ولم يقبلوا على أبي حنيفة وفقهه ، لأن نفوسهم تربى فيها خوف من الرأي ، والابتداع والابتكار، نتيجة لما تعرضت له بلادهم من المتاعب بسبب أصحاب الآراء والتأويلات من دعاة الآراء المتطرفه التي أشرنا إليها ، ونفرت نفوسهم نفوراً شديداً ممَّا لقيهم في طريقهم من آراء الاعتزال والتخريج والتأويل و « الكلام » في الدين ومسائلة . وكان هذا النفور » حالة نفسية » اختص بها أهل المغرب بسبب فتن الخوارج التي أشرنا إليها وما أصاب المغرب من الويلات بسببها واستقر في نفوسهم أن الدين ، إنما هو القرآن والسنة ولاشيء بعد ذلك ، حتى القياس البسيط أنصرفوا عنه وترددوا في قبول الكثير من الأحكام التي صدرت عن (الاجماع) زيادة منهم في الحرص على دينهم والتمسك بأصوله ، وخوفاً من الانزلاق في مهاوى الضلالات) .

ويضيف حسين مؤنس (١) بعداً دينياً آخر له مظهر سياسي ، وهو أن المغاربة قد أعجبتهم سيرة الإمام مالك بن أنس وتلاميذه في الابتعاد عن ذوي السلطان والمناصب ، بل وأدهشهم موقفه من تولى القضاء ، وراعهم في الوقت نفسه ألا يكون كثير من أتباع مذهب الإمام أبي حنيفة النعمان كذلك في إفريقية ، فهم لايرون حرجاً في غشيان ذوي السلطان (٢) ،

---

(١) مقدمة ، الجزء الأول من الرياض ، ص ٢١٣ .

(٢) إذا جازلنا هنا من تعليق ، فهو ذكر مقارنة بين تصرف بعض علماء الأحناف في إفريقية وبين موقف علماد المالكية فهذا المالكي ك نفسه ، ص ٢٥٧ - ٢٥٨ ، يروى عن محمد بن سحنون أنه قال لأبيه مرة : (إن فلاناً لايأتي الوالي ولا القاضي إلاّ بالليل ، فكتب اليه بعض أخوانه إن =

بل كانـو يفتشـون لهـم عن الرخـص والتـأويلات المبنيـة على القياس البعيد (١) ولذلك فقد جذبتهم هذه الأفعال إلى مذهب مالك جذباً شديداً ، وكأنما كان لسان حالهم لايرى كما يذكر حسين مؤنس (٢) : الإسلام إلاّ اسلام مالك وحده ، فهو النموذج وهو القدوة .

ويعتقد ابراهيم العدوي (٣) – فيما يمكن عده سبباً سياسياً خفياً –

= الذي يراك بالنهار هو يراك في الليل والسلام فأعجب سحنون بما كتب إليه ، وقال على أثر هذا ما أقبح بالعالم أن يؤتى إلى مجلسة فلا يوجد فيه ، فيسأل عنه ، فيقال هو عند الأمير ، هو عند الوزير ، هو عند القاضي لأنه بلغني أنهم كانو يلقونهم من الرخص بما يحبون مّاليس عليه العمل ويتركون أن يلقوهم بما عليه العمل وفيه النجاة لهم ، كراهة أن يستثقلوهم . ولعمري لوفعلوا ذلك لربحوا ولوجب أجرهم على الله عز وجل فوالله لقد أبتلت بهذا القضاء وبهم (يقصد تولية القضاء للأغالبة) ، فوالله ما أكلت لقمة ، ولاشربت لهم جرعة ، ولا لبست لهم ثوباً ، ولا ركبت لهم دابةً ، ولا أخذت لهم صلة ، ولإني لأدخل عليهم فأكلمهم بالتشديد ، وبما عليه العمل وفيه النجاة ، ثم أخرج من عندهم فأنظر في أمري فأجد عليَّ الدرك ، مع ما ألقاهم به من الشدة والغلظة ، وكثرة مخالفتي لهم ووعظي لهم ، فوددت أني أنجو مما دخلت فيه كفافاً لا على ولا لي). والأمثلة التي توضح ممانعة علماء المالكية الشديدة في تولى القضاء متناثرة في الواقع في كل المصادر والمراجع التي تؤرخ للداسات الشرعية والأمثلة التي تعطى الدليل على شدة مقاومة القضاة الذين قبلوا بإلحاح تولى القضاء في تطبيق حدود الله كثيرة ومتناثرة كذلك في تلك المصادر والمراجع .

(١) نجيز لأنفسنا هنا التعليق كذلك ، فهذا المالكي يروى أيضاً أن أحد أمراء الأغالبة المعاصرين لسحنون أرسل يسأله في مسألة ، فلم يجبه بشئ ، ولما عوتب من تلامذته في ذلك ، قال له سحنون (أفتجيب إنساناً إنما يريد أن يتفكه يريد أن يأخذ قولي وقول غيري ولو كان شيئاً يقصد به الدين لأجبته) أنظر المالكي : نفسه ، ص ٢٥٦ .

(٢) مقدمة الرياض ، ص ٢١٣ .

(٣) المجتمع المغربي ، مقوماته الإسلامية والعربية مع مدخل عن بلاد الجزائر ، ص ٢٣٦ .

أن انتشار المذهب المالكي في بلاد المغرب الأدنى . قد ساعد في التمكين له، عدم اصطدام الإباضية في المغرب الأوسط به ، نظراً لسياسة التعايش السلمي التي انتهجتها الدولة الرستمية . وهذا الإعتقاد كما يتراءى لنا لايمكن تغافله ، فالرستميون ربما لم يصطدموا بالمذهب المالكي تنفيذاً لسياستهم السلمية كما ذكر العدوي ، وربما نكاية في الأغالبة الذين كانوا حنفي المذهب ، وبالإضافة إلى ذلك فقد نظر الأدارسه في المغرب الأقصى إلى المذهب المالكي على أنه مذهبهم هم كذلك (١) . وهذا الرأي في تصورنا لايمكن الدفع ببطلانه كذلك ، فالصلة بين الإمام مالك بن أنس والبيت العلوي صلة قوية . ولقد تلقى مالك جزءاً من علومه على يد عُبدالله الكامل بن الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب والد أدريس مؤسس الدولة الإدريسيه . (٢) ثم أن مالكاً كان يناصر محمداً النفس الزكية شقيق إدريس (٣) ، ولذلك فلم يعارض الأدارسة وجود المذهب المالكي في المغرب الأقصى ، بل أقروه هناك ، لاسيما وأن ادريس بن عبدالله نفسه كان يصرح بأنه أولي بالمذهب المالكي في المغرب دون غيره . (٤) .

ولعلنا بعد ذلك لانغفل أن ثمة أسباباً أخري أدت إلى إنتشار المذهب

---

(١) ابراهيم العدوي : المرجع السابق ، ص ٢٣٧ .

(٢) السيد محمد أبو العزم داود : المرجع السابق ،ص ١٦٦ ، مع الحاشية رقم (١) من نفس الصفحة

(٣) السيد محمد أبو العزم داود : نفسه ، ص ١١٦ .

(٤) أنظر عبدالهادي التازي : جامع القرويين ، ج١ ، ص ١١٨ – السيد محمد أبو العزم داود – نفسه ، ص ١١٦ .

في المغرب الأدنى – وهو مجال بحثنا – والمغرب كله . فغير خافٍ أن المذهب المالكي قد اتصف بالتلقائية من نحو والتشدد في أحكامه وقضاياه من نحو آخر كما هو معروف في كتب الفقه المالكية العديدة – وهذا تطابق مع خصائص الشعب المغربي الذي يتميز بالتلقائية وعاطفة التصلب للدين (١).

ومن الأسباب القوية المباشرة في التمكين للمذهب كذلك ما قيض الله للمغرب الأدنى من وجود الإمام سحنون بن سعيد ، وفي الواقع فإن مسيرة إفريقية المذهبية والفقهية ربما لم تكن كماأصبحت عليه لولم يقيض الله بظهور سحنون بن سعيد على أرض المغرب الأدنى ونحن نقول هذا نظراً للأثر الكبير الذي أحدثه ظهور سحنون في ترسيخ المذهب المالكي من جهة ، وفي تطور الدراسات الفقهية من جهة أخري . وقد مربنا إشارة معاصرية ومن جاء بعدهم به وبدوره في نشر المذهب ، ممّالا حاجة إلى إعادته هنا .

وقبل أن نترك الحديث عن هذه النقطة لايفوتنا أن نذكر بأن هناك سبباً آخر له مظهر عصبي (عنصري) وهو الذي أشار إليه أحد الباحثين المغاربة وهو أحمد محمود بكير محقق كتاب ترتيب المدارك للقاضي عياض ، وذلك في سياق تعليله لأسباب انتشار المذهب المالكي في المغرب ، هذا التعليل يقول بأن هناك ميلاً عصبياً من العرب اليمنية المقيمين بالمغرب للإمام مالك بن أنس ، بوصفه يمينياً مثلهم ، ومن هنا فقد مالوا إلي مذهبه . (٢)

---

(١) أنظر مثلا عباس الجراري : وحدة المغرب المذهبية خلال التاريخ ، ص ٣٧ ، أبو القاسم كرو وعبدالله شريط : شخصيات أدبيه من المشرق والمغرب ص ١١٩ – سعدي أبو حبيب : سحنون مشكاة نور وعلم وحق ، ط١ ، ص٨١ – ٨٢ .

(٢) أنظر مقدمة كتاب المدارك ، الجزءالأول ، ص ٨–٩ .

وفي الحق فإن هذا الرأي لايمكن رفضه كليه . فمع أن العصبية القبلية العربية والبربرية ، قد أدت فعلا إلى التفرقة السياسية والإجتماعية والعسكرية ، كما أشار محي الدين عزوز (١) في رده على أحمد بكير ، إلاّ أن هذا لايمنع تعلق أغلبية عرب المغرب – وهم من اليمنية – ، بعرب الحجاز، وهم يمنيه أيضاً . غير أن مالانوافق عليه أحمد بكير هو تعميمه فحسب ، وإلاّ فإنه بلاشك لايمكن أن ينسى أن جموع الكثرة الساحقة من السكان في المغربآنذلك ، وهم البربر قد تمذهبوا بالمذهب المالكي أيضاً انطلاقاً من قناعات دينيه في المقام الأول (٢) .

هذا شيء والشيئ الآخر أن القبائل اليمنية قد تناثرت مساكنها في معظم الأقطار الإسلامية والآخرى كالشام والعراق ومصر ، ومع ذلك لم يتمذهبوا بالمذهب المالكي – لأن مالكاً يمني – ولكنهم تمذهبوا أيضاً بالمذاهب السنية الأخرى ، ومن هنا وجب التخفظ في قبول كلام أحمد بكير وتفسيره .

(١) التطور المذهبي بالمغرب ، دراسة قصة حي بن يقظان ، ص ٢٣ .

(٢) أنظر في هذا الصدد أيضاً محي الدين عزوز : نفس المرجع أعلاه ، ص ٢٣ ومابعدها .

مكانة المذهب المالكي في بلاد المغرب الأدنى :-

مذ دخل المذهب المالكي وانتشر في المغرب الأدنى بفضل جهود أولئك العلماء الذين أشرنا إلى أدوارهم في نشر وتثبيت المذهب من جهة ، وبفضل الأسباب التي أدت إلى نشره بين المغاربة والتي مكنت له البقاء هناك من جهة أخرى ، مذ وقع ذلك ، وكأنما المذهب المالكي قد دخل المغرب ليبقى - على ما واجهه - من صعاب - وكانت النتيجة أن تعلقت به نفوس المغاربة جيلاً أثر جيل ، وأفتتنوا به وبأعلامه بدءً بصاحب المذهب نفسه ، ومروراً بتلامذته الكثيرين في المشرق والمغرب ، وانتهاءً بعلماء عصرهم ، ومن هنا ، فإن ماقاله المقدسي من أن أهل الأندلس - وأهل المغرب الأدنى بالأولى - لا يعرفون إلاّ كتاب الله وموطأ مالك (١) ،لم يتعد الحقيقة . ولئن قلنا إن المذهب المالكي قد مس كيان المجتمع المغربي بطوائفه المختلفة فإننا بذلك لا نتجنى على الصواب .

وفي تتبعنا لمكانة المذهب المالكي في المجتمع المغربي لابد أن نلحظ في البدء أن المغاربة أعجبهم سلوك الإمام مالك نفسه المثالي (فأفتتنوا به ، وأتخذوا منه قدوة لهم في كل شيء : حتى أحواله في معاشه من لباسه وطعامه ، وكيفية جلوسه للسماع وطريقته في الحديث ، كل ذلك أصبح عند الأفارقة المثل الأعلى الذي ينبغي أن يحتذيه المسلم الصحيح) (٢)

---

(١) أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم . ص ٢٣٦ .

(٢) حسين مؤنس ، مقدمة الجزء الأول من الرياض ، ص ٢١١ .

ويدعم سعدى أبو حبيب (١) أحد الباحثين هذا الرأي بقوله (إن شخصية مالك الفذة بكل جوانبها تركت أثراً في المغرب العربي مانزال نرى أخاد يده بارزه في نفسية أهلنا هناك لم يبلها كر السنين) ، ويضيف إلى ذلك قائلاً (والذي نجده لمالك في المغرب هو نسيج وحده . فما أعرف صحابياً ، أو إماماً ، أوعالماً من علماء المسلمين ترك في سلوك اتباعه أثراً خالداً ماتركه مالك في نفوس أهل المغرب) (٢) . وينقل في هذا الصدد عن أحد كبار علماء المغاربة المحدثين وهو محمد المنتصر الكناني إشارته إلى أن سيرة الإمام مالك بن أنس قد استهوت قلوب المغاربة في الماضي والحاضر، وكانت لهم القدوة والأسوة على مر القرون وتتابع الأجيال من صلابة في الحق واعتزاز باللغة والتصلب في التمسك بنصوص القرآن والسنة ومن صرامة في الحكم والفتوى ، وزهد في المناصب وذوى السلطان .. الخ مافي شخصية مالك من مثل) ، (٣) كما ينقل عنه أيضاً قولة إن (ما اشتهرت به الشخصية المغربية في ماضيها وحاضرها من عنف وحده في نفسها ، وصلابة في تمسكها بالإسلام دولة وديناً ، وبالعروبة لغة ونسباً إن هو إلاّ أثر لمذهب مالك الذي عايش الحياة المغربية : أسرة ومجتمعاً ، شعوباً وحكومات، وتغلغل فيها حتى الأعماق) (٤) .

(١) سحنون مشكاة نور وعلم وحق ، ص ٨١ .

(٢) نفس المرجع أعلاه والصفحة .

(٣) سعدى أبو حبيب : نفس المرجع أعلاه ، ص ٨١ – ٨٢ .

(٤) نفس المرجع أعلاه ، ص٨١ .

ولقد انتقل إعجاب المغاربة بمالك إلى تلامذته من المشارقة والمغاربة كذلك ، فأما المشارقة فلقد أصبح للرعيل الأول من طلبة مالك احترام وتقدير عميقين في نفوس المغاربة ، سواء كانوا من المصريين أو المكيين (١) . وأما تلامذته من المغاربة ، فلا يكاد عائدهم يعود من المشرق سواء ممّن تتلمذ عليه مباشرة أو تتلمذ على أصحابه ، إلاّ وكان ينظر إليه على أنه قد تشرب المذهب وقواعده وأصوله ، وأضحى ينظر إلى العائد منهم من المشرق على أنهم (فقهاء مالكيين كوامل يؤلفون للناس كتباً في الفقه ويفتون الناس في مسائلهم متبعين قياس مالك ، ومتأسين فيجميع أمورهم ظاهرها ، وباطنها بما كان عليه إمام دار الهجرة (٢) ولذلك كان من الطبيعي كما يرى حسين مؤنس (٣) – وهو على حق – أن يقبل أهل المغرب على أولئك العائدين إقبالهم على رسل العقيدة الصحيحة والسائرين على منهاجها) ، ومن الطبيعي كذلك أن تصبح (كتب مالك وتلاميذه ، وكتب أتباعه وأتباع أتباعه من أهل المغرب هي الإسلام ولا إسلام غيرها) (٤)

والمتتبِّع لكتب التراجم والطبقات المالكية المغربية سيكتشف صدق هذا التحليل الدقيق الذي فاه به حسين مؤنس على أنه ليس العلماء والفقهاء المغاربة وحدهم هم الذين كانوا يحظون بذلك الإعجاب الكبير والتقدير العميق من طبقات المجتمع ، فقد كان إلى جانب هؤلاء العباد الزهاد العلماء

---

(١) حسين مؤنس ، مقدمة الجزء الأول من الرياض ، ص ٢١٢ .

(٢) نفسه ، ص ١٢م – ١٣م .

(٣) مقدمة الرياض ، ص ١٣ م .

(٤) مقدمة الرياض ، ص ٣م .

الذين ضربوا أروع الأمثلة بزهدهم وعبادتهم . هؤلاء حظوا كذلك بذات نظرة الإعجاب والتقدير العميقة ، ولم يكن هؤلاء إلا مالكيين مغرقين في مالكيتهم ، وبنظرة فاحصة على سيرهم وتراجمهم في كتاب رياض النفوس مثلا نجد الأمثلة والشواهد على صدق ماتذهب ، إليه لايكاد يحصيها عدد ، فالأمثلة الحية التي تعكس إعجاب أولئك بمالك ومذهبه ما تنفك تترى سلوكاً وحياة وعبادةً وعقيدةً ، والملفت للنظر حقا ، ألاَّ نجد من كل أولئك العباد والزهاد من كان يتمذهب بغير المذهب المالكي .

ومهما يكن من أمر فإن تأثير المذهب المالكي في التاريخ الإجتماعي لإفريقية لايمكن فهم أبعاده بجانب ماذكرنا إلاَّ إذا عرفنا أن الشخصية المغربية السمتقلة قد ظهرت عبر المذهب المالكي (١) . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى إلاَّ إذا عرفنا أن المذهب المالكي ، هو الذي وحد المجتمع المغربي ،وحده معنوية وعرقية (٢) – إلى جانب الوحدة المذهبية – ، وهذا الأمر في الحقيقة بالغ الدلالة فمع دخول المذهب المالكي لم نعد نلحظ أي إنقسامات عنصرية بين فئات المجتمع المغربي ، وحتى تأييد بربر كتامة للشيعة وتمذهبهم بمذهبهم لايدل على أنقسام في عناصر المجتمع بقدر مايدل على حقيقة مهمة ، وهي أن بربر كتامة كانوا يطمعون من خلال تمذهبهم وتأييدهم للشيعة الفاطميين إلى أن تكون لهم اليد الطولى في الدولة الفاطمية قبل أي قبيلة أخرى التي يرون أنه يجب أن تكون بربرية

---

(١) عبدالله العروي : تاريخ المغرب ، محاولة في التركيب ، ترجمة ذوقان قرقوط ، س١ ، ص ١٠٥ .

(٢) نفسه ، ص ١٢٨ .

المنزع والمظهر (١)

وإلى جانب تأثير المذهب المالكي في التاريخ الإجتماعي للمغاربة ، فإن تأثيرة في التاريخ السياسي للبلاد خلال الفترة موضوع البحث أشد وأعمق. فالمذهب المالكي في الواقع كما يتراءى لنا هو الذي كان يوجه التاريخ الإفريقي ، وهو الذي كان يحركه وقتذاك ، ويمكن للباحث المحقّق أن يلحظ الكثير من الإشارات التي تدلل على صدق ماذهب إليه. ففي البداية نستطيع القول : إن تأثير المذهب المالكي في الحياة السياسية الإفريقية خلال عصري الولاة ، والأغالبة عن طريق مشاركتهم في تولى مناصب القضاء وتصديهم للفتيا على قلة عددهم (٢) ، كان مؤثراً إلى الدرجة التي يصح معها القول بأن (مالكاً كان يحكم إفريقية في هذه الفترة عن طريق « موطئه » وتلاميذه)(٣) ولعل مثلا واحداً نسوقه هنا يدل على ذلك ، فعندما توفى الفقيه عبدالله بن غانم عام ١٩٠هـ أى في أثناء حكم الأمير ابراهيم بن الأغلب ١٨٤ - ١٩٦هـ) . قام خال الأمير إبراهيم يرثى القاضي ويبكيه فأنتهره الأمير قائلاً (والله ماولينا إفريقية ، ولا أمنا حتى مات) (٤) ولنا أن نقدر مقدار تأثيرهم في مجريات الأحداث السياسية بعد ذلك ، سواءً في عهد الأغالبة أو الفاطميين أو الزيريين ولاسيما إذا عرفنا أن المذهب المالكي في أيام ابن غانم لمّا تستقر أقدامه بعد ، ولم يظهر أثر سحنون وغيره

---

(١) أنظر حسن مؤنس ، مقدمة الرياض ، ص ١٥م .

(٢) أنظر السيد محمد أبو العزم ، نفسه ، ٥٨١ - ٦٠ .

(٣) حسين مؤنس : مقدمة الرياض ، ص ١٢م .

(٤) عياض : نفسه ، الجزء الأول ، ص ٣٢٥ .

آنذاك. ومن هنا جاز أن نوافق عبدالله العروي فيما ذهب إليه من رأي وهو أن كل فعل سياسي في المغرب ، إنما هو من جوهر ديني (١) ولمَّا كان المذهب المالكي في اعتقادنا هو واجهة الجوهر الديني في إفريقية آنذاك ، فإنه يمكننا القول بأن كل فعل سياسي في المغرب الأدنى هو من جوهر مالكي وبناءً على هذا ، فإن المالكية أصبحت كما يقول حسين مؤنس (٢) : قومية مغربية في نظر المغاربة ، وتعتبر عنصراً من عناصر الكيان الشخصي لكل منهم . ومن هنا كان المذهب المالكي هو العصب الأول من أعصاب التاريخ المغربي الإسلامي (٣) ، كما يلاحظ حسين مؤنس (٤) - وليس ثمة ما يمنع من موافقته - أنه كان للمالكية دولة في إفريقية يصح أن تكون الحقيقة والجديرة بالتاريخ ، لأنها هي التي وضعت أسس القومية المغربية أو الإفريقية وتاريخها هو التاريخ الحقيقي لإفريقية .

---

(١) تاريخ المغرب ، محاولة في التركيب ،ص ١٠٦ .

(٢) مقدمة الرياض ، ص ١٣م - ٢٣ .

(٣) حسين مؤنس : نفس المقدمة ، ص ٢٦م .

(٤) نفس المقدمة : ص ٣٤ م .

انتشار المذهب الحنفي وغيره من المذاهب السنية في المغرب الأدنى :

يكاد يكون محل اتفاق بين معظم المؤرخين القدامى ومن جاراهم من الباحثين المحدثين ، ممَّن تناول انتشار المذاهب الفقهية في إفريقية والمغرب عموماً ، على أن المذهب الحنفي كان أسبق في الظهور هناك من المذهب المالكي (١) . وكما أجمع أولئك المؤرخون القدامى والمحدثون على أسبقية المذهب الحنفي في إفريقية ، أجمعوا على أن السبب في ذلك هو أنه أصبح مذهب الدولة العباسية التي تمذهبت به والتي كانت إفريقية ولاية من ولاياتها المتعددة ، ثم قيام الدولة الأغلبية في إفريقية ولاية من ولاياتها المتعددة ، ثم قيام الدولة الأغلبية في إفريقية التي تمذهبت بالمذهب الحنفي من جهة أخرى (٢) .

وكيفما كان الأمر ، فإن الشئ الجلي ، هو أن المذهب الحنفي كان معروفاً بإفريقية منذ العقد السابع من القرن الثاني الهجري ، عندما عاد عبدالله بن فروخ من العراق بعد مقابلته للإمام أبي حنيفة النعمان وتلامذته ، ثم قدم بحمل كثيراً من المسائل الفقهية الحنفية (٣). ولم يكن عبدالله بن

---

(١) أنظر مثلا المقدسي : المصدر السابق ، ص ٢٣٧ - المالكي نفسه ، ج١ ، ص ١٨١ - أحمد تيمور: المرجع السابق ، ص ١٩ - محمد أبو زهره : المرجع السابق ، ص ٧٣ - السيد محمد أبو العزم داود : نفسه ، ص ٥٧ - عبدالعزيز المجذوب : الصراع المذهبي بإفريقية ص ٥٦ ، ٦٢ (نقلا عن مخطوط المدارك رقم ٣) .

(٢) أنظر السيد محمد أبو العزم داود : نفسه ، ص ٥٧ وص ٥٨ - ٥٩ ، ٦١ عبدالعزيز المجذوب : نفس المرجع أعلاه ، ص ٦٣- سعدى أبو حبيب : المرجع السابق ، ص ٣٠ .

(٣) أنظر بعد ، ٢١٨ ومابعدها .

فروخ وحده من قابل أمام المذهب الحنفي ، بل قام بذلك مواطنه عبدالله ابن المغيره الذي تلقى الكثير من العلوم على يد الإمام أبي حنيفة ثم عاد بها إلى بلاده (١) ثم تتابع انتشار المذهب في العهد الأغلبي ، حتى إذا قامت الدولة الفاطمية ، تضاءل عدد اتباعه إلى أن انقطع وجوده تقريباً قبيل رحيل الفاطمين إلى مصر (٢) .

وعلى أية حال ، فإن مايهمنا الإشارة إليه هنا هو أن المذهب الحنفي في إفريقية كانت له صولات وجولات عن طريق أتباعه الذين سنعرض لهم سواء عند الحديث عن الدراسات الفقهية أو عند الحديث عن علاقة علماء المالكية بهم . غير أن مانود ختم الحديث به حول هذه النقطة هو أن علماء الأحناف عرفوا بجانب هذا الاسم الذي سموا به بالكوفيين أو العراقيين من جانب أبناء بلدهم من المغاربة ، وكذلك من قبل مؤرخي التراجم والطبقات لعلماء إفريقية فلقد جرت هذه التسمية على ألسنة كل من ترجم لعلماء المغرب الأدنى من أمثال أبي العرب التميمي ، ومحمد بن حارث الخشنى والمالكي ، والقاضي عياض والدباغ ، و ابن ناجي وغيرهم ، ويعتقد عبدالعزيز المجذوب (٣). أن سبب إطلاق لفظ الكوفيين أو العراقيين على علماء الأحناف إنما يعو إلى سببين : الأول أن يكون نسبةً إلى مكان ظهور المذهب الحنفي وشيوعه ، والثانية إشارة عنصرية ، لأن معظم من تمذهب

---

(١) أنظر بعد ، ٣١٩ ومابعدها .

(٢) عبدالعزيز المجنوب : المرجع السابق ، ص ٦٢ .

(٣) الصراع المذهبي بإفريقية ،ص ٦٣ . المقدسي : المصدر السابق ، ص ٢٣٦ - ٢٣٧ .

بالمذهب الحنفي في إفريقية كان من أصل عراقي أو فارسي .

وفيما يتعلق بالمذهب الشافعي ، فإن الأمر الذي يكاد يكون محل اجماع أيضاً ، هو أن انتشاره كان انتشاراً ضئيلاً جداً في المغرب الأدنى والمغرب عموماً . (١) ولم نجد في الحقيقة مايعلل أسباب انصراف المغاربة عن المذهب الشافعي تعليلاً منطقياً اللهم إلاّ مارواه المقدسي (٢) من رواية ليست هي كل المنطق ، بل هي جزء يسير منه ، وهو أن المغاربة رفضوا التمذهب بالمذهب الشافعي تعصباً منهم لمالك لأنه ساءهم أن يخرج الشافعي عن مذهب شيخه بمذهب جديد ، وهو الذي أخذ العلم عنه ، وروى المقدسي (٣) كذلك فيما يمكن اعتباره سبباً خفياً له شئ من الموضوعيه ، أن المغاربة لم يكونوا يرون من المذاهب الفقهية ما يستحق الإهتمام سوى مذهبين فقط : المالكي والحنفي ، وعلى ذلك فليس سائغاً ترك هذين المذهبين أو البحرين من العلم كما يذكر المقدسي والانشغال بالساقية وهو تعبير المقدسي كذلك .

وكيفما كان الأمر ، فقد عرفت إفريقية في الفترة الزمنية موضوع الرسالة بعضاً ممّن تمذهب بالمذهب الشافعي أومال إليه وهذا ماتشير إليه

---

(١) أنظر أحمد تيمور : المرجع السابق ، ص ٤٥ وما بعدها . السيد محمد أبو العزم داود : نفسه ، ص ٦٩ -٧١ - عبدالعزيز المجذوب : المرجع السابق ، ص ٨٧- ٩٠ - آدم متز : الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري ، أو عصر النهضة في الإسلام : ترجمة محمد عبدالهادي أبوريده الجزء الأول ، ص ٣٩٢ .

(٢) المصدر السابق ، ص ٢٣٦ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٣٦ .

كتب التراجم (١) . وسنعرف بعد شيئاً عن هؤلاء عند حديثنا عن الدراسات الفقهية إن شاء الله .

أما عن دخول المذهب الشافعي إلى المغرب وكيفيته ، فلم تذكر لنا المصادر والمراجع شيئاً عن ذلك اللهم إلاَّ ما أشار إليه السيد محمد أبو العزم داود (٢)، من أنه لايبعد أن يكون المذهب الشافعي قد دخل المغرب عنْ طريق رحلات الحجاج الذين وفدوا على المشرق فقابلوا الشافعي وأعجبوا به ، أوعن طريق بعض المارين بإفريقية من الأندلسيين القادمين من المشرق بعد أن قابلوا اتباع المذهب الشافعي هناك .

---

(١) أنظر مثلا عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٣٤٧ - الدباغ : نفسه ، الجزء الثالث ؛ ص١٨٣ - ١٨٤ - السيد محمد أبو العزم داود : نفسه ، ص ٦٩ - ٢٠ عبدالعزيز المجدوب : المرجع السابق ، ص ٨٨-٨٩ .

(٢) نفسه ؛ ص ٧١ .

الفصل الثاني

الدراسات الشرعية

(٢)

الفقه

الحديث

علوم القرآن

الفقــــــــــه

- مدخـــــــــــــل
- الفقــه في عصـــر الولاة
- الفقــه في عصـر الأغالبـة
- الفقه في عصر الفاطميـين
- الفقه في عصـــر الزيريين

الفقـــــــــــــــه :

مدخل : علينا بادئ ذي بدء أن نشير بداهةً إلى أننا لسنا معنيين هنا بتتبُّع نشأة علم الفقه ، وماتشعب منه من علوم كعلمي أصول الفقه والخلافيات وغيرهما ، كما أننا لسنا معنيين بالطبع بتتبُّع الأدوار التي مرَّبها علم الفقه حتى تقَّعدت قواعده وتأصلت أطره ممَّاهو معروف معلوم ، ولكن مايعنينا حقيقة هو تتبُّع مسيرة الفقه في إفريقية (المغرب الأدنى) في الفترة التي حددناها رحاباً زمنياً للرسالة .

ذكرنا في غير ما مرة أن الدراسات الشرعية تعد المظهر الرئيسي للحياة العلمية في إفريقية وقتذاك . وغنى عن القول بأن ثمة أموراً أدت إلى أن تحتل الدراسات الشرعية المحل الأول في مسيرة الحياة العلمية إجمالاً ، كما أن من نافلة القول الإشارة إلى أننا قد أتينا على ذكر أسبابها من قبل في القسم الأول ممالا حاجة إلى إعادة ذكره ، أضف إلى ذلك أن الدراسات الشرعية احتلت المكانه الأولى في تاريخ الثقافة الإسلامية بفضل العوامل الدينيه والتاريخية والموضوعية التي سجلها المؤرخون والباحثون من خلال متابعتهم الحركة العلمية والثقافية الإسلامية على مر أدوار التاريخ الإسلامي .

وإذا كانت الدراسات الشرعية تأتي أولاً في مسيرة الحياة العلمية ، فإن الفقه والدراسات الفقهية تأتي في مقدمة حقول الدراسات الشرعية بلا جدال ، ليس في إفريقية فحسب بل في العالم الإسلامي كله . ولعل من تحصيل الحاصل الإشارة إلى أن الأسباب الملحة التي حتمت على المسلمين

ضرورة فهم طبيعة الدين الإسلامي في مجالي العبادات والمعاملات – وهما قوام الفقه – كانت السبب الرئيسي في التعجيل بظهور علم الفقه (١) ، كما أن من الأمور المسلم بها أنه ارتبط بظهور علم الفقه علوم شرعية أخرى كعلم أصول الحديث والجرح والتعديل للتأكد من مصداقية الأحاديث متوناً وأسانيد بحكم أن الحديث هو المصدر التشريعي الإسلامي الثاني كما هو مفهوم معروف . (٢)

ومن المؤكد أن الدراسات الفقهية تقعيداً وتأصيلاً لأطر إنما توافق مع نشأة المذاهب الفقهية ، ولذلك فإن التأريخ للدراسات الفقهية في أي قطر إسلامي إنما هو تأريخ للمذهب الفقهي الذي يسير عليه ذلك القطر سواء بسواء ، وفي إفريقية (المغرب الأدنى) تجلي هذا الأمر بوضوح كبير ، فانتشار المذهب المالكي هناك ، تبعه بالضرورة انتشار تيار فقهي مالكي بالضرورة . ومن هنا نستطيع أن نقول بأن مراحل انتشار المذهب المالكي التي كنا قد أشرنا إليها في مكانها ، إنما تعنى كذلك مراحل التوسع في الدراسات الفقهية المالكية هناك جوهراً ومحتوى ، توسعاً وانكماشاً .

وكما كان هناك ارتباط عضوي بين المذاهب الفقهية والدراسات الفقهية المبنية عليها ، أقتضى الأمر بالضرورة كما يتراءى لنا أن تمر

---

(١) عن الفقه ونشأته ، أنظر محمد بن الحسن الحجوى الثعالبي الفاسي : الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي ، ج١ ، ص ٣٠٧ – ٣٠٨ ، ٣١٠ – ٣١٥– ٣٢٥ – ٣٢١ – أحمد أمين فجر الإسلام ، ص ٢٢٧ – ٢٤٨ .

(٢) عن هذا أنظر : الحجوى الفاسي : نفس المرجع أعلاه ص ٣٠٧ ، ٣١٥ – أحمد أمين : نفس المرجع أعلاه ، ص ٢٠٨ – ٢٢٤– وأنظر كذلك : ضحى الإسلام ، ج٢ ، ص ١٠٦ – ١٤٢ .

الدراسات الفقهية موضوعياً بكل أو جل الأطوار التي مرت بها المذاهب الفقهية - فيما عدا أولوية التأسيس المعقودة لصاحب المذهب - اجتهاداً مطلقاً داخل اطار المذهب ، فمقيداً بعد فمحدوداً ، ثم تقليداً ومحاكاة ، ثم اقتصاراً واختصاراً وشرحاً بعد لأي . (١)

ولقد تجلى هذا الأمر في إفريقية (المغرب الأدنى) وقتذاك بوضوح كبير إذا شهدت الدراسات الفقهية كل تلك المراحل التاريخية التي مربها علم الفقه من البداية إلى التوسع والإزدهار ، ثم إلى التراجع والإنكماش حتى دخل الفقه مرحلة الاقتصار والاختصار والحفاظ على كتب الشروحات وشروحات الشروحات التي واكبت الفقه منذ القرن الخامس الهجري وحتى وقت قريب (٢) . وكانت دراسة الفقه في إفريقية في هذا لاتختلف البتة عما وصلت إليه الدراسات الفقهية في كل أقطار الدولة الإسلامية .

وأيا ماكان الأمر ، فالموقف يقتضي منا الآن بعد الإنتهاء من تلك الفذلكة التاريخية والموضوعية للفقه ، تتبّع مسيرة الدراسات الفقهية في إفريقية (المغرب الأدنى) في الفترة الزمنية موضوع الرسالة . وهنا تجب الإشارة إلى أن التأريخ لنشأة الدراسات الفقهية وتوسعها هناك يقتضي أن يمر عبر عصور زمنية أربعة عاشها المغرب الأدنى آنذاك كما هو معلوم ، وهي : عصر الولاة ، والعصر الأغلبي والعصر الفاطمي والعصر الصنهاجي

---

(١) الحجوى الفاسي : الفكر السامي في تاريخ الفقه الإسلامي ، ج١ ، ص ٢٢١ - ٣٢٢ والجزء الثاني ، ٤٨ - ٥١ ، ١٤١ - ١٤٥، ١٦٣..

(٢) الحجوى الفاسي : نفس المرجع أعلاه ، ج٢ ، ص ١٦٣- ٢٤٣ - ٢٤٥ ، ٢٩٨ - ٣٠٤ .

أو الزيري ، ذلك لأن مسيرة الدراسات الفقهية ، قد اختلفت كمّاً ونوعاً بتعاقب هذه العصور . وسنتبين بعد قليل أثر كل من هذه العصور الأربعة على الدراسات الفقهية .

يبقى أن نشير في ختام المدخل المنطقي للدراسات الفقهية هذا إلى أننا لن نغفل في غمرة تأريخنا للفقه المالكي – بحكم كونه يشكل معظم المحتوى الفقهى آنذاك – تتبُّع مسيرة الدراسات الفقهية للمذاهب الفقهية الأخرى كالحنفي ، أو تلك التي للمذاهب الدينية السياسية كالشيعي والخارجي الإباضي ماوسعنا الجهد إن شاء الله .

الفقــــه في عصــــــر الــــولاة :

المتتبِّع للفقه والدراسات الفقهية في إفريقية خلال عصر الولاة لن يفاجأ إذا مارأها تبدو بداية متواضعه وخاصة في مطلع القرن الثاني الهجري وحتى منتصفه . ولسنا في حاجة إلى القول بأن ذلك يعد أمراً طبيعياً لعدة أسباب يأتي في مقدمتها : جدة علم الفقه نفسه على مستوى الدولة الإسلامية ، ثم أن الفتح الإسلامي للمغرب لما يمضى على انتهائه سوى وقت قصير لايتعدى العقدين أو الثلاثة ، والسبب الرئيسي الثالث أن المغرب في النصف الأول من القرن الثاني الهجرى خاصة شهد تلك الانتفاضات العارمة التي قام بها البربر ضد ولاة الدولتين الأموية والعباسية. ولذلك كان من الطبيعي أن تمضي مسيرة الفقه والدراسات الفقهية في شئ من البطء الشديد ، ولم تسعفنا كتب التراجم والطبقات

المختصة في مدنا بأكثر من بضعة أسماء لفقهاء محليين ، نذكر منهم عبدالرحمن بن زياد بن أنعم (١) وأبا كريب جميل بن كريب المعافري (٢) ، وعبدالله بن عبدالرحمن المعروف بيزيد بن الطفيل القاضي (٣) . هذا إلى جانب عكرمة مولى بن عباس الذي ذكرنا في غيرما موضع أنه بربري الأصل وكان يلقى دروسه في الفقه والحديث في مؤخرة الجامع الأعظم بالقيروان .

على أن اهتمامات المغاربة بالفقه ومسائله لم تتوقف رغم تأثير الأسباب التي ألمعنا إليها آنفاً ، أي في النصف الأول من القرن الثاني الهجري . فلقد كانوا يتعجلون استيضاح كثير من المسائل الفقهية وكانوا

---

(١) أبو خالد عبدالرحمن بن زياد بن أنعم المعافري ، من علماء وفقهاء إفريقية المبكرين ، ذكر أنه أول مولود في الإسلام بعد فتح إفريقية ، وتلقى علومه على يد علماء بلده من التابعين ، ثم رحل إلى المشرق . فروى عن جماعة من التابعين ، وقد روى عنه بعض من علماء المشرق كسفيان الثوري وغيره . وتولى قضاء إفريقية مرتين . مرة في عهد الدولة الأموية ، ومرة في عهد الدولة العباسية ، وتوفي بالقيروان سنة ١٦١هـ . أنظر ترجمته عند المالكي : نفسه ، ص ٩٦ – ١٠٣ محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ٦١– ٦٢ ، ابن السراج : المصدر السابق ، ج١، قسم١ ، ص٢٤٢ – ٢٤٣ .

(٢) أبو كريب جميل بن كريب المعافري ، ويقال إن اسمه عبدرالرحمن من فقهاء وعلماء المغرب الأدنى المبرين ، وقد سمع من عدد من أعضاء البعثة العلمية التي أرسلها عمر بن عبدالعزيز وروى عنه عدد من العلماء كذلك ، وتولى قضاء إفريقية في عهد عبدالرحمن بن حبيب بن أبي عبيده بن عقبة بن نافع ، توفي مقتولاً في عام ١٣٩ هـ ، وقيل عام ١٤٠هـ في لقاء ابن حبيب مع الخوارج الصفريه ، أنظر المالكي ، نفسه ص ١٠٧ – ١١٠ مع الحواشي

(٣) عبدالله بن عبدالرحمن ويعرف بيزيد بن الطفيل التجيبي ، روى عن عدد من التابعين في بلده ، وكان عالماً مشهوراً ، وتولى القضاء في إفريقية ، ولم يزل قاضياً حتى عزله الأمير يزيد ابن حاتم المهلبي . أنظر المالكي : نفسه ، ص ١١٠ – ١١١ .

يتطلعون إلى الحجاز والمدينة بالذات حيث كبار التابعين ، وتروى لنا بعض كتب التراجم أن أحد من استوطنوا إفريقية ، وهو خالد بن أبي عمران التجيبي (١) (ت١٢٥ أو ١٢٧ هـ) ، وهو من صغار التابعين ، ذهب إلى المدينة المنورة حاملا مسائل فقهيه ، سمع الإجابة عنها من اثنين من كبار التابعين وهما : سالم بن عبدالله بن عمر بن الخطاب ، والقاسم بن محمد ابن أبي بكر الصديق . (٢)

ومن المؤكد أنه في ظل عدم الإشارة إلى وجود مؤلفات فقهية لفقهاء هذا الطور من عصر الولاة ، أن الفقه كان محفوظاً في الصدور ولم يدخل مرحلة التأليف والتدوين بعد . وهذا في الواقع شئ طبيعي إذا ماعرفنا أن علم الفقه نفسه في الدولة الإسلامية خلال النصف الأول من القرن الثاني الهجري (كان محفوظاً في الصدور ومضبوطاً بالحفظ لامحفوظاً مضبوطا بالتدوين) ، كما يذكر محمد بن الحسن الحجوى الثعالبي الفاسي (٣) .

غير أن الفقه خلال النصف الثاني من القرن الثاني الهجري عرف خطوات موفقه ودخل خلال هذا الطور مرحلة التدوين كما سنذكر بعد قليل . ولعل من تحصيل الحاصل الإشارة إلى أن هناك عدة عوامل أدت إلي هذا التقدم في مجال الدراسات الفقهية ، مثل وضوح أثر معظم عوامل ازدهار الحياة العلمية التي أشرنا إليها من قبل ومثل بروز أثر الرحلات العلمية

---

(١) ترجمته موجوده عند أبي العرب التميمي : نفسه ، ٢٤٥- ٢٤٧ - المالكي : نفسه ، ص ١٠٣ - ١٠٦ .

(٢) المالكي : نفسه ، ص ١٠٣ ، في سياق ترجمته لخالد بن أبي عمران التجيبي .

(٣) تاريخ الفكر السامي في الفقه الإسلامي ، ج١ ، ص ٣٢١ .

بصفة خاصة فيها . وفوق هذا وذاك دخول المذهب المالكي إفريقية وأثره في الدراسات الفقهية كما سبق وأن ذكرنا .

وبالإضافة إلى ذلك كله ، كانت أحوال بلاد المغرب السياسية وماكان يتمخض عنه من فتن متلاحقة تدفع بعلمائه إلى تلمس السبل لمواجهة ذلك الطوفان من البدع والضلالات، بالتأسي بمقاصد الشريعة السمحة وحدها (١) في جانبي العبادات والمعاملات وهمّا قوام الفقه كما هو معروف

ولذلك كله قفزت الدراسات الفقهية في إفريقية آنذاك قفزات طيبة ، وبدأ يظهر على الساحة فقهاء كبار (كانوا طلائع لجمهرة من العلماء أتوا بعدهم) (٢) ، وتروى لنا المصادر تأكيداً لما ذهبنا إليه أن عبدالله بن فروخ الفارسي (٣) (ت : ١٧٥هـ) وهو أبرز فقهاء ومحدثي افريقية المبكرين ، دفعته الفتن وتفشى البدع والضلالات في إفريقية آنذاك إلى مكاتبه الإمام مالك بن أنس في كثير من المسائل الفقهية والعقائدية فأجابه الإمام مالك عليها بإجابات واضحة (٤) . ولقد بلغ من مكانة عبدالله بن فروخ الفقهية أنه كان يسأل في المسائل فيجيب فيها بالأقاويل المختلفة (٥) .

---

(١) أنظر عن تلك الأحداث السياسية والفتن والبداع والضلالات وموقف علماء المالكية منها : السيد محمد أبو العزم داود : نفسه ، ص ٤٢– ٥١ ، ٨٥– ١٠٩ .

(٢) رابح بونار : المرجع السابق ، ص ٦٣ .

(٣) ترجمته وردت في أكثر من مصدر ومرجع ، على أن أهم الترجمات له هي التي أوردها : أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ٣٤ – ٣٥ – المالكي : نفسه ، ص١١٢– ١٢٢– عياض : نفسه ، ص ٣٤٠ – ٣٤٧ – الدباغ : نفسه ، ج١ ، ص ٢٤ –٢٤٢ .

(٤) المالكي : نفسه ، ص ١١٣– ١١٤ عياض : نفسه ، ص ٣٤٠– ٣٤٤ – ٣٤٥ .

(٥) عياض : نفسه ، ص ٣٤٠ .

وعرف هذا العصر شخصية إفريقية فقهية كان لها دورها المؤثر في دخول المذهب المالكي إلى إفريقية ، وكان لها دورها المؤثر كذلك في تقدم الدراسات الفقهية . هذه الشخصية هي شخصية على بن زياد العبسي التونسي (١) (ت : ١٨٣هـ) الذي كنا قد أشرنا إلى دوره في انتشار المذهب المالكي من قبل . وأما دوره في تقدم الدراسات الفقهية في إفريقية فقد كان لايقل أهمية عن دوره في إدخال المذهب المالكي . فعندما قدم علي ابن زياد بموطأ الإمام مالك وجامع (٢) سفيان الثوري كما ذكرنا من قبل ، أحدث ذلك تياراً فقهياً زاخراً أدى إلى تكاثر التآليف الفقهية المغربية . ولقد كان من جرَّاء تأثر الإفريقيين بموطأ الإمام مالك أن ألف علي بن زياد نفسه كتاباً فقهياً عرف باسم : كتاب خير من زنته ، وهذا الكتاب تضمن الحديث عن ثلاث قضايا فقهية هي : البيوع والنكاح والطلاق . (٣)

---

(١) وردت ترجمته في أكثر من مصدر ومرجع وأهم الترجمات له أوردها أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ٢٥١ – ٢٥٣ – المالكي : نفسه ص ١٥٨ – ١٦٠ – الشيرازي : طبقات الفقهاء ، ص ١٢٩ – عياض : نفسه ، ص ٣٢٦ – ٣٢٩ .

(٢) كان لسفيان الثوري (ت : ١٦١ هـ) كتابان في الفقه يطلق على كل منهما الجامع فهناك الجامع أو جامع سفيان الثوري الكبير ، وقد قدم به إلى افريقية علي بن زياد التونسي كما ذكرنا في المتن ، ثم هناك جامع سفيان الصغير، وقد جاء به إلى أحد علماء إفريقية المبكرين كذلك ، وهو أبو خارجه عنبسه بن خارجه الغافقي (أنظر ترجمته عند : المالكي : نفسه ، ص١٦٣ –١٦٤) ولقد أفاد المغاربة من هذين الكتابين معا. أنظر عن أولية قدوم علي بن زياد بجامع سفيان الكبير، المالكي : نفسه ، ص ١٥٨ –١٦٠ – عياض : نفسه ، ص ٣٢٧ وعن أولية ابن خارجه في جلب جامع سفيان الصغير ، أنظر نفسه ، ص ١٦٣ عياض : نفسه : ص ٢٣١ .

(٣) عياض : نفسه ، ص ٣٢٦ – ٣٢٧ الشيرازي : نفسه ، ص ١٢٩ – وعنده أن اسم الكتاب خير من دينه ، ولاشك أن هذا خطأ والصواب هو ما أوردناه عن غيره في المتن .

وحـــذا حـذو علي بن زيـــاد في تصنيــف المؤلفــات الفـقـهيــة ، فقيــه افــريقي آخر ، هو البهلــول بن راشد الرعيني (١) (ت : ١٨٣هـ) الذي ألـــــف ديـوانـــاً في الفـقـــه ، كــان مــــحل التـقــــدير والإعجــاب (٢)

وفي خلال الفترة التي كان الإمام مالك بن أنس حياً فيها ماانفك علماء وفقهاء إفريقية عن مراسلته وسؤاله عمّا ينزل بساحتهم من القضايا . فعبدالله بن غانم الرعيني (٣) (ت : ١٩٠هـ) الذي عاصر عصر الولاة وبضع سنوات من عصر الأغالبة ، كان وهو قاض كثيراً مايراسل مالكاً بالأسئلة الفقهية ، وكان يتلقى منه الرد مع مبعوثيه . (٤)

وفيما يتعلق بالفقه والدراسات الفقهيه الحنفيه في إفريقية في عصر الولاة ، فإنهما كانا أقل نشاطاً من الدراسات الفقهية المالكية . وكان ذلك يعد شيئاً طبيعياً ، لجدة علم الفقه نفسه من جهة ، ولاتجاه المغاربة إلى التمذهب بالمذهب المالكي من جهة أخرى .

---

(١) ترجمة البهلول بن راشد ، موجودة عند أبي العرب التميمي : نفسه ، ص ٥٢ - ٦٢ المالكي : نفسه، ص٣٣٠- ٣٣٩ - محمد بن محمد مخلوف نفسه ، ص٦٠- ٦٢ - الزركلي : نفسه ، ج٢ ، ص ٧٧ .

(٢) محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ٦١- الزركلي : نفسه ، ج٢ ، ص ٧٧.

(٣) وردت لعبدالله بن غانم الرعيني ترجمة مستفيضة عند كل من : المالكي : نفسه ، ص ١٤٣ - ١٥٥ - عياض : نفسه ج ١ ، ص ٣١٦ - ٣٢٥ - تراجم أغلبية مستخرجه من مدارك القاضي عياض تحقيق محمد الطالبي مع مقدمة وفهارس ص ٨-٢١ - الدباغ : نفسه ، ج١ ص ٢٨١ - ٣١٣ (مطولا جداً) .

(٤) عياض : نفسه ، ج١ ، ص ٣١٨ .

وأيا ماكان الأمر ، فإن غاية مانعرفه عن نشاط الدراسات الفقهية الحنفية في إفريقية ، هو أن عبدالله بن فروخ الفارسي الذي عرفنا دوره في نشر المذهب المالكي والدراسات الفقهية المالكية ، كان له دور كذلك في نشر الدراسات الفقهية الحنفية ، مع أنه لم يكن يتمذهب الحنفي ، فهو إلى جانب أنه (اشتهر بصحبة مالك وبه تفقه) (١) ، إلاَّ أنه (كان يميل إلى النظر والإستدلال فربما مال إلى قول أهل العراق فيما يتبين له من الصواب)(٢)، ويروى أنه سمع من الإمام أبي حنيفه النعمان مسائل فقهية مدونه ، بلغ تعدادها نحواً من عشرة آلاف مسألة (٣) ،

ولقد اسعفتنا المصادر لحسن الحظ كذلك بمعلومة مفيدة أخرى لفقيه مالكي هو الآخر ، كان قد سمع خلال رحلته إلى المشرق من تلامذه الإمام أبي حنيفة النعمان ، هذا العالم الفقيه هو عبدالله بن غانم الرعيني الذي أشرنا إلى دوره في نشر الدراسات الفقهية المالكية قبل قليل ، فيروى أنه كان يتصدى لتدريس كتب أبي حنيفه على طلبته كل يوم جمعه (٤) ، هذا مع أنه كان مالكياً متعصباً للامام مالك (٥) ، وكان أثيراً

(١) المالكي : نفسه ، ص ١١٣ – عياض : نفسه : ج١ ، ص ٣٤٠ .

(٢) المالكي : نفسه ، ص ١١٣ .

(٣) المالكي : نفسه ص ١١٦ – عياض : نفسه ، ص ٣٤٤ .

(٤) عياض : نفسه ، ص ٣١٧ .

(٥) ممّايدل على ذلك ماوراه المالكي : نفسه ، ص ١٤٥ عن سحنون قال (قرأ علينا ابن غانم كتاباً من الموطأ ، فقال له رجل : يا أبا عبدالرحمن أيعجبك هذا من قول مالك ؟ فقام ابن غانم وألقى الكتاب من يده ، وقال : أوليس وصمة ملى ديني وعقلي أن أرد على مالك قولة قالها ؟ والله لقد تركت العباد الذين يتورعون عن الذر فما فوقه سفيان ودون سفيان ، فما رأيت بعينى أو رع من مالك) .

عنده (١) . ومن فقهاء الاحناف المبكرين في هذا العصر عالم حنفي آخر وهو عبدالله بن المغيرة ولايعرف للأسف تاريخ ولادته ولاوفاته ، وقد تتلمذ على يد الإمام أبي حنيفة نفسه . وروى أن له تآليفاً قيماً في الفقه (٢) .

أما الفقه والدراسات الفقهية الإباضية في إفريقية في عصر الولاة سواء في إقليم الجريد أو في جبل نفوسه بطرابلس ، فقد كان شأنه شأن الدراسات الفقهية الحنفية ضئيل الإشارة والتنبيه ولعل غاية ما يمكن الإشارة إليه في هذا الصدد أن النشاط الفقهي الإباضي في إقليم الجريد ، لم يكن قد انفصل بعد عن الجانب التنظيري لمعتقد المذهب الإباضي ، مع أنه كانت هناك بدايات متواضعه منذ القرن الثاني الهجري للنشاط الفقهي التأليفي المحض ، ولكنها لم يتجاوز البحث عن إجابات لبعض المسائل الحياتيه (٣) .

بيد أن الدراسات الفقهية الإباضية في طرابلس في عصر الولاة ، كانت أنشط حالاً من مثيلتها في إقليم الجريد ، وذلك منذ أن أستقر المذهب الإباضي في جبل نفوسة في منتصف القرن الثاني الهجري تقريباً . فلقد شهدت الدراسات الفقهية آنذاك ظهور عدد من الفقهاء الإباضية ، منهم : عمر بن يمكن (٤) واسماعيل بن درار أو ضرار الغوامسي ، الذي ارتحل

---

(١) حتى أنه عرض عليه أن يزوجه ابنته عندما جاء إلى المدينة طالباً تلقى العلم منه ، وعندما تولى ابن غانم القضاء سر بذلك مالك كثيراً .

(٢) عبدالعزيز المجذوب : ص ٦٢ .

(٣) صالح باجيه : نفسه ، ص ٥٣ - ٥٤ .

(٤) أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ١٣٣ .

إلى البصرة ، حيث قابل عدداً من شيوخ المذهب الإباضي (١) ومنهم كذلك محمد بن عبدالحميد بن مغطير النفوسي الجناوي ، وهو ممّن ارتحل كذلك إلي البصرة ، فقابل عدداً من شيوخ المذهب (٢) . ومنهم كذلك عاصم (٣) السدراتي وهو من قبيلة سدراته التي تسكن في جبال أوراس بالجزائر . إلاَّ أنه قدم طرابلس فاستقر بالجبل يلقى علومه ومعارفه ، ثم رحل إلى البصرة، فقابل شيوخ المذهب هناك ، ثم عاد ينشر علمه في جبل نفوسه حتى توفى مسموماً في القيروان إبان حصار الإباضية قبل ولاية محمد بن الأشعث .

الفقـــــه في عصـــــر الأغالبة (١٨٤-٢٩٦هـ) :

كان انتصاب الدولة الأغلبية في إفريقية (المغرب الأدنى) مؤذناً بتحول سياسي واجتماعي وعلمي وثقافي ، أنعكست آثارة الإيجابية على المجتمع الإفريقي آنذاك . وإذا كان ليس من مهمتنا التأريخ للدولة الأغلبية سياسياً وحضارياً - إلاَّ بالقدر المرتبط بالحياة العلمية الذي يعنينا - فإن مجمل مايمكن قوله هو أن قيام الدولة الأغلبية ومن ثم استقرارها خلال تلك الفترة الزمنية ، إضافة إلى مجهودات أمرائها في العناية بالعلم والعلماء ، قد أوجد تياراً ثقافياً قوياً ، وأوجد نهضة علمية مزدهرة شملت أكثر حقول الحياة العلمية ، إلاَّ أن الأثر العلمي البارز الذي طغى على غيره في عهدها

---

(١) أحمد مختار عمر : نفس المرجع والصفحة .

(٢) أحمد مختار عمر : نفسه .

(٣) علي يحيى معمر : الإباضية في الجزائر - الإباضية في موكب التاريخ : ص ١٢٩ -١٣٣ .

هو ازدهار الدراسات الشرعية وعلى وجه الخصوص ، الفقه الذي نشط نشاطاً مذهلاً نوضحه بعد قليل .

وإذا مضينا نتتبَّع الأسباب التي أدت إلى أن يكون نشاط العلوم الفقهية خاصة والدراسات الشرعية عامة في عهد الأغالبة هو الذي كان يطغى على غيره من المعارف ، فإننا نراه يندرج في الآتي :

١- اتمام تعريب إفريقية وتأكيد إسلام أهلها في عهدهم .

٢- تزامن دخول المذهب المالكي إلى إفريقية مع قيام الدولة الأغلبية تقريباً . ونقول تقريباً لأن دخول وانتشار المذهب المالكي قد تم قبل قيام الدولة الأغلبية ، إلاَّ أن عصرهم شهد التمكين المطلق للمذهب، ولابد أن نعيد إلى الأذهان القول بأن انتشار المذهب الفقهي المالكي ، إنما هو انتشار وتوسع للفقه الذي اقترن به .

٣- نجاح الأغالبة في تكريس الوحدة والتجانس بين طبقات المجتمع (١) .

٤- جهودهم الحثيثة في تشجيع الثقافة والعلم عن طريق الاهتمام بوسائط الثقافة من مساجد وأربطة وكتاتيب ومكتبات عامة خاصة (٢) ، هذا من جهة ، وجهودهم في تشجيع العلماء من جهة أخرى .

---

(١) حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية في إفريقية ج١ ، ص ١٦٦ - ١٦٧ .

(٢) أنظر قبل ، ص الفصل الخامس - وسائط الثقافه من العصر الأغلبي .

٥- إن حكـم الأغالبـة لإفريقية كما يقول رابح بونار (١) - وهو على حق في ذلك - قد أقترن في نفوس المغاربة بالشعور بالاستقلال وسريان روح الوطنيه في صفوفهم .

٦- إن ازدهار الحياة العلمية ، والفقه على رأسها قد ارتبط من غير شك بالمناخ السياسي والحضاري الذي تحقق في إفريقية على يد أمراء الأغالبة .

٧- إن شخصيـة أسـد بن الفـرات ، وسحنون بن سعيد كانتا عاملاً رئيسياً في التطور الفقهي الذي عرفته إفريقية في عهد الأغالبة .

وكيفما كان الأمر ، فإن الدراسات الفقهية التي خطت خطوات طيبة في عـصـر الـولاة ، وخـاصـة مع بدايـة النصـف الثـاني من القـرن الثـاني الهجـري، كانت الأساس المتين الذي اعـتمدت عليه الدراسات الفـقـيـة في العـصـر الأغـلـبي وماتلاه من عـصـور . ولقد وضع أولئك الفـقـهـاء الرواد الـذين كـانوا شـيـوخـاً لمن جاء بعـدهـم ، النواة التي تمخضـت عنهـا فيمـا بعـد النهـضـة الفـقـهـيـة التي صبـغت الدراسات الشـرعية بصبغتـهـا . وفي الحقيقـة لقد قيـض الله للدراسـات الفقهية في المغـرب الأدنى أن يكـتب لهـا النجاح والتـوسـع والتـقـدم بعـد ذلك الجيل من الشيوخ على يد فقيهين كبيرين هما ، أسد ابن الفرات وسحنون ابن سعيد .

---

(١) المغرب العرب ،تاريخه وثقافته ، ص ١٨ .

أما أسد بن الفرات بن سنان (١) (ت: ٢١٣هـ)(٢) الذي ذكرنا من قبل أنه أحد فقهاء وعلماء إفريقية المشهورين آنذاك . فقد تلقى علومه على يد كبار العلماء في إفريقية ، ومنهم علي بن زياد التونسي ، ثم ارتحل إلى المشرق طلباً للمزيد من العلم فقابل هناك في المدينة الإمام مالك بن أنس ، ثم ذهب إلى العراق ، فسمع من القاضي أبي يوسف (٣) (ت : ١٨٢هـ) ، ومحمد بن الحسن الشيباني (ت : ١٨٩هـ) تلميذي الإمام أبي حنيفة النعمان ، ثم رحل إلى مصر حاملاً مسائل فقهية مجردة على المذهب الحنفي (٤) واتصل هناك بالإمام أبي عبدالله عبدالرحمن بن القاسم العتقي (٥) (ت : ١٩١هـ) ، الفقيه المصرى المشهور الذي يعد من أشهر مريدي الإمام مالك على الإطلاق فعرض عليه تلك المسائل وتلقي عنه أحكامها على مذهب الإمام مالك بن أنس ، ثم قدم بها بلده القيروان ، وهي التي عرفت بالأسدية نسبةً إليه – وهي أصل المدونة كما سنعرف بعد قليل .

---

(١) ترجمة أسد بن الفرات موجوده عند : أبي العرب التميمي نفسه ، ص٨١ – ٨٣– المالكي : نفسه ، ص ١٧٣ – ١٨٩ – عياض : نفسه ، ص ٤٦٥– ٤٨٠ وغير ذلك .

(٢) هذا التاريخ هو الأرجح والمشهور ، أنظر ابن عذارى : نفيسه ، ج٢ ، ص١٠٤ – الزركلي : نفسه، ج١ ، ص ٢٩٨ . وهناك بعض من المؤرخين القدامي كأبي العرب التميمي : نفسه ، ص ٨٣ يقول إن وفاته كانت عام ٢١٤ ، بينما يقول عياض : نفسه ، ص ٨٠ إن وفاته كانت في سنة ٢١٣هـ أو ٢١٤ أو ٢١٧ هـ .

(٣) عن ترجمته واتجاهاته الفقهيه ، أنظر أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ص ١٩٨– ٢٠٣ .

(٤) الحجوي الفاسي : المرجع السابق ، ج٢ ص ٩٤ – ٩٥ .

(٥) ترجمة عبدالرحمن بن القاسم العتقي موجوده عند : عياض نفسه، ج٢ – ص٤٣٣ –٤٤٦ ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ١٤٦ –١٤٧– الحجوى الفاسي : نفس المرجع السابق أعلاه ، ص ٤٣٩–٤٤٢ كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي الجزء الثالث ، ص ٢٨٠– ٢٨١ ، وغير ذلك .

والأسدية هي التي هيأت لأسد بن الفرات في بلاده رياسة في العلم كما يذكر القاضي عياض (١) وهي تتكون من ستين كتاباً تحتوى مامجموعه : ستة وثلاثين ألف مسألة فقهية (٢) .

غير أن سحنوناً بن سعيد التنوحي الذي أشرنا إلى دوره العظيم في نشر المذهب المالكي مراراً ، والذي كان معاصراً لأسد ابن الفرات ، وإن كان أصغر منه سناً ، حمل الأسدية خفيةً إلى ابن القاسم بمصر ، فعرضها عليه ، فرأى ابن القاسم أنها فيها مسائل وأمور تحتاج إلى اعادة تفسير وتهذيب واستدراك ، نظراً لأنه كان قد أملاها على أسد من حفظه ، فراجعها وطلب من أسد عبر سحنون أن يعارض كتبه بكتب سحنون التي حملها ، غير أن أسداً رفض ذلك ، ممّا حدا بابن القاسم إلى أن يستاء منه ويدعو الله أن يجانب التوفيق والبركة الأسدية . (٣)

هذه الكتب التي عاد بها سحنون منقحة ومزيدة ، هي التي عرفت في الفقه المالكي المغربي بالمدونة أو المدونة الكبرى (٤) . وقبل أن نشرح أبعاد هذا العمل نشير إلى قول الشيرازي في كتاب : طبقات الفقهاء (٥) ، وهو يفسر ما استقر عليه أمر الدراسات الفقهية . في افريقية عموماً . يقول : (واقتصر الناس على التفقه في كتب سحنون ، ونظر فيها سحنون نظراً

---

(١) نفسه : ج١ ،ص ٤٧٠ .

(٢) السيد محمد أبو العزم داود : ص ٣٩٥ .

(٣) أنظر المالكي : نفسه ، ص ١٣٢ ، عياض : نفسه ، ج ١ ، ص ٤٧١ - ٤٧٣ .

(٤) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ج٣ ، ص ٢٨١ .

(٥) ص ١٣٢ .

آخر ، فهذبها وبوبها ودونها ، وألحق فيها من خلاف كبار أصحاب مالك ما اختار ذكره ، وذيل أبوابها بالحديث والآثار ، إلاَّ كتباً منها مفرقة بقيت على أصل اختلاطها في السماع ، فهذه كتب سحنون : المدونة والمختلطة وهي أصل المذهب المرجح روايتها على غيرها عند المغاربة وإيَّاها اختصر مختصروهم وشرح شارحوهم ، وبها مناظرتهم ومذاكرتهم) .

ولقد ظهر أثر ذلك التحول الفقهي بعد ذلك واضحاً في شدة اعجاب واعتماد المغاربة لافي المغرب الأدنى وحده بل وفي بقية المغرب والأندلس على المدونة وحدها . فكأن المدونة قد وطأت الطريق لمدرسة فقهية إفريقية ، بل إنها بالفعل كذلك ، لأن سحنوناً بعمله ذلك أسس مدرسة فقهية إفريقية مالكية لها خصوصيتها التي تتواءم مع التركيبة البشرية والنفسية والثقافية للمغاربة .

ونحن بالطبع ليس من مهمتنا أن نتوسع في دراسة الفقه توسع المختص في الدراسات الشرعية ، غير أن أهمية ذلك التحول الفقهي على الدراسات الفقهية قد تجيز لنا أن نتجاوز مهمتنا وهي التأريخ للفقه إلي التحدث عنه كمنحى شرعى بالقدر الذي يوضح الموقف فقط ، أي يوضح الأسباب الحقيقية التي دفعت بالمغاربة إلى إهمال أسدية أسد بن الفرات والإهتمام بمدونة سحنون بن سعيد والاعتماد عليها .

والواقع أننا في هذا الصدد نميل إلى موافقة بعض الباحثين الذين تناولوا هذه القضية ، لما يغلب عليها من تحليل دقيق للأسباب تلك . يرى عبدالعزيز المجذوب في كتابه الصراع المذهبي بإفريقية إلى قيام الدولة

الزيرية (١) المذكور سابقاً (أن أسد بن الفرات بأخذه بالمنهج العراقي (أي الحنفي) في تفصيل المسائل وتأصيلها ، ثم تطبيق أحكام المذهب المالكي عليها قد أدخل المذهب المالكي في دور جديد من التدوين المؤصل المرتب) . والمجذوب في رأية هذا يتفق تماماً مع محمد بن الفاضل بن عاشور في كتابه : أعلام الفكر الإسلامي في تاريخ المغرب العربي .

ويذهب عبدالعزيز المجذوب إلى موافقة محمد بن الفاضل بن عاشور كذلك في أن طريقة أسد هذه قد اعتراها النقص من وجهين (الأول : هو أنه لما بنى ادراج مذهب على منهج مذهب آخر ، فقد وقع فيه من الاختلاط في الأقوال ، والاختلال في عزوها أمور جاءت قادحه فيما يطلب في كتب الأحكام من الصحة المطلقة) . (الأمر الثاني : هو أن فقهاء المالكية قد اعتادوا بناء الفقه على الأحاديث والآثار كما هي طريقة مالك في الموطأ ، وقد سلك أسد في كتابه طريقة فقه خالص مبنى على صريح الإجتهاد) (٢) .

ويؤكد المجذوب ، أن سحنوناً أدرك بذكائه مافي الأسدية من نقص ، وأنه أدرك كذلك ماتجره طريقة أسد على الآثار السنية من الأندثار نتيجة لما تذهب إليه من الاحتمالات والفروض والتخمينات كما أن المجذوب يؤكد أن سحنوناً شعر بالخطر على أهل الحديث من أن (يغزوهم أهل الرأي العراقيون . فرجع بكتاب : الأسدية إلى أصله ، مراجعاً فيه ابن القاسم ،

---

(١) ص ٥٠ .

(٢) نفسه ، ص ٥٠ .

مصححاً وإياه ما اختل فيه من أحكام ، بانياً المسائل على مسند الأخبار والآثار النبوية) (١) وبمعنى آخر أن سحنوناً رد (الفقه المالكي إلى طريقته المدنيه الأولى مع الحفاظ على ما أفاده أسد من لقاح جديد بطريقة العراق ، وأرجع فقه مالك إلى موطئه ، وأورد من مسائله شيئاً صحيحاً مضبوطاً لايوصم بوهم ولا اشتباه) (٢) .

ومن المهم في هذه القضية أن نشير كذلك إلى أن عبدالعزيز المجذوب يؤكد - ولعلنا لا نخالفه بناءً على ما اتضح من متابعة ذلك الموضوع - أن ماحدث بين أسد وسحنون لم يكن صراعاً مذهبياً ، ولكنه (صراع منهجي فقط ، واختلاف في طريقة الاستدلال وأسلوب التدوين . فالقضية لاتخرج عن مجرد تباين بين منهجين أو طريقتين : تحرري في الأسدية ، مالكي محافظ في المدونة) : (٣)

وفي هذا الصدد نشير إلى أننا لانذهب إلى ماذهب إليه السيد محمد أبو العزم داود في كتابه المذكور سابقاً في التفريق بين أسدية أسد بن الفرات ومدونة سحنون ، فهو يرى أن المدونة (تأثرت يكتب العراقيين في تفريع المسائل وتوليدها وافتراضها، ممَّا كان له أكبر فائدة في تفتيق الفقه المالكي وتوسيعه وجعله أكثر مرونة ، كما قرب بين الفقه المدني والعراقي ..) (٤) ذلك لأن المغاربة عندما رفضوا الأسدية ، فقد رفضوها

---

(١) نفسه : ص ٥١ .

(٢) عبدالعزيز المجذوب : نفسه، ص ٥١ .

(٣) نفسه ، ص ٥٦-٥٧ .

(٤) نفسه ، ص ٣٩٩ .

لما فيها من اتجاهات تغلب جانب الرأي الذي يراه المغاربة خطراً على الآثار والسنة ومن هنا قالوا لأسد منكرين : إجئتنا بإخال وأظن وأحسب ، وتركت الآثار وماعليه السلف ، كما أشار مؤرخو التراجم والطبقات (١) وكما أشار السيد محمد أبو العزم نفسه (٢) ، ثم أن السيد محمد أبو العزم أشار إلى أن الأسدية اختلفت عن المدونة (٣) وبالطبع فإن الاختلاف لابد أن يكون في اتجاه كل من الأسديه ، والمدونة الفقهي ومن هنا نستبعد أن تكون المدونة قد تأثرت بكتب العراقيين التي تمثل الأسدية اتجاهاتها وإلاَّ فما هو داعي سحنون بن سعيد وابن القاسم إلى اجراء ذلك التغيير المنهجي في الأسدية ؟

وعلى أية حال ، فلم تزد الأيام المغاربة إلاَّ بعداً عن الأسدية فلم يعد يؤخذ بها بعد أن عاد سحنون بالمدونة من مصر ، ولم يكن لها حظ من الانتشار إلاَّ في مصر عندما أخضعها بعض المصريين للدراسة والاختصار (٤)

أما المدونة ، فقد أصبحت منذ أن عاد بها سحنون إلى إفريقية ينظر إليها نظرة تقدير وتبجيل عميقين ، فقد أصبح المعول عليها في كل الدراسات الفقهية ، فضلاً عن الأخذ باتجاهاتها في التطبيق الواقعي للحياة

---

(١) أنظر مثلا المالكي : نفسه ، ج١ ، ص ٢٨٠ - عياض : نفسه : ج١ ، ص ، ٤٧٠ .

(٢) نفسه ، ص ٣٩٥ .

(٣) نفسه ، ص ٣٩٧ .

(٤) عياض : نفسه ، ص ٤٧٣ - ٤٧٤ - ابن السراج : نفسه ، الجزء الأول ، القسم الثالث ، ص ٧٤٨ - ٧٤٩ .

كما نظن . ولقد أكد صاحبها نفسه منذ البدء على ما تمثله المدونة من مكانة، فكان يقول لأتباعه (.. عليكم بالمدونة ، فإنها كلام رجل صالح وروايته، وكان يقول : إنما المدونة من العلم بمنزلة أم القرآن من القرآن تجزى في الصلاة عن غيرها ولايجزى غيرها عنها ، أفرغ الرجال فيها عقولهم وشرحوها وبينوها ، فما اعتكف أحد على المدونة ودارسها إلاَّ عرف ذلك في ورعه وزهده ، وما عداها أحد إلى غيرها إلاَّ عرف ذلك فيه) (١) .

ويرى ابن رشد – وهو أحد أشهر رجال الأندلس – في كتابه : المقدمات والممهدات فيما ينقله عنه السيد محمد أبو العزم (٢) داود ، أن المدونة ، حوت أصل علم المالكية ، وتأتي في مقدمة الدواوين الفقهية المالكية على الإطلاق بعد الموطأ ، (وأنه مابعد كتاب الله أصح من موطأ مالك رحمه الله ولابعد الموطأ ديوان في الفقه أفيد من المدونة ، والمدونة هي عند أهل الفقه ككتاب سيبويه عند أهل النحو، وككتاب أقليدس عند أهل الحساب .. الخ) . ولذلك كله ، فمن الطبيعي أن تصبح للمدونة تلك المكانة العظيمة لا في المغرب الأدنى ، بل وفي المغرب كله والأندلس حسبما أشرنا من قبل ، ولم يكن يدانيها أي مؤلف فقهي مالكي على الإطلاق حاشا المؤطأ . ومن هنا كانت كذلك محط رغبات الفقهاء في المغرب والأندلس اختصاراً وشرحاً وتعليقاً . والواقع أن المجال يضيق بنا لوتتبعنا اختصاراتها وشروحاتها

(١) عياض : نفسه ، ج١ ، ص ٤٧٣ .

(٢) نفسه ، ص ٣٩٧ – ٣٩٨ .

وتعليقاتها منذ وفاة سحنون وحتى عصور متأخرة من الزمن ، فقد تناولها العشرات من المغاربة والأندلسيين بالشرح والاختصار والتعليق (١) ، وسنشير خلال حديثنا عن الدراسات الفقهية في العصر الأغلبي والعصر الفاطمي والعصر الزيري إلى من قام بذلك من أبناء المغرب الأدنى إن شاء الله .

وبعد فلن نتجنى على الحقيقة إذا ماقلنا إن سحنوناً بن سعيد التنوخي (٢) (١٦٠ –٢٤٠هـ) يعتبر أهم شخصية فقهية مالكية في المغرب الأدنى في الفترة الزمنية موضوع الرسالة ، فإلى جانب جهوده في نشر المذهب المالكي التي عرفنا أبعادها ، فإن جهوده في نشر الداسات الفقهية– وقد رأينا أعظمها وأهمها – جهود عظيمة الأثر بعيدة الغور . وقد أحدث وجوده في إفريقية وقتذاك نهضة فقهية شاملة ، كما أجمع معاصروه ومن جاء بعدهم ومعظم من تناول التأريخ للدراسات الشرعية الإفريقية على أنه

---

(١) أنظر كارل بروكلمان ، تاريخ الأدب العربي الجزء الثالث ، ص ٢٨٠– ٢٨٤) لمعرفة من قام باختصار وشرح والتعليق على المدونة من المغاربة الأندلسيين .

(٢) ترجم لسحنون كل مؤرخي التراجم والطبقات المغربية تقريباً ثم غيرهم ممن ترجم لعلماء المالكية ، وكلهم خصة بترجمة واسعة . ومن أولئك : أبو العرب نفسه ، ص ١٠١ – ١٠٤ – الشيرازي ، نفسه ص ١٣٢ – ١٣٣ – المالكي : نفسه والجزء ص ٢٤٩ – ٢٩٠ (٥١ صفحة) – عياض : نفسه ، ص٥٨٥ – ٦٢٤ الدباغ : نفسه ، ج ٢، ص٧٧– ١٠٤ – ابن فرحون : نفسه ، ص١٦٠ – ١٦٥ – ابن السراج : نفسه ، ج١ ، القسم الأول ،ص ٧٦٩ –٨٠٧ (وهي ترجمة طويلة جداً للغاية). واختصه بكتاب مستقل من القدامى : أبو العرب التميمي أحد تلامذته . ومن المحدثين اختصه : سعدى أبو حبيب بكتاب عنوانه : سحنون ، مشكاة نور وعلم وحق .

أفقه رجالات المغرب الأدنى إطلاقاً (١) ، وهو حقيق بذلك كما أنه حقيق بما وسمه به أحد الباحثين المحدثين (٢) من أنه (عالم المغرب وأستاذه دون منازع) ومن أنه يمثل (قمة الدولة المالكية الإفريقية ، وعلم القومية الأفريقية كذلك) .

وإلى جانب أسد بن الفرات وسحنون بن سعيد ، عرف العصر الأغلبي كذلك فقهاء أجلاء كان لهم دور مرموق في تقدم الدراسات الفقهية ويأتي على رأس أولئك الفقهاء : محمد بن سحنون بن سعيد (٣) التنوخي (٢٠٢ - ٢٥٦هـ) ابن الفقيه سحنون نفسه ، فلقد كان فقيهاً مرموقاً بجانب كونه محدثاً ، وعالم جدل أيضاً .. وفي الحقيقة أن ثقافته الواسعه وعلمه الغزير الموروث عن أبيه ، قد أهلاه إلى أن يحتل مكانه أبيه في إفريقية وقتذاك وأتفقت كلمة معاصرية كذلك على أنه كان إماماً في الفقه (٤) ، والواقع أنه أحدث في المغرب الأدنى آنذاك جواً علمياً زاخراً . وفوق هذا فقد فتح له باب في التأليف الغزير (٥) ففي الفقه وهو مايهمنا هنا ألف

---

(١) أنظر عياض : نفسه ، ص ٥٨٨ - ٥٨٩ - ٥٩٢ (حيث أورد أقوال معاصرية وغيرهم فيه) .

(٢) حسين مؤنس في مقدمته للجزء الأول من رياض النفوس للمالكي : ص ٢٤م .

(٣) ترجمته موجوده باستفاضة عند الخشني : طبقات علماء أفريقية ، ص ١٧٨ - ١٨٢ - الشيرازي : نفسه ، ص ١٣٤ - المالكي : نفسه ، ص ٣٤٥ - ٣٦٠ (وهى ترجمة مفيدة مهمه) عياض : نفسه ، ج٢ ،ص ١٠٤ - ١٠٧ - الدباغ : نفسه ، ج٢ - ص ١٢٢ - ١٣١ - الزركلي : نفسه ، ج٦ ، ص ٢٠٤ - ٢٠٥ وغير ذلك .

(٤) أنظر عياض نفسه ، ج٢ ، ص ١٠٤ - ١٠٥ - (حيث استعرض أقوال المعاصرين لمحمد بن سحنون من الإفريقيين وغيرهم) .

(٥) مقدمة تحقيق حسن حسني عبدالوهاب لكتاب محمد بن سحنون كتاب : آداب المعلمين ، ص ٣٥-٢٨ .

مؤلفات جمّة منها : كتابه الكبير : الجامع ، جمع فيه فنون العلم والفقه ويتكون من نحو ستين كتاباً أو جزءاً ، ثم كتاب تفسير الموطأ في ٤ أجزاء وكتاب : الإباحة والاشربة ، وتحريم المسكر ، ثم كتاب آخر وهو شرح الأربعة كتب من مدونة أبيه ، واخيراً كتاب فقهي آخر لأسئلة كان قد سئل عنها . (١)

ومن تلامذة سحنون ومن رجال العصر الأغلبي الذين أوسعوا الدراسات الفقهية تأليفاً وتصنيفاً ، محمد بن ابراهيم بن عبدوس بن بشير المشهور بابن عبدوس (٢) (ت : ٢٦٠هـ) ، فلقد كان هو الآخر (إماماً في الفقه ، عالماً بما اختلف فيه أهل المدينة . وما اجتمعوا عليه) (٣) . له مؤلف فقهي كبير يدعى بالمجموعة على مذهب الإمام مالك بن أنس (٤) . ولقد حذا حذو رصيفة محمد بن سحنون ، فألف أربعة أجزاء في شرح مسائل المدونة . (٥)

أما عبدالله بن أحمد بن طالب ، أبو العباس القاضي (٦) (ت :

---

(١) عياض نفسه ،ص ١٠٦ – ١٠٧ – مقدمة حسن حسني عبدالوهاب لكتاب آداب المعلمين ، ص ٢٥– ٢٧ .

(٢) مترجمته موجوده عند الخشني : نفسه ص ٢٣٧ – ٢٣٨ – الشيرازي : نفسه ، ص ٣٤ (باختصار شديد ٩ المالكي : نفسه ، ص ٣٦٠ – ٣٦٣ – عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ١٠٧ – ١٠٩ – الدباغ : نفسه ، ج٢ ، ص ١٣٧ – ١٤٤ – محمد بن محمد مخلوف : نفسه ،ص ٧٠ (وعنده أن وفاته سنة ٢٥٠ وهو خلالف للمشهور) .

(٣) عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ١٠٨ .

(٤) عياض : نفسه ، ص ١٠٨ .

(٥) عياض : نفسه .

(٦) الخشني كتاب نفسه ، ص ١٨٦ – ١٨٨ – الشيرازي : نفسه ، ص ٣٤ (باختصار) . =

٢٧٥هـ) ، فهو وأن لم يسهم في انتشار الدراسات الفقهية تأليفاً بكثرة ، فقد أسهم في تشجيع الدراسات الفقهية عن طريق المناظرة ، إذ يروى أنه كان (يجمع في مجلسه المختلفين في الفقه ، ويغرى بينهم ليظهر الفائدة ، ويبين لهم عن لبسه ويسامرهم ، فإذا تكلم أحيا وأبان حتى يود السامع ألاَّ يسكت) (١)

ومن فقهاء العصر الأغلبي المبرزين كذلك : يحيى بن عمر ابن يوسف ابن عامر الكناني (٢) (٢٨٩هـ) وهو أندلسي الأصل واستوطن إفريقية وتتلمذ على يد سحنون بن سعيد وغيره ، ثم سكن في آخر حياته مدينة سوسة . ويحيى بن عمر يعد أيضاً إماماً في الفقه حسبما يذكر أبو العرب التميمي (٣) ، ومن مولفاته الفقهية : كتاب : الرد على الشافعي ، وكتاب اختصار المستخرجه المسمى بالمنتخبة ، وكتاب فضل الوضوء والصلاة وكتاب اختلاف ابن القاسم وأشهب .. (٤) الخ .

ويعد عيسى بن مسكين القاضي (٥) (ت : ٢٩٥هـ) أحد الجلَّة

= المالكي : نفسه ، ص٣٤ (باختصار) . المالكي : نفسه والجزء ، ص٣٧٥ – ٣٨٧ عياض : نفسه ، ص ١٩٤، ٢٠٠ – الدباغ : نفسه ، ج٢ ، ص ١٥٩ – ومابعدها – الزركلي : نفسه ، ج ٤، ص ٦٥ ، ٩٢ (وعنده أن وفاته كانت عام ٢٧٦هـ) .

(١) المالكي : نفسه ،ص ٣٧٦ .

(٢) الخشني : نفسه ،ص ١٨٤ – ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس، ص ١٨٤ – المالكي : نفسه ، ج ٤ ص ٣٩٦ – ٤٠٤ عياض : نفسه الجزء الثاني ، ص ٢٣٤ – ٢٣٦ – الزركلي : نفسه ، ج٨ ، ص ١٦٠ .

(٣) نفسه ، ص ١٣٤ .

(٤) عياض : نفسه ، ج٢ ص ٢٣٤ .

(٥) ترجم له أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ١٤٢ – ١٤٣ . الخشني : نفسه ص ١٩٣ – ١٩٤ – =

البارزين من تلامذة سحنون ، فقد كان (كثير الكتب في الفقه والآثار .. متفننا في كل العلوم : الحديث والفقه ..) (١)

ومن الفقهاء الذين كان لهم دور في تنشيط الدراسات الفقهية في هذا العصر ، كذلك : أبو جعفر أحمد بن سليمان بن داوود المعروف بالصواف (٢) (ت : ٢٩١هـ) وأبو سهل فرات بن محمد العبدي (٣) (ت: ٢٩٢هـ) .

ولم تكن المرأة في هذا العصر الذي ازدهرت فيه الحياة العلمية بمنأى عن المشاركة في العلوم وخاصة الشرعية منها . فتروى لنا بعض المصادر والمراجع أن هناك بعضاً من النسوة اللائى شاركن في الدراسات الفقهية ، غير أنها للأسف لم تسعفنا بالتصريح باسمائهن فيما عدا ثلاث نساء كان لهن شهرة في وقتهن ، وهن : أسماء بنت أسد بن الفرات (٤) (ت: ٢٥٠هـ) وأشتهرت برواية الفقه والحديث على المذهب الحنفي ، وخديجة بنت سحنون ابن سعيد التنوخي (٥) (ت : ٢٧٠هـ) واشتهرت كذلك برواية الفقه على

= عياض : نفسه ج٢ ، ص ٢١٢ – ٢١٤ .

(١) عياض : نفسه ، ص ٢١٢ .

(٢) ترجمته موجودة عند أبي العرب التميمي : نفسه ، ص١٣٩ – ١٤٠ – المالكي : نفسه ، ص٤٠٧– ٤١٣ (مطولة) – محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ٧١ وغير ذلك .

(٣) ترجمته موجودة عند أبي العرب التميمي : نفسه ص ١٤١ – محمد بن محمد بن مخلوف : نفسه ، ص ١٧٢ وغير ذلك .

(٤) عمر رضا كحاله : أعلام النساء في عالمي العرب والإسلام ، الجزء الأول ، ص ٤٥١ ، والجزء الخامس ، ص ٣٠٤ (نقلا عن كتاب شهيرات التونسيات لحسن حسني عبدالوهاب) .

(٥) عمر رضا كحالة : نفس المرجع أعلاه ، ج١ ، ص ٢٣٢ – ٢٣٣ وج ٥ ، ص ٣٣٠ =

المذهب المالكي ، ثم مهربة الأغلبية (١) .

ومن فقهاء بقية مدن إفريقية المالكيين في هذا العصر الأغلبي ممَّن أدوا دوراً في تنشيط الدراسات الفقهية : أبو عبدالله محمد بن معاوية (٢) الحضرمي وهو من علماء طرابلس المبكرين ارتحل إلى المشرق وخاصة الحجاز حيث لقى في المدينة الامام مالكاً بن أنس ، ونذكر كذلك محمد بن ربيعة (٣) الحضرمي الطرابلسي ، وهو من علماء وفقهاء طرابلس المبكرين أيضاً ، وممَّن تلقى كذلك بعض علومه على يد علماء المشرق مثل مالك ابن أنس وغيره .

ولايفوتنا ذكر سعيد بن عياض السرتي (٤) (ت : ٢٠٠هـ) أحد علماء طرابلس ، وعبدالوهاب القيسي المتوفى بطرابلس (٥) . (عام ٢٠٠هـ) وعبدالله بن الشعاب (٦) (ت بطرابلس سنة : ٢٤٣هـ) .

=(نقلا عن حسن حسني عبدالوهاب في كتابه : شهيرات التونسيات) .

(١) عثمان الكعاك ، المجتمع التونسي على عهد الأغالبة ، ص ٣٦ .

(٢) ترجمته موجوده عند المالكي : نفسه ص ٢٠٤ - ٢٠٥ ، مع الحاشية رقم ٢، ص٢٠٤ - عياض : نفسه ، ج١ ، ص ٤٩٠ - ٤٩١ .

(٣) ترجمته عند : المالكي : نفسه حاشية رقم ٢، ص ٢٠٤ - عياض : نفسه ، ج١ ، ص ٤٩٠ .

(٤) أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ١٣٢ .

(٥) حسن سليمان محمود : ليبيا بين الماضي والحاضر ، ص ١٣٧ .

(٦) حسن سليمان محمود : نفس المرجع أعلاه والصفحة - أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ١٣٥ - ٢٣٦ صالح مفتاح : المرجع السابق ، ص ٢٢٢ .

ومن فقهـاء طرابـلس المذكورين : عبدالجبار بن خالد السرتي (١) (ت - ٢٨١ هـ) وهو أحد تلامذة الإمام سحنون بن سعيد المعدودين - ومنهم : ابراهيم بن محمد الغافقي (٢) قاضي طرابلس (ت : ٢٥٣هـ) وغيرهم .

ومن فقهاء مدينة قفصة بإقليم الجريد : حمد يس بن ابراهيم بن أبي صخر اللخمي (٣) (ت : ٢٩٩هـ) أي بعد قيام الدولة الفاطمية بثلاث سنوات وكان علماً من أعلام المدرسة السحنوية في قفصة وألف كتاباً في اختصار المدون ، وبعمله هذا يعد أول من اختصر المدونة من فقهاء المغرب الأدنى . (٤)

أما وقد أتينا على توضيح حالة الفقة المالكي في العصر الأغلبي فإن الحاجة ماسة هنا إلي توضيح حالة الفقه الحنفي والإباضي خلال هذا العصر .

أما الفقه والدراسات الفقهية الحنفية ، فقد مربنا خلال حديثنا عن الفقه في العصر الأغلبي ، أنها كانت موجودة على كل حال ، بيد أننا لانعدم أن نلاحظ في هذا العصر الذي نؤرّخ له وهو العصر الأغلبي كما ذكرنا أن معرفتنا قد ازدادت توسعاً عن طريق معرفتنا لشخصيات حنفية عديدة .

---

(١) عياض : نفسه ج٢ ، ص ٢٦٠ - ٢٦٢ - ٢٦٢ أحمد مختار عمر، نفسه ، ص ١٣٦.

(٢) صالح مفتاح : نفس المرجع السابق ، ص ٢٢٢ .

(٣) عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٢٥٩ - مجموعة من الأدباء والعلماء : تاريخ قفصة ، وعلمائها ص ١١٧ .

(٤) عياض : نفسه ، ص ٢٥٩ .

والواقع أنه كان لتشجيع أمراء الأغالبة الذين يتمذهبون بالمذهب الحنفي أثر في ظهورهم (١) واشتداد سواعدهم ، على أننا مع ذلك لم نحظ ، أمام أغفال مؤرخي التراجم وطبقات الفقهاء والمحدثين بالإشارة إلى أعدادهم ومجهوداتهم بالتحديد ، فالنزر اليسير للعلماء الذين أورد ذكرهم المؤرخون الذين ترجموا لعلماء وفقهاء إفريقية ، لايوضح حقيقة النشاط الفقهي الحنفي ، كما أنه من الإيجاز وعدم الوضوح بحيث لايسمح بتوضيح الصورة بالقدر المطلوب .

ومهما يكن ، فإن كثيراً من المؤرخين القدامى يعدون أسد بن الفرات إماماً للعراقيين (٢) ، بمعنى أنه حنفى المذهب ، وخاصة بعد أن انصرف الناس عن كتابه الأسدية إلى مدونة سحنون كما مربنا . غير أن عبدالعزيز المجذوب يؤكد - وهو رأي وجيه نتفق معه فيه - أن أسداً لم يكن حنفياً ، بل هو مالكي المذهب، على بعض اتجاهاته واستقلالاته عن المذهب المالكي (٣). ولقد مضى عبدالعزيز المجذوب يسوق الأدلة على أن أسداً لم يكن حنفياً ، ولكن فاته أنه يدعم وجهة نظره بأن يشير إلى أن موقف أسد من المذهبين المالكي والحنفي يشبه إلى حد كبير موقف عبدالله بن فروخ ، فعبدالله بن فروخ كان مالكياً مافي ذلك شك ، بيد أنه له اتجاهاته الاستقلالية بعض

(١) أنظر في هذا الصدد حسين مؤنس ، مقدمة الرياض ، ص ٢١٥ - حسن أحمد محمود : الإسلام والثقافة العربية في إفريقية ، ص ١١٦ - ١٧٠ - عبدالعزيز المجذوب : نفسه ، ص ٦١ - ٨٧ السيد محمد أبو العزم داود : نفسه ، ص١١٧ - ١٢٦ .

(٢) أنظر عبدالعزيز المجذوب : نفسه ، ص ٥٢ -٥٤ ، ٥٦ .

(٣) نفسه ، ص ٥٢ - ٥٣ ، ٥٤ - ٥٦

الأحيان عن المذهب المالكي كما عرفنا .

وعلى أيه حال ، فإن افريقية عرفت خلال العصر الأغلبي ، فقهاء أحناف ، نذكر منهم : عباس الفارسي ، وهو آحد الغلاة في مذهبه ، وبلغ به تعصبه لمذهبه ، أن أحرق (كتب المدونة وغيرها من كتب المدنيين) ممّا حدا بأسد بن الفرات إلى ضربه والتشهير به (١) ، ثم معمر بن منصور ، وقد كان له موقف فيما يقال في إثناء أسد بن الفرات عن الإنصياع لرأي ابن القاسم عندما طلب منه أن يعرض كتبه على كتب سحنون ، وهو كذلك أحد تلاميذ أسد المشهورين (٢) ، ومن فقهاء الأحناف المشهورين آنذاك (سليمان بن عمران (٣) (ت : ٢٧٠ هـ) وهو من طلبة أسد أيضا ، وكذلك منهم القاضي ابن أبي الجواد (٤) ، وعبدالله بن الأشج (٥) ، وابن أبي المنهال (٦) ، وابن عبدون (٧) وكلهم تولوا القضاء في العصر الأغلبي ، ثم (يحيى بن محمد بن قادم وهو من أعيان علماء الأحناف آنذاك ويذكر أنه هو وأهل بيته : بنو قادم كانوا مشهورين بالعلم والفقه على مذهب ابي حنيفة النعمان) (٨)

(١) عياض : نفسه ، ج١ ، ص ٤٧٣ .

(٢) المالكي : نفسه ، ج١ ، حاشية رقم ٢ ، ص ٤٤٩ – ٥٠٠ .

(٣) الخشني : نفسه ، ص ١٨٠ –١٨٣ .

(٤) عياض : نفسه ، ج١ ، ص ٦٠١– ٦٠٢، ٦٠٥ .

(٥) الخشني : نفسه ، ص ١٩٣ .

(٦) الخشني : نفسه ، ١٩١ .

(٧) الخشني : نفسه ، ص ١٨٧ – ١٨٩ .

(٨) الخشني : نفسه ، ص ١٩٧ ، حسن حسني عبدالوهاب : الورقات ، القسم الثاني ، حاشية رقم ٢، ص ٣٦٤ .

أما فيما يخص فقهاء المذهب الشافعي – وقد ذكرنا من قبل أن إفريقية عرفت بعضاً منهم (١) ، فقد أسعفتنا بعض المصادر والمراجع بذكر بعضهم ، فمن هؤلاء الذين عاشوا في العصر الأغلبي : أبو عبدالله محمد ابن علي البجلي (٢) . ولايعرف شيء لسوء الحظ عن تاريخ ولادته ووفاته ، غير أنه عاش في العصر الأغلبي وعرض عليه أبو العباس عبدالله بن ابراهيم بن الأغلب (١٩٦ – ٢٠١ هـ) القضاء فامتنع . وقد كانت له رحلة إلى المشرق قابل خلالها تلاميذ الإمام الشافعي، ومن مؤلفاته الفقهيه : كتاب الرد على الشكوكية وكتاب الحجة في الشاهد واليمين في أربعة أجزاء (٣) ، ومنهم كذلك ابن العباداني (٤) وكان معاصراً لمحمد بن سحنون وعبدالله بن طالب القاضي ومنهم ابن المشاط (٥) الذي مال إلى مذاهب عدة ومنها المذهب الشافعي ومنهم أيضاً عبدالملك (٦) بن محمد أو محمود الضبي ، وكان له صولة في المناظرة والجدل عن مذهبه بالإضافة إلي فقهه وهو من أصحاب أبي عبدالله محمد بن علي البجلي .

وفيما يختص بدراسات الفقه الإباضي في العصر الأغلبي في إقليم

---

(١) أنظر قبل ٣٠٥ ومابعدها .

(٢) السيد محمد أبو العزم داود : المرجع السابق ،ص ٦٩ – عبدالعزيز المجذوب ، نفسه ، ص ٨٨ .

(٣) السيد محمد أبو العزم داود : نفسه ، ص ٧٠ .

(٤) عبدالعزيز المجذوب : نفسه ، ص ٨٨ .

(٥) عبدالعزيز المجذوب : نفسه ، ص ٨٨ .

(٦) السيد محمد أبو العزم داود : نفسه ، ص ٧٠١ (وعنده أن اسمه هو محمد) عبدالعزيز المجذوب : نفسه ، ص ٨٩ وعنده اسمه محمود .

الجريد وجبل نفوسة بطرابلس فقد توسعت بالطبع ، وبدأت تظهر في إقليم الجريد قواعد فقهية إباضية (١) كاملة ومن بين المؤلفات الفقهية التي ظهرت هناك آنذاك : مسند الربيع (٢) . وهو أحد فقهاء الإباضية المعروفين بالجريد وقتذاك ومدونة أبي غانم بشر بن غانم (٣) الخراساني الأصل ، وهي وإن لم تكن نتاجاً محلياً إلاَّ أنها أحدثت في الجريد دون شك أثراً علمياً . ومن بين الفقهاء الإباضية الذين عاشوا في الجريد في العصر الأغلبي ، يطالعنا اسم أبو يعقوب يوسف بن ابراهيم (٤) السدراتي المعروف بالمطرفي ، الذي ألف كتاباً عرف بكتاب العدل والإنصاف ، وأبو الربيع سليمان بن يخلف (٥) ، وقد دون في الفقه ديوانين ، وابن سلام (٦) بن عمر وكان فقيهاً ومؤرخاً أيضاً ، وقد ذكر أنه سكن مدينة توزر وكتب فيها تآليفه بعد سنة ٢٦٠ هـ . (٧)

وفي جبل نفوسة تطالعنا بعض أسماء لامعه في الفقه الإباضي منهم نفاث بن نصر النفوسي الذي كانت له اجتهادات فقهية مشهورة على مذهبه، وقد رحل إلى المشرق للسماع من شيوخ

---

(١) صالح باجيه : نفسه ، ص ٥٤ .

(٢) صالحباجيه نفسه .

(٣) صالح باجيه : نفسه ،ص ٥٤ .

(٤) صالح باجيه : نفسه ، ص ٥٥ ، (ويدعوه هنا بأبي يوسف بن ابراهيم) ص ١٦٨ – ١٦٩ مع الحواشي (ويدعوه بأبي يعقوب يوسف بن ابراهيم السدراتي المعروف بالمطرفي) .

(٥) صالح باجيه : نفسه ، ص ٥٥١ .

(٦) صالح باجيه : نفسه ، ص ٢٠٦ .

(٧) صالح باجيه : نفسه ، ص ٢٠٦ .

المذهب الإباضي (١) وأبو عبيده الجناوني (٢) وكذلك مهدي النفوسي ، ثم عمروس بن فتح النفوسي (٣) (ت : ٢٨٣هـ) وكان فقيها مبرزا له عدة مؤلفات فقهية ، منها الكتاب المعروف بالعمروسي ، وممَّا ينسب إليه أنه باشر وضع موسوعة علمية فقهية مستمدة أحكامها من مصادر التشريع الإسلامي الأربعة . (٤) وأخيراً هناك أبو الفضيل العباس بن محمد الصواف الغدامسي (ت : ٣٠٩هـ) وهو وإن توفى بعد سقوط الدولة الأغلبية ، إلاَّ أنه عاش ستة وتسعين عاماً ، عاش منها في العصر الأغلبي ثلاثة وثمانين عاماً (٥) ومنهم مجموعة ذكر على يحيى معمر اسماءهم . ولكنه لم يورد شيئاً آخر أكثر من ذلك (٦) .

---

(١) أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ١٣٤ - ١٣٥ - علي يحيى معمر : الأباضية بين الفرق الإسلامية عند كتاب المقالات في القديم والحديث ، ص ٢٦٤ - ٢٧١ .

(٢) أحمد مختار عمر ، نفسه ، ص ١٣٨- ١٣٩ .

(٣) أحمد مختار عمر : نفسه .

(٤) أحمد مختار عمر : نفسه ،ص ١٣٩ .

(٥) صالح مفتاح : المرجع السابق ،ص ٢٢٤ - ٢٢٥ .

(٦) الإباضية بين الفرق الإسلامية ، ص ١٣٢ ومابعدها .

الفقة في عصر الفاطميين (٢٩٦ - ٣٦٢هـ) :-

مثلما كان انتصاب الدولة الأغلبية في إفريقية مؤذناً بتحول سياسي واجتماعي وعلمي وثقافي فقد كان قيام الدولة الفاطمية هنا كذلك . بل إن العلوم والآداب - وهي ماتهمنا قد تطورت وتقدمت أوجهها تقدماً كبيراً أكثر من ذي قبل .

وفي الحقيقة فقد اقترن قيام الدولة الفاطمية بتغير جذري في الأوضاع السياسية والمذهبية ، ورابح بونار في كتابه (١) المذكور سابقاً على حق فيما ذهب إليه من أن عصر الدولة الفاطمية يصح أن يكون فارقاً جذرياً بين عصر ثقافي وآخر ، ذلك لأن المغرب على أيدى الفاطميين - وإن كان قد تحقق له وحدة شبه تامة - ، فإنه في ظل هذه الوحدة تحقق للمغرب استقرار نسبي آثر من غيرشك على الحياة العلمية هناك في هذه الفترة . (٢)

غير أن ازدهار العلوم والمعارف في عهد الفاطميين قد صاحبه تحول في المفهوم المعتقدي ، فغدت الحياة الفكرية والعلمية في عهدهم تهدف إلى (إشاعة تيارات فكرية مختلفة كالدعوة إلي التشيع وتثبيت فكرة المهدوية في النفوس ، ونصرة التعاليم الفلسفية المشوبة بضروب السحر لخدمة ذلك وتسخير الشعر والأدب لهذه الغاية ، كما أن الحكومة عملت على تنظيم الدعايات الدينية والسياسية تنظيماً دقيقاً وإحداث مناصب مهمة كداعي

(١) المغرب العربي ، تاريخ وثقافته ، ص ٦٩ .

(٢) أبو القاسم كرو وعبدالله شريط ، المرجع السابق ص ١١٣ .

الدعاة وأعوانه ، وتعزيز ذلك ببيت الحكمه ، ومحاولة القضاء على المذهب السني لإحلال المذهب الشيعي الإسماعيلي محله ودراسة تفاريق النحل وغيرها) (١) .

ولقد ترتب على هذا التعسف المذهبي من قبل الفاطميين ثورة المالكية وتصديهم للمقاومة فيما يرونه زيفاً وانحرافاً بكل ما أوتوا ، وإذا كنا سنرسم من بعد أبعاد ذلك الصراع وانعكاسات تلك المقاومة ، فإن مايمكن ملاحظته ممَّا نعكس على الدراسات الفقهية من جراء مواقف الفاطميين واتساع دائرة البحوث الفقهية المالكية ، ونشاط المناظرات وأغلبها عقدي بين علماء الشيعة والسنة ، كما ظهرت مؤلفات شيعية عقدية في الأغلب وفقهية في الأقل القليل .

على أن الدراسات الفقهية المالكية ما فقدت زخمها وزعامتها لكل قنوات العلوم والمعارف في هذا العصر ، فقد شهدت الدراسات الفقهية آنذاك توسعاً في الكم والكيف .وعلى أية حال ، فإذا مضينا نتتبع مسيرة الفقه والدراسات الفقهية خلال العصر الفاطمي ، فإننا لن نفاجأ إذا عرفنا أن زعامة الفقه ما انفكت معقودة اللواء لتلاميذ سحنون ، بل وتلامذة تلامذته والواقع أن هذا القول ، هو أحد الحقائق الرئيسية في مسيرة الدراسات الشرعية عموماً في إفريقية خلال الفترة الزمنية موضوع الرسالة، فالشيخ والأستاذ هو سحنون ، ولاشيخ أو أستاذ غيره . وكل من جاء بعده ، فهو تبع له .

---

(١) رابح بونار : المرجع السابق ، ص ١٨٥ .

ومن فقهاء المالكية المبكرين في هذا العصر الذين عاصروا في السنوات الأخيرة من عمرهم الفاطميين حماس بن مروان بن سماك الهمداني (١) القاضي (ت ٣٠٣هـ) ، وقد ذكر أنه كان عالماً مبرزاً في فقهه ، حتى قيل إن الفقه كان أكبر شأنه (٢) ومنهم محمد بن بسطام (٣) ابن رجا الضبي (ت : ٣٠٣هـ)، وهو عراقي الأصل إفريقي المستوطن . وقد أحدث نهضة علمية فقهية في إفيريقية، ومما يؤثر عنه أنه أدخل إلى إفريقية، كثيراً من المؤلفات لكبار علماء المالكية المشارقة ، لم تكن قد دخلت البلاد من قبل (٤) . ومنهم أبو جعفر أحمد بن أحمد بن زياد الفارسي القيرواني (٥) (ت : ٣١٩هـ)، وقد تلقى علومه الدينية على يدي كبار تلامذة سحنون من أمثال ابن عبدوس ، وعيسى بن مسكين وغيرهما ، ومن مؤلفاته الفقهية : أحكام القرآن في عشرة أجزاء وكتاب مواقيت الصلاة وغير ذلك (٦) ومن الفقهاء المشهورين بإفريقية وقتذاك ، أبو بكر محمد بن محمد بن وشاح المعروف باللباد (٧)، (ت: ٣٣٣هـ) ، وكان ذا جلالة

---

(١) ترجمته وردت عند كل من الخشني : نفسه ، ص ٢٠٧ – الدباغ : نفسه ، ج٢ ، ص٣٢٠– ٣٣٠ ، ابن فرحون نفسه ، ص ١٠٨ – ١٠٩ .

(٢) الخشني : نفسه ، ص ٢٠٧ – الدباغ : نفسه ، ج٢، ص ٣٢٠ .

(٣) ترجمته وردت عند كل من الحجوى الفاسي : المرجع السابق ، الجزء الثاني ، ص ١٠٤ – حسن حسني عبدالوهاب الورقات ، القسم الثاني ، ص ١٤٢ – ١٤٣ وغير ذلك .

(٤) الحجوى الفاسي : نفس المرجع السابق ، والجزء أعلاه ص ١٠٤ .

(٥) ترجمته موجودة عند : محمد بن محمد مخلوف : المصدر السابق ،ص ٨١ – ٨٢ .

(٦) محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ٨١ .

(٧) عياض : نفسه ، الجزء الثاني ، ص٣٠٤ – ٣١٠ ، ابن فرحون : نفسه ، ص ٢٤٩ – محمد بن +

في الفقة والتفسير ، وهو ممَّن وقت وقفه شديدة ضد الفاطميين كما سنعرف بعد . وكان من فقهاء إفريقية المكثرين تأليفاً، وله عدة مؤلفات فقهية منها : كتاب الطهارة ، وكتاب الآثار والفوائد في عشرة أجزاء (١)، وكتاب كشف الرواق عن الصروف الجامعة للأوراق في أوزان الصرف الشرعية والأواقي (٢) ، وغير ذلك . وأبو الفضل العباس بن عيسى الممسي (٣) (ت : ٣٣٣هـ) كان عالما مشهوراً في أكثر من فن وهو أحد الذين قتلوا على يد الفاطميين كما سنعرف (٤) . وله مؤلفات فقهيه منها : (كتاب تحريم المسكر وكتاب قبول الأعمال ، وكتاب : اختصار كتاب محمد بن المواز (٥) . ومن أولئك الفقهاء المبرزين كذلك ، أبو سليمان ربيع بن عطاء الله المعروف بالقطان (٦) (ت: ٣٣٣هـ) وهو من أشهر علماء وعباد وزهاد إفريقية آنذاك، وكان بالإضافة إلى ذلك عالماً بالفقه والحديث والقرآءات (٧) ، غير أنه كان مقلا في التأليف، ولم نجد ذكراً لأي مؤلفات له ، وهو كذلك ضحية من ضحايا الموقعة (٨) ضد الفاطميين عام ٣٣٣هـ ، ومنهم أبو العرب محمد بن

= محمد مخلوف : نفسه ، ص ٨٤ – الكناني القيرواني : نفسه ، تعليق رقم ٢٠٥ – ص ١٤٦ .

(١) عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٣٠٤ – الكناني القيرواني : نفسه ، نفس التعليق والصفحه أعلاه .

(٢) الكناني القيرواني : نفسه .

(٣) ترجمته مفصله ومتسعه عند عياض : نفسه ، ج ٢ ، ص ٣١٣ – ٣٢٠ .

(٤) أنظر بعد

(٥) عياض : نفسه ، ص ٣٢٤ .

(٦) له ترجمه موسعة عند عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٣٢٣ – ٣٣٢ .

(٧) عياض : نفسه ، ص ٣٢٣ – ٣٢٤ .

(٨) أنظر بعد ص ٥٥٠ – ٥٥١ .

أحـــمــد بن تميم بن تمام بن تميم التـمـيـــمي (١) (ت : ٣٣٣ هـ) ، وهو أحدفقهاء هذا العصر المشهورين وله مشاركات كذلك في أكثر من فن ، وإن كان الحديث هو الغالب عليه كما يقــول عيــاض (٢) ، وهــو من المشهورين بغزارة التـأليف، فذكــر أنه له ٣٥٠٠ كتـــاباً (٣) حســـب مـفـهوم الأولين لمعنى الكتاب بالطبع (٤) - مع مافيه من مبالغة شديدة - ومن مؤلفاته الفقهية كتاب الوضوء والطهارة ، وكتاب الجنائز وذكر الموت وعذاب القبر ، وكتاب في الصـلاة وغير ذلك (٥) . وهــو كذلك أحد الذين قتلوا في الموقعة ضد الشيعة (٦) . ومن فقهاء العصر المشهورين عبدالله بن أبي القاسم بن مسرور التجيبي (٧) ، المعروف بابن الحجاج أو الحجام (ت : ٣٤٦هـ) وهو ممَّن سمع من كبار أصحاب سحنون بن سعيد ، وممَّن رحل إلى المشرق

---

(١) له ترجمة موسعة عند عياض : نفسه ، ص ٣٣٤ - ٣٣٦ - ابن بشكوال ك الصلة ص ٨٣- ٨٤- الصفدي : الوافي بالوفيات ، الجزء الثاني ، ص ٣٩ - الذهبي تذكرة الحفاظ ، الجزء الثالث ، ص ٨٨٩ - ٨٩٠ - السيوطي : طبقات الحفاظ ، ص ٣٦٣- ٣٩٧ - الكتاني القيرواني : تعليق رقم ٥ ، ص ٤ .

(٢) المدارك ، ج٢ ، ص ٣٣٥ .

(٣) عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٣٣٤ - ابن العمادالحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، المجلد الثاني ، ص ٣٣٤ .

(٤) أنظر قبل ص٢٧٩ ، (وحيث وضحنا مفهوم الكتاب في عرف المؤرخين القدامي) .

(٥) عياض نفسه ، ص ٣٣٥ .

(٦) أنظر بعد ٥٥٠ - ومابعدها .

(٧) ترجمته موجوده عند : عياض نفسه ، ص٣٤٠ - ٤٤٣ (عنده أنه ابن الحجاج) - ابن فرحون المصدر السابق ، ص١٣٥ - ١٣٦ (وعنده أن اسمه هو عبدالله بن أبي هشام بن مسرور التجيبي المعروف بابن الحجام .

وقابل عدداً من الشيوخ حسبما أشرنا من قبل . وكان واسع التأليف والتصنيف وقد ذكر أنه ترك مامجموعة سبعة قناطير كتب بخطه (١) ، وذكر ابن فرحون أنها تسعة وليست سبعة وسمى منها كتاباً واحداً وهو كتاب المواقيت ومعرفة النجوم والأزمان (٢) ومن فقهاء المالكية أيضاً أبو العباس عبدالله بن أحمد بن ابراهيم بن اسحاق المعروف بالأبياني (٣) (ت : ٣٥٢هـ) ، الذي تفقه على يد طلبة سحنون أيضاً ، وقيل إنه مع حفظه لمذهب مالك إلاَّ أنه كان ذا ميل لمذهب الشافعي (٤) ، وهو ممَّن له رحلة مشهورة كما قد عرفنا (٥) . وممَّا يؤثر عنه ميله إلى القاء المسائل الفقهية ومدارستها (٦) . وقد ذكر أنه كان يفصل المسائل كتفصيل الجزار الحاذق اللحم (٧) . ونذكر أبا القاسم بن زياد بن يونس (٨) (ت٣٦١هـ) وهو أحد علماء وفقهاء هذا العصر المشهورين . ويذكر أنه أول من أدخل كتاب محمد ابن المواز إلى إفريقية (٩) .

---

(١) عياض : نفسه ، ص ٣٤١ .

(٢) نفسه ، ص ١٣٥ .

(٣) ترجم له عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٣٤٧ – ٣٥٢ . ترجمة موسعة بعض الشئ .

(٤) عياض : نفسه ، ص ٣٤٧ .

(٥) أنظر قبل ١٢٨ وماقبلها .

(٦) عياض : نفسه ، ص ٣٤٨ .

(٧) عياض : نفسه ، ص ٣٤٨ .

(٨) الدباغ : نفسه ، ص ٧٩ .

(٩) ابن المواز : هو أبو عبدالله محمد بن ابراهيم الاسكندراني : كان من علماء وفقهاء المالكية في مصر المشهورين وقد أخذ عن كبار علماء عصره من المالكية ، وهو ممَّن أثر في المغاربة بمؤلفاته ومن بينها كتاب : الموازية الذي أدخله زياد بن يونس إلى إفريقية كما قلنا في المتن ، وهو من =

ومن فهاء بقية أقاليم ومدن إفريقية في عصر الفاطميين نجد عدداً لابأس به ، وإن لم تكن تراجمهم مسهبة كي نستطيع تفهم عطائهم العلمي أكثر فأكثر، وأغلبهم بالإضافة إلي أنه فقهاء كانوا محدثين وأهل مناظرة وجدل . فمن الفقهاد المبكرين في إقليم طرابلس : أبو العباس اسحاق بن ابراهيم الأزدي الصايغ المعروف بابن بطريقة (١) (ت : ٣٠٣ أو ٣٠٥ هـ) وهو من فقهاء طرابلس الثقات المأمونين . ومن فقهاء طرابلس كذلك أبو الأسود موسى بن عبدالرحمن بن حبيب القطان (٢) ، (ت ٣٠٦هـ) ، وهو من الثقات في مذهب مالك وكان يحسن الكلام في الفقه على مذهبه ، وله كتاب احكام القرآن في أثني عشر جزءاً (٣) ، ومن علماء مدينة تونس ، أبو جعفر أحمد بن موسى التمار (٤) (ت : ٢٢٩هـ) وأبو البشر محمد بن أحمد بن يونس السوسي (٥)(ت : ٣٣٢هـ) وهو من فقهاء هذه المدينة المعروفين آنذاك . ومن علماء وفقهاء مدينة باجة أبو عبدالله بن محمد بن غلبون الصنهاجي المعروف بالوقاد (٦) (ت: ٣٢٩هـ) وكان الفقه والمناظرة

= أجل كتب المالكية وأصحها وأعبها وأبسطها ، وتوفى ابن المواز سنة ٢٦٩ هـ ، أنظر ، الحجوي الفاسي : نفسه ، ج٢ ، ص ١٠١ .

(١) الدباغ : نفسه ، ص ٣٣٠- ٣٣١ .

(٢) ابن فرحون : نفسه ، ص ٣٤٢ - ٣٤٣ - أحمد مختار عمر : نفسه ، ص١٣٨ .

(٣) أحمد مختار عمر : نفسه .

(٤) عياض : نفسه ، ج٢ ، ص٣٣٨ .

(٥) عياض : نفسه ، ص ٣٥٣ - ٣٥٤ .

(٦) عياض : نفسه ، ص ٣٤٦ .

وجودة العزيمة أغلب عليه من الحفظ (١) ومن مدينة قفصة يوسف بن عبدالله القفصي التميمي (٢) (ت ٣٣٦هـ) أما علماء مدينة سوسة فقد عرف آنذاك منهم أبو علي الحسن (٣) بن نصر السوسي (ت : ٣٤١هـ) وكذلك عبدالله بن حمود السلمي السوسي المعروف بابن (٤) الحفنه (ت : ٣٥٧هـ)

وفيما يتعلق بالفقه والفقهاء الأحناف ، فقد كان لهم دور مؤثر في إفريقية خلال حكم الفاطميين ، ولقد استعان بهم هؤلاء في تولي مناصب القضاء في دولتهم نكاية في المالكيين . (٥) غير أن النشاطات العلمية لهم وخاصة الفقهية لانعرف للأسف شيئاً عنها . ولعل أقصى مانعرفه من الفقهاء – وقد أغفل مؤرخو التراجم عمدا ذكرهم – ، هو عدة أسماء ماكان ليمكن أن نعرفها لولا أن ذكرها أولئك المؤرخون عرضاً في حديثهم عن المضايقات التي واجهها بعض المالكية من الفاطميين وأتباعهم .

وعلى أيه حال فقد عرف عدد من أولئك الفقهاء الأحناف ، نذكر منهم محمداً بن الكلاعي (كان معاصراً للخليفة عبيدالله المهدي) ، وقد ألف كتاباً يرد فيه على من لايقول بخلق القرآن (٦) ولقد كان له موقف ضد بعض علماء المالكية ، وسعى بهم عند عبيدالله المهدي الذي قضى عليهم كما

---

(١) عياض : نفسه ، ص ٣٤٦ .

(٢) عياض : نفسه ، ص ٣٥٦ .

(٣) عياض : نفسه ، ص ٣٦٣ – ٣٦٦ .

(٤) عياض : نفسه ، ص ٣٧٥ – ٣٨٦ . .

(٥) السيد محمد أبو العزم داود : نفسه ، ص ٢٨٩ ، ومابعدها .

(٦) السيد محمد أبو العزم داود : نفسه ، ص ٢٦٣ – ٢٩١ .

سنعرف في مكانه بعد . ومن أولئك العلماء محمد بن سيرين (كان معاصراً كذلك (١) لعبيدالله المهدي) وجعفر بن أحمد بن وهب (٢) ، ومنهم كذلك أبو اسحاق بن المنهال (٣). وقد تولى القضاء في عهدهم ، وأحمد بن بحر (٤) ، ومحمد بن عمران النفطي (٥) الحنفي ، والقاضي المروذي (٦) وغيرهم .

وفيما يختص بالفقهاء الشافعية ، فلقد ندر وجودهم في هذا العصر، ولانعرف عن أسمائهم فضلاً عن نشاطاتهم إلا نزراً يسيراً جداً من المعلومات، ومن الذين نص على ذكرهم : أبو العباس (٧) بن السندي ، وقد تعرض لمحنة في أول دخول الفاطميين على يد داعيتهم أبي عبدالله ، ومنهم أبو ابراهيم اسحاق بن النعمان (٨) ، وهو وإن لم يذكر أنه عاصر الفاطميين صراحة ، إلاَّ أنه تلقى بعض علومه على يد يحيى بن عمر المتوفي (٢٨٩هـ) تلميذ سحنون ، ومن هنا جاز أن نعده من رجال العصر الفاطمي (٩) .

ولقد ذكر الخشني أن مذهبه مذهب الشافعي وكان من قبل مالكياً

---

(٦) السيد محمد أبو العزم داود ، نفسه ٢٨٩ .

(٢) السيد محمد أبو العزم داود : نفسه ، ص ٢٩٠ .

(٣) السيد محمد أبو العزم داود : نفسه ،ص ٢٩٠ .

(٤) السيد محمد أبو العزم داود : نفسه ، ص ٢٩٠ .

(٥) السيد محمد أبو العزم : نفسه ، ص ٢٩٠ .

(٦) السيد محمد أبو العزم : نفسه ، ص ٢٦٣ ، ٢٩١ .

(٧) السيد محمد أبو العزم داود : نفسه ،ص ٧٠ .

(٨) الخشني : نفسه ، ص ٢١٤ .

(٩) أنظر الخشني : نفسه .

ومتشدداً (١) . أما ماذكر عن أبي عثمان سعيد بن الحداد ، من أنه كان شافعياً فمسألة لم تثبت بالدليل القاطع ويكفى أنه ألف كتاباً انتقد فيه الشافعي . ولم يستطع اتباعه من المصريين الرد عليه (٢) .

وفيما يختص بالفقه والدراسات الفقهية الإباضية سواء في الجريد أو في جبل نفوسة في العصر الفاطمي فيبدو أنها كانت أفضل حظاً في الإشارة إليها على ضآلتها - من الدراسات الحنفية ، ومن أهم الأسماء التي ورد ذكرها عن علماء الجريد ، أبو نوح سعيد بن يخلف المزاتي ، وكان عالماً إباضياً لامعاً وامتدحه الخليفة الفاطمى المعز لدين الله (٣) . وكانت له آراء تربوية جيدة كذلك في نقد بعض سلوكيات مجتمعه الإباضي هناك (٤). ومنهم أبو خزر يعلا بن أيوب ، وأبو نوح سعيد بن زنفيل (٥) .

ومن علماء وفقهاء الإباضية بالجريد وقتذاك العلامة يخلف بن يخلف النفوسي (٦) التمجاري وأبو الحسن علي بن يخلف (٧) ، وأبو القاسم يزيد بن محمد الوسياني ، وكان له مكانة عالية عند الخليفة المعز لدين الله

---

(١) نفسه ، ص ٢١٤ .

(٢) أنظر بعد ٥٤٧ ومابعدها .

(٣) صالح باجيه : نفسه ، ص ١٩٨ .

(٤) صالح باجية : نفسه ، ص ١٩٩ - ٢٠٠ (وعنده أن اسمه هو أبو نوح سعيد بن زنغيل) - علي يحيى معمر : الإباضية في الجزائر ، ص ١٦٣ .

(٥) علي يحيى معمر : نفس المرجع أعلاه ، ص ١٦٣ - ١٧٤ .

(٦) صالح باجية : نفسه ، ص ٢٠١ .

(٧) صالح باجية : نفسه .

الفاطمي (١) .

أما علماء وفقهاء الإباضية في جبل نفوسه آنذاك فقد عرف منهم أبو يحيى سليمان بن ماطوس (٢) ، وأبو هارون موسى بن يونس الجلاطي (٣) وأبو نصر زار بن يونس التيفسني (٤) ، وورا سفلان بن مهدي وكان أحد المهتمين بالمسائل الفقهية (٥) .

وفيما يتعلق بالفقه والدراسات الفقهية الشيعية المحضة علينا أن نشير في أسف إلى أننا لم نعثر على معلومات شافية عن مسيرتها خلال العصر الفاطمي الذي امتد في إفريقية إلى أكثر من نصف قرن ، ولعل من البدهي الاّ ننتظر من مؤرخي الطبقات والتراجم المغربية وكلهم مالكي المذهب أن يشرحوا لنا أبعاد تلك الدراسات ، وهم الذين غضوا الطرف عمّن يشاركوهم مذاهبهم الفقهية السنية أعني الأحناف والشافعية وعندما تصدى المؤرخون المتأخرون من المصريين كالمقريزي وابن تغرى بردى وغيرهما ، ثم من تبعهم من المحدثين للتاريخ للدولة الفاطمية لم يعنوا كثيراً بالحديث عن الدور الحضاري المغربي من تاريخ الدولة الفاطمية وهو لايتناسب البتة مع الدور المصري مع أننا لاننسى الفارق الزمني بين الدورين بالطبع ، ولذلك فإن معلوماتنا عن الدراسات العلمية الشيعية ومنها الفقهية جد ضئيلة وليس

---

(١) صالح باجيه : نفسه ، ص ١٢٦ - ١٢٨ .

(٢) أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ١٢٤ .

(٣) أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ١٣٤ .

(٤) أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ١٢٥ - ١٢٦ .

(٥) أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ١٢٤ .

أمامنا من معلومات عن الفقه الشيعي إلاَّ ماورد في ترجمة أشهر شخصية (تشريعية) شيعية في بلاد المغرب ، بل وفي كل دور الدولة الفاطمية ومذهبها الإسماعيلي هذه الشخصية : - هي شخصية القاضي النعمان بن حيون ، والقاضي النعمان بن حيون هو أبو حنيفة النعمان بن أبي عبدالله محمد بن أحمد بن حيون التميمي المغربي (١) (ت : ٣٦٣هـ) . ولقد كان النعمان في بداية أمره مالكي المذهب ، إلاَّ أنه انتحل بعد ذلك المذهب الإسماعيلي فأخلص له حتى أصبح دعامة من دعاماته (٢) . ولقد عاصر النعمان بن حيون كل خلفاء الفاطميين في المغرب : المهدي والقائم ، والمنصور والمعز ، وكان طيلة التصاقه بهم سنداً قوياً رئيسياً لهم، ولقد ولوه القضاء في بداية، أمره وخاصة في عهدي القائم والمنصور ثم رئاسة القضاء بعد ذلك في عهد المعز لدين الله (٣) . ولقد بلغ النعمان من المكانة والنفوذ في الدولة الفاطمية في المغرب ثم في مصر بلوغاً لم يصل إلى مثيله إلاَّ قلائل جداً من رجالات الدولة . ولذلك فلقد كان يعرف عند الإسماعيلية بسيدنا القاضي النعمان للتفريق بينه وبين الإمام أبي حنيفة كما كان يسمى باسم سيدنا الأوحد ، وأحيانا القاضي الأجل ، وعرف كذلك بأبي حنيفة الشيعة (٤) وقد وصل إلى مرتبة الحجة المعلومة المعروفة عند الشيعة كما يظن

---

(١) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : المعز لدين الله ، ص ٢٥٨ .

(٢) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفس المرجع أعلاه والصفحه .

(٣) حسن ابراهيم حسن : نفسه ، ص ٢٥٨

(٤) حسن ابراهيم حسن : نفسة

حسن ابراهيم حسن (١) . كما أطلق عليه الداعية أيضاً . وقد وصفه بعض المؤرخين كابن خلكان (٢) بأنه (كان عالماً بوجوه الفقه وعلم اختلاف الفقهاء) إلى غير ذلك من العلوم والفنون . ولقد انفتح له باب عريض في التأليف في شتى الموضوعات وقيل بلغ عددها بضعة وأربعين كتاباً (٣) .

ونحن هنا لن نتحدث إلاَّ عن مؤلفاته الفقهية فقط مؤجِّلين الحديث عن بقيه كتبه في مكانها بعد إن شاء الله . ولعل أهم كتاب فقهي له ، بل للشيعة الإسماعيلية على الإطلاق ، هو كتاب : دعائم الإسلام في ذكر الحلال والحرام والقضايا والأحكام (٤) وكتاب دعائم الإسلام هذا أهم كتاب فقهي إسماعيلي كما ذكرنا ، وهو في مجلدين – وقد طبع – ويشتمل على سبعمائة صفحه ، وقد ألَّفه بطلب من الخليفة المعز لدين الله . ولقد ذهب النعمان نفسه إلى القول بأن المعز هو (الذي أصل أصوله وفرع فروعه ، وأخبره بصحيح الروايات عن الطاهرين من آبائه عن رسول الله ﷺ) (٥) ويقول حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف (٦) بأن كتاب دعائم الإسلام مازال أهم مرجع للإسماعيلية في اليمن والهند عند طائفة البهرة ، كما كان طوال عهد الدولة الفاطمية سواء في المغرب أوفي مصر مرجعاً للإسماعيلية

---

(١) حسن ابراهيم : نفسه

(٢) وفيات الأعيان ، الجزء الخامس ، ص ٢١٥ .

(٣) حسن ابراهيم : نفسه ، ص ٢٥٨ .

(٤) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفسه ، ص ٢٥٩ .

(٥) حسن ابراهيم حسن : نفسه .

(٦) المعز لدين الله ، ص ٢٥٩ .

في أحكامهم بتشجيع من الخلفاء الفاطميين أنفسهم (١) ومن مؤلفاته الفقهية كذلك كتاب الطهارة ، وكتاب الإيضاح وهو طويل بلغ عدد كراساته أزيد من مائتين وعشرين كراسة ، ثم مختصره ، أي مختصر الإيضاح وكتاب كيفية الصلاة وكتاب منهاج الفرائض (٢) وكتاب الاقتصار ويشتمل على مسائل فقهية مستمدة من أئمة آل البيت (٣) وغير ذلك .

ومن الدراسات الفقهية الشيعية التي ظهرت في المغرب الأدنى ، تلك التي ألفها جعفر بن منصور اليمن ، وهو أحد أشهر الدعاة الإسماعيلية وأخطرهم ، وقد وصل إلى رتبة (باب الأبواب) في مصر بعد رحيل الفاطميين إليها (٤) ومن مؤلفاته الفقهية : كتاب تأويل الزكاة . وهو كتاب فقهي معتقدي (٥) ، وله كتاب فقهي آخر ، هو كتاب تأويل الفرائض ، وقد يسمى بكتاب : الفرائض حدود الدين (٦) ، أما كتبه في التأويل التي هي من أهم كتب الإسماعيلية في هذا الشأن فسنعرض لها بعد في مكانها إن شاء الله

ومن الكتب الفقهية الشيعية في المغرب الأدنى ، ذكر حسن إبراهيم حسن وطه أحمد شرف كتاب : الروضة ، وهو كتاب فيه كثير من الجوانب

---

(١) حسن ابراهيم حسن : نفسه ، ص ٢٥٩ .

(٢) حسن ابراهيم حسن : نفسه ، ص ٢٥٩

(٣) حسن ابراهيم حسن : نفسه ، ص ٢٥٦ .

(٤) حسن ابراهيم حسن : نفسه ، ص ٢٦٨ .

(٥) حسن ابراهيم حسن : نفسه .

(٦) حسن ابراهيم حسن : نفسه ، ص ٢٦٩ .

الفقهية ، وينسب للخليفة المعز لدين الله نفسه ، كما ينسب إليه كتاب المناجاة كذلك (١) ومّما ينسب للمعز لدين الله وابنه العزيز بالله أنهما أمليا كثيراً من المسائل الفقهية على وزيرهما يعقوب بن كلس ، وقد رتبه هذا على أبواب الفقه ، فبلغ حجمه نصف حجم كتاب البخاري (٢) . وهذا يدل دلالة واضحة على أنه كانت بجانب ماذكرنا من دراسات فقهية ، نشاطات فقهية مبعثرة لم تدون .

ويمكننا أن نضيف إلى هذا ، ماظهر من مؤلفات فقهية شيعية في إقليم طرابلس التي حمل لواءها ، أبو جعفر أحمد بن أبي عبدالله محمدد بن خالد بن عبدالرحمن ، وهو وإن توفى سنة ٢٧٦هـ أي بعد رحيل الفاطميين إلى مصر ، إلاَّ أنه عاش مدة طويلة في كنفهم في إقليم طرابلس ، وهو عراقي الأصل إلاَّ أنه قدم المغرب الأدنى صغيراً فنشأ به وعاش حتى توفى ، وله من المؤلفات : تفسير الأحاديث والأحكام ، ثواب القرآن ، اختلاف الحديث وغير ذلك . (٣)

---

(١) حسن ابراهيم حسن : نفسه ،ص ٢٢٥ - ٢٢٦ .

(٢) رابح بونار : نفسه ، ص ٢٥٦ .

(٣) أحمد مختار عمرو : نفسه ، ص ١٤١ .

الفقه في عصر الزيريين (٣٦٢ - ٤٥٠ هـ) :-

يبدو لأول وهلة للمتتبِّع للدراسات الفقهية في إفريقية خلال الفترة الزمنية موضوع الرسالة أنه ليس ثمة مايجيز فصل الدراسات الفقهية في العصر الزيري وحتى الانفصال السياسي والمذهبي عن الفاطميين على يد المعز بن باديس عن عصر الفاطميين الذي يعتبر العصر الزيري موصولاً به فقهياً وعقائدياً ومذهبياً . لكن المتعمق المحلل لسيرة الدراسات العلمية وخاصة الشرعية ، والفقه بصفة أخص سيخرج باقتناع مفادة ، ضرورة التفريق في الحديث بين العصريين ، ذلك لأن الخلافة الفاطمية برحيلها عن إفريقية قد أحدثت وضعاً علمياً مغايراً فلم تعد الظروف المذهبية - والفقهية اقتضاءا - تفرض ذلك التوسع في الدراسات الفقهية تأليفاً ومناظرةً كما كان من قبل ذلك لأن فقهاء المالكية في إفريقية في العصر الفاطمي كانوا مجندين لمعالجة كثير من القضايا التعبدية والفقهية الحياتية من المنظور السني ، كصفة بعض الصلوات والصيام ، والأعياد ومواقيتها ، إلى غير ذلك . ومن هنا كانوا ينبرون إلى تأليف مؤلفات فقهية تعالج هذه القضايا ، ولذلك كثرت تلك المصنفات خلال عصر الفاطميين كثرة ظاهرة . بيد أنه عندما رحلت الخلافة الفاطمية إلى مصر ، زال عن كاهل علماء وفقهاء المالكية معالجة هذا الشق من الفقه ، هذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإنه ينبغي ألاَّ ننسى أنه على ولاء الزيريين للفاطميين السياسي والمذهبي إلاَّ أنهم ظهروا بوصفهم حكاماً وطنيين وكان همهم أن يجاروا الروح الوطنيةلدى المغاربة ومن ثم كانت غيرتهم على المذهب الشيعي وتطبيق اتجاهاته الفقهية

وغيرها لاتصل إلى مستوى اهتمامات الخلفاء الفاطميين بذلك أما بعد الانفصال السياسي والمذهبي عن الفاطميين فمن الطبيعي أن يختلف الأمر عن ذي قبل من حيث التوجهات المذهبية والفقهية .

والأمر الثاني أن إفريقية وخاصة في أواخر القرن الرابع الهجري وحتى منتصف القرن الخامس منه ، قد وصلت من الحافة التي بلغها الفقه في الدولة الإسلامية من تراجع وانكماش في العطاء النوعي ، بل والكمي . على أننا نستدرك فنقول بأن الفترة الممتدة من مغادرة الفاطميين إفريقية إلى قبل إطلالة القرن الخامس الهجري ، كانت مزدهرة ولاينطبق عليها ماقلنا آنفا .

والأمر الثالث أننا في هذا العصر عدمنا الاحتكاكات المذهبية الفقهية التي كانت تحدث في إفريقية بين علماء المالكية والحنفية ، فالمذهب الحنفي أضمحل شأنه في إفريقية قبيل انتصاف القرن الرابع الهجري شيئاً فشيئاً . ولن ندهش إذا ماقلنا بأننا لم نعثر خلال عصر الزيريين على تراجم لعلماء أحناف ، إذ أن كل ما أمكن معرفته عن نشاط للمذهب الحنفي آنذاك لم يتعد الحديث عنهم بصيغة الجمع .

وكيفما كان الأمر ، فإذا مضينا نتتبّع حالة الدراسات الفقهية المالكية في إفريقية خلال هذا العصر ، سنجد أن توسعها وازدهارها كان معقوداً لعدد من العلماء ، الذين عايشوا الدولة الفاطمية لفترات طويلة من عمرهم . غير أن وفياتهم – وهو ماسرنا عليه من منهج تنظيمي بجانب المنهج الموضوعي – كانت في بداية العصر الزيري . ومن هؤلاء الفقهاء أبو محمد

عبدالله بن اسحاق المعروف بابن التبان (١) (ت٣٧١هـ) وكان واحداً من علماء إفريقية المشهورين في القرن الرابع ، وقد ضربت له أكباد الأبل (٢) . وعلى الرغم من دوره في نشر المذهب المالكي ، إلاَّ أنه كان مقلاً في التأليف، إذ لم نجد له أثراً تأليفياً يذكر .

ومنهم محمد بن حارث الخشني (٣) (ت بعد ٣٦٦) (٤) وهو من المبرزين من أبناء إفريقية ، وقد رحل إلى الأندلس (٥) ، فسمع من علمائها، ثم استقر به المقام هناك . ومحمد بن حارث كان واحداً ممَّن نالوا حظاً كبيراً من التأليف ، فقد ألف عشرات الكتب ، نذكر منها في الجانب الفقهي : كتاب الاتفاق والاختلاف في مذهب مالك وكتاب الفتيا ، وكتاب في

---

(١) ترجمته موجوده عند عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٥١٧ - ٥١٨ - ابن فرحون : نفسه ، ص١٣٨ .

(٢) عياض : نفسه ، ص ٥١٧ .

(٣) له ترجمة واسعة عند عياض : نفسه ، ص ٥٣١ - ٥٣٢ - ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، ص ١١٠ - ١١١ - الدباغ : نفسه ، ج٣ ، ص ٨١ - ٨٣ -. الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ج٣ ، ص ١٠٠١ - ١٠٠٢ - ابن فرحون : نفسه ، ص ٢٥٩ - ٢٦٠ .

(٤) أشار مؤرخو ترجمة ابن حارث ماعدا الذهبي إلى أن وفاته كانت ٣٦١هـ - وقيل ٣٦٤ هـ مع أنهم ذكروا جميعا بأن التحق في الأندلس بخدمة الحكم المستنصر إلى أن توفى عام ٣٦٦هـ ، فالمعقول بناءً على ذلك أن تكون وفاة محمد بن حارث بعد عام ٣٦٦هـ ، أو فيها على أقل تقدير ، وهذا ماتنبه له الذهبي فقال : ربما يكون المقصود عام ٣٧١هـ وليس عام ٣٦١ هـ . وهو رأي سليم أيضاً . ولقد فات حسين مؤنس في مقدمته للجزء الأول من الرياض ، ص ٣٥ م ، هذه الحقيقة ، فذكر أن محمداً بن حارث توفى عام ٣٦٤هـ .

(٥) نحن نستبعد أن يكون ابن حارث قد قدم الأندلس : حدثاً وعمره ١١ عاماً - وهو ما يقوله عياض أو ١٢ عاماً ، وهو مايقوله ابن فرحون - ، وهو الذي كان في حلقة أحمد بن نصر (ت : ٣١٩هـ) بالقيروان يتوقد شعلة وذكاد في المناظرة ونعتقد أنه ارتحل إلى الأندلس ، وهو أكبر سنا ممَّا ذكر دون شك .

التخاصر والمغالاة . (١)

وأيضا أبو القاسم أو أبو سعيد وهو الأشهر ، خلف بن أبي القاسم المعروف بالبراذعي (٢) (ت قريباً من ٣٧٢هـ) (٣) والبراذعي من أشهر رجالات القرن الرابع الهجري في إفريقية ، وهو من كبار حفاًظ مذهب مالك، ويعد من الذين أوتوا نصيباً طيباً من التأليف والتصنيف ، فله عدة مؤلفات أشهرها كتاب التهذيب في اختصار المدونة ، وقد جاء به على نسق مدونة سحنون في الترتيب ، وخالف فيه اختصار محمد بن أبي زيد لها حسبما سنعرف في ترجمه ابن أبي زيد ، ولقد لقى هذا الكتاب شهرة داخلية وخارجية في بقية المغرب والأندلس ، وحصلت لصاحبه به مكانه علمية (٤) . ويؤكد ابن ناجي مكمِّل ومعلق كتاب (٥) المعالم أن قيمة كتاب التهذيب للبراذعي قد ازدادت أهميته في عصره هو ، فقد أصبح المعول عليه في المشرق والمغرب - لعله يقصد شرق وغرب المغرب والأندلس لبعضهما -

---

(١) عياض : نفسه ، ص ٥٣١ - ابن فرحون : نفسه ، ص ١١١ .

(٢) ترجم له بتوسع كل من عياض : نفسه ، ج٢ ، ص٧٠٨ -٧٠٩ - الدباغ : نفسه ، ج٣ ، ص١٤٦- ١٥٠ - ابن فرحون : نفسه ، ص ١٧٢ - الحجوى الفاسي : المرجع السابق ، ج ٢ ، س ٢٠٩ - ٢١٠ - الزركلي : نفسه ، ج٢ ، ص ٣١١ .

(٣) لم يحدد عياض ومن نقل عنه كالدباغ وابن ناجي ، وابن فرحون سنة وفاته ، في حين ذكر الحجوى الفاسي ، نفسه ، ج٢ ، ص ٢٠٩ أنه عثر على أنه فرغ من تأليف كتاب التهذيب عام ٣٧٢هـ هـ . ومن هنا صح هذا التأريخ . أما الزركلي : نفسه ، ج٢ ، ص ٣١١ . فيقول إن وفاته كانت عام ٣٧٢هـ ، وذلك بناءاً على وجود سجل قديم في مكتبة القيروان يدل على ذلك .

(٤) عياض : نفسه ، ص٧٠٨ - الدباغ : نفسه ، ص ١٤٦ .

(٥) الجزء الثالث ، ص ١٤٧ .

وكتاب التهذيب حظي باهتمام واسع من علماء المغرب الأدنى والأقصى والأندلس المتأخرين ،فتناوله بعضهم بالشرح والاختصار والتعليق (١) ، وللبراذعي كتب أخرى فقهية منها كتاب : تمهيد وسائل المدونة ، وكتاب اختصار الواضحة (٢) ، وكتاب الشرح والتحامات (٣) وغير ذلك وممًّا يذكر أن العلماء المعاصرين له قد وقفوا منه موقفاً عدائياً ممَّا أضطره إلى مغادرة المغرب الأدنى ، واللجوء إلي صقلية ، (٤) وأرجع المؤرخون ذلك إلى عدة أسباب ، منها ما ذكر من أن البراذعي كان مؤيداً للفاطميين في إفريقية، حتى أنه ألف كتاباً في (تصحيح نسب بنى عبيد) وقيل السبب في ذلك هو تعاطفهم مع الفقيه محمد بن أبي زيد الذي كان مخاصماً للبراذعي (٥) ، ولقد قاطع الإفريقيون كتب البراذعي ولم يأذنوا بقرآتها ومطالعتها سوى اختصار المدونة لشهرته (٦) .

---

(١) أنظر كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ج٣ ، ص ٢٩٠ – ٢٩١– ٢٩١ حيث ذكر من قام من الأندلسيين والمغاربة بشرحه واختصاره .

(٢) الواضحه كتاب فقهي من أجل الكتب الفقهية ، التي كان لها شأن عظيم في الأندلس والمغرب ، ومؤلفها هو عبدالملك بن حبيب بن ربيع السلمى (ت ٢٣٨ أو ٢٣٩ هـ) أنظر عياض : نفسه ، ص ٣٠ ، ٣٥ ، ٤٧ .

(٣) عن مؤلفات البراذعي ، أنظر عياض : نفسه ، ص ٧٠٨– ٧٠٩ الدباغ : نفسه ، ص ١٤٦ –١٤٧.

(٤) يقول ابن ناجي مكمل ومعلق المعالم ، ج٣ ، ص ١٤٩ ، إن البراذعي ربما قد عاد إلى بلده القيروان وتوفى بها ، وربما ظل في صقلية غير أن الزركلي : نفس ، ج٢ ص ٣١١ ينفرد دون غيره بالقول بأن البراذعي رحل من صقليه إلى أصبهان فكان يدرس فيها الأدب حتى مات ، لكننا نعتقد أنه قد استشكل عليه الأمر فالبراذعي ليس هو الذي ذهب إلى أصبهان ولكنه عالم القرآءات القيرواني :علي بن فضال المجاشعي الذي سنترجم له بعد إن شاء الله .

(٥) عياض : نفسه ، ص ٧٠٩ ، الدباغ : نفسه ، ص ١٤٨ ، الزركلي : نفسه، ص ٣١١ .

(٦) عياض : نفسه ، ص ٧٠٩ –الدباغ : نفسه ، ص ١٤٨ .

ومن فقهاء هذا العصر أيضاً عبدالرحمن بن محمد بن رشيق (١) (ت : ٣٨٠هـ) (٢) وكان متعدد المواهب ،فهو فقيه ومحدث ومؤرخ ،وله مؤلفات فقهية منها كتاب : المستوعب لزيادات مسائل المبسوط ممّا ليس في المدونة (٣) .

على أن أبرز فقهاء هذا العصر هو أبو محمد عبدالله ابن أبي زيد عبدالرحمن النفزي القيرواني (٤) (ت : ٣٨٦ هـ) ومحمد بن أبي زيد كنا قد وضحنا دوره المؤثر في نشر وتثبيت المذهب المالكي ، وذكرنا من قبل كذلك أنه بلغ من المكانة العلمية ماجعل بعض كتاب الطبقات يطلق عليه مالكاً الصغير أو الأصغر (٥) . وفي الحقيقة فإن مكانته العلمية متفق عليها عند معاصريه وعند المؤرخين قدامى ومحدثين ، ولقد وصفه عدد من مؤرخي الطبقات بأوصاف تدل على سعة علمه وكثرة حفظه ، وروايته ، والرئاسة في

---

(١) ترجمته موجودة عند : الدباغ نفسه ، ص ١٨٦ - ١٨٧ - محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ١١٠ - الزركلي ، نفسه : الجزء الثالث ، ص ٣٢٥ .

(٢) لم يحدد الدباغ سنة وفاته وكل ماذكره هو أن لعبد الرحمن بن رشيق رحلته إلى المشرق حج فيها عام ٣٧٦هـ ، لكن الزركلي في ترجمته له يقول : إنه توفى نحو ٣٨٠هـ.

(٣) الدباغ : نفسه ، ص ١٨٧ - محمد بن محمد مخلوف : نفسه ص ١١٠ - الزركلي : نفسه ،ص ٣٢٥ .

(٤) ترجمته موجودة باستفاضه عند عياض : نفسه ،ص ٤٩٢ - ٤٩٧ الدباغ : نفسه ، ص ١٠٩ - ١٢١ - الكتاني القيرواني : نفسه ، تعليق رقم ٢٩ ، ص ٧ ، الرصاع : فهرس الرصاع ، تحقيق وتعليق محمد العناني : برقم ٥ ص٥٨ - ٥٩ - الحجوى الفاسي : نفسه ، ج٢ ، ص ١١٥ - ١١٧ - عبدالعزيز بن عبدالله : الموسوعة المغربية للأعلام البشرية والحضارية الجزء الأول ، ص ٢٨ - ٢٩ كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ج٣ ،ص ٢٨٦ - ٢٨٩ .

(٥) أنظر قبل ص ١٨١ ومابعدها .

العلوم والفتيا . يقول عياض (١) : (.. حاز رئاسة الدين والدنيا ، وإليه كانت الرحلة من الأقطار ، ونجب أصحابه ، وكثر الآخذون عنه ، وهو الذي لخص المذهب ، وضم كسره وذب عنه . وملأت البلاد تواليفه ، عارض كثير من الناس أكثرها ، فلم يبلغوا مداه ،مع فضل السبق وصعوبة المبتدأ ، وعرف قدره الأكابر .. الخ) .

ولقد كان ابن أبي زيد حقيقاً بذلك بالفعل لأنه بالإضافة إلي ماذكرناه عنه كان محط الثناء من معاصريه من المغاربة والمشارقة (٢) بل إن المشارقة استجازوه فأجازهم (٣) . ولقد أخذ عنه الكثير ممَّن حصلت له شهرة عريضة في العلم سواء من المغاربة أو الأندلسيين (٤) ويرى الحجوى الفاسي أن ابن أبي زيد يعد هو وأهل طبقته آخر المتقدمين ، وأول المتأخرين، كما يعتقد الحجوى أيضا أنه يمكن عده من مجددي أمر الدين الذين يبعثهم الله على مشارف انتهاء كل قرن ، ذلك لقطر المغرب (٥).

وأبو محمد بن أبي زيد ، اشتهر بكثرة التأليف ، ومن مؤلفاته الفقهية التي تهمنا هنا : كتاب النوادر والزيادات على المدونة وهو مشهور جداً ، ويقع في أكثر من مائة جزء . ثم كتاب مختصر المدونة ، وهو مشهور كذلك وقد اعتمد عليه في الفقه في المغرب ، إلاَّ أن كتاب التهذيب للبراذعي مالبث

---

(١) نفسه ، ج٣ ، ص ٤٩٢ – ٤٩٣ .

(٢) عياض : نفسه ، ص ٤٩٣ – الدباغ : نفسه ، ج٣ ، ص ١١٠ .

(٣) عياض : نفسه .

(٤) عياض : نفسه ، ص ٤٩٤ .

(٥) نفسه ، الجزء الثاني ، ص ١١٥ – ١١٦ .

أن غطى على شهرة كتاب مختصر المدونة هذا ، فأصبح المعول عليه كما ذكر أبن ناجي فيما نقلناه عنه من قبل في المشرق والمغرب . ومن كتب ابن أبي زيد أيضاً كتاب الإقتداء بأهل السنة أو أهل المذهب في قول آخر ، ثم كتاب ، تفسير أوقات الصلوات وكتاب رد المسائل (١) ، ثم كتاب الرسالة وهو مشهور جداً في شهرة كتابه : النوادر . وكتاب الرسالة عبارة عن شرح ميَّسر للمسائل الفقهية على مستوى أذهان الطلبة المبتدئين ، وقد وجهه إلى المؤدب ، محرز بن خلف عدنما طلب منه هذا أن يكتب له كتاباً فقهياً ميسراً يضمنه مايجب أن يتعلمه أبناء المسلمين (٢) . فكتب له تلك الرسالة .

ولقد حظيت الرسالة بالإهتمام الشديد ، فأخضعها الكثيرون في المغرب الأدنى والأندلس وحتى مطلع العصور الحديثة للشرح والاختصار والتعليق (٣) ويقول بروكلمان إن شروحاتها وتعليقاتها ومختصراتها بلغت ٢٨ شرحا ومختصرا وتعليقاً (٤) ويقول الحجوي الفاسي إنه لازال المعمول عليها حتى عصره . (٥)

---

(١) عن مؤلفات ابن أبي زيد وكثرتها ، أنظر عياض : نفسه ، ج ٢ ص ٤٩٤ – ٤٩٥ – الدباغ : نفسه ، ص ١١٠ – ١١١ – الكتاني القيرواني : نفسه ، تعليق رقم ٢٩ ، ص٧ الرصاع : فهرست الرصاع : تعليق رقم ٥ ، ص ٥٨– ٥٩ – عبدالعزيز بن عبدالله : الموسوعة المغربية ، ج١ ، ص ٢٨ – ٢٩ .

(٢) الرصاع : نفسه ، تعليق رقم ٥ ، ص ٥٨– ٥٩ .

(٣) أنظر كارل بروكلمان : المرجع السابق ، ج٣ ،ص ٢٨٦ – ٢٨٩ – عبدالعزيز بن عبدالله : الموسوعه المغربية، ج١ ،ص ٢٨ – ٢٩ .

(٤) تاريخ الأدب العربي ، ج٣ ، ص ٢٨٧ .

(٥) نفسه ، ج٢ ، ص ١١٦ .

ومن فقهاء عصر الزيريين المعدودين أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري القروي المعروف بالقابسي (١) (٣٢٤- ٤٠٣ هـ) والقابسي ممن برع في فنون شتى ومن بينها الفقه ، ومن مؤلفاته فيه ، - الممهد في الفقه ، وكتاب أحكام الديانه ، وكتاب مناسك الحج ، وكتاب الذكر والدعاء وغير ذلك . (٢) .

ومن الفقهاء المعروفين أيضاً في مطلع القرن الخامس الهجري ، أبو علي بن خلدون (٣) (ت : ٤٠٧ هـ) وقد عرفنا من قبل أن أحد الذين كان لهم دور في تثبيت المذهب المالكي بإفريقية ، كما عرفنا أنه تعرض للاضطهاد نتيجة لموقفه ذلك ، ممَّا أفضى إلى مقتله في عهد المعز بن باديس (٤) وأبو علي ابن خلدون من الفقهاء المعروفين مع أنه لم يكن له حظ من التأليف ومنهم أبو حفص عمر بن محمد العطار (٥)(ت قبل ٤٣٢هـ) (٦) وهو من فقهاء إفريقية المشهورين وقتذاك ، وكان معاصراً لأبي بكر بن

---

(١) عن ترجمته ، أنظر بعد ص ٣٩١ ومابعدها .

(٢) عياض : نفسه ، ص٦١٨ ومابعدها الدباغ : نفسه ، ج٢ ، ص١٣٦ - الكناني القيرواني : نفسه ، تعليق ، رقم ٣٠ ص ٧ .

(٣) ترجمته موجوده بتوسع عند عياض : نفسه ، ص ٦٢٤ - ٦٢٦ الدباغ : نفسه ، ج٣ ، ص ١٥١- ١٥٥ .

(٤) أنظر قبل ص ٢٨٣ .

(٥) لم نجد له ترجمه سوى عند الدباغ : نفسه ، ج٣، ص ١٦٤ - ١٦٥ .

(٦) لم يحدد الدباغ سنة وفاته غير أنه قال إنه توفى قبل وفاة الشيخ أبي بكر بن عبدالرحمن الخولاني معاصره ، ولما كان أبو بكر الخولاني قد توفى عام ٤٣٢ كما هو ثابت فقد قلنا إن أبا حفص عمر العطار توفى قبل ٤٣٢ هـ على الأكثر أو في نفس العام .

عبدالرحمن الخولاني الذي سنترجم له بعدقليل ، ولأبي حفص عمر العطار تعليق على مدونة سحنون مشهور مذكور (١) .

ومن فقهاء إفريقية في هذا العصر ، أبو عمران موسى بن موسى بن أبي حاج الفاسي (٢) (ت : ٤٣٠هـ) وكان له دور علمي وثقافي مشهور في القيروان ، ولقد سبق وأن عرفنا من قبل دوريه : في الرحلات العلمية و في نشر وتثبيت المذهب المالكي بإفريقية (٣) ، وأبو عمران ممَّن برع في علوم شتى كالحديث بالفقه والقرآءات ومن مؤلفاته الفقهية كتاب تعليق على المدونه (٤) .

ومن الفقهاء المشهورين أيضاً أبو بكر أحمد بن عبدالرحمن بن عبدالله الخولاني (٥) (ت ٤٣٢ هـ) ، وقد تلقى علومه على أيدي مجموعة من كبار علماء إفريقية مثل محمد بن أبي زيد ، وأبي الحسن القابسي وغيرهما . وتمتع أبو بكر الخولاني هذا بشهرة عريضة في بلده ، وحصل له اجماع في تقديمه وفضله وعلمه (٦) وممَّا يؤكد علو كعبه في العلم أنه كان يقول : (لو عدمت المدونة لكتبتها من صدرى) (٧) ، ويقول تلميذه

(١) الدباغ : نفسه ، ص ١٦٥ .
(٢) عن ترجمته أبي عمران الفاسي أنظر بعد ص ٣٩٢ .
(٣) أنظر قبل ص ١٣٠- ٢٨٣ ومابعدها .
(٤) عبدالعزيز بن عبدالله : الموسوعة المغربية ، ج٣ ، ص ٤٩ .
(٥) ترجمة أبي بكر الخولاني موجودة بتوسع عند عياض : نفسه ، ١- ٧ -٢- ٧ - المالكي : نفسه ، مقدمة المحقق ص ٤٧م - ٥٠ م - (نقلا عن الدباغ في معالمه) .
(٦) أنظر مقدمة الجزء الأول من رياض النفوس ، ص ٤٨ م - ٤٩ .
(٧) مقدمة الجزء الأول - الرياض ، ص ٢٤٨ (نقلا عن الدباغ في المعالم) .

ومعاصره عبدالخالق السيوري الذي سنترجم له بعد قليل : (ما رأيت أبا بكر بن عبدالرحمن أخطأ في مسألة واحدة من المدونة) (١) ، وفي هذا القول والذي قبله دليل بالغ على مقدار عظم مكانة المدونة في نفوس المغاربة. وأبو بكر الخولاني عرفناه من قبل في حديثنا عن نشر المذهب المالكي ذاباً ومدافعاً عنه ، وعرفنا كذلك أنه كانت له مواقف من المعز بن باديس (٢) غير أننا للأسف لم نعرف له جهداً تأليفياً يذكر في الفقه . ومن علماء المغرب الأدنى المتأخرين عالمان مشهوران هما أبو القاسم محرز بن خلف القيرواني (٣) (ت : ٤٥٠هـ) وكان ممّن يحفظ المدونة وله عليها تعليق ، وأبو بكر عبدالله بن محمد بن عبدالله المالكي (٤) صاحب كتاب رياض النفوس المشهور . (ت ٤٥٣هـ) .

وأخيراً نذكر عالمين ، وهما وإن كانا قد ماتا بعد منتصف القرن الخامس الهجري حيث تقف الرسالة ، إلاّ أن دوريها كانا كبيرين في الفقه لاسيما وأنها عاشا فترة طويلة من حياتها في الفترة التي نؤرخ لها . هذا من جهة ، ومن جهة أخرى تدلنا ترجمتها على القدر الخطير من الأهمية التي بلغتها مدونه سحنون .

---

(١) نفس مقدمة الرياض ، ص ٤٨ م (نقلا عن الدباغ في معالمه) .

(٢) أنظر قبل ص ٢٨٤ .

(٣) عبدالرحمن ياغي : حياة القيروان وموقف ابن رشيق منها ، ص ٢٣٢ (نقلا عن الدباغ في معالمه) .

(٤) الدباغ : نفسه ، ج٣، ص ١٧٠ – محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ١٠٨ – حسين مؤنس : مقدمة الرياض ، ص ٢١م – ٢٢م – ٢٨م – ٤٧م – ٥١م – ٥٣م.

فالأول منهما هو : أبو القاسم عبدالخالق السيوري (١) (ت٤٦١هـ أو ٤٦٢هـ) ، وقد قال عياض (٢) عنه ، (هو خاتمة علماء إفريقية وآخر شيوخ القيروان ذوى الشأن البديع في الحفظ والقيام بالمذهب .. الخ) . وكان له عناية بجانب الفقه بالحديث والقراءآت (٣) . وله تعليق على المدونة ، وفي هذا الصدد يقول ابن ناجي مكمل ومعلق المعالم (٤) (إن الواردين لقراءة العلم بالقيروان من محبتهم في المدونة أكثروا في ثمنها ، فاشتروا بالقيروان منها حتى عدمت منها ، فأتوا إلى الشيخ أبي القاسم السيوري ، وعرفوه فأملاها عليهم من رأسه ثم وجدت نسخة بالقيروان ، فقابلوا ما أملى عليهم الشيخ بها ، فوجدتا سواء) .

وثانيهما هو أبو محمد عبدالحق بن محمد بن هارون السهمي القرشي (٥) (ت٤٦٦هـ) ، وكان عالماً مشهورا وله مؤلفات مهمة في الفقه منها : كتاب النكت والفروق لمسائل المدونة ، وقد ألف للناشئة ، ثم رجع مؤلفه عبدالحق عن كثير من تعليلاته واختياراته واستدرك عليه - وله كذلك كتاب كبير في شرح المدونه المسمى بتهذيب الطالب ، وقد نبه فيه على ما

---

(١) ترجمته موجوده عند عياض : المصدر السابق ، والجزء ص ٧٧٠- ٧٧١- الدباغ : المصدرالسابق والجزء ، ص ١٨١ ومابعدها مخلوف : المصدر السابق ص ١١٦ .

(٢) المدارك ، ج٢ ،ص ٧٧٠ .

(٣) الدباغ نفس المصدر السابق والجزء أعلاه ، ص ١٨١ - مخلوف نفس المصدر السابق والصفحة أعلاه .

(٤) ج٣ ، ص ١٨١ .

(٥) ترجمته عند عياض : نفسه ، ص ٧٧٤- ٧٧٦- ابن فرحون ، المصدر السابق ، ص ١٧٤- مخلوف : نفسه ، ص ١١٦ .

أستدركه على كتابيه النكت . والفروق ، وله كذلك استدراك لمختصر (١) البراذعي الذي عرفناه قبل .

أما عن الفقه في بقية مدن وأقاليم إفريقية خلال العصر الزيري ، فإن البلاد لم تخل في الحقيقة منه ، فمن أبرز أولئك الفقهاء : - أبو جعفر أحمد ابن نصر الداودي الأسدي (٢) - (ت : ٤٠٢ هـ) (٣) وهو من علماء مدينة المسيلة المعروفة بالمحمدية أو مدينة بسكرة بإقليم الزاب ، ويعد من العلماء المعدودين في هذه المدينة ممّن جمع بطرف أكثر من علم مثل الحديث والفقه وغير ذلك . ومن مؤلفاته في الفقه : كتاب القاضي في شرح الموطأ ، وكتاب الداعي في الفقه وكتاب الأموال (٤) . ومن فقهاء مدينة تونس أبو إسحاق إبراهيم بن حسن التونسي (ت: ٤٣٠هـ) ، وهو ذو اهتمامات علمية فقهية وعقائدية ، ولقد كان له موقف تجاه الفاطميين ، تعرض بسببه إلى معاداة زملائه من فقهاء البلاد حسبما سنعرف بعد إن شاء الله وذكر أن له تعليقاً على المدونة (٥) ومن علماء مدينة طرابلس المشهورين في هذا العصر ، أبو

---

(١) عياض : نفسه ، ص ٧٧٥ - ابن فرحون : نفسه ، ص ١٧٤ .

(٢) ترجمته موجوده بتوسع عند عياض : نفسه ، ص ٦٢٣ - ٦٢٤ ابن فرحون : نفسه ، ص ٣٥ ، مخلوف : نفسه ، ص ١١٠- ١١١- الحجوى الفاسي : نفسه ، ج٢ ، ص ١٢١ .

(٣) هذا ما أورده عياض : بل ورجحه ، بعد أن استبعد أن يكون قد توفي عام : ٤١١هـ كما ذكر في نفس الترجمة أيضا ، لكن محمداً بن محمد مخلوف يذكر أن وفاته كانت عام ٤٤٠هـ ، ويبدو أن هذا بعيد ، فقد عاصر الداودي كثيراً من علماء القيروان المتقدمين وهم من علماء النصف الثاني من القرن الرابع الهجري .

(٤) عياض : نفسه ، ص ٦٢٣ - ابن فرحون نفسه ، ص ٣٥ .

(٥) أنظر الدباغ : ننفسه ، ج٣ ، ص ٢٠٠-٢٠١ في ترجمته لابن الصائغ المتوفي سنة ٤٨٦ هـ، =

الحسن علي بن المنمر (١) (ت : ٤٣٢هـ) وهو فقيه محدث وعالم فرائض في آن واحد ، وقد عرفنا من قبل دوره في نشر المذهب المالكي في بلده (٢) ولأبي الحسن علي بن المنمر مؤلفات فقهية منها : الكافي في الفرائض أو المواريث ، وهذا الكتاب يعد عمدة في بابه ، وقد اعتمد عليه كثير من المشارقة والمغاربه (٣) ومن علماء طرابلس المتأخرين أبو القاسم عبدالرحمن ابن محمد الحضرمي اللبيدي (٤) نسبة إلى لبيدة قرية ساحلية جنوب مدينة طرابلس (ت: ٤٢٠هـ) وقال عياض (٥) (هو آخر طبقته موتاً ، وقد نال صيتاً واسعاً في بلده وفي إفريقية) وللبيدي مؤلفات فقهية كثيرة ، منها كتاب جامع في المذهب ، ويقع في أكثر من مائتي جزء كبار في مسائل المدونة وبسطها والتفريع عليها . وكتاب زيادات الأمهات ونوادر الروايات وكتاب في اختصار المدونة يسمى الملخص (٦) وغير ذلك .

= فقد ذكر أن ابن الصائغ أكمل التعليق الذي بدأه شيخه أبو اسحاق التونسي ك وأنظر كذلك : المصدر والجزء نفسه ، ص ٣١٠ في ترجمته الدباغ ، لأبي عبدالله محمد بن سعدون ابن بلال المتوفي سنة ٤٨٥ ، فقد ذكر أيضاً أنه أكمل تعليق شيخه التونسي على المدونة هو الآخر .

(١) ترجمته موجودة عند مخلوف : نفسه ، ص١١٠ ، ويسميه أبو الحسن بن على بن محمد المنتصر- الزركلي : نفسه ، الجزء الرابع ، ص ٣٢٧ ، ويطلق عليه ابن المنتصر أيضاً – علي مصطفى المصراتي : أعلام من طرابلس ، تراجم ودراسات ص ٢٢– ٢٦ بتوسع .

(٢) أنظر قبل ص ٢٨٥ .

(٣) علي مصطفى المصراتي : أعلام من طرابلس ، ص ٢٨ .

(٤) ترجمته موجودة باستفاضة عند : عياض ، نفسه ، ص ٧٠٧– ٧٠٨– الدباغ : نفسه ، ص ١٧٦ ، ابن فرحون نفسه ، ص ١٥٢ – مخلوف : نفسه ، ص ١٠٩ .

(٥) نفسه ، ج٣ ، ص ٧٠٧ .

(٦) عياض : نفسه ، ص ٧٠٨ – الدباغ : نفسه ، ص ١٧٦ .

ومن علماء قفصة أبو اسحاق بن منصور القفصي (١) (ت بعد ٤٦٠هـ) ولانعرف عنه شيئاً أكثر من هذا .

وفيما يتعلق بالفقه والدراسات الفقهية الحنفيه في عصر الزيريين ، فالواقع أننا لم نعثر على أي ذكر لنشاطات فقهية لهم فضلاً عن أننا لم نتعرف على تراجمهم ، ولعل أقصى مانستطيع قوله هو إن الأحناف بعد رحيل الفاطميين إلى مصر استكانوا إلى الدعة والعلم ، وخاصة بعد أن بدأت الأمور تعود لصالح المذهب المالكي ابتداءً من القرن الخامس الهجري ، فالتقى هؤلاء مع إخوانهم العلماء المالكية في تصاف وتحاب طيلة عصر الزيريين (٢) . أما عن فقهاء الشافعية ، فلم نعثر البتة على مايدل على أي نشاطات علمية لهم خلال هذا العصر ، ناهيك عن ذكر أسمائهم .

ويبدو أن قلة المعلومات وندرتها هو حال كل الدراسات الفقهية الأخرى، فمعلوماتنا عن الدراسات الفقهية الإباضية في هذا العصر ليست بأحسن حال من معلوماتنا عن الفقه عند الأحناف والشافعية ، فالفقه في إقليم الجريد لم تسعفنا المصادر في تتبع دوره وكل الذي عرفناه عن الفقه الإباضي هناك أنه قد ضعف شأنه في أواسط القرن الخامس الهجري (٣) أما عن فقهاء الإباضية فقد عرفنا بعضاً منهم نذكر أشهرهم

---

(١) مجموعة من العلماء والأدباء في تونس : تاريخ قفصه . وعلمائها ، ص ١١٨ - ١١٩ .

(٢) أنظر السيد محمد أبو العزم داود : نفسه ، ص ٦١، ٣٩١ .

(٣) صالح باجية : نفسه ، ص ٥٧ .

وهو أبا الربيع (١) سليمان بن على بن يخلف المتوفى سنة ٤٧١هـ ، وقد اشتهر بغزارة عمله في علم الفرائض أو المواريث ، كما أن له في الفقه ديوانين كبيرين (٢) . ونذكر أيضاً أبا محمد عبدالله بن جابر (٣) ، وقد عاش فترة بعد سقوط الدولة الزيرية .

ومن أولئك كذلك أبو محمد ماكسن بن الخير ، وهو من جربة في جنوب إقليم الجريد ، وقد تنقل في جل مدن إفريقية والجنوب الجزائري ، وكانت له مكانه عظيمة بين أهل مذهبه ، وكان له العديد من الاجتهادات الفقهيه . (٤)

أما عن الفقه في جبل نفوسة ، فيبدو أنه لم يكن كذلك أوسع انتشاراً من الفقه في الجريد وغاية مانستطيع ذكره من خلال اسماء الفقهاء التي طالعتنا في هذا العصر الفقيه الإباضي المشهور أبو عبدالله محمد بكر (٣٤٥- ٤٤٠هـ) الذي كانت له سمعة علمية مدوية في جبل نفوسه وفي إقليم الجريد وفي تجمعات الإباضية بالجزائر . ويعزى إليه وضع نظام يتولى جميع القضايا والشئون الخاصة والعامة بالإباضية في يد مجلس مكون من العلماء فيما عدا القضايا الخاصة بالإمام نفسه ، كإقامة الحدود

---

(١) صالح باجية ، نفسه ، ص٢٠٠ - ٢٠٢ - على معمر : الإباضية في الجزائر ، ص١٩٥ - ١٩٦ .

(٢) صالح باجية : ننفسه ، ص ٢٠١ - ٢٠٢ .

(٣) علي يحيى معمر : نفسه ، ص ١٥٨ .

(٤) ترجم له وتتبع نشاطاته العلمية والإجتماعية ، على يحيى معمر في كتابه : الإباضية في الجزائر ، ص ١٩٣ - ٢٠١ .

وغيرهـــا ، وعرف هذا النظام بنظام العزابة ، الذي يعتبر عند الإباضية بديـــلاً لنظام الإمامة (١) . ومن علماء الإباضية المشهورين بالجبل أبو محمد عبدالله بن العاصم اللداتي (٢) .

(١) عن أبي عبدالله محمد بن بكر وعلمه ونشاطاته وآرائه الإجتماعية ونظام العزابة ، أنظر علي يحي معمر ، نفس المرجع السابق ،ص ١٧٦ - ١٩٢ - أحمد مختار عمر : نفسه ، ص ١٤٧- مع الحواشي ، عن نظام العزابة .

(٢) أحمد مختار عمر : نفسه .

الحـــــــــديث

- الحديث في عصر الولاة
- الحديث في عصر الأغالبة
- الحديث في عصر الفاطميين
- الحديث في عصر الزيريين

الحـــــــــديث :

توطئه : لعل أهم ملاحظة يخرج بها المتتبِّع للدراسات الشرعية في إفريقية خلال الفترة الزمنية موضع الإهتمام ، أن دراسة الحديث لم تواكب الإزدهار والتقدم الذي عرفته الدراسات الفقهية والذي فرضته عدة أسباب . وأول هذه الأسباب هو أن أوضاع المغرب الأدنى في مطلع القرن الثاني الهجري كانت تحتم الاهتمام بالفقه بالدرجه الأولى ، لاستجلاء غموض كثير من القضايا التعبدية والعقائدية التي كانت تواجه المغاربة والذين كانوا يتطلعون إلى معرفة حلولها ، ولعل فيما ذكرناه عن مراسلة خالد بن أبي عمران التجيبي للتابعين في المدينة ، ومراسلة عبدالله بن فروخ وابن غانم لمالك بن أنس بالمدينة ، مايفسر ويؤكد صدق ماذهبنا إليه ، وثاني هذه الأسباب هو أن المغرب لم يعرف ، بل لم يعش ماعاشه المشرق من فترات عصيبه ظهر خلالها الوضع في الحديث والكذب على الرسول ﷺ . فالمذاهب السياسية والكلامية التي تكونت في المشرق آنذاك سعى الكثير من رجالها إلى تأييد وجهات نظرهم بوضع الأحاديث المكذوبة عن الرسول ﷺ التي تخدم آراءهم ولقد تلى ذلك تصدى الغيورين على السنة لهؤلاء ، ونفى الكثير من تلك الأحاديث التي وضعوها . وهذا السبب في تصورنا كان له دوره في أنه لم يظهر من المغاربة ممَّن اعتنى بالتصدى لتلك الموجة من الوضع . وأما ثالث هذه الأسباب فهو أنه في غمرة انشغال المغاربة في الخلوص إلى الطريق أو المنهج الفقهي الملائم لهم ، والذي تمثل في ماثار من خلاف حول الأسدية ، ثم ما استقر عليه الأمر من الأخذ بمدونة سحنون، كان علم

الحديث في الدولة الإسلامية قد قطع خطوات مهمة في وضع قواعده وأسسه، إذ لايخفى أن الحديث في النصف الأول من القرن الثاني الهجري قد تخطى مرحلة الرواية الشفهية إلى التدوين الذي حصل ابتداء من منتصف القرن الثاني الهجري ، كما أن المشرق قد عرف وقتها استقلال دراسة الحديث عن الفقه بظهور المصنفات الحديثية عن طريق كتب المجموعات والمسندات . ثم ماتلا ذلك من ظهور المصنفات الحديثية الصرفة المتمثلة في كتب الصحاح المبنية على تمييز الصحيح وتجريح الرجال والحكم عليهم (١) . كما أن المشرق قد عرف مع كتب الحديث البحته مانشأ من علوم متعلقة بالحديث اقتضاءً كعلم مصطلح الحديث ، وعلم الجرح والتعديل (٢) .

كل هذه الخطوات التي خطاها علم الحديث لم يسهم فيها المغاربة بجهد يذكر بسبب ماذكرناه من تأثير تلك الأسباب ومن هنا كانت إسهامات المغاربة في علم الحديث لاتتعدى جمع الحديث وتدريسه ووضع المؤلفات التي تتمشى مع نهج المشارقة أو لنقل تقليد منحى المشارقة . هذا شئ ، والشئ

---

(١) عن مراحل نشأة علم الحديث في الدولة الإسلامية ، أنظر مخلوف : نفسه ، ص ٢١- ٣٦- الحجوى الفاسي : نفسه ، ص ٣٣٣ -٣٨٥ أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ٢٠٨ - ٢٢٤ ، ضحى الإسلام ، ج٢ ،ص ١٠٦ -١٣٣ - أحمد علي الملا : أثر العلماء المسلمين في الحضارة الأوربية ، ص ٤٠- ٤٤- صبحي الصالح : علوم الحديث ومصطلحه ، الباب الأول ، ص١-١٠٤ ، الباب الثاني ، ص ١٠٥ -١١٤ .

(٢) أحمد أمين : ضحى الإسلام ، ج٢ ، ص ١٠٦-١١١، ١٢٧ - ١٣٤ أحمد علي الملا ، نفس المرجع السابق ، ص ٤٢ - ٤٦ عمر فروخ ، العرب في حضارتهم وثقافتهم ، إلى آخر العصر الأموي ، ط٢، ص ٩-١١ .

الآخر ، هو أن المغرب الأدنى لم يشهد ظهور محدّثين خلص ، فكل الذين برعوا من المغاربة في الحديث كانوا فقهاء في نفس الوقت كما أن نسبة المحدثين الخلص منهم كانت قليلة جداً أو تكاد تكون نادرة .

وكيفما كان الأمر ، فسنمضي في تتبُّع دراسة الحديث في إفريقية (المغرب الأدنى) بتقسيمها إلى عصور زمنية أربعة ، لا لأنه قد صاحبت مسيرته العلمية متغيرات اختلف عطاؤها باختلاف هذه العصور كما عرفنا عند دراستنا للفقه ، ولكن للحفاظ على الناحية التنظيمية المحضه التي راعيناها في دراستنا هذه .

على أننا قبل أن نستعرض دراسة الحديث في إفريقية (المغرب الأدنى) خلال هذ العصور الأربعة علينا أن نشير إلى أننا لم نعثر على أي نشاطات في دراسات الحديث لعلماء المذاهب الأخرى غير المالكي كالأحناف والشافعية والإباضية والشيعة .

الحـــديث في عصـــر الـــولاة :-

ليس من شك في أن من الطبيـعي أن يحـرص التـابعـون الذين جـاءوا إلى إفـريقـيـة سـواء أولئك الذين قـدموا طـواعيـة ، أو الذين بعـثـهم عمـر بن عبدالعزيز على نشر الإسلام والدراسات الإسلامية من فقه وحديث وتفسير . ولهـذا فليس بدعـاً أن نعـد أولئك التـابعين الطبـقـة المبكـرة مـن المحـدِّثين الذين أسـهمـوا في نشـر دراسـة الحديث في المغـرب الأدنى ، مع أن كتَّاب الطبـقـات لم يوضـحـوا ذلك الجـهـد بجـلاء واضـح ، وإنما أشـاروا إليـه ضمنا (١) .

على أن ذلك الجهد المتعلق بالحديث ودراسته مالبث أن أخذ يتضح في كتب كتَّاب الطبقات كأبي العرب التميمي ، وأبي بكر المالكي ، وغيرهما ، عندما بدأوا يتحدثون عن الطبـقة التالية لتلك الطبقة الأولى من التابعين ، فـأخذنا نلحظ ابتداءً من الطبقة هذه إشـارات واضحة تدل على اهتمامات المترجم له سواء كانت فقهية أوحديثية أو فقهية حديثية معا .

ومن أول رجالات هذه الطبقة من عصـر الولاة ، أبو مـحـمـد خـالد بن عمران التجيبي الذي عرفنا دوره في تقدم الدراسات الفقهية . ولعل ممَّا يدل على علو شـأنه في الحديث ، هو قول أبي العرب التميمي (وكان خـالد ثقة مـأمونـاً) (٢) . وهذه العـبـارة كـانت غـابـاً مـاتلصق بالمحدِّث على لسـان المؤرخين وغيرهم . ومن مـحدثي إفريقية المعروفين كذلك خلال هذا العصر ،

---

(١) أنظر أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ٢٠ – ٢٦ ، المالكي : نفسه ، ص ٦٤– ٧٦، ٧٧– ٨٩ .

(٢) نفسه ، ص ٢٤٥ .

عبدالملك بن أبي كريمة وقد عاش في مدينة تونس يثرى حياتها العلمية (١) .

ومن المحدثين المذكورين أيضاً ، أبو خالد عبدالرحمن بن زياد بن أنعم المعافري . وعبدالرحمن بن زياد اتضحت لنا بعض مجهوداته العلمية عند حديثنا عن الرحلات والدراسات الفقهية لكن ابن زياد لم يكن فقيهاً فحسب، بل كان محدثاً بل لعل الحديث قد غلب عليه ، فأدخله المؤلفون لعلم الحديث – في كتبهم (٢) ولقد عرف أهل المشرق ومنهم سفيان الثوري الذي كان يجل عبدالرحمن بن أنعم ذلك الفضل له ، غير أنهم أخذوا عليه روايته لبضعة أحاديث مرفوعه إلى النبي ﷺ ، لم يروها أحد من أهل العلم (٣) ويقول مخلوف (٤) نقلاً عن ابن عبدالبر الحافظ الأندلسي المشهور إن أهل مصر وإفريقية والمغرب أثنوا عليه بالفضل والدين والعقل ، ثم قال ابن عبدالبر معقباً : (وهم أعلم من سواهم) .

على أن ابن السراج ، (٥) وهو المؤرخ الإفريقي المعروف ، يشير إلى أن عبدالرحمن بن زياد بن أنعم كان متروك الحديث ، وذكر أن كثيراً من أهل العلم قد ضعفوه ، ومنهم مغاربة كانوا معاصرين له كالبهلول بن راشد وغيره ونحن بالطبع ليس من مهمتنا البحث في هذه القضية ، لكننا أوردنا

---

(١) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ٢٤٧ .

(٢) المالكي : نفسه ، ص ٩٦ .

(٣) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص٢٧ ، ٢٩ ، ٣٠ المالكي : نفسه ، ص٩٦ –٩٧ – مخلوف : نفسه ، حاشية رقم ١ ، ص٦١– ٦٢ – ابن السراج : نفسه ، ج١ . قسم ١ ، ص ٢٤٢ – ٢٤٣ .

(٤) نفسه ، حاشية رقم ١ ، ص ٦١– ٦٢ .

(٥) نفسه ، ج١ ، ق١ ، ص ٢٤٢ – ٢٤٣ .

ذلك لنوضح جهد ابن أنعم في دراسة الحديث .

على أن أشهر محدِّثي هذا العصر ، هو عبدالله بن فروخ الفارسي المتوفي عام ١٧٤هـ ، وعبدالله بن فروخ كان ذا أثر عميق في مجمل الدراسات الشرعية في إفريقية كما عرفنا في حديثنا عن الرحلات العلمية ، وفي حديثنا عن دوريه في نشر المذهب المالكي والفقه المالكي والحنفي ، ويكاد دور ابن فروخ في دراسة الحديث يكون أوضح من دور من سبقه من محدِّثي عصر الولاة والذين تحدثنا عنهم ، فلقد أشار مؤرخو التراجم والطبقات الذين ترجموا له صراحة على تلقيه علوم الحديث على يد عدد من المحدثين كزكريا بن أبي زائدة ، وعبدالملك بن جريج ، والأعمش ، وهم من أقطاب الحديث في المشرق آنذاك . (١) ولقد مدحه أبو العرب فقال (وكان ثقة في حديثه) (٢) ، ويذكر المالكي وعياض أنه سمع من أبي حنيفة النعمان آحاديث كثيرة أثناء طلبه العلم عليه في الكوفه . (٣)

وفيما يتصل بمسيرة دراسات الحديث في بقية مدن وأقاليم إفريقية ، فإننا في الواقع لم نعثر على مايدل على اهتمامات حديثية اللهم إلاَّ ماروى

---

(١) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ٣٤ – ٣٦ – عياض :نفسه ، ج١ ، ص ٢٣٤– ٣٤٣– ٣٤٤ – المالكي : نفسه ، ص ١١٣ – ١١٥ ١١٦ – الدباغ : نفسه ، ص ٢٤٠ – ٢٤٢ .

(٢) نفسه ، ص ٣٤

(٣) ذكر عياض : نفسه ، أن ابن فروخ سمع من أبي حنيفة ٣٠٠ ألف حديث . ولاشك أن هذا مبالغ فيه جداً ، بينما ذكر المالكي : نفسه ،ص ١١٦ والدباغ نفسه ،ص ٢٤١ أنه سمع منه ٣٠٠ حديث فقط ويبدو أن هذا أقرب للصواب . رغم ما اشتهر عن أبي حنيفة من تشدد في قبول الأحاديث إلاَّ الصحيحه الثابته منها .

عن محمد بن معاوية الحضرمي الطرابلسي ومحمد بن ربيعة الحضرمي الطرابلسي اللذين ذكر أنهما رويا كثيراً من الأحاديث عن عدد من علماء ومحدِّثي المشرق . (١)

الحـــــديث في عصـــــر الأغالبـــة :-

ليس من ريب في أن الدراسات الحديثية ، قد عرفت في العصر الأغلبي تقدماً وتوسعاً في الكم والنوع ، وبدأنا نعرف في هذا العصر علماء يكاد يكون الحديث فنهم الوحيد بالدرجة الأولى . ومن أوائل الأسماء التي تطالعنا من المحدثين في هذا العصر ، محمد بن علي الرعيني (ت أواخر القرن الثاني الهجري) وهو ممَّن رحل إلي الحجاز فتلقى علومه على يد علمائه ، ثم عاد إلي بلده ينشر فيه علمه (٢)

ومن علماء الحديث المشهورين والمبكرين في عصر الأغالبة أبو زكريا يحيى بن سلام أو السلام بن أبي ثعلبه البصري التميمي بن ربيعة الإفريقي (٣) (١٢٤- ٢٠٠هـ) وأبو زكريا يحيى بن سلام أحد المشارقة الذين استوطنوا المغرب الأدنى وأحدثوا به أثراً علمياً معروفاً ، لاسيما وأنه كان ذا مكانة مرموقة في المشرق ، فقد ذكر أنه تلقى علومه على يد عدد من العلماء كبير يفوق الثلاثمائه من تابعين

(١) عياض : نفسه ، ج١ ، ص ٤٩٠ .

(٢) حسن حسني عبدالوهاب : ورقات عن الحضارة العربية ، القسم الثاني ، ص ٣٩١ .

(٣) عن ترجمته أنظر بعد ص٤٠٧ ومابعدها .

وغيرهم (١) ، ولقد كان الحديث هو أغلب شأنه بالإضافة إلى التفسير (٢) .

ومنهم أبو خارجة عنبسة بن خارجة الغافقي (٣) (ت : ٢١٠هـ) وهو من محدِّثي إفريقية ممَّن سمع من مالك بن أنس وسفيان بن عيينه وغيرهما من رجالات الحديث في المشرق .

ويأتي أبو الوليد عباس بن الوليد الفارسي (٤) (ت: ٢١٨هـ) على رأس محدِّثي البلاد في العقد الثاني من القرن الثالث الهجري وهو ممن أشتهر بالحديث وكان موضع ثناء من معاصريه وغيرهم من كتاب الطبقات . ويقول عنه أبو العرب التميمي (٥) (كان ثقةً مأموناً حافظاً للحديث ، لقى جماعة ، من المحدِّثين منهم ابن عيينة وحماد بن زيد والفضيل بن عياض ، وبشراً كثيرين من محدثي الأمصار .. الخ) .

ويذكر أبو العرب (٦) أن إمامته في الحديث بالطبع - قد انتشرت بالمغرب وبالمشرق .

وممَّن أشتهر كذلك بميله للحديث خلال عصر الأغالبة ، أبو محمد عبدالله بن أبي حسان اليحصبي (ت٢١٩هـ) وهو من كبار المحدثين آنذاك ،

---

(١) المالكي : نفسه ، ص ١٢٢ - الداودي : طبقات المفسرين ، ص ٦٨٥ .

(٢) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص ٣٧- ٣٨- المالكي : نفسه ،ص ١٢٢ - ١٢٣ - الداودي : طبقات المفسرين ، ص ٨٦٥. وعن دوره الواسع في التفسير أنظر بعد ص٤٠٨ ومابعدها .

(٣) ترجمته موجوده عند أبي العرب : نفسه ، ص ٧٢، المالكي : نفسه ، ص ١٦٣- ١٦٤ .

(٤) ترجمته موجوده عند أبي العرب : نفسه ، ص٢٥٤ - ٢٥٥ - المالكي : نفسه ،ص ١٦٨ - ١٧٠ .

(٥) نفسه ، ص ٢٥٤ .

(٦) نفسه ، ص ٢٥٤ .

وقد تلقى علومه على علماء المشرق وعلى رأسهم مالك بن أنس (١) .

وممّن جمع بين الفقه والحديث وقتذاك محمد بن سحنون بن سعيد التنوخي المتوفي سنة ٢٥٦هـ ، وقد مرت بنا ترجمته من قبل وعرفنا من شخصيته العلمية ملامح عديدة ، سواء مايتصل فيها برحلاته أو لدوره في نشر وتثبيت المذهب ، أو نشاطاته الفقهية العلمية المؤثرة . غير أن ماجعلنا نؤجل الحديث عن ترجمته العلمية الواسعة هو مكانته في الدراسات الحديثية التي اشتهر بها أيضا . ومن مؤلفاته في دراسة الحديث كتاب المسند في الحديث ، وهو كتاب كبير ، وكتاب غريب الحديث في ثلاثة أجزاء .(٢)

ومن محدّثي العصر الأغلبي المشهورين أبو الربيع سليمان ابن سالم القطان (٣) المعروف بابن الكحالة (ت : ٣٨٩هـ) (٤) ، وقد غلبت عليه دراسة الحديث والتقييد والرواية كما يذكر مخلوف (٥) في كتابه السابق .

ومنهم أيضاً ، أبوسهل فرات بن محمد العبدي (ت :٢٩٢هـ) كما ذكرنا من قبل ، فلقد جمع إلى براعته في الفقه براعة في الحديث

---

(١) أبو العرب التميمي : نفسه ، ص٧٥ - ٧٦ - المالكي نفسه ، ص ٢٩٩ - ٢٠١ - عياض : نفسه ، ص ٤٨٠ - ٤٨٤ .

(٢) محمد بن سحنون : كتاب أداب المعلمين ، ص ٢٦ - عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ١٠٧ .

(٣) ترجمته موجوده ، عند عياض : نفسه ، ج٢ ، ٢٣٣ - ٣٤ - مخلوف : نفسه ، ص٧١ - مجموعة من الأدباء والعلماء : تاريخ قفصه وعلمائها ، ص ١١٢ .

(٤) أشار عياض إلى أنه توفى سنة ٢٨٩هـ كما في المتن غير أن مخلوفاً : نفسه ، ص ٧١، يقول إنه توفى سنة ٢٨٢هـ ، أو ٢٨٣هـ .

(٥) مخلوف : نفسه ، ص ٧٢ .

وأسماء الرجـــال وأخبـارهم ، غيـر أنه كان منسوباً إلي الكذب في كثير من أخباره (١) .

ومن المحدثين الذين كان لهم شهرة كبيرة في نهاية العصر الأغلبي ، عيسى بن مسكين بن جريج المتوفي عام ٢٩٥هـ ، فعيسى بن مسكين بالإضافة إلى أنه كان فقيهاً معروفاً كما رأينا من قبل ، كان من علماء الحديث المذكورين ؛ وممّن أشتهر بمعرفة الرجال وكناهم وقويهم وضعيفهم (٢) .

ثم سعيد بن اسحاق (ت :٢٩٥هـ) الذي اشتهر وعرف بكثرة الرواية والجمع للحديث (٣) ، وغيره .

أما عن علماء الحديث في بقية مدن وأقاليم المغرب الأدنى فلم تسعفنا كتب الطبقات وغيرها بتوضيح ذلك . وعلى كل حال ، فذلك شئ طبيعي ، فدراسة الحديث نفسها في إفريقية بصفة عامة كانت أقل انتشاراً من الفقه في البلاد كما ذكرنا .

على أنه لدينا بعض المعلومات عن دراسة الحديث ورجالاته في بعض المدن الإفريقية ، خاصة مدينة قفصة التي اشتهرت بتخريج عدد من المحدثين من أبنائها . ومن أبرز هؤلاء ، محمد بن تميم العنبري القفصي (ت٢٦٠هـ) ، وقد أشتهر بالحديث وحده تقريباً وتلقى علومه على أيدي أشهر

---

(١) مخلوف : نفسه ، ص ٨٤ .

(٢) عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٢١٣ .

(٣) مخلوف : نفسه ، ص ٧٢ .

علماء الحديث في المشرق من أمثال : أنس بن عياض ، عبدالله بن وهب ، ويحيى بن عبدالله بن بكير المخزومي وغيرهم من أقطاب الحديث هناك (١)، ويعتقد بعض الباحثين المحدثين من التونسيين (٢) ، أن محمداً بن تميم العنبري قد مهد لمدرسة حديثية مالكية المذهب ، تعتمد الأثر وحده ، وتختلف عن مدرسة عبدالرحمن بن القاسم العتقي ، التي قامت عليها المدرسة السحنونية ، ولقد تلا محمد بن تميم ابنه هبة الله (ت قريبا من ٢٦٠هـ) الذي اقتفى أثر والده في سيره على النهج السابق . (٣)

وفي مدينة سوسة ، نجد ذكراً لاسم لامع من رجالات الحديث هو زيدان بن اسماعيل بن زيدان الواسطي الأزدي السوسي (٤) (ت٢٩٢هـ) .

---

(١) مجموعة من الأدباء والعلماء ، تاريخ قفصة وعلمائها ، ص ١١٠ - ١١١ .

(٢) تاريخ قفصة وعلمائها ، ص ١١ .

(٣) مجموعة من الأدباء والعلماء : تاريخ قفصة . وعلمائها ص ١١١ .

(٤) مخلوف : نفسه ، ص ٧٢ .

الحديث في عصر الفاطميين :-

الواقع أنه ليس ثمة مايميِّز دراسات الحديث في عصر الفاطميين عن عصر الأغالبة إلاَّ وضوح معالم مدرسة حديثية كادت أن تطبع الدراسات الشرعية بطابعها كما سنعرف بعد قليل ، هذا بالإضافة إلى الوفرة في الدراسات الحديثية نفسها وفي رجالاتها كذلك كما سنلحظ ، وهو مانعكس أثره في وجود ثروة طيبة من المؤلفات الحديثية أكثر من ذي قبل .

ومن أوائل المحدثين في هذا العصر ، أبو سعيد بن أخت يزيد سنان، المعروف بالوكيل ، وقد مدحه الخشني فقال عنه (كان من أهل العناية بالحديث ، كان يحفظ أربعة آلاف حديث ظاهراً) وقد توفى في صدر دولة الخليفة عبيدالله المهدي (١) .

وتألق بين علماء هذا العصر في دراسة الحديث لقمان بن يوسف الغساني (٢) (ت : ٣١٩هـ)(٣) ، وقد أثنى الخشني على معرفته الكبيرة بالرجال والأسماء . (٤)

على أن اشهر محدثي هذا العصر هو أبو العرب محمد بن أحمد التميمي المتوفي سنه ٣٣٣هـ كما عرفنا من قبل ، وأبو العرب مثلما كان

---

(١) الخشني: نفسه ، ص ٢٢٨ .

(٢) ترجمته موجودة عند الخشني : نفسه ، ص ٢٢٣- ٢٢٥- عياض : نفسه ، ج ٢ ، ص ٣١١ - ٣١٣ - مخلوف نفسه ، ص ٨١ .

(٣) هذا مارجحه عياض : نفسه ، ج٢ ، ص٣١٣ ، وذكر أقوالاً أخرى ، فقال : ٣١٨ ، وأورد عن أبي العرب أنه توفى في نيف وعشرين وثلاثمائه .

(٤) نفسه ، ص ٢٢٤ .

مبرزاً في الفقه ، فقد أوتي حظاً عظيماً من المعرفة بعلم الحديث والبراعة فيه، وكذلك في علم الرجال ، وهذا عياض يثني عليه فيقول (وغلب عليه الحديث والرجال) (١) ، ويسميه جلال الدين السيوطي : الحافظ محمد بن أحمد بن تميم ، ويذكر أنه أخذ الحديث من أصحاب (٢) سحنون . ولأبي العرب مؤلفات في الحديث ، عرف منها : كتاب مسند حديث مالك ، وكتاب عوالي الحديث . (٣)

ومن أنداد أبي العرب ومن طبقته في العلم والمعرفة ، ربيع بن عطاء الله القطان المتوفي سنة ٣٣٣هـ ، كما عرفنا من قبل . وربيع القطان كان (حافظاً للحديث ، عالماً بمعانية وبعلله ، ورجاله وغريبة (٤)) مثلما كان عالماً بالفقه ومناحيه .

وفيما يتعلق بالحديث في بقية مدن وأقاليم إفريقية ، فإن الملاحظ أن مدينة قفصة دأبت كما ذكرنا على مد المغرب الأدنى بعدد لابأس به من علماء الحديث ، غير أن أهم ماأسهمت به مدينة قفصة ، هو أنه انبثق منها وعنها مدرسة في الحديث لها اتجاهاتها المخالفة للمدرسة السحنونية كما أشرنا إلى ذلك من قبل . وإذا كان محمد بن تميم العنبري وابنه هبة الله قد

---

(١) نفسه : ج٢، ص ٣٣٤ .

(٢) طبقات الحفاظ : ص ٣٦٣ .

(٣) عياض : نفسه ، ص ٣٣٤- ٣٣٥ - الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ص ٨٩٠- الكتاني القيرواني : نفسه ، تعليق رقم ١٥ ، ص ٤٠ .

(٤) عياض : نفسه ص ٣٢٣ - ٣٢٤ - مخلوف : نفسه ، ص ٧١ .

مـهد الطريق لظهور تلك المدرسة حسبما عرفنا ، فإن تكريس وجود تلك المدرسة وبروزها بشكل مؤثر يعود لعالم قفصى آخر هو مالك بن عيسى القفصى (١) (ت٥٠٣هـ) . فمالك بن عيسى القفصي يعد من أشهر رجالات الحديث لافي مدينته قفصة فحسب بل في إفريقية كلها . فلقد اشتهر بالحديث وحده ، ولم يخض أي مجال آخر غيره ، وقد أثنى عليه معاصره الخشنى (٢) فقال : (كانت له رحلة في طلب الحديث ، وكان به بصيراً وفي علمه نافذاً ، وأخذ منه جماعة من الناس) .

وتأتى أهمية دور مالك بن عيسى في دراسة الحديث من أنه عمل جاهداً على التوسع في دراسته إلي الحد الذي كاد أن يغلب علم الحديث على أهل إفريقية لو طال الأجل بمالك كما يقول الخشني (٣) .

وممّا يدل على انفراده بمنحى مالكي معين في الحديث أن أحد أقرانه من علماء القيروان وهو أبو العباس الأبياني الذي كنا قد ترجمنا له من قبل، جاءه مرة قائلاً له (حدثني ، ولاتحدثني إلاّ بما يوافق مذهبي ، فعطف مالك ابن عيسى على الناس ، فقال لهم : هذا رجل لايحب أن يكون عالما) (٤) ويبدو أن منحى مالك بن عيسى هذا ، لم يكن يلقى القبول من علماء المالكية في المغرب الأدنى ، فإلى جانب موقف أبي العباس الأبياني من مالك بن

١- ترجمة موجودة عند الخشني : نفسه ، ص ٢٢٨- مخلوف : نفسه ، ص ٨٠ - مجموعة من الأدباء والعلماء : تاريخ قفصة ، ص ١٠٦ - ١٠٨ ، ١١٣- ١١٤ .

٢- نفسه ، ص ١٢٨ .

٣- نفسه .

٤- الخشني : نفسه ، ص ١٢٨ - مجموعة من الأدباء والعلماء : المرجع السابق ،ص ١١٤ .

عيسى أنبرى واحد من أبرز العلماء المالكية وهو سعيد الحداد يعترض على مالك في شيء من التهكم بقوله : (لو علمت أن يقظة مالك بن عيسى أنبه من نومي لأزريت على نفسي) (١) .

لكن هذه المدرسة الحديثية ، لم يكن لها بعد موت صاحبها أي اتباع يحملون اتجاهها ويرسخون نهجها في إفريقية ، ولم تذكر لنا كتب التراجم أي ذكر لمن تأثر بهذه المدرسة ، سوى مايمكن قوله عن يوسف بن عبدالله التميمي القفصي (٢) ، الذي كان إلي جانب براعته في الفقه ، محدثاً جيداً نهج نهج ماللك بن عيسى مواطنه (٣) .

وشهدت الدراسات الحديثية في إفريقية في هذا العصر إسهاماً علمياً آخر من بعض الوافدين من علما"ء الحديث من المشرق ، وإن كان هذا الأثر محدوداً في عالمين فقط ، فأولهما أبو الحسن أحمد بن عبدالله بن صالح الكوفي المعروف بالعجلي وقد نزل مدينة طرابلس ؛ فأحدث بها أثراً علمياً لابأس به ، وللعجلي كتاب معروف في الجرح والتعديل كما يذكر السيوطي . (٥) والعالم الثاني هو : الوليد بن بكر بن محمد الغمري

---

(١) الخشني : نفسه ، ص١٢٨ – مجموعة من الأدباء والعلماء : نفس المرجع السابق والصفحه.

(٢) ترجمته موجوده عند عياض : نفسه ، والجزء ص ٣٥٦– مجموعة من الأدباء والعلماء ، المرجع ، ص ١١٥ .

(٣) هذا مايقوله عياض عن سنة فاته ، غير أنه في كتاب : تاريخ قفصة في هامش ص ١٥ جاء مايشير إلى أن يوسف القفصي توفى في سنة ٣٣٢هـ و بالتحديد في شهر رمضان ، كما هو مثبت على لوحة فوق قبره ، وكما في الجزء الثاني من رياض النفوس .

(٤) مجموعة من الأدباء والعلماء : نفس المرجع أعلاه والصفحه .

(٥) طبقات الحفاظ ، ص ٢٤٢ .

الأندلسي السرقسطي وقد دخل إفريقية في أيام الفاطميين ، أثر في حياتها العلمية باسهاماته في علم الحديث (١) .

الحـــــديث في عصـــــر الزيـريـن -

لعل أول مايلفت النظر بشأن دراسة الحديث في عصر الزيريين أنها كانت أوسع انتشاراً في هذا العصر، منها في عصر الفاطميين ، ولقد ظهر خلال عصرهم علماء أقطاب في علم الحديث كان لهم مكانتهم في المغرب وخارجه كما ظهرت فيه العديد من المؤلفات الحديثية المهمة حسبما سنعرف بعد قليل .

ونذكر من أوائل المشتغلين بعلم الحديث في هذا العصر ، محمداً ابن حارث الخشني المتوفي بعد سنة ٣٦٦هـ كما ذكرنا من قبل . ولئن عرفنا بعضاً من إسهاماته في علم الفقه ، فإن اسهاماته في الحديث لاتقل عنها شأناً ، لاسيما وقد اشتهر بعلمه الواسع بأسماء الرجال (٢) . وممَّا يدل على أنه كان ذا شأن في الحديث أن الذهبي الذي ألف كتابه : تذكرة الحفاظ (٣) – وهو خاص بالمحدثين في الدولة الإسلامية – ترجم له مع القليلين من الإفريقيين أمثاله كأبي العرب التميمي ، وأبي الحسن القابسي .

وممَّن جمع بين الفقه والحديث في عصر الزيريين ، عبدالرحمن ابن

---

(١) طبقات الحفاظ ، ص ٤٢٠ .

(٢) عياض : نفسه ، ص ٥٣١- ٥٣٢ .

(٣) الجزء الرابع : ص ١٠٠١ – ١٠٠٢ .

رشيق المتوفي سنة ٣٧٦هـ كما أشرنا سابقاً ، ومِمّا ذكر عنه أنه كانت (له عناية كاملة بتقيد السنن والأحاديث المشهورة) (١) .

على أن هذا العصر عرف واحداً من أقطاب علم الحديث في إفريقية في كل الفترة الزمنية موضوع الرسالة ، ذلك العالم هو أبو الحسن علي بن محمد بن خلف المعافري القروي المعروف بالقابسي (٢) المتوفى سنة ٤٠٣هـ حسبما عرفنا سابقاً . ولئن كنا عرفنا القابسي فقيهاً معروفاً ، فإن مايجب أن نعرفه عنه الآن أنه كان محدثاً مشهوراً بل لعل الحديث هو العلم الذي غلب عليه . ولقدأبرز كل من ترجم له هذا الجانب العلمي من شخصيته ذات الاتجاهات العلمية المتعددة . فلقد ذكر ابن خلكان بأنه كان (إماماً فيه، وفي فنونه وأسانيده ، وجميع مايتصل به) (٣) ، وذكر كذلك أن له رحلة إلى المشرق في طلب الحديث ، قابل خلالها شيوخ الحديث هناك (٤)، ومِمّا يؤثر عنه أنه كان أول من أدخل رواية الإمام البخاري ومسنده ومسند عالم الحديث المكي المشهور أبي ذر الهروي إلى إفريقية (٥)، ولأبي الحسن القابسي في الحديث مؤلفات مهمة ، منها كتابه المعروف بالملخص جمع فيه

---

(١) الدباغ : نفسه ، ج٣ ، ص ١٨٦ .

(٢) ترجمته موجوده بتوسع عند : عياض نفسه ، ص٦١٦– ٦١٩ الدباغ : نفسه ، ج٣، ص١٣٤ – ١٤٦ – ابن القاضي جذوة الاقتباس في ذكر من حل من الأعلام مدينة فاس ، الجزء الأول ، حاشية رقم ٩ص ١٣ الكناني القيرواني : نفسه ، تعليق رقم ٣٠، ص ٧– مخلوف : نفسه ، ص ٩٧– الزركلي : نفسه ، ج٤، ص ٢٢٦ .

(٣) المصدر السابق ، ج٣ ، ص ٣٢٠ .

(٤) عياض : نفسه ، ص ٦١٦– ٦١٧ .

(٥) مخلوف : نفسه ، ص ٩٧ .

مـــا اتصل إسناده من حـــديث مـــالك بن أنس في كـــتـــاب الموطأ ، رواية عبدالرحمن العتقي (١) ، ويذكر أن النطق الصحيح كما يقول (٢) ابن خلكان لكتاب الملخص هو : الملخص بكسر الخاء ، أي الذي يلخص المتصل من حديث مالك للمستحفظين .

ومن علمـــاء الحديث المشهورين في هذا العصر ، أبو عمران موسى ابن عيسى بن أبي حـــاج الغفجـومي الفاســـي (٣) المتـــوفى سنة ٤٣٠هـ كمـــا عـرفنـــا . وأبو عـمـــران الفـاسي أصله من فـاس (٤) ، ومن بيوتات العلـــم فيها ، ثم رحل إلى القيروان واستوطنها حتى مات ، ولقد عرفنا من قبل شيئـــاً عنه ونحن نتحدث عن الرحلات العلمية وكذلك عند الحديث عـن إنتشـــار المذهب والفقه المالكي بالمغرب الأدنى . أبو عمران الفاسي ...الخ . ممَّـــن أوتى حظـــاً في الجمـــع بين علوم شرعيـــة شتى كالفقـــه والحديث والقـــرآءآت ، ويقـــول عنه عـيـــاض (٥) إنه كـــان (ذا مـــعـــرفـــة بالرجـــال

(١) عياض : نفسه ، ص ٦١٩ - ابن خلكان : المصدر السابق ، مجلد ٣،ص٣٢٠ وهو الذي أعطانا توضيحاً عن الكتاب واسمه بالكامل .

(٢) وفيات الأعيان ، مجلد ، ٣ ، ص ٣٢٢ .

(٣) ترجمته موجودة بتوسع عند عياض : نفسه ، ص ٧٠٠ - ٧٠٦ الدباغ : نفسه ، ص ١٥٩ - ١٦٤ ابن القاضي : جنوه الاقتباس القسم الأول ، ص٣٤٤-٣٤٥- ابن السراج : نفسه ، الجزء الأول ، القسم الأول ، ص ٢٧٢- ٢٧٣- عبدالهادي التازي : جامع القرويين ، المجلد الثالث ، ص ١٥٧- ١٥٨ - عبدالعزيز بن عبدالله : الموسوعة المغربية ج٣ ، ص٤٩ .

(٤) ابن القاضي : نفس المصدر والقسم السابقين ، ص٣٤٤- مجهول : بيوتات فاس الكبرى ، تحقيق عبدالوهاب بن منصور ، ص٤٤-٤٥ عبدالهادي التازي : نفس المرجع والجزء أعلاه ، ص ١٥٧ .

(٥) نفسه : ج٢، ص ٧٠١ .

وجـرحـهم وتعديلهم ، وخرَّج عن عوالي (١) حديثة نحو ورقة) .

وممَّا يجدر ذكره أن لأبي عمران الفاسي دوراً كبيراً في قيام دولة المرابطين ، وذلك عندما وجَّه زعيم الملثمين من قبيلة جدالة الصنهاجية التي تعيش في جنوب المغرب الأقصى إلى أحد تلاميذه هناك وهو وجاج بن وزللو ببعث أحد طلبته إلى مواطن قبيلة جدالة لتفقيههم في الدين كما هو مبسوط مشتهر في كتب التاريخ والأدب .

ومن علماء الحديث الإفريقيين المتأخرين ممَّن رحل إلى الأندلس وأثرى فيها الحياة العلمية ، عبدالله بن محمد بن على بن شريف ، المعروف بالباجي (٢)، وهو من باجة القيروان (ت ٣٧٨هـ) ومن الفقهاء والمحديثين المكثرين ، وقد رحل إلى الأندلس كما ذكرنا ، فعاش فيها حتى توفي. ومن علماء الحديث الإفريقيين ، ممَّن رحل إلى الأندلس كذلك محمد بن الحسن الطبني (٣)(ت :٣٩٠هـ) وهو فقيه محدث ، رحل صغيراً إلى الأندلس، وبقي فيها إلى أن توفي ، ومنهم كذلك محمد بن القاسم بن أبي حاج القروي (٤)

---

(١) عالى الحديث ، مصطلح حديثي يعني علو درجة الإسناد وقربها من النبي ﷺ وينقسم إلى قسمين : الإسناد العالي المطلق ، وهو ماقرب رجال سنده من رسول الله ﷺ بسبب قلة عددهم ، وإذا قيسوا بسند آخر يرد في ذلك الحديث نفسه بعدد كثير . وأما الإسناد العالي النسبي فهو ماقرب رجال سنده من إمام من أئمة الحديث كمالك والأعمش وغيرهما ، أو قربوا من كتاب من الكتب المعتمده المشهورة كالكتب الستة والمطأ . وسمى نسبياً لأن العلو فيه إضافي لاحقيقي . أنظر صبحي الصالح : علوم الحديث ومصطلحه ، ص ٢٣٦- ٢٢٧ .

(٢) الضبي : بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس ، ص ٣٣١ .

(٣) عادل نويهض : معجم أعلام الجزائر من صدر الإسلام حتى منتصف القرن العشرين ، ص ٢٣ .

(٤) ابن بشكوال : الصلة ، ج٢ ، ص ٥٩٦ - ٥٩٧ .

(كان حياً عام ٤٠٠هـ) ، وهو محدث ذو رواية واسعة . وقد بقى هناك حتى توفي .

ومن بين الذين رحلو إلى الأندلس ، اسحاق بن الوليد بن موسى بن اسحاق بن ابراهيم بن عبدوس القروي الذي لا نعرف سنة وفاته ، وهو فقيه محدث وقد سمع في بلده القيروان عن محمد بن أبي زيد القروي . ويذكر ابن بشكوال عنه ، أنه ذو علم بالحديث وبصر بالرجال . (١)

وأخيراً هناك عالم حديث إفريقي مشهور ، سكن الأندلس وهو أبو عمرو (٢) السفاقسي ، من أشهر المحدثين الذين سكنوا الأندلس وأثروا فيها الدراسات الشرعية ، وممّا يؤثر عن سعة علمه بالحديث (أنه من حفاظ الحديث المشهورين به وبطرقه ، وبأسماء رجاله منسوباً إلي معرفته وفهمه ، وكان يملي الحديث من حفظه ويتكلم عن أسانيده ومعانيه ، ذاكراً الغريب ، والآداب ، ممّن عنى بالرواية ، وشهر بالفهم والدراية) (٣) .

---

(١) ابن بشكوال : نفس المصدر السابق ، الجزء الأول ، ص ١١٢.

(٢) ترجمته عند ابن بشكوال : نفسه ، ج٢ ، ص ٤٠٨ – مخلوف : نفسه ، ص ١٠٩ .

(٣) ابن بشكوال : نفسه ، ج٢، ص٤٠٨– ٤٠٩ .

علـــــوم القـــــرآن

- علوم القرآن في عصر الولاة .
- علوم القرآن في عصر الأغالبة .
- علوم القرآن في عصر الفاطميين .
- علوم القرآن في عصر الزيريين .

علــــــوم القــرآن

توطئـــــــة :-

لعل من الواجب قبل أن نتحدث عن علوم القرآن في إفريقية خلال الفترة موضع الاهتمام ، أن نعطى نبذة مختصرة لعلوم القرآن من حيث بدايتها وفروعها وبعض أمورها في المشرق الإسلامي ، لارتباط ذلك بحديثنا عن دراسات علوم القرآن في إفريقية .

غني عن القول بأنه لم يكد القرن الثاني الهجري ينته ، حتى كانت العلوم الشرعية قد استقرت أسسها، وتقننت قواعدها المختلفة . ومن بين تلك العلوم : علوم القرآن الكريم التي انبثقت منه وحده ، كالقرآءات والتفسير وغير ذلك . ومن المعروف أن علم القرآءات الذي يعنى كيفية النطق بالقرآن ووجوهه المحتملة (١) كان أسبق في الظهور من التفسير وغيره من العلوم الأخرى . ونحن بالطبع لايهمنا من هذا إلاّ الإشارة إلى أن علم القرآءات قد استقرت أسسه في الدولة الإسلامية على يد سبعة من العماء أصبح المعول على قرآءاتهم في الأمصار الإسلامية ، ولقد مثل كل واحد من أولئك العلماء السبعة ، مدرسة خاصة به في القرآءات متواترة عن النبي ﷺ (٢) .

---

(١) محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ١٨ – محمد الفاضل بن عاشور التفسير ورجاله ، ط٢ ، ص ٣٦- ٣٨ .

(٢) ابن الجزرى : غاية النهاية في طبقات القراء وماورد في جزئيه عن طبقات القراء وأسمائهم وشيوخهم – مخلوف : نفسه ، ص ١٨ – ١٩– عبدالسلام الكنوني : المدرسة القرآنية في المغرب ، ص ٥٣- ٥٤ .

ولقد ظهرت هذه المدارس السبع في كل من الحجاز والشام والعراق ، وأصبح لها شهرة عريضة (١) في كل العالم الإسلامي ، وإلى جانب هذه المدارس نشأت ثلاث مدارس أخرى ، فأصبح عددها عشر مدارس ارتبط بها علم القرآءات (٢) .

وإلى جانب علم القرآءات ، عرف المشرق علوماً أخرى استخلصها المسلمون من القرآن العظيم كالتفسير ، وعلوم أخرى مثل : ناسخ ومنسوخ القرآن ، وأحكامه وإعرابه ، وإعجازه، وفضائلة ، وقصصه وغريبه (٣).. الخ .

وفي هذا الوقت الذي شهد فيه المشرق ذلك الإزدهار العلمي في علوم الشريعة ومنها علوم القرآن ، كانت إفريقية توالي جهودها العلمية في الاهتمام بالفقه للحاجة العظمى إليه في الناحيتين : التعبدية والدنيوية . وبالطبع فقد استغرق ذلك وقتاً طويلاً . غير أن أهل إفريقية مالبثوا بعد لأي أن أخذوا يولون علوم القرآن العناية التي تستحقها ، وسنرى من خلال حديثنا عن دراسات علوم القرآن ، أن هذه العلوم قد لقيت من الإهتمام والعناية والعطاء مالم تلقه أي علوم شرعية أخرى فيما عدا الفقه طبعاً ، وليس من شك في أن تلك العناية وذلك العطاء الثر الذي ستأتي على ذكر

---

(١) مخلوف : نفسه ، ص ١٨-١٩ - عبدالسلام الكنوني : نفسه ، ج٢ ، ص ٥٣ .

(٢) عن هذه المدارس أنظر عبدالسلام الكنوني : نفسه ، ج٣، ص ٥٣- ٥٤.

(٣) عن علم التفسير ورجاله ومناهجه أنظر أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص ١٩٥ - ٢٠٦ - ضحى الإسلام ، ج٢، ص ١٣٧ - ١٥٠ - ظهر الإسلام ، ج١ ، ص ٣٥ -٤٩ - محمد الفاضل بن عاشور : التفسير ورجاله ،ص ١٥ -٣٣ ، وغير ذلك ..

أبعاده ، قد جاء من احترامهم العميق لكتاب الله والشغف بكنوزه العظيمة .

وفي الحقيقة ، فإنه إذا فات المغاربة ، شرف تأسيس مدارس القرآءآت تلك التي أشرنا إليها ، وإذا فاتهم كذلك شرف الإسهام في علوم القرآن الأخرى من تفسير وخلافه ، فإن ممّا يؤثر ويذكر لهم أنهم أسهموا بعد ذلك في إثراء علوم القرآن دراسة ومذاكرة وتأليفاً و إثراءاً إعترف فيه لهم المشارقة كما سنعرف بالإمامة والمشيخة في علوم القرآن . وسيلمس المتتبِّع لدراسة علوم القرآن في إفريقية من جهة أخرى أن المغاربة لم يتركوا جانباً من جوانب علوم القرآن ، إلاَّ وقد اهتموا به دراسة ومذاكرة وتأليفاً .

على أننا لاحظنا في متابعتنا لعلوم القرآن في إفريقية خلال الفترة الزمنية موضوع الرسالة ، بأن علماء المذاهب الفقهية ، والمذاهب الدينية السياسية ، الذين عاشوا في إفريقية وقتذاك ، لم يكونوا سواء في إهتماماتهم بعلوم القرآن . فالواقع ، أنه فيما عدا علماء المالكية ، لم نعثر على مايدل على اسهامات أتباع بقية المذاهب الفقهية كالحنفي والشافعي ، أو أتباع المذهبين الإباضي ، والشيعي ، اللهم إلاَّ ماهو ثابت من إهتمام بعض علماء المذهب الشيعي بالتفسير أو التأويل .

وثمة أمر آخر ، لاحظناه كذلك ، وهو أنه باستثناء إهتمام علماء مدينة القيروان بعلوم القرآن ، لم تتضح لدينا أي إسهامات لعلماء بقية مدن وأقاليم إفريقية في علوم القرآن ، هذه . ونستثنى من ذلك العصر الزيري ، الذي ظهر فيه علماء من بقية مدن إفريقية في تلك العلوم .

علوم القرآن في عصر الولاة :-

علينا بادئ ذى بدء أن نشير إلى أننا لانملك معلومات توضح لنا بجلاء مسيرة دراسات علوم القرآن في هذا العصر . غير أن ماهو مؤكد هو أنه حيثما حل المسلمون ، كان يحل معهم كتابهم الخالد : القرآن الكريم ، وعندما جاء المسلمون إلى المغرب فاتحين ، كان من الطبيعي أن يحرصوا علي نشر القرآن الكريم في هذا القطر . وما من ريب في أن الفضل في دخول القرآن الكريم وقد جاء عبر مسارين : محفوظاً في الصدور ، ومكتوباً في المصاحف ، يعود لطالعة الفاتحين من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، الذين تصدوا لنشره بين أبناء البلاد الأصليين (١) .

أولاً : القــرآءآت :

ليس لدينا ثمة شك في أن تلك الجموع من الصحابة والتابعين وتابعيهم ، الذين تقاطروا على المغرب فاتحين ومعلِّمين ، يمكن النظر إليهم بمثابة بعثات قرآنية ، جهدت في تلاوة القرآن الكريم على مسامع السكان ، وإرشادهم إلى تعاليمه العظيمة ، ونحن نتفق مع عبدالسلام الكنوني في أن المغاربة – وقد إنجذبوا للدين الجديد بعد أن تبينت لهم حقائقة – قد حاولوا تقليد المسلمين الفاتحين وغيرهم ، محاكاةً لهم من جهة ، وتأثراً وانفعالاً بالقرآن الكريم حتى ولم تكن قد صحت بعد لغتهم العربية من جهة

(١) أنظر عبدالسلام الكنوني : نفسه ، ص ٢٩-٣٣ .

أخرى (١) .

ومهما يكن من أمر ، فإنه فيما يتعلق بمدارس القرآءات التي عرفتها إفريقية خلال عصر الولاة ، فإننا لا نعرف شيئاً عنها ، وإن كان يغلب على الظن أن إفريقية قد عرفت خلال هذا العصر كل أو معظم القرآءات المعروفة آنذاك ، فلم يقتصروا على حرف أو مذهب واحد في القرآءة . ونحن بالطبع لم نشر إلى هذا الاحتمال ، إلاَّ لأن المغرب بعد ذلك عرف الاقتصار على حرف واحد أو مدرسة في القرآءة واحدة كما سنعرف بعد قليل .

أما عن علماء أو أعلام القرآءات في هذا العصر ، فإننا للأسف لم نوفق في العثورعلى مايشير إليهم تنصيصاً ، بيد أن مايمكن قوله هو أن كل التابعين الذين وفدوا على إفريقية سواء من استقر منهم فيها أو رحل ، وسواء أفراد البعثات العلمية الرسمية أو الفردية يمكن عدهم أئمة وقراء مبكرين ، ولعل المقرئ الوحيد الذي يظن أنه قد عاش في عصر الولاة ، هو كروم بن خالد المغربي التونسي المكنى بأبي خالد . وقد يقال كروم بن خليد أو خليد ، فقد رحل إلى المدينة فقابل الإمام نافعاً بن عبدالرحمن بن أبي نعيم ، وقرأ عليه (٢) . ولم يشر ابن الجزرى إلى سنة وفاة كروم بن خالد ، لكننا نعرف أن نافعاً بن عبدالرحمن بن أبي نعيم قد توفى سنة ١٦٩هـ (٣) ومن هنا غلب على ظننا أن يكون كروم قد عاش في عصر الولاة .

---

(١) نفسه ، ص ٢٢ .

(٢) ابن الجزري : نفسه ، ج٢، ص ٣٢ .

(٣) هذا مايقوله ابن الجزري : نفسه ، ج٢، ص ٣٣٣ - ٣٣٤- وإن كان قد أورد كذلك بعض الأقوال عن وفاة نافع ،فقال : قيل سنة ١٧٠ وقيل ١٦٧أو ١٥٠ أو ١٥٧هـ ولكنه أورد أولاً سنة ١٦٩هـ =

ثانيـــاً : التفســـير :

أما عن التفسير ، وهو أحد أهم جوانب علوم القرآن الكريم ، فلاشك أنه قد لقى عناية هامة في إفريقية بوصفه مرتبطاً بكتاب الله الكريم نفسه، لتدبر معانيه ومقاصده وفهمه . ومع أننا لانستبعد أن يكون المغاربة قد عرفوا خلال عصر الولاة حلقات التفسير بمجرد انتهاء الفتح ، فإننا في الواقع لم نعثر على أي دلالات واضحة ترشدنا إلى مفسرين بعينهم ، أي اقتصروا على علم التفسر وحده . ويصدق هذا على التابعين الذين قدموا إفريقية سواء من استوطن منهم إفريقية ، أو الذين رحلوا عنها فيما عدا ماذكر عن تصدى عكرمة مولى ابن عباس للتدريس في جامع القيروان عندماجاء إفريقية واستوطنها لبعض الوقت (١)، وما من شك أن من بين تلك العلوم الشرعية التي كان يلقيها عكرمة في الجامع ، علم التفسير، لاسيما وأن عكرمة ممن اشتهر باهتماماته في التفسير الذي تلقاه عن أستاذه ومولاه عبدالله بن عباس (٢). وأما عن أبناء البلاد الأصليين . فلم نعرف أي ذكر لمفسرين في هذا العصر، حاشا ما يمكن عدهم من مفسرِّي عصر الأغالبة الذين عاشوا فترات طويلة من عمرهم في عصر الولاة، إلاَّ أن وفياتهم كانت في عصر الأغالبة كما سنعرف عند حديثنا عن علوم القرآن في عصر الأغالبة ، وذلك بالطبع تمشياً مع ماسرنا عليه من منهج تنظيمي وموضوعي لسيرة الدراسات الشرعية خلال الفترة الزمنية موضوع الرسالة

= كما هو في المتن .

(١) أنظر قبل ص ٩٥ .

(٢) أنظر أحمد أمين : فجر الإسلام ،ص ٢٠٤ – ٢٠٥ .

وفيما يتعلق بعلوم القرآن الأخرى ، فلم نعثر على أي مجهودات توضح لناءأبعاد دراسة علوم القرآن .

علـوم القرآن في عصر الأغالبـة :

وإذا كانت مسيرة دراسات علوم القرآن لم تتضح صورتها تماماً في عصر الولاة ، فإنها في عصر الأغالبة كانت على النقيض من ذلك . فلقد شهد هذا العصر ازدهاراً متعلقاً بتلك العلوم في الكم والنوع .ففيه اقتصرت إفريقية على حرف ووجه واحد في القرآءة حسبما سنعرف بعد هنيهة ، وفيه عرفت إفريقية مصنفات متخصصة في جوانب علوم القرآن . ومن ناحية الكم ، فقد طالعتنا بعض المصادر المتخصصة في علوم القرآن وغيرها بأسماء عدد من القرآء والمفسرين ، ممّن تخصص في فرع واحد من علوم القرآن ، أو جمع بين علوم القرآن وغيرها من العلوم الشرعية .

أولاً : القـراءات :-

وعلى أية حال ، ففيما يتعلق بالقرآءات ، نجد لدينا ذكراً لمقرئ مبكر خلال هذا العصر ، هو حسنون الدباغ ، ولانعرف عنه أكثر من هذا ، قال أبو العرب التميمي (١) إنه من قراء القرآن المعروفين بالقيروان ، وإليه

---

(١) نفسه ، ٦٤ .

تنسب طريقة معينة في ترتيل القرآن أو مايطلق أبو العرب عليه اللحن (١)، فذكر أنه ينسب إليه اللحن الحسنوني .

ومن علماء القرآءات في إفريقية كذلك أبو يحيى زكريا بن يحيى بن ابراهيم بن عبدالله المعروف بالوقار (٢) ، وهو مصرى الأصل ، قدم إفريقية في سنة ٢٠٥هـ . وذكر ابن فرحون (٣) أنه قرأ القرآن على نافع المدني ، وعنه أخذ أبو عبدالرحمن المقرئ حرف نافع بن أبي نعيم ، وأن محمداً بن برغوث القروي روى عنه القرآءة ، وذكر كذلك أنه توفى في سنة ٢٥٤هـ ، وقيل ٢٦٣هـ .

ومن قرآء عصر الأغالبة ، أبو عبدالله محمد بن برغوث القروي (٤) ، فقد أخذ القراءة عن عدد من العلماء ، وروى عن نافع بن أبي نعيم (٥) ، وروى القرآءة عنه أبو العرب محمد بن أحمد التميمي ، ويذكر المالكي (٦) أن أبا العباس عبدالله ابن أحمد بن طالب المتوفي سنة ٢٧٥هـ أو ٢٧٦هـ كما عرفنا من قبل ، طلب في أيام توليه القضاء في إفريقية من محمد بن

---

(١) نفسه .

(٢) ابن فرحون : نفسه ، ص ١١٨.

(٣) نفسه ، ص ١١٨ .

(٤) ابن الجزري : نفسه ، ج٢ ، ص ١٠٤ .

(٥) لاشك أنه روى القراءة عن نافع بن أبي نعيم بطريق غير مباشر ، وإلا فلا يعقل أن يكون بينه وبين أستاذه نافع أكثر من مائة سنة ؟ وقد عرفنا من قبل أن نافعاً توفى على الأشهر سنة ١٦٩هـ بينما توفى محمد بن برغوث سنة ٢٧٣هـ .

(٦) نفسه ، ج١ ، ص٣٧٨. ولاشك أن ذلك قد حدث في ولايته الأولى للقضاء ، وليس في الثانية التي توفى على اثرها وهي المؤرخة بعام ٢٧٥هـ .

برغوث المتصدر للقراءة في جامع القيروان ، ألاَّ يقرئ الناس إلاَّ بحرف نافع وقد توفى ابن برغوث كما يذكر ابن الجزري عام ٢٧٢هـ (١) . ومنهم أبو عبدالرحمن المقرئ (٢) الذي أشرنا إليه في حديثنا عن أبي يحيى زكريا الوقار ، وذكرنا عن ابن فرحون أنه تلقى القراءة بحرف نافع عن أبي زكريا الوقار (٣) المذكور.

والآن وقد استعرضنا أسماء من أسعفتنا الظروف بذكرهم من القرآء نود الإشارة إلى موضوع مهم ، وهو انتشار قرآءة نافع بن أبي نعيم المدني في المغرب الأدنى ، بل في بقية المغرب . ولعل السبب في ذلك هو ماثار حول هذا الموضوع من خلاف في دخول القرآءات إلى المغرب والأندلس وتاريخ ذلك ، ثم دخول قرآءة نافع والإختلاف في أولية من قام بذلك ، يقول عبدالسلام أحمد الكنوني (٤) : إن ابن المجزري صاحب كتاب : النشر في القراءات العشر يذكر أن أهل الأندلس وأهل المغرب لم يكونوا يعرفون شيئاً عن القراءات المختلفة حتى جاء أحمد بن محمد بن عبدالله الطلمنكي وهو أحد كبار علماء قرآء الأندلس (٥) (ت :٤٢٩هـ) ، فأدخل القرآءات إلى الأندلس وبالتالي المغرب بعد ذلك ، ونحن بالطبع يهمنا الإشارة إلى أنه فيما

---

(١) ابن الجزري : نفسه .

(٢) ابن فرحون : نفسه ، ص ١١٨ .

(٣) انظر نفسه .

(٤) نفسه ، ص ٥٤ – ٥٥ .

(٥) ترجمته عند عياض : نفسه ، ج٢، ص٧٤٩ – ٧٥٠ – السيوطي : طبقات المفسرين، ص٥ ، وكلاهما يرجح أن وفاته كانت سنة ٤٢٩هـ، وليس سنة ٤٤٠هـ كما ذكر الكنوني في ، ص ٥٤ .

يختص بالمغرب الأدنى وهو مايهمناهنا عرف التخصص في قرآءة معينة ، وهى قرآءة نافع المدني ، وقد عرفنا عند حديثنا عن القرآء الذين عاشوا في عصر الأغالبة ، أنهم كانوا يقرؤون بحرف نافع ، مع أننا لاننكر أنه كانت هناك قراءات أخرى – وما ذكرناه عن أحمد بن طالب القاضي لابن برغوث بأن يقرئ الناس بحرف نافع فقط ، دليل على صدق ماأشرنا إليه ، ثم لدينا دليلاً آخر على أن المغاربة عرفوا القرآءآت المختلفة ، ولكنهم كانوا يركزون على قرآءة نافع ، ورد في كتاب آداب المعلمين (١) لمحمد بن سحنون عندما كان يتحدث عن التعليم بالكتاتيب ما نصه : (ويلزمه (أي المعلم) أن يعلمهم ماعلم من القرآءة الحسنة ، وهو مقرأ نافع ولابأس أن أقرأهم لغيره إذا لم يكن مستبشعا، مثل « يبشرك » و« ولده » و« جرم على قرية » ، ولكن يقرئها « يبشرك » و« ولده » و« حرام على قرية » وما أشبه هذا ، وكل ما قرأ به أصحاب رسول الله ﷺ) .

وهكذا فإن أهل المغرب الأدنى عرفوا معظم القرآءآت ، ولكنهم اقتصروا على قرآءة نافع لأن نافعاً كما هو معروف إمام قراء المدينة المنورة وقد عرفنا من قبل شدة تعلق المغاربة بأرض الحرمين : مكة والمدينة، ثم لأن نافعاً كما ذكرنا شيخ الإمام مالك بن أنس إمام المذهب المالكي في القرآءة ، وكان يصلي خلفه ،بينما كان نافع يأخذ عن مالك موطأه (٢). ومن هنا كان من الطبيعي أن يهتم أهل إفريقية بقرآءة أو مدرسة نافع في قرآءة القرآن الكريم .

---

(١) ص ١٠٢ – ١٠٣ ، وأنظر الحواشي في الصفحتين السابقتين .

(٢) انظر مخلوف : نفسه ، ص ١٩ – الكنوني : نفسه ، ص ٥٥ .

على أننـا مـانلبث أن نفاجأ في ترجمة لأحد قرآء العصر الفاطمي ، من أنه هـو الذي قـدم بقـرآءة نافع على أهل إفريقـيـة . فـقـد ذكـر عن أبي عبدالله محمـد بن خيرون المعـافرى الأندلسي الذي استـوطن القـيروان وتوفى بهـا سنـة ٣٠٦هـ (١) ، أنه قـدم بقـرآءة نافـع على أهل إفريقـيـة ، وأن الغـالـب عليـهم قبل مجيئه قـرآئتـهم لحـرف حـمـزة بن حـبـيب الزيات الكـوفي ، وأن حـرف نافـع لم يكن يعـرفه آنذاك سوى خاصـة من الناس حتى قـدم ابن خـيـرون بـه (٢) . هـذا مـايقـوله من ترجـم لابن خـيـرون ، لكننا ونحن لانملك ماندفع به هذا القـول سوى مـاقلناه سابقا ، لانستـبـعـد أن يكون ابن خـيـرون صـاحب الأولويـة في نشـر قـرآءة نافـع في افـريقـيـة بشكل واسع ، صـاحب الأولويـة في ادخـاله (٣) ، ومـهـمـا يكن فـقـد عـرف المغـرب الأدنى قـرآءة نافـع في عصـر الأغالبـة ، سـواء كـان ابن خـيـرون هو الذي جاء بهـا ولاسيمـا أنه قـضـى مـدة طويلة من عمره في عـصـرهـم ، ولم يشـهـد من عصـر الفـاطميين إلاّ عقداً واحداً فـقط ، أو أن المغـرب الأدنى عرف حـرف نافـع بجـهـود من سبقه ممَّن أشرنا إليهم سابقا .

---

(١) عن سنة وفاته والإختلاف في ذلك انظر بعد ص٤١٣ مع الحاشية رقم (١) .

(٢) ابن الجزري : نفسه ، ج٢ ، ص ٢١٧ - عبدالسلام الكنوني ، نفسه ، ص ٥٥ .

(٣) أنظر رد عبدالسلام الكنوني الموضوعي : نفسه ، ص ٥٥ - ٥٦ .

ثانيـــاً : التفســـيـر :-

لعل أهم ماميز مسيرة دراسات التفسير في عصر الأغالبة ، أنها عرفت عدداً من المفسرين الذين كانوا يتصدون لدراسته ومذاكرته في حلقات العلم في الجوامع وغيرها ، كما أنها، أي مسيرة دراسات التفسير - قد عرفت مصنفات في التفسير - كان لها أهمية في المغرب الأدنى ، وفي بقية المغرب والأندلس ،

ويأتي في مقدمة المفسرين المشهورين لا في هذا العصر فقط ، بل وفي كل عصور فترات الرسالة أبو زكريا يحيى بن سلام بن ثعلب أو ابن أبي ثعلب التيمي ولاءً من تيم ربيعة البصرى الإفريقي (١) (ت ..٢هـ) . وأبو زكريا يحيى بن سلام من أبناء المشرق الذين استوطنوا إفريقية وعاشوا بها مدة مديدة من عمرهم حتى أصبحوا ينسبون إليها . وقد عرفنا من قبل شيئًا عن دوره في إثراء الدراسات الحديثية لكن العلم الذي اشتهر به هو التفسير . على أننا نستدرك فنقول بأن من حق الأمانه والإنصاف أن نشير إلى أننا فيما عدا كتابه في التفسير لانعرف أي نشاط آخر له ، والمؤكد أن شهرته كمفسرٍ جاءت من تصنيفه لكتابه : التفسير المشهور باسمه (٢)

---

(١) ترجم له كل من أبو العرب التميمي : نفسه ، ص٣٧ - ٣٩ - المالكي : نفسه ، ص١٢٢ -١٢٥ - الداودي : طبقات المفسرين ج٢، ص ٣٧١ - الزركلي : نفسه ، ج٨ ،ص ١٤٨ . ويرى في حاشيته رقم (١) من نفس الصفحة أن ضبط ابن سلام بالتشديد أولى حسبما رجحته المصادر التس نقل عنها كما أنه رجح أن ينطق ابن سلام بدون أل التعريف لأنه هو الأصوب .

(٢) الـداودي : نفس المصدر والجزء والصفحة أعلاه - الزركلي : نفسه أعلاه - محمد الفاضل بن=

ومهما كان الأمر ، فإذا مضينا نطالع ما ذكر عن كتابه : التفسير ، أمكننا أن نحكم على مكانة ابن سلام العلمية في المغرب بل وفي المشرق ، والواقع أن تفسير يحيى بن سلام كانت له وما تزال أهمية كبيرة بين الكتب التي ألفت في التفسير ، فهذا الكتاب يعد كما يقول محمد الفاضل بن عاشور (١) : حلقة مهمة في تسلسل تطور علم التفسير بين المصنفات التي صنفت في منتصف القرن الثاني الهجري ، والتي تنتهج التفسير بالأثر أو المأثور ، والتي يمثلها تفسير عبدالملك بن جريج (٢) المتوفي سنة ١٥٠هـ ، وبين المصنفات التفسيرية التي ظهرت في أواخر القرن الثالث وأوائل الرابع الهجري والتي تنتهج التفسير بالأثر وبالنقد في آن واحد معاً ، والتي يمثلها تفسير محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ (٣) ، ذلك لأن تفسير يحيى بن سلام يقوم على إبراز الأخبار المسندة ، ثم التعقيب عليها بالنقد والاختيار المبني على المعنى اللغوي والتخريج الإعرابي على حرف واحد في القراءات ، وهو قراءة ابن مدينته البصرة : أبو عمرو ابن العلاء البصري (٤) .

= عاشور : التفسير ورجاله ، ص ٤٣ .

(١) التفسير ورجاله ، ص ٤٢- ٤٣ .

(٢) عن تفسير عبدالملك بن جريج ، أنظر أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص٢٠٥ - ضحى الإسلام ، ج٢ ، ص ٤٢ - محمد الفاضل بن عاشور : نفس المرجع السابق ، ص ٣٦ .

(٣) عن تفسير محمد بن جرير الطبري أنظر أحمد أمين : فجر الإسلام ، ص٢٠٦ ، ضحى الإسلام ، ج٢ ، ص ١٢٩ - ١٥٠ - محمد الفاضل بن عاشور : المرجع السابق أعلاه ، ص ٤٢ -٤٣ .

(٤) محمد الفاضل بن عاشور : المرجع السابق أعلاه ، ص ٤٢ -٤٣ .

وتفسير يحى بن سلام مهم من ناحية ثانية ، ذلك لأنه يعتبر من أقدم التفاسير المحفوظة ، التي لم تعبث بها الظروف منذ عصر صاحبها ، فلقد بقى منها أجزاء عديدة بتجزئة مؤلفها نفسه ، وممّا هو جدير بالذكر أن تفسير ابن سلام يقع في ٣٠ جزءاً ، أي مايعادل ٣ مجلدات ضخمة بعرف اليوم (١) .

وتأتي أهمية تفسير يحى بن سلام من ناحية ثالثة ، من أنه أقدم مجهودات علماء إفريقية العلمية في التفسير ، فهو في هذا الشأن يعد فاتحة بواكير مصنفات التفسير هناك ، ولقد أفسح هذا المصنف الطريق إلى تكاثر مصنفات التفسير فيما بعد .

وكيفما كان الأمر ، فقد نال هذا الكتاب شهرة عريضة في المغرب الأدنى والأندلس ، والمشرق . ولقد قال فيه ابن الجزري (٢) : إنه ليس لأحد من المتقدمين مثله . أما أثره في الأندلس ، فلقد حرص علماؤها على إدخاله إلى بلادهم كما فعل محمد بن وضاح الصدفي (٣) ، بل واختصاره لابرازه إلى أبناء بلده سهلا ميسراً ، كما فعل العالم الأندلسي الآخر أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن عيسى بن أبى زمنين المتوفى سنة ٣٩٩هـ (٤) .

---

(١) محمد الفاضل بن عاشور : نفسه ،ص ٤٣- ٤٤ .

(٢) محمد الفاضل بن عاشور : المصدر السابق ،ص ٤٣ - الزركلي : المرجع السابق ، ج ٨، ص ١٤٨ .

(٣) أنظر عبدالسلام الكنوني : المرجع السابق ،ص ١٢٥- ١٣٥ .

(٤) أنظر عبدالسلام الكنوني : نفسه ، ص ١٣٢ ، ١٦٥ - ١٧٠ .

ومادمنا لانزال نتحدث عن تفسير يحيى بن سلام ، فإننا نود الإشارة إلي أننا لانتفق مع الطاهر المعمورى (١) فيما ذهب إليه من أن التفسير لم يحتل بأفريقية مكانة مهمة كغيره من العلوم ، لعدم الحاجة إليه من جهة ولضعف استعداد الإفريقيين من جهة أخرى . كما أننا لانتفق معه كذلك فيما يراه من أن أشهر من كتب في التفسير من الإفريقيين إبتداءً من يحى ابن سلام ، ومروراً بمكى بن أبي طالب ، وانتهاءً بأحمد بن عمار المهدوي اللذين سنترجم لهما بعد في موضعه ، لايعتبرون إفرازاً علمياً في التفسير ممَّا أنتجته البيئة الإفريقية . ويقول صراحة أن إفريقية لم تكن هي التي دفعتهم إلى وضع تفاسير اشتهرت بنسبتها إلى افريقية ، بل الأجواء الخارجية من مشرقية وأندلسية هي التي بعثت تلك الهمة . فأما عما ذكره من أن التفسير لم يلق الاهتمام المطلوب في إفريقية ، فإن ظهور أعداد من المفسرين فيها ، سواء في عصر الأغالبة ممن سنتطرق لذكرهم بعد قليل ، أو غيرهم في عصري الفاطميين والزيريين دليل واضح على مقدار الاهتمام بالتفسير ، وصحيح أن التفسير في إفريقية لم يرق إلى المكانة التي بلغتها علوم شرعية أخرى كالفقه والحديث ، وكذلك لم يرق إلى مابلغته القراءآت من اهتمام في إفريقية ، إلاَّ أن ذلك لاينفى عدم وجود مفسرين كما لايجيز لنا اتهام المغاربة بضعف الاستعداد العلمي في التفسير .

وفيما يتعلق بالشق الثاني من رأيه فيما يختص بأصول وتكوينات

---

(١) جامع الزيتونة ومدارس العلم في العهدين الحفصي والتركي في تقديمه لعلم التفسير ، ص ٣٢-٣٣ .

المفسرين المشهورين كيحيى بن سلام ومكي بن أبي طالب وأحمد بن عمار المهدوي فإننا وإن كنا نتفق معه في أن ابن سلام مشرقي الأصل والنشأة والتكوين العلمي ، غير أن الأثر العلمي الذي تركه في إفريقية وعلى رأسه التفسير ، قد أسبغ على البلاد تقدماً علمياً معروفاً . فلايمكننا أن نغفل دور تفسير ابن سلام وتأثيره في الأجيال الإفريقية ، أما مكي بن أبي طالب وأحمد بن عمار المهدوي ، فإن الاتفاق على أنهما ولدا وعاشا في إفريقية مايدل على أنهما أصلاء هذا القطر على مع أنهما قد عاشا بعد ذلك في الأندلس كما سنعرف .

وبالإضافة إلى ابن سلام، فإن أسداً بن الفرات المتوفى سنة ٢١٣هـ كما عرفنا يمكن عده من المفسرين أيضاً في عصر الأغالبة ، فلقد ذكر عنه أنه كان يقرأ بعض التفاسير في دروسه على طلبته ومريديه (١) ، ومن المفسرين كذلك في هذا العصر أبو داود العطار (٢) (ت: ٢٤٤هـ) وقد ذكر أنه هو الذي روى تفسير شيخه يحيى بن سلام عنه ، وأن محمداً بن وضاح الصدفي ، الذي ذكرنا أنه أدخل تفسير ابن سلام إلى الأندلس أخذ رواية تفسير ابن سلام عنه .

ومن المفسرين أيضاً محمد بن يحى بن سلام ابن القيه المحدث يحى ابن سلام نفسه ،فقد روى أن له زيادات على تفسير والده أفردت باسناد

---

(١) عياض :نفسه ، ج١ ، ص ٤٧٣-٤٧٥ - ابن السراج : نفسه ، ج١، ق١، ص٧٤٩ مع الحواشي .
(٢) كارل بروكلمان : تاريخ الأدب العربي ، ج٤ ، ص ١٠ - عبدالسلام الكنوني : نفسه ، ص ١٣٥ .

عنه، ويذكر ابن خير الأندلسي (١) في فهرسته أنه - أي ابن خير - ، قد تلقى زيادات محمد بن يحيى على تفسير أبيه من عدد من شيوخه في الأندلس ، الذين تلقوها عن يحى بن محمد بن يحيى بن سلام عن أبيه محمد بن يحى .

ثالثا : علوم القران الأخرى :

ليس لدينا في الواقع مايشير إلى إسهامات المغاربة في علوم القرآن الأخرى ، سوى ماذكر عن تأليف الفقيه المشهور محمد بن سحنون المتوفى ٢٥٦هـ لكتاب كبير في أحكام القرآن (٢) .

علوم القرآن في عصر الفاطميين :

تابعت علوم القرآن جملة تطورها وازدهارها في عصر الفاطميين ، فقد توسعت المصادر والمراجع في ذكر العديد من القرآء ، وكذلك في ذكر مصنفات البعض منهم في القرآءات ، أما التفسير ، فقد عرف في عصر الفاطميين مصنفات عدة ، ولكنها شيعية الإنتماء ، ويمكن أن نقول بإن الإزدهار قد مس كذلك بقية علوم القرآن الأخرى .

---

(١) وهي فهرسة ، مارواه عن شيوخه ، تحقيق فرانسسكو كوديرا وخليان ريباره ، ط٢ ، ص٥٦-٥٧.

(٢) محمد بن سحنون : كتاب آداب المعلمين بتحقيق حسن حسني عبدالوهاب ص ٢٧- عبدالسلام الكنوني : نفسه ، ص ١٤٧ -١٤٨ .

أولاً : القرآءآت :

لعل أشهر القراء في هذا العصر ، هو محمد بن عمر بن خيرون المعافري الأندلسي القروي المكنى بأبي عبدالله (١) (ت : ٣٠٦هـ) ، ومحمد ابن عمر بن خيرون ، قدم إفريقية واستطونها وبث فيها علمه . ولقد أتفق على إمامة ابن خيرون في علم القرآءات ، وأشار معظم من ترجم له على أنه أخذ القرآءات عن كثير من علماء المشرق المشهورين ، وقد عاد إلى القيروان فنشر بها علم القرآءات بين طلبته (٢) . وذكر ابن الجزري (٣) عن الداني المقرئ الأندلسي المشهور - وهو أحد رجالات القرن الرابع الهجري - ، أن

---

(١) أبو عبدالله محمد بن عمر بن خيرون المعافري الأندلسي مقرئ مشهور (ت٣٠٦هـ) في القيروان ، وله ابن يسمى محمد أيضا - وقد ترجمنا له في المتن كما سيأتي بعد قليل - ومن هنا وقع الخلط لدى معظم المصادر بين أبي عبدالله محمد بن عمر بن خيرون الأب ، وبين الابن أبي جعفر محمد ابن محمد بن عمر بن خيرون (ت مقتولا عام ٣٥١هـ على يد الشيعة) ، وممّا زاد في وقوع المصادر في الخلط هذا بين الأب وابنه بالإضافة إلى تشابه التسمية ، اشتغال الأب والابن بعلم واحد ، هو القرآءات . أنظر هامش ص ٣٠٥٢ من الجزء الثاني من كتاب رياض النفوس الذي حققه بشير البكوش ، وعلى كل حال ففيما يتعلق بالأب محمد بن عمر بن خيرون فقد ترجم له مجموعة من المؤرخين منهم المالكي : نفسه ، ص ١٣٥- ١٣٦ ، (وعنه أنه توفي عام ٣٠٥هـ ، وهو الوحيد بين كل المؤرخين الذي ترجموا لابن خيرون ، الذي قال ذلك) - ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ج٢، ص ١٠ -١١ (ويخلط بين محمد بن عمر خيرون هذا وبين ابنه أبي جعفر محمد) - الضبي : بغية الملتمس : ص ٧٣- ٧٤ (وهو يخلط كذلك بين الأب وابنه) - الحميدى : جذوة المقتبس ، ص ٥٤ - ابن الجزرى : نفسه ، ج٢ ، ص ٢١٧ (وهو يسميه باسمه الدال عليه محمد بن عمر بن خيرون) - محمد بن محمد مخلوف : نفسه ، ص ٨١ .

(٢) ابن الفرضي : المصدر السابق والجزء ،ص ١٠ - ابن الجزري : نفسه ، ص ٢١٧ - مخلوف : نفسه ، ص ٨١ .

(٣) نفسه ، ج٢، ص٢١٧ .

ابن خيرون أقرأ الناس بقراءة نافع من رواية ورش ، كما ذكر أيضاً أنه كان (يأخذ أخذا شديداً على مذهب المشيخة من أصحاب ورش (١) وسلك أصحابه في ذلك طريقه ، وكذلك من أخذ عنهم إلى اليوم (٢) ، ولقد سبق لنا أن ناقشنا رأى ابن الجزري الذي يقول فيه بأن ابن خيرون هو الذي قدم بقراءة نافع إلى المغرب الأدنى ، وقد كانت تغلب عليهم قراءة حمزة ، وقلنا إن ابن خيرون ربما كان أو من نشر قراءة نافع بشكل واسع وهو مايدل عليه قول ابن الجزرى (إجتمع عليه الناس ، ورحل إليه القرآء من الآفاق) (٣) . وعلى أية حال فقد ترك ابن خيرون كتباً في القرآءآت منها : كتاب الابتداء والتمام ، وكتاب الألفات واللامات (٤) .

ومن القرآء في هذا العصر ممّن وردت أسماؤهم عرضاً في ترجمة محمد بن خيرون المعافري : محمد بن محمد بن عمر بن خيرون ، وشقيقه علي بن محمد ابنا المقرئ محمد بن عمر بن خيرون نفسه (٥) . وكذلك أبو

---

(١) ورش : هو أبو عثمان بن سعيد ، وقيل سعيد بن عبدالله بن عمرو بن سليمان بن ابراهيم ، وقيل سعيد بن عدي ، أبو سعيد ، وقيل أبو القاسم وقيل أبو عمرو القرشي بالولاء ، القبطي المصري الملقب بورش . وهو من شيوخ القرآء المشهورين ، وقد أخذ القرآءة عن نافع ، وهو رواية مدرسة نافع في القرآءة ، بجانب معاصره أبي موسى عيسى ابن مينا الملقب بقالون . وبهمامعا اشتهرت مدرسة نافع المدينة . وتوفي ورش عام ١٩٧ هـ . انظر ابن الجزري : نفسه ، ج١، ص ٥٠٢ – ٥٠٣ .

(٢) ابن الجزري : نفسه ، ص ٢١٧ .

(٣) ابن الجزري : نفسه ، ج٢ ص ٢١٧ .

(٤) ابن الجزري : نفسه ، ج٢ ،ص ٢١٧ .

(٥) ابن الجزري : المصدر السابق ،ص ٢١٧ .

بكر الهواري المعلم ، وعبد الحكيم بن ابراهيم ، وعلي بن محمد البجائي ، وكلهم قدسمع وتلقى القرآءة بحرف نافع برواية ورش عن محمد بن عمر بن خيرون ذاته (١)

ومن قرآء عصر الفاطميين المعروفين : أبو جعفر بن محمد بن عبدالرحمن القصري (٢) (ت : ٣٢١هـ) وهو في الحقيقة فقيه ومحدث ومقرئ في الوقت نفسه ، ولعله هو نفسه أبو جعفر أحمد بن أبي بكر الذي أشار إليه ابن الجزرى على أنه واحد ممَّن تلقى القرآءآت عن ابن خيرون المعافري (٣) .

وممَّن جمع بين علوم شتى ومنها القرآءآت من علماء هذا العصر ، أبو العرب محمد بن أحمد بن تميم التميمي المتوفى سنة ٣٣٣هـ كما عرفنا سابقاً ، وأبو العرب تلقى علومه في القراءات في عصر الأغالبة (٤) .

ومن هؤلاء أيضاً أبو سليمان ربيع بن سليمان بن عطاء الله القطان المتوفى سنة ٣٣٣هـ ، والذي أشرنا مراراً إلى أدواره في نشر المذهب المالكي والدراسات الشرعية ، فقد ذكر الدواوودي (٥) أن ربيعاً القطان كان ذا علم بالقرآن : تفسيراً ومعنى . ولقد سمع خلال رحلته من المشرق لعدد من علماء القرآءآت بجانب سماعه لعلماء الفقه والحديث

(١) ترجمة ابن خيرون عن ابن الجزري : نفسه ، ص ٢١٧ .

(٢) الزركلي : نفسه ، ج١ ص ٢٠٦ .

(٣) ترجمة ابن خيرون عن ابن الجزري : نفسه ، ص ٢١٧ .

(٤) ابن الجزري : نفسه ، ص ١٠٤ .

(٥) طبقات المفسرين : ج١ ، ص ١٧٠ -١٧١ .

هناك (١) . ومن القرآء العلماء الذي ورد ذكرهم ضمن ترجمة ربيع القطان ، أبو محمد بن يزيد المقرى (٢) والحقيقة أننا لانعرف عنه أكثر من اسمه فقط .

ومن علماء القرآءات المتأخرين في عصر الفاطميين ، محمد بن الحسين بن محمد بن ابراهيم بن النعمان المقرئ (٣) ، وقال ابن الفرضي (٤) عنه أنه ممّن كانت له عناية بالقرآن وقرأ على عدد من العلماء بمصر . ولقد غادر محمد بن الحسين النعمان القيروان بعد عام ٣٦٠هـ إلى الأندلس ، حيث بقي هناك حتى توفي سنة ٣٧٨هـ (٥) .

ومنهم كذلك أبو جعفر عمر بن مثنى ، الذي نجهل تاريخ وفاته ، غير أن المعروف عنه أنه عاش في عصر الفاطميين ، لأنه عاصر جملة من علماء إفريقية المشهورين وقتذاك مثل أبي اسحاق الجبنياني (٦) . وقد ذكر عياض أن ابن مثنى اشتهر بالقرآءة برواية ورش ، كما أنه كان ذا معرفة بعلوم القرآن الأخرى كالناسخ والمنسوخ والإعراب والخاص والعام (٧) ... الخ .

---

(١) الداودي : طبقات المفسرين : ج١ ، ص ١٧١ .

(٢) الداودي : نفسه ، ص ١٧١ .

(٣) ترجم له كل من : ابن الجزري : نفسه ، ج٢ ، ص ١٣٢ - ابن القرضي نفسه ، ج١ ، ص ١١٣ .

(٤) نفسه ، ج١ ، ص ١١٣ .

(٥) هذا ما أشار إليه ابن الجزري : نفسه ، ص ١٣٢ - أما ابن الفرضي : نفسه ، ص ١١٣ فقد قال إن وفاته كانت عام ٣٧٨هـ .

(٦) انظر عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٦٢٧ .

(٧) عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٦٢٧ .

ثالثاً : التفسير :

ليس لدينا حقيقة مايشير إلى التفسير ورجاله في عصر الفاطميين فيما يخص علماء المالكية ، سوى ماورد باقتضاب في بعض المصادر المتخصصة ومع ذلك فلم نعثر إلاّ على ذكر لأربعة علماء فقط هم : أبو الأسود موسى بن عبدالرحمن القطان ، وأبو جعفر أحمد بن زياد ، وأبو سليمان ربيع القطان وأبو جعفر عمر بن مثنى . فأبو الأسود موسى القطان المتوفى سنة ٣٠٦هـ كما مر بنا سابقاً : عرفناه مدافعاً قوياً عن المذهب المالكي ، كما عرفناه فقيهاً من الفقهاء المعدودين ، لكنه بالإضافة إلى ذلك يعد مفسراً، وقد ترجم له الداودي في كتابه طبقات المفسرين (١) . ومعلوم أن هذا الكتاب لايترجم إلاّ للمفسرين فقط ، ومن هنا جاز أن نقول عن موسى القطان إنه كان مفسرا . وهذا الأمر ينطبق أيضاً على أبي جعفر أحمد بن زياد (٢) (ت : ٣١٩هـ) ، وأبي سليمان ربيع القطان (٣) المتوفي سنة ٣٣٣هـ اللذين أشرنا إليهما سابقاً . فهما متعددا المواهب في الفقه والحديث والتفسير ، وقد وردت لهما ترجمتان عند الداودي .

ويمكننا أن نضيف إلى هؤلاء الأربعة أبو جعفر عمر بن مثنى ، فهو بجانب كونه مقرذاً ، فقد كان عالماً بالتفسير كما يقول عياض (٤) .

---

(١) الجزء الثاني : ص٣٤١- ٣٤٣ .

(٢) مخلوف : نفسه ، ص ٨١١ .

(٣) الداودي : المرجع السابق ، ج٢، ص ١٧٠ - ١٧١ .

(٤) نفسه : ج٢ ،ص ٦٢٧ .

بيد أن عصر الفاطميين قد شهد توسعاً في علم التفسير الشيعي ، على يد عالمين من أبرز علماء المذهب الإسماعيلي آنذاك ، وهما : قاضي القضاة أبو حنيفة النعمان بن أبي عبدالله محمد بن حيون المتوفى سنة ٣٦٣هـ ، حسبما عرفنا من قبل ، وباب الأبواب جعفر بن منصور اليمن الذي أشرنا إلى دوره في الفقه الإسماعيلي من قبل ، فلقد ألف كلاهما كتباً في علم التفسير أو التأويل كانت ذات أهمية كبرى في خدمة المعتقد الشيعي الإسماعيلي .

فأبو حنيفة النعمان بن حيون كان منظراً شيعياً بلغة اليوم ، وألف في سبيل خدمة مذهبة كتباً جمة ، وقد أشرنا في حديثنا عن الفقه الإسماعيلي إلى بعض كتبه ، ولقد شارك في التأليف في جوانب شتى ، ومن بينها علم التفسير أو التأويل كما يعرف عن الشيعة . ولعل أهم كتاب له هو كتاب : أساس التأويل الذي يعتبر أساس المذهب الباطني الذي تعتمد عليه الدعوة والفكر الشيعي الإسماعيلي (١) .

وللتأويل عند الشيعة الإسماعيلية في الواقع دور خطير ، لأنه العلم الذي يعنى (بباطن المعنى ، أو رمزه ، أو جوهره ، وهو حقيقة مستورة وراء لفظة لاتدل عليها ، وماسى التأويل تأويلاً ، إلاَّ أنه رجوع إلى المآل والمرجع ، من آل الشئ يؤول إذا رجع وعاد ، كما ينقل عبدالسلام الكنوني في كتابه (٢) عن مقدمة عامر تامر لكتاب أساس التأويل لأبي حنيفة

(١) عبدالسلام الكنوني : نفسه ، ص ١٧٢ .

(٢) نفسه ، ص ١٧٣ .

النعمان بن حيون نفسنه .

ولقد اختص الأئمة من الفاطميين بالتأويل وقصروه على أنفسهم ، لأنهم ورثة علي بن أبي طالب الذي يعد عند الشيعة صاحب التأويل أو الباطن ،ذلك لأنه كما يقولون قد اختصه الرسول ص ، وهو صاحب التنزيل بعلم التأويل والحقيقة وتعاليمها وما ترمز إليه ، وقد تناقل أبناؤه من الأئمة هذا العلم عنه وأختصوا به (١) .

ومع أنه ليس من مهمتنا الخوض في هذا الموضوع ، إلاَّ أننا نرى بعض أتباع الفاطميين مثل النعمان بن حيون ، وجعفر بن منصور اليمن يؤلفان كتباً في التأويل باقرار واطلاع من الخليفة المعز لدين الله الفاطمي (٢) .

ومهما يكن من أمر ، فإن كتاب أساس التأويل للنعمان بن حيون قام على أساس تفسير أو تأويل بعض الآيات من القرآن الكريم وليست كلها ، خاصة الآيات التي اعتقد الإسماعيلية أنها تؤيد مذهبهم وما يدعون إليه (٣) على أن كتاب أساس التأويل لم يأت كما يقول حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف (٤) متطرفاً في التأويل الذي عرفه كتاب جعفر بن منصور مثلا، أو غيره من كتب التأويل اللاحقة .

---

(١) عبدالسلام الكنوني : نفسه .

(٢) أنظر حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفسه ، ص ٢٣٤ - ٢٣٥ ، ٢٦٣ ، ٢٧٠ .

(٣) عبدالسلام الكنوتي : نفسه ، ص ١٧٣ - ١٧٤ .

(٤) نفسه ، ص ٢٦٢ .

لكن التأويل نحى بعد ذلك عند جعفر بن منصور اليمن معاصر أبي حنيفة النعمان بن حيون والذي اكتنفه الخليفة المعز لدين الله بحبه ورعايته منحى مغرقاً في التأويل لدرجة الغلو . وذلك في كتبه التي ألفها ، مثل كتاب تأويل الزكاة وكتاب الكشف ، وكتاب الفترات والقرانات ، وكتاب أسرار النطقاء ، ففي كتابه تأويل الزكاة ، غالي كثيراً في تأويل بعض آيات القرآن الكريم ، بل قد ذهب كما يقول حسن ابراهيم حسن وطه شرف (١) إلى تأليه بعض الأئمة . ونفس الشيئ يمكن أن يقال عنه كتبه التي أشرنا إليها آنفا ، وهذه الكتب على أنها تعد كتب مناظرات وسير وتاريخ ، إلاَّ أنها لم تخل من تأويلات خطيرة لبعض ماورد فيها من آيات قرآنية (٢) .

---

(١) نفسه ، ص ٢٦٨ – ٢٦٩ .

(٢) حسن ابراهيم حسن وطه أحمد شرف : نفسه ، ص ٢٦٩– ٢٧٢ .

ثالثاً : علــوم القـرآن الأخـــرى :

الواقع أن هذا الجـانب من العلوم القـرآنيـة هـو أقل الجـوانب بروزاً خلال عصر الفاطميين ، شأنه في ذلك شأن العصور السابقة ، ولعل أقصى مانستطيع قوله هنا ، هو أن أبا الأسود موسى القطان الذي أشرنا إليه في حديثنا عن التفسير في هذا العصر ، ألف كتاباً في أحكام القرآن ، جاء في ١٢ جزءاً (١) .

ثم لدينا عالم القرآءات الآخر : هو أبو جعفر أحمد بن محمد بن زياد القيرواني المتوفى سنة ٣١٩ هـ كما عرفنا ، وقد روى أنه ألف هو الآخر كتاباً في أحكام القرآن جاء في ١٠ أجزاء (٢) .

وأخيـراً أبو جعفـر عمـر بن مثنى الذي عـرفناه مقـرئاً من مقرئي هذا العصـــر ، وهو وإن لـــم يترك لنامؤلفـــات في علـــوم القـــرآن ، إلاّ أنه كـان ذا مـعــرفـة واسـعـة بهـا وخـاصـة الناسخ والمنسـوخ والخـاص والعـام والغريب (٣)... الخ .

---

(١) الدوادي : نفسـه ، ج٢ ، ص ٣٤٢ – مخلوف : نفسـه ، ص ٨١– الزركلي : نفسه ، ج ٧ ، ص ٣٢٤ .

(٢) مخلوف : نفسه ، ص ٨١ – مجموعة من الأدباء والعلماء : تاريخ قفصة ،ص ١٣ .

(٣) عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٦٢٧ .

علوم القرآن في عصر الزيريين :-

في تتبعنا لعلوم القرآن في عصر الزيريين ، كانت الملاحظة الأولى التي لفتت انتباهنا هي أن إفريقية شهدت وقتذاك توسعاً كبيراً في علوم القرآن في الكم والنوع . ففي الكم ظهر خلال هذا العصر العشرات في القرآء سواء الذين اختصوا القرآءآت وغيرها من علوم القرآن بالدراسة والتعليم والتلقين ، أو الذين اختصوها - أي علوم القرآن -، بالدراسة والتعلم والتأليف والتصنيف ، أما من حيث النوع ، فقد ظهرت خلال هذا العصر مصنفات في علوم القرآن ضخمة كان لها تأثير كبير في إفريقية وفي خارجها كذلك . ويمكننا أن نقول في اطمئنان إن ماعرفه هذا العصر من تقدم في علوم القرآن وتوسعها يفوق كل ماعرفته إفريقية في العصور السابقة .

وفي الحقيقة ليس لدينا مايعلل هذا الإهتمام بهذا الفرع من علوم الشريعة ، إلاَّ إذا عددنا الجمود الذي أصاب الدراسات الفقهية في هذا العصر ، كان الدافع وراء الإهتمام بعلوم القرآن التي كانت في منتصق القرن الرابع والقرن الخامس الهجريين قد ازدهرت في كل الدولة الإسلامية

والملاحظة الثانية التي خرجنا بها من تتبعنا الأحوال علوم القرآن من خلال هذا العصر ، هي أنه زادت فيه فرص الاحتكاك بعلماء القرآءآت وغيرها في مصر بدرجة أولى ، ثم في الأندلس من بعد ، فلقد تأثرت مدرسة القرآن القيروانية بمدرسة مصر تأثراً كبيراً ، وهو ما أكدته رحلات جل

علماء القيروان المغاربة إلى مصر للنهل من شيوخ علوم القرآن المشهورين بها من أمثال أبي الطيب عبدالمنعم بن غليون وغيره .

والأمر نفسه يمكن أن يقال – ولكن مع الفارق – ، عن الأندلس فقد تأثر علماء القيروان بعلماء الأندلس المختصين في علوم القرآن ، ولكن ذلك التأثير لم يكن مطلقاً ، فقد أثروا هم أيضاً في رفقائهم الأندلسيين عندما فضل البعض منهم استيطان الأندلس .

أولاً : القـــــــرآءات :

أشرنا إلى أن هذا العصر شهد العشرات من علماء القراءات وخلافهم ، ونحن بالطبع لن نمض في تقصيهم فرداً فرداً ، وحسبنا أن نشير إلى بعضهم وخاصة مَّن كانت له مجهودات تأليفية في القرآءات ، وعلى أية حال فإن من الأسماء اللامعه التي تطالعنا من قرآء هذا العصر : أبو ابراهيم اسماعيل بن أحمد القروي ، ويعرف بالمهدي (١) (ت :٣٨٠هـ) ، وقد كان قارئاً حاذقاً متصدراً ، وله رحلة إلي مصر ، سمع خلالها لعدد من علمائها ، وعاد إلى بلاده ، فسمع منه الكثيرون ومن أبرزهم محمد بن سفيان الهواري الذي سنترجم له بعد قليل ، ومن العلماء القرآء الذين تصدوا للإقراء والتدريس ، أبو حفص عمر بن مهران القروى (٢) (ت بعد ٣٩٠هـ) فقد كان قارئاً عارفاً حاذقاً كما يصفه ابن الجزرى ، وممن

---

(١) ابن الجزري : نفسه ، ج١ ، ص ١٦١ – ١٦٢ .

(٢) ابن الجزري : نفسه ، ج١ ، ص ٩٨ .

تصـدى للتـدريس والإقراء في نـهاية القـرن الرابع أبو علي الحسن بن علي الجلولي القيرواني (١) .

ويعد أبو عبدالله محمد بن أبي زيد الفقيه القيرواني المشهور المتوفي سنة ٣٨٩هـ الذي أشـرنا إلى أدواره في نشـر المذهب المالكي والدراسات الفقهية والحديثية من القراء المعروفين في القيروان كذلك ، وهو ممّن كان يقصد الأندلسيون لتلقي القرآءة عنه . ومن أولئك الذين أخذوا القرآءة عنه العالم الأندلسي المشهور أحمد بن محمد المعافري الأندلسي الطلمنكي (٢). ولأبي محمد عبدالله بن أبي زيد في القرآءات مؤلفات منها : رسالة فيمن تأخذه عند قراءة القرآن والذكر حركة ، ورسالة إلى أهل سجلماسة في تلاوة القرآن (٣) .

وممّن جمع بين علوم شتى ومنها القرآءات : أبو اسحاق ابراهيم بن أحمد بن على الجبنياني المتوفي سنة ٣٩٩هـ الذي كنا قد عرفنا بعضاً من سيرته من قبل وكان لأبي اسحاق الجبنياني في القرآءات حظاً طيباً ، ويقول الداودي (٤) عنه أنه كان (حسن القرآءة للقرآن ، يحسن تفسيره ، وإعرابه وناسخه ومنسوخه) .

ويعد أبو الحسن على بن خلف المعافري القابسي العالم القيرواني المبرِّز المتوفي سنة ٤٠٣هـ ، في عداد القرآء المعروفين أيضاً. فأبو الحسن

---

(١) ابن الجزري : نفسه ، ص ٢٢٦ .

(٢) السيوطي : طبقات المفسرين ، س ٥١ .

(٣) عياض : نفسه ، ج٢، ص٤٩٤ .

(٤) طبقات المفسرين ، ج١ ، ص١-٢ .

القابسي لم تقف به همته العلمية على علمي الفقه والحديث فضلاً عن علم التربية ، بل كان مبرزاً في علوم أخرى ومن بينها القرآءات ، بل إنه آشتهر في البداية بالقرآءات وكانت له رحلة إلى المشرق سمع فيها من بعض المقرئين ، ثم عاد إلى بلاده - (فأقرأ الناس بالقيروان دهراً ، ثم قطع الإقراء لما بلغة أن بعض أصحابه استقرأه السلطان فقرأ عليه) (١) .

ويأتي أبو عبدالله محمد بن سفيان الهواري (٢) (ت : ٤١٥هـ) على رأس القرآء المشهورين والمبرِّزين في العقد الثاني من القرن الخامس الهجري ، وتأتي مكانته وأهميته من اقتصاره على علم القرآءات وحده ، فأوسعه دراسة ومذاكرة ، ليس هذا فحسب ، بل وقد ألف فيه مؤلفات قيمة . ويقول عنه عياض (٣) ما نصه (محمد بن سفيان الهواري المقرئ قيرواني، أبا عبدالله ابن محمد ، أخذ عن القابسي ورحل إلي عبدالمنعم بن غليون ، وكان الغالب عليه علم القرآن) ، وفي موضع آخر (٤) قال أيضاً: (قال حاتم الطرابلسي ، كان رجلاً عاقلاً فهماً ، حلواً متقللاً أشهر من في المغرب في وقته بالقرآءات وأبصرهم بها) . أما ابن الجزري (٥) فقد تناول فيما

---

(١) ابن الجزري : نفسه ، ج١ ،ص ٥١٧ .

(٢) ترجمته موجودة باستفاضة عند عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٧١٢ - الدباغ : نفسه ، ج٣ ، ص١٥٦ - ١٥٧ - ابن الجزري : نفسه ، ج٢ ، ص ١٤٧ - ابن فرحون : نفسه ، ص ٢٧١ - مخلوف : المصدر السابق ، ص ١٠٥ - ١٠٦ .

(٣) نفسه ، ج٢، ص ٧١٢ .

(٤) نفسه ، ج٢ ، ص ٧١٢ .

(٥) نفسه : ج٢ ،ص ١٤٧ .

يأخذه جمعه عن مصادره المختلفة ، معظم أحواله وشؤونه ، وأعطى تفصيلات واسعة عن شيوخه في مصر كابن غلبون وغيره ، ثم طلبته في إفريقية . وقد أشاركما ذكر عياض إلى أن محمداً بن سفيان الهواري قد غادر بلاده إلى مكة قاصداً الحج عام ٤١٣هـ ، فحج وجاور هناك ثم انتقل إلى المدينة ، فتوفى بها سنة ٤١٥هـ (١) . ولمحد بن سفيان الهواري في القرآءات كتاب مشهور هو كتاب الهادي الذي كان له سمعة طيبة في الأندلس وغيرها (٢) وكتاب اختلاف قرآءة الأمصار في عدد أي القرآن . وكتاب الإرشاد في مذهب القرآءة وكتاب التذكرة في القرآءات (٣) .

وممّن اختص بالقرآءة وحدها من علماء إفريقية في عصر الزيريين أبو جعفر أحمد بن علي الأزدي القيرواني (٤) (ت : ٤٢٧هـ) ، وهو ممّن رحل كذلك إلى مصر ، فقرأ على أبي الطيب عبدالمنعم بن غلبون ، ثم عاد إلى بلاده ، فقرأ عليه عدد من القرآء المعروفين آنذاك .

---

(١) عياض : نفسه ، ص ٧١٢ – ابن الجزري : نفسه ، ص ٤٧ بينما شذ ابن ناجي مكمل ومعلق كتاب المعالم بقوله إن محمداً بن سفيان توفى سنة ٤٠٨هـ .

(٢) عياض : نفسه ، ص ٧١٢– ابن الجزري : نفسه ، ص ١٧ (وقد أشار فقط إلى كتاب الهادي وحده) .

(٣) ابن خير : فهرسة مارواه عن شيوخه : ص ٢٥، ٣٨ – ٣٩ – مخلوف : نفسه ، ص١٠٦ .

(٤) ابن الجزرى : نفسه ، ج١ ، ص ٩١ .

وممَّن اشتهر بالقرآءات من علماء العقد الثالث من القرن الخامس الهجري ، أبو عمران : موسى بن عيسى بن أبي حاج الغفجومي (١) المتوفي سنة ٤٣٠هـ ، وأبو عمران الفاسي عرفناه رحالة في طلب العلم ، وعرفناه كذلك مدافعاً بلسانه ، وقلمه عن المذهب المالكي ، وبيَّنا جهوده في دراسات الفقه والحديث أيضاً ، غير أن مالم نعرفه عنه آنذاك ، هو إنه كان من القرآء المشهورين في القيروان بجانب ماذكر ، بل انه في رحلته التي رحل فيها إلي المشرق تلقى القرآءآت عن عدد من علمائها في الحجاز والعراق ، ويقول عنه ابن الجزرى (٢) بأنه عندما عاد إلى القيروان (أقرأ الناس بها مدة ، ثم ترك الإقراء ، ودارس الفقه وأسمع الحديث إلى أن مات) ، وفي مكان آخر (٣) يقول عنه إنه (كان يقرأ بالقرآءآت ويجوِّدها مع معرفة بالجرح والتعديل) .. ويذكر (٤) مخلوف فيما ينقله عن مصادره إنه كان عالماً بالقرآءآت السبع ويجوِّد القرآن) . ومن علماء هذه الفترة كذلك أبو الطيب عبدالمنعم بن محمدالكندي (٥) (ت : ٤٣٥هـ) وهو ممَّن جمع بين

---

(١) ترجمته موجودة بتوسع عند : عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٧٠٢ – ٧٠٦ – الدباغ : نفسه ،ج٣ ، ص ١٥٩ – ١٦٤ – ابن القاضي : جذوة الاقتباس ، القسم الأول ، ص ٣٤٤ – ٣٤٥ – ابن الجزرى : المصدر السابق ،ج٢ ، ص ٣٢١ – ٣٢٢– ابن السراج : نفسه ، الجزء الأول ، القسم الأول ، ص ٢٧٢– ٢٧٣ – مجهول : بيوتات فاس الكبرى ، تحقيق عبدالوهاب بن منصور ، ص ٤٤– ٤٥ – عبدالهادي التازي : جامع القرويين ،ج٣ ، ص١٥٧ – ١٥٨ – عبدالعزيز بن عبد الله : الموسوعة المغربية ، ج٣، ص ٤٩ .

(٢) نفسه ، ج٢ ، ص ٣٢١– ٣٢٢ .

(٣) نفسه ، ج٢ ، ص ٣٢٢ .

(٤) نفسه ، ص ١٠٦ .

(٥) الدباغ : نفسه ، ج٣ ، ص ١٨٤ – ١٨٥ .

علوم شتى ، ومن بينها القرآءات ، وقد قرأ على أبي عبدالله محمد بن سفيان الهواري الذي ترجمنا له من قبل .

على أن أشهر شخصية إفريقيَّة على الإطلاق في علوم القرآن عامة ، والقراءآت خاصة ليس في عصر الزيريين فقط ، بل وفي كل الفترة الزمنية موضوع الرسالة ، هو أبو محمد مكي بن أبي طالب : حموش بن محمد بن مختار القيسى القيروانى ، ثم الأندلسي (١) (٣٥٥- ٤٣٧هـ) .

ولقد أجمع كل من تعرض لمجريات الحياة العلمية في إفريقيَّة على أن مكياً بن أبي طالب ،كان واحداً من أبرز أقطاب العلوم الشرعية والعربية في إفريقيَّة ثم الأندلس وقتذاك ، وهذا الاجماع جاء من التتبّع الشديد لتفاصيل حياته العلمية الحافلة . والواقع أن معظم متتبعى سيرته العلمية قد أمدونا بشئ غير يسير من أحواله وشؤونه بصورة لم نعهدها إلاَّ لقليل من العلماء مثل سحنون بن سعيد مثلا ، بل لعلنا نقول بأننا لم نعثر على ترجمة مالعالم تُقصَّى تاريخ ولادته ووفاته ساعه ساعه ويوماً يوماً وشهراً شهراً وسنة سنة (٢) . وما من ريب في أن ذلك دليل واضح على مقدار ما تعكسه مكانة

---

(١) لمكي بن أبي طالب ترجمة واسعة جداً عند أكثر من ١٠٥ مؤرخاً تقريباً وعلى كل فإن أوسع ترجمة له رأيناها موجودة عند : القفطى ، (جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف القفطي) : إنباه الرواة على أنباه النحاة تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم ، ج٣ ،ص ٣١٣ – ٣١٩ ، وقد أشار المحقق في هامش ص٣١٣ إلى حوالى ١٤ مصدراً وردت فيها ترجمة مكي بن أبي طالب – ابن خلكان : نفسه ، المجلد الخامس ، ص٢٧٤ – ٢٧٧ – ياقوت : معجم الأدباء ، ج ١٩ ، ص ٢١٧١ – ٢١٧١ – ابن الجزري : نفسه ، ج٢، ص٣٠٩ – ٣١٠ – الداودي : نفسه : ج ٢ ، ص ٣٣٧ – ٣٣٨ – الزركلي : نفسه ، ج٧ ، ص ٢٨٦ . وغير ذلك .

(٢) قال المؤرخون عند ولادته (ولد بالقيروان عند طلوع الشمس أو قبل طلوعها لسبع بقين =

هذا العالم العلمية من تقدير واحترام .

ولم يقتصر الأمر على هذا الحد فقط ، وإنما طافوا مع مكي بن أبي طالب البلدان التي نزلها والشيوخ الذين أخذ عنهم في القيروان ومصر ومكة كل ذلك مؤرخا(١) . كما أشاروا إلى تلاميذه الكثر من الإفريقيين والأندلسيين (٢) ورصدوا ما حكاه نفسه عن مؤلفاته ومواقع التأليف لبعضها في مكة وقرطبة وبيت المقدس (٣) . ثم ذكروا تآليفه ، غير أنهم لم يكونوا في ذلك سواء ، فمنهم من أشار إلى بعضها (٤) ، ومنهم من أشار إلى الكثير منها (٥) ، ومنهم من تقصَّاها جميعها بما فيها من أجزاء وهي التي تبلغ أكثر من ثمانين مصنَّفاً في علوم القرآن جملةً (٦) ، منها ما اتيح

= من شعبان سنة خمس وخمسين وثلثمائة) وقيل سنة أربع وخمسين وثلثمائة) . وقالوا عن وفاته (وتوفى مكي بن أبي طالب رحمه الله يوم السبت عند صلاة الفجر) ، ودفن ضحى يوم الأحد لليلتين خلتا من المحرم سنة سبع وثلاثين وأربعمائة بقرطبة) . أنظر ابن خلكان : نفسه ، ج٥، ، ص ٢٧٧ – القفطي : إنباه الرواة على أنباء النحاة ، ج٣ ،ص ٣١٥ . وغيرهما.

(١) أنظر ابن خلكان : نفسه ، ص ٢٧٤ – ٢٧٥ – القفطي : المصدر السابق والجزء ، ص ٣١٤ – ٣١٥ .

(٢) أنظر ابن خلكان : نفسه ،ص ٢٧٤ – ٢٧٥ – القفطي : نفسه ، ص ٣١٤ – ٣١٥ – ابن الجزري: نفسه ، ج٢ ، ص ٣٠٩ .

(٣) راجع مثلا ابن الجزري : نفسه ، ص ٣١٠ .

(٤) الدوادي : نفسه ، ج٢ ، ص ٣٣٧– ٣٣٨ – ابن الجزري : نفسه ص ٣١٠ – الزركلي : نفسه ، ص ٢٨٦ .

(٥) كابن خلكان مثلا : نفسه ،ص ٢٧٥-٢٧٦ – وقد أشار إلى الكثير منها ، ثم قال معقباً : ولولا خوف التطويل لاستوعبت ذكرها) .

(٦) كالقفطي مثلاً : نفسه ، ص ٣١٥– ٣١٩، حيث سرد كل تلك المصنفات بأجزائها .

لنا احصاؤه في القرآءات ، حيث بلغت أكثر من أربعين كتاباً ، والبقية في التفسير وعلوم القرآن الأخرى . ومن هنا فليس غريباً أن نفهم سرَّ ذلك الإهتمام بمكي بن أبي طالب ، وهو الذي أثرى علوم القرآن على مستوى الدولةالإسلامية ، هذا مع ماتمتع به من سيرة شخصية فاضلة ، فهو حسن الخلق والفهم ، جيد الدين والعقل ، مجوداً للقرآن ، خيراً فاضلاً ، متواضعاً ديناً ، مجاب الدعوة ومشهوراً بالصلاح (١) .

وفيما يتعلق بمصنفاته في علم القراءات التي تبلغ أكثر من أربعين كتاباً فإن من العسير أن نوردها كلها ، غير أننا نكتفي بالإشارة إلى أكثرها شهرة وأهمية محيلين القارئ إلى بقيتها في كتب التراجم والطبقات التي أشارت إلى ذلك وهذه المصنفات هي (٢) :

١- كتاب التبصرة في القرآءات ، ٥ أجزاء ، وقد نص على أنه ألفه في القيروان (٣) .

٢- كتاب الرعياة لتجويد القرآن ، ٤ أجزاء .

٣- كتاب شرح التمام والوقف ، ٤ أجزاء .

٤- كتاب الكشوف على وجوه القراءآت وعللها ، ٢٠ جزءاً .

---

(١) ابن خلكان : نفسه ، ج٥ ،ص ٢٧٤ - القفطي : المصدر السابق ج٣ ، ص ٣١٤ - ابن الجزري : نفسه ، ج٢ ،ص ٣٠٩ - ٣١٠ .

(٢) عن هذه المصنفات وغيرها من مصنفات علم القرآءات ، أنظر القفطي : نفس المصدر السابق ، ج٣، ص ٣١٥- ٣١٩ .

(٣) ابن الجزري : نفسه ، ج٢ ، ص ٣١٠ .

٥- كتاب الموجز في القرآءات ، جزءان .

٦- كتاب التنبيه على أصول قراءة نافع وذكر الاختلاف عنه ، جزءآن.

٧- كتاب الوقف على كلاًّ وبلى في القرآن ، جزء واحد .

٨- كتاب التذكرة لاختلاف القرآء السبعة ، جزء واحد .

٩- كتاب شرح الإدغام الكبير في الخارج ، جزء واحد .

١٠- كتب الاختلاف بين قالون وكل من القرآء الآتيين : أبو عمر بن العلاء وابن كثير ، وابن عامر ، وعاصم ، والكسائي وحمزة ، وكل كتاب يقع في جزء واحد .

ولعل في هذا مايوضّح بعض مكانة مكي بن أبي طالب العلمية . ويبقى أن نشير هنا بشئ من الإسهاب إلى ماسبق أن ذكرناه من رأى الباحث التونسي الطاهر المعمورى ، الذي يرى بأن عطاءات ابن أبي طالب العلمية ليست وليدة البيئة الافريقية ، ولكنها تعود لتأثير البيئة المشرقية والأندلسية .

في البدء نشير إلى أننا لا ننكر بأن مكياً بن أبي طالب قد تأثر بالبيئة العلمية في المشرق ، وكذلك في الأندلس ، لكننا نود أن نقول وبناء على أقوال مؤرخي سيرته ، إنه قد ولد عام ٣٥٥هـ في القيروان وقض فيها طفولته وشبابه ، وقد تلقى آنذاك علوم القرآن وخاصة القرآءات على يد ابن أبي زيد القيرواني وأبي الحسن

القابسي (١) ، ولعل في هذا مايدل على أن تكوينه العلمي في القراءات ،قد انبنى على أيدى علماء القيروان . ثم غادر القيروان وعمره ١٣ عاماً كما أشار المؤرخون بعد أن أكمل القراءآت إلى مصر حيث اختلف إلى بعض المؤدبين بالحساب وهي عبارة القفطي (٢) بنصها ثم عاد إلى القيروان ليستكمل بها علومه ، ثم ذهب ثانية إلى مصر (بعد أن أكمل القراءآت بالقيروان)(٣) وذلك في سنة ٣٧٧هـ ، ومن مصر اتجه إلى مكة المكرمة حيث أدى فريضة الحج ، ثم رجع إلى القيروان (وبقي عليه شئ من القرآءآت ، فعاد إلى مصر ثالثة في سنة اثنتين وثمانين ، فاستكمل مابقى عليه) (٤) ، ثم عاد إلى القيروان في سنة ٣٨٣هـ ، وأقام هناك يقرئ الناس الناس حتى سنة ٣٨٧هـ ، حيث غادر بلده إلى مكة وظل فيها حتى سنة ٣٩٠هـ ، ثم عاد إلى مصر في سنة ٣٩١هـ وظل فيها بعض سنة ٩١هـ ، ثم غادرهاإلى بلاده عام ٣٩٢هـ (٥) . وأخيراً غادر بلاده نهائياً في عام ٣٩٣هـ إلى الأندلس حيث استوطنها إلى أن توفى سنة ٤٣٧هـ (٦) .

هذا هو ما يقال عن تأثير البيئة المشرقية والأندلسية في ابن أبي طالب . وبعملية حسابية نرى أن مكيا ابن أبي طالب لم ينقطع عن بلده

---

(١) ابن الجزري : نفسه ، ج٢ ، ص ٣٠٩ .

(٢) انباه الرواة ، ج٣ ، ص ٣١٣ .

(٣) القفطي : نفسه ، ص ٣١٤ .

(٤) القفطي : نفسه ص ٣١٥ .

(٥) ابن خلكان : نفسه ، ج٥ ، ص ٢٧٤ – القفطي : نفسه ، ص ٣١٥ .

(٦) ابن خلكان : نفسه ، ص ٢٧٤ – ٢٧٥ – القفطي : نفسه ، ص ٣١٥ – ابن الجزري : نفسه ، ص ٣١٠ .

القيروان البتة . فمنذ عام ٣٦٨هـ عندما غادر بلاده لأول مرة وعمره ١٣ عاماً لم ينقطع عن بلده سوى ثلاث سنوات متتاليات فقط . ولَّا كان قد ولد عام ٣٥٥هـ ، وغادر القيروان نهائياً إلى الأندلس عام ٣٩٣هـ ، فإنه قد أمضى في بلده دون ريب معظم هذا الشطر من عمره الذي يبلغ وقتها ٣٧ عاماً . وهذه المرحلة من السِّن في تصورنا جزيلة العطاء ، فهى تمثِّل شرخ الشباب لاسيما وأننا قد عرفنا أن نبوغه قد بدأ مبكراً في سنٍ لم يتعد فيها الثالثة عشر من عمره .

وإذا كان مكي بن أبي طالب قد ألَّف معظم تآليفه في الأندلس كما صرح هو (١) نفسه ، فإن من غير المعقول ألاَّ يكون ذلك العطاء قد جاء وليد البيئة التي نشأ فيها وترعرع ، وكانت ذات أثر في تخصصه في علوم القرآن بشكل أساسي .

وقبل أن نختتم الحديث عن علماء القرآءات في القيروان خلال العصر الزيري ، نرى لزاماً علينا أن نشير إلى عالمين مشهورين في القرآءات بصفة خاصة وغيرها من العلوم بصفة عامة ، وهما علي بن فضال المجاشعي ، وأبي الحسن علي بن عبدالغني الحصرى ، ولعل وجه ختم الحديث عنهما من جهة ، وذكرهما معاً هنا من جهة أخرى راجع إلى أنهما وإن كانا من علماء القرآءات بالقيروان في عصر الزيريين إلاَّ أنهما قد عاشا فترة من الزمن بعد منتصف القرن الخامس الهجري ، ولم يكن في الإمكان أن نغفل دورهما وهما اللذان أثريا علوم القرآن بعلمهما

---

(١) ابن الجزري : نفسه ، ص ٣١٠ .

الغزير ومؤلفاتهما القيمة في القراءات .

فعلي بن فضال بن علي بن غالب بن جابر المجاشعي الفرزدقي التميمي القيرواني (١) (ت : ٤٧٩هـ) أحد علماء المشرق الذين قدموا القيروان فأقام بها مدة من الزمن . ولئن كنا لانعرف مقدار تلك المدة التي قضاها في القيروان إلا أننا لانستبعد أن يكون قد أحدث في البلاد أثراً علمياً كبيراً . لاسيما وأنه أحد المشهورين بالتصنيف في كل علوم القرآن. ونحن بالطبع لانعرف متى غادر القيروان . وكل الذي نعرفه أن قد توفى في بغداد سنة ٤٧٩هـ (٢) .

على أن حظّنا من المعلومات القيمة عن علي الحصري القيرواني (٣) ، كان بلا شك أفضل حالاً من معلوماتنا عن ابن فضال المجاشعي ، فالحصري أولاً قيرواني الأصل بإتفاق جميع من ترجم لهم ، كما أنه ابن خالة ابراهيم الحصري الأديب القيرواني المشهور والذي سنترجم له . ثم أنه عاش أغلب سنوات عمره في القيروان قبل أن يغادرها بعد سقوطها على يد عرب بنى هلال في منتصف القرن الخامس الهجري .

وكيفما كان الأمر فإننا نقول بإطمئنان إن علياً الحصرى القيرواني (ت: ٤٨٨ هـ) هو أحد علماء القيروان المتأخرين ممَّن كانت له شهرة عريضة في القراءات أجمع على ذكرها والإشادة بها كل من ترجم له (٤) .

---

(١) السيوطي : طبقات المفسرين ، ص٢٣ -٢٤- الداودي : المصدر السابق ، ج١ ، ص٤٢١ - ٤٢٢

(٢) الداودي : نفسه ، ص ٤٢٢ .

(٣) عن ترجمته أنظر بعد ص ٧٢٤ ومابعدها .

(٤) الدباغ : نفسه ، ج٣ ، ص٢٠٢ ومابعدها - ابن الجزري : نفسه ، ج١ ، ص٥٥٠ - ٥٥١ - =

ويكفي أن نذكر بأن القرآءات هي المادة التي تخصص فيها وقضى جل عمره في تدريسها وألّف فيها القصيدة الرائية المشهورة في قرآءة نافع التي تجاوزت مائتي بيت ، والتي عُنى المختصون بشرحها والتعليق عليها (١) .

ولقد بلغ من شغف علي الحصرى القيرواني بالقرآءات أنه كان يقتبس قواعدها ومصطلحاتها في شعره ، كما كان يضمّن العديد من آيات القرآن في شعره أيضاً (٢). وبلغت مكانته في علم القرآءآت أنه يقوم بتوجيه الأسئلة المتعددة إلى مشاهير القرآء في المغرب طالباً إجابتهم عليها (٣) . وهذا في الواقع ليس غريباً على الحصري ، فقد (كان إماماً في القرآءآت السبع)(٤)، كما كان شاعراً مبرزاً مشهوراً حسبما سنعرف في موضعه .

فمن علماء مدينة تونس المبكرين : علي بن حجاج التونسي (ت : ٣٨٩) ، وهو كما يقول ابن الجزري (٥)) امام مقرئ مصدّر معروف ، رحل إلى مصر ، فقرأ على أبي الطيب عبدالمنعم بن غلبون ، وتصدّر بتونس ، فقرأ عليه أبو بكر بن عتيق أبو عبدالله وفتاح بن عبدالله بن البابوسي) . ومن علماء القرآءآت في مدينة تونس كذلك فتاح بن عبدالله بن البابوسي : أبو عبدالله بن أبي محمد التونسي ، وهو من مشائخ الإقراء بالمغرب كما

= محمد المرزوقي والجيلاتي بن الحاج يحيى : أبو الحسن الحصرى القيرواني ، ص ٣٣- ٣٤ - الزركلي : نفسه ، ج٤، ص ٣٠-٣١ .

(١) محمد المرزوقي والجيلاتي بن الحاج يحيى : نفس المرجع أعلاه ،ص ٣٣ -٣٤، ٦٧.

(٢) محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى : نفس المرجع أعلاه،ص ٣٣- ٣٤ .

(٣) ابن الجزري : نفسه ،ج ١ ، ص٥٥٠ .

(٤) الدباغ : نفسه ، ج٣ ،ص٢٠٨ .

(٥) نفسه ، ج١، ص ٥٢٩ .

يقول ابن الجزري (١) ، وقد مر بنا قبل قليل انه أحد من تلقى القراءآت على، علي بن حجاج التونسي .

ومن علماء القراءآت بمدينة المهدية ، يطالعنا ، اسم أبي الحسن علي ابن أبي غالب المهدوي ، كواحد من علمائها المختصين بالقرآءآت وحدها . وهو أحد الذين رحلوا إلى مصر ، فأخذوا عن أبي الطيب عبدالمنعم بن غلبون (٢) .

ومن أبناء مدينة المهدية : هناك عالم قراءآت ثان هو أبو عمر بن حسين المقرئ المعروف بابن النفوسي : وقد عاش حياته بالمهدية ولقد تلقى ابن خير (٣) العالم الأندلسي المشهور بعض تآليفه عنه في حدود عام ٤٣٢هـ .

بيد أن أشهر من انجبتهم مدينة المهدية من علماء علوم القرآن وخاصة القراءات ، هو أبو العباس أحمد بن عمار بن أبي العباس المهدوي (٤) (ت : بعد ٤٣٠هـ)(٥) وأبو العباس أحمد بن عمار المهدوي سمع في بلده إفريقّية

---

(١) نفسه ، ج٢ ، ص ٦ .

(٢) ابن الجزرى : نفسه ، ج١ ،ص ٥٦٠- ٥٦١ .

(٣) فهرست مارواه عن شيوخه ، ص ٢٤-٢٥ ، ٣٨- ٣٩ .

(٤) ترجمته موجوده بتوسع عند : ابن بشكوال : الصلة ، ص٨٦- ٨٧ - ابن الجزري : نفسه ، ج١ ، ص٩٢ - السيوطي : طبقات المفسرين ، ص٥١ - الداودي :نفسه ، ج١ ، ص٥٦- مخلوف ، نفسه ، ص١٠٨ - الكنوني : نفسه ، ص٦٧-٧٢ .

(٥) لم يحدد ابن بشكوال سنة وفاته ، في حين ذكر ابن الجزري أنه توفى بعد الثلاثين و أربعمائة نقلاً عن الذهبي أما السيوطي فقد قال بأنه توفى في حدود سنة ثلاث وأربعمائة. ولا شك أن هذا وهم من السيوطي، وسكت الداودي عن ذكر سنة وفاته في حين أشار مخلوف إلى أنه توفى =

من عدد من شيوخه القراءآت كأبي الحسن القابسي ، ومحمد بن سفيان الهواري وغيرهما (١) . ولا تذكر لنا المصادر التي ترجمت له أي معلومات إضافية أخرى عن ولادته ونشأته ، وكم قضى من الوقت في موطنه إفريقية ، قبل أن يغادرها إلى الأندلس في حدود عام ٤٣٠هـ ، على أن الشيء المؤكد هو أن أحمد بن عمار المهدوي إفريقي الأصل قلباً وقالباً . وأن أقصى مدة قضاها في الأندلس لم تزد عن ١٠ سنوات ، حيث ذكرت بعض المصادر أنه توفي عام ٤٤٠هـ هذا إذا طرحنا ماتردد من أقوال عن أنه توفي بعد ٤٣٠هـ وهو العام الذي دخل فيه الأندلس ، ولعل في هذا مايقلل من قيمة رأي الطاهر المعمروي الذي يعد أحمد بن عمار المهدوي أحد الذين أثَّرت فيهم البيئة الأندلسية .

ومهما يكن من أمر ، فإن أحمد بن عمار المهدوي بلغ مكانة مرموقة في بلده إفريقيَّة وفي الأندلس ، وقد ألف عدداً من المؤلفات في القراءآت والتفسير فمن كتبه في علم القراءآت كتاب الهداية إلى مذاهب القراء السبعة (٢) ، وكتاب شرح الهداية نفسه ، وكتاب الكفاية في شرح مقاري الهداية (٣) ثم كتاب الموضح في تعليل وجوه القراءآت (٤) .

= سنة ١٤٠هـ. أما الكنوني فقد ذكر أنه توفي سنة ٤٣٢هـ. من هنا رجحنا أن تكون وفاته بعد ٤٣٠هـ.

(١) ابن بشكوال: نفسه ، ص ٢٨٦– ابن الجزري : نفسه ، ص ٩٢ .

(٢) ابن الجزري : نفسه ، ج١ ، ص ٩٢ – الكنوني : نفسه ، ص ٦٧.

(٣) ابن خير : فهرست مارواه عن شيوخه ، ص ٣١، ٤٣، ٤٤ .

(٤) الكنوني : نفس المرجع السابق ، ص ٦٧– ٧٣ .

ومن علماء مدينة باغاية أو باغا بأقصى إفريقية ، أبو العباس أحمد ابن علي بن أحمد بن محمد بن عبدالله الربعي الباغائي المقرئ (١) (٣٤٥-٤٠١هـ) وعلي بن أحمد الباغائي عاش في بلده إفريقية مدة ثلاثين عاما ، ثم غادرها عام ٣٧٦هـ إلى الأندلس فظل بها إلى أن توفى (٤٠١هـ) كما ذكرنا . ولقد رحل في مدة بقائه في إفريقية إلى مصر حيث قابل هناك عالم القراءآت المشهور عبدالمنعم بن غليون . وقد أثنى عليه الداودي في كتابه ، فقال إنه (لا نظير له في حفظ القرآن : قرآءاته وإعرابه وأحكامه وناسخه ومنسوخه) (٢) .

ثالثاً : التفـــسير :

لم يكن حظ علم التفسير من الانتشار في عصر الزيريين كحظ علم القراءات الذي شهد ذلك الازدهار الذي عرضناه آنفا . ولكن مع ذلك فلم تخل الساحة من مفسرين كانت لهم مكانتهم سواءً في المذاكرة أو المدارسة - كما نظن - ، أوفي التأليف والتصنيف كما هو مؤكد .

ومهما يكن فإن أبا محمد عبدالله بن أبي زيد القيرواني ، أضاف إلى التفسير في هذا العصر أثراً علمياً تمثّل في كتابه : تفسير أوقات الصلوات (٣) ، وكذا الأمر عن أبي الحسن علي بن خلف المعافري القابسي

---

(١) له ترجمة عند الداودي : نفسه، ج١، ص٥٣- عادل نويهض : معجم أعلام الجزائر: ص٢٧-٢٨ .
(٢) طبقات المفسرين ، ج١ ، ص ٥٣ .
(٣) عياض : نفسه ، ج٢، ص ٤٩٤ .

الذي ألف كتابه : المنقذ في شُبه التأويل (١) .

على أن أشهر من ألَّف في التفسير في هذا العصر : مكى بن أبي طالب الذي ألَّف بضع مؤلفات مهمة قيِّمة منها مثل : كتاب الهداية إلى بلوغ النهاية في معاني القرآن وتفسيره وأنواع علومه ، ويقع في ٧٠ جزءا ، وكتاب المأثور عن مالك في أحكام القرآن وتفسيره في ١٠ أجزاء ، وكتاب الاختلاف في الذبيح من هو ؟ وكتاب تفسير مشكل المعاني والتفسير في ١٥ جزءاً وغير ذلك (٢) .

ومن علماء التفسير المتأخرين في القيروان ، أبو الحسن علي بن عبدالغني الحصري ، وقد كان شديد الاهتمام بتفسير يحيى بن (٣) سلام الذي أشرنا إليه سابقاً .

وفيما يتعلق بالتفسير والمفسرين في بقية مدن وأقاليم إفريقية ، فلم تشر المصادر إلاَّ إلى أبي العباس أحمد بن عمار المهدوي ، الذي ألف كتاباً مهماً في التفسير (٤) ، وكتاباً آخر يدعى التحصيل في مختصر التفصيل (٥) .

---

(١) عياض : نفسه ، ص ٦١٩ .

(٢) القفطي : نفسه ، ص ٣١٥ ، ٣١٦ ، ٣١٨ .

(٣) محمد المرزوقي والجيلاني بن الحاج يحيى : أبو الحسن الحصري القيرواني ص ٣٤ .

(٤) ابن الجزري : نفسه ، ج١ ، ص٩٢- الدوادي : نفسه ، ج١ ، ص٥٦- الكتوني : نفسه ، ص ٣٧ .

(٥) الكتوني : نفسه ، ص ١٩٩- ٢٠٤ .

ثالثاً : علـوم القـرآن الأخـرى :

كانت علوم القرآن الأخرى تحتل المرتبة الثالثة في تسلسل علوم القرآن جملة ، والمصنفات التي ألفّت فيها شحيحة لاتّوضح لنا المدى الذي بلغته هذه العلوم آنذاك .

وعلى أية حال فإن مالدينا من معلومات حول هذه العلوم لاتتعدى الإشارة إلى ماصنّفه ابن أبي زيد القيرواني و مكي بن أبي طالب من كتب نذكر منها : كتاب اختصر احكام القرآن في ٤ أجزاء ، وكتاب الايضاح لناسخ القرآن ومنسوخه ، في ٣ أجزاء (١) وغير ذلك .

ثم ماصنفه أحمد بن علي الربعي الباغائي من كتاب في أحكام القرآن على مذهب الإمام مالك بن أنس (٢) .

---

(١) عياض : نفسه ، ج٢ ، ص ٤٩٤ .

(٢) القفطي : نفسه ، ج٣ ، ص ٣١٥ – ٣١٧ .

مطابع جامعة أم القرى